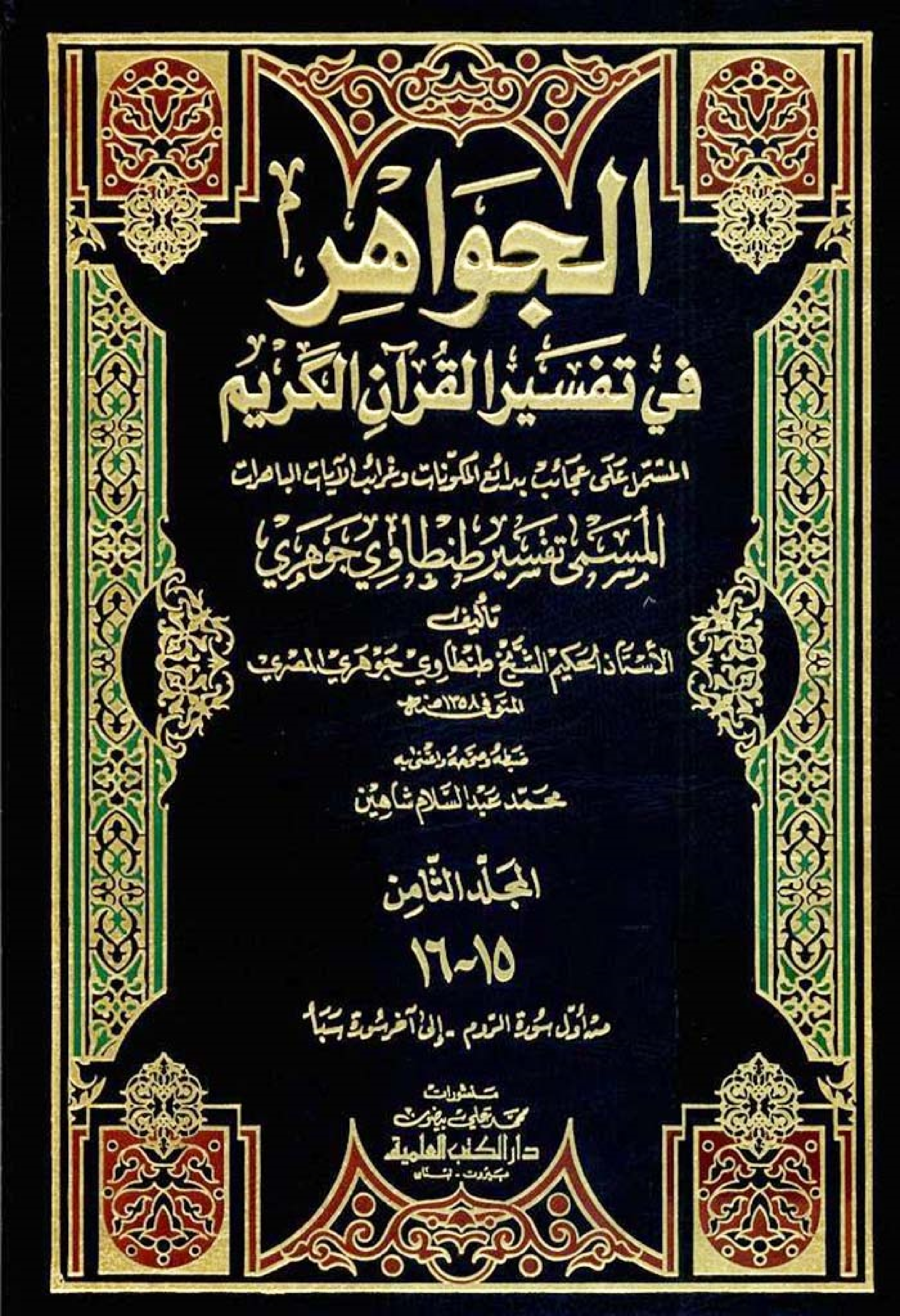

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثامن
١٥-١٦
من أول سورة الروم - إلى آخر سورة سبأ
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الجواهر في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء السادس عشر

المحتوى:

سورة الأحزاب وسورة سبأ

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]

قرآن كريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب
هي مدنية
وآياتها ثلاث وسبعون – نزلت بعد آل عمران
وهي ثلاثة أقسام

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في مقدمة السورة، وفي مناسبتها لما قبلها، وفي غزوة الأحزاب، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[الآية: ٢٧].

القسم الثالث: في أحكام أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما أشبه ذلك، من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾[الآية: ٢٨] إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

سأذكر هنا تفسيرها من وجهين: الوجه الأول بيان كيف كانت الرحمة فيها ملخص سورة «السجدة» السابقة على هذه لتوازن الرحمة فيها هناك بالرحمة في هذه السورة، وأن ذكرها في أول كل منهما لمناسبة الرحمة التي جاءت في أثناء آيات السورة، وما قدمناه في أول سورة «السجدة» في تفسير البسملة لم نذكر فيه بيان هذا المعنى، بل ذكرنا هناك أولاً الفرق بين صفة العبد وصفة الرب، وضربنا مثلاً بالبترول والشمس، وأبنّا الرحمة في الحقول والطيور والأنعام والأشجار في البر والبحر ومعاني أسماء الله الحسنى في نفس الحقول. وأن الإنسان يدهش من عجائب المادة، وأن الشرور كلها مقدمات للرحمات. وأن الشرور لم تكن إلا بالقصد الثاني لا الأول. وأن العداوات وامتلاء الجو بالمواد الفاسدة إنّما ذلك ليتفرق الناس على الأرض فتكون الحياة والسعادة، هذا هو الذي تقدم في تفسير البسملة في سورة «السجدة».

ولما تم الكلام على سورة «السجدة» وجب أن نبين كيف كانت الرحمة في البسملة مثيرة لما فيها من الرحمات والنعم، لذلك نقول: تقدم في تفسير البسملة في أول سورة «الروم» ما تبتهج به النفوس، وتنشرح له الصدور، وتطمئن له الألباب من الحكمة العجيبة والآيات البديعة، إذ استبان

هناك أن آلام الكسر والضرب وآلام الجرح والجوع وآلام سائر الأمراض إن هي إلا مذكرات ومنبهات لما يجب عمله من الدواء والغذاء. وأقول الآن: إن ذلك البيان هناك مناسب لاعتباره قتال الأمم في تلك السورة جراحاً وأمراضاً لها.

وتقدم في سورة «لقمان» في تفسير البسملة هناك أن للعقول آلاماً وأمراضاً كما للأجسام فكما أن الأجسام في ذوبان وسيلان مستمر هكذا العقول مضطربات اضطراب الأجسام، فالجسم والروح فرسا رهان في الذوبان والملاشاة والأغذية والأدوية للأجسام، والعلوم الكونية أغذية الروح وعلوم الأخلاق وتهذيب النفوس أدويتها، وهذا هو الذي جاء في سورة «لقمان»، أما في سورة «السجدة» المتقدمة فإني أقول ما يناسب ما جاء فيها من الرحمات.

ابتدأ سبحانه بذكر أن الكتاب لا ريب فيه، وبذكر خلق العوالم في أيام معدودات. ثم إنه أخذ يدبر تدبير الملك المستوي على عرشه لرعيته، العظيم الجلال فلا يعوزه نصير وليس لشفيع عنده مقام إلا بإذنه، واسع العلم وقد استوى عنده الباطن والظاهر والغائب والحاضر، بخلاف ملوك الأرض فهم لا يعلمون الغيب، وهو غالب قاهر عزيز الجانب. ذو رحمة واسعة، لم يدع في ملكه مخلوقاً إلا أحسن صورته وزوقه وجندره وسواه، ومن أعجب العجب أن هذا الإنسان البديع الصنع، الجميل الوجه، الواسع العقل، لم يكن إلا من طين، وذلك الطين عجن بماء وامتزج به الهواء والنور وعناصر كثيرة، وبإرسال أنوار الكواكب المشرقات وأهمها الشمس ودورانها حالاً بعد حال، سويت خلقته ونظمت أعضاؤه.

فالسماوات والأرض المذكورات في أول السورة ودوران الكواكب بتدبير من استوى على عرشها، ذلك كله مقدمات وأسباب جعلت لإبداع النظام وإظهار الحسن والجمال في صور الإنسان، ومن هذه الأجسام الإنسانية اتخذت خلاصة مائية بها كان النسل أجيالاً وأجيالاً، ومن أبدع ما في تلك الصورة الإنسانية الحواس التي جعلت في هذه الأجسام في مقابلة الكواكب في السماء، فالكواكب تشرق بنورها فتضيء السبل والحواس، بها يمتاز الظلام من النور والحلو من المر والطيب من الخبيث.

فتدبير الملك المستوي على عرش هذه الأكوان قضى أن يكون في جسم الإنسان نظير ما في الجسم العام. الجسم الكلي مشرق بالنور وبالأرواح العالية وهذا الجسم الحيواني والإنساني له مشرقات مبينات لما هو في حاجة إليه ومن أهمها الأسماع والأبصار.

ولا عجب في ذلك فإن الأصول تتبعها الفروع، فكما كان في الكواكب أنوار هكذا في أرضنا أنوار، إما من الأرض بالبترول والغاز، وإما من النبات كالزيت، وإما من الحيوان كالشمع والشحم، وإما من الكهرباء وهكذا.

فهذه أنوار جزئية تحاكي الأنوار الكلية المشرقة من الشمس. فهاهنا شابه الفرع وهي الأرض أصله وهي الشمس بعض المشابهة، وهكذا ما في الأرض من صناعة غالباً إلا وهي في حاجة إلى آلات مدورات كما تدور الأرض حول الشمس. الأرض تدور حول الشمس كما تدور الشموس، وتدور حول نفسها لتقتبس الأنوار منها ليحيا ما عليها؛ فهكذا نرى الإنسان يدير نواعير وسواقي وعجلات القطر الجاريات في الطرق الحديدية وعجلات أخرى في آلات الحرث والطحن والدرس والخياطة.

وهكذا جميع أحوال الحياة آلاتها كلها دائرات دوران الأرض حول نفسها، فالأرض تدور لأجل استمداد الحياة لما عليها، والآلات تدور لإكمال تلك الحياة بالصناعات المختلفات، إذن لا عجب إذا قلنا: إن في جسم الإنسان والحيوان حواس مشاكلة لما في السماء، ولكن المشاكلة هنا الحواس الملائكة. ومعنى هذا أن الأرض كما كان فيها أنوار كأنوار الشمس تضيء بالليل كالكهرباء هكذا فيها نفوس مدبرات، لها حواس مشاكلة لما في تلك العوالم الكوكبية من ملائكة مدبرات لها، وكل هذه المعاني تؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[السجدة: ٥]، فهناك شموس مدورات دائرات تديرها أرواح عالية أضواؤها منتشرة لإيجاد وإسعاد مخلوقات على أمثال أرضنا، هكذا هنا مصابيح كما تقدم، ونفوس بني آدم مدبرات وآلات مدورات لإحداث صنائع؛ فالتدبير الثاني يشبه التدبير الأول، فالتدبير إذن من السماء إلى الأرض.

ومن عرف الأنوار الكلية في السماوات والأنوار الجزئية في الأرض وفي جسم الإنسان فهو حري أن يشكر مبدعهما بالعلم والحكمة أولاً ثم بالعمل، بحيث يكون هو نفسه مشرق نور للناس نافعاً لهم، وإلا لكانت روحه أدنى مرتبة وأخس من حاسة من حواسه التي تبين له ما هي منوطة به من الفرق بين الحر والبرد والمر والحلو الخ.

ومما يدهش له اللب وتحار فيه العقول أن هذا النوع الإنساني قليل الشكر لجهله بهذه النعم وغفلته التامة عن هذا الإبداع، قد ظن هذا الجهول أننا خلقناه وخلقنا السماوات والأرض عبثاً بلا فائدة. كلا فالمقدمات لها نتائجها، فإذا أنكر البعث فذلك لضلاله، وسيقف هذا المسكين خاضعاً ذليلاً خاشعاً أمام خالقه وهو كليل الطرف حسير، وهناك يقول: هاأنا ذا أبصرت وسمعت فارجعني لأعمل صالحاً، ولكن ليعلم الناس أني وضعت كلاً في مركزه وجعلت له سبيلاً يسلكها وطريقاً يسير فيها، فالمؤمن نفسه استعدت للإيمان والكافر لا يخالف استعداده، وأنا عدل أضع كل امرئ فيما استعد له، ولو كان هذا ظلماً لكانت المعدة والأحشاء في الحيوان مظلومة بالنسبة للحواس. كلا. فلكل رتبة وخاصة بها انتظم العالم، وللمؤمنين علامات منها أنهم يحبونني ولذلك يودون أن تزاح الأستار بيني وبينهم، فلذلك يقومون بالليل ليناجوني وهناك أعطيهم في حال التهجد أنواراً وأسراراً وحباً لا يعرفه سواهم، وقد أخفيت لهم ما لا يعلمه أحد، بخلاف أصحاب النار، وهذا قانون عام في الأمم. ويقول: ألم تر إلى بني إسرائيل وقد كان منهم هداة صبروا فنالوا إذ أيقنوا.

فلما اطلع على هذا صاحبي قال: حسن ما لخصت به أكثر هذه السورة، ولكن أين أهم ما يدور البحث عليه فيها. قلت: ثلاث مسائل، تسوية خلق الإنسان وموته وبعثه، ولا جرم أن هذه الثلاث متلاحقات متصلات آخذ بعضها برقاب بعض. فلأحدثك عن التسوية أولاً ثم عن أخواتها.

الله أكبر، هاهو ذا جسمي مم ركب؟ أهمّ ما ركب منه الفحم والأكسوجين والهيدروجين والنيتروجين وهو الأوزوت، هذه الأربع أعمدة تقام عليها هياكل كل حيوان ونبات في الأرض، وما هو الفحم «الكربون»؟ إن هو إلا جسم إذا عرضناه للنار اتحد مع الأكسوجين فأصبحا جسماً غازياً يشبه الهواء في أنه غاز ولا يشبهه في طبعه، فهو جسم سامّ محرق، وأما الأكسوجين فهو جسم غازي يشبه الهواء من حيث هيئته ولا يشبهه من حيث طبعه، فادخل أي معمل من معامل الطبيعة في الشرق

والغرب وقل لهم أروني الأكسوجين، فحينئذ يرونك زجاجات فيها غاز كالهواء تماماً. فهناك إذا أوقدت شمعة وأدخلتها في زجاجة من تلك الزجاجات اتقدت حالاً وأضاءت ضوءاً مشرقاً، وإذا أدخلت هذه الشمعة المتقدة في قارورة لا شيء فيها سوى الهواء فإنها يقل ضوؤها لا أنه يزدهي كما هي الحال في زجاجة الأكسوجين، وأما الهيدروجين فهو شفاف كالأكسوجين ولكنه أخف منه بل أخف من جميع العناصر المعروفة، ومتى اتحد بالأكسجين تكوّن الماء، وأما النيتروجين فهو مثلهما معاً من حيث إنه غاز شفاف ولكن خواصه تخالفهما معاً. وإذا اتحد بالأكسوجين تكون من اتحادهما حوامض شديدة الفعل ومن أهمها «الحامض النتريك» أي ماء الفضة، أي الذي يذيب الفضة ويذيب أكثر المعادن ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية، هذا هو النيتروجين فهو باتحاده مع الأكسوجين يكون متلفاً مهلكاً، بخلاف الهيدروجين فإنه باتحاده مع الأكسوجين يعطي الحياة وذلك هو الماء.

الله أكبر سبحانك اللهم خلقتنا وعلمتنا من أجمل التعليم، فإذا سمعنا في الآثار أن لك ملكاً نصف جسمه من ثلج ونصفه من نار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج، فهاهي ذه أجسامنا معاشر أهل الأرض فيها عناصر منها ما يهلك ومنها ما يحيي وهي مجتمعات في جسمي، ولا جرم أن شرط الإحياء والأمانة موجود وهو الاتحاد، فهذه العناصر الأربعة متحدة في جسمي. فالأكسوجين متحد بالأيدروجين وبهما معاً كان الماء في جسمي، والنيتروجين متحد بالأكسوجين وبهما معاً ماء الفضة، وهذا هو الكنز الذي كشفه الألمان أيام الحرب العظمى، فإنهم استعملوا هذا المركب وهو «حامض النيتريك» في المفرقعات والمهلكات في الحرب ثم حولوا ذلك كله بعد الحرب إلى سماد.

عجباً يا رب، جسمي فيه ما به الحياة وهو الماء من أكسوجين وأودروجين، وجسمي فيه ما به الموت وهو الأكسوجين المتحد مع النيتروجين فكان منهما ماء الفضة وهو «حامض النيتريك» ذلك المهلك المميت مخرب الحصون والقلاع، ثم إنه يحول إلى سماد فيكون مصلحاً للزرع جالباً للرزق.

وهاك ملخص تلك المركبات:

(١) الأكسوجين مع الهيدروجين يكون منهما الماء.

(٢) الأكسوجين مع النيتروجين يكون منهما ماء الفضة.

(٣) الأكسوجين مع الفحم يكون منهما غاز سام.

(٤) الهيدروجين بالكربون يتكون منهما غاز قابل للاشتعال.

فليس في هذه المتحدات ما فيه حياة إلا حال واحدة وهي اتحاد الأكسوجين بالأودروجين والبقية مهلكة سامة محرقة، فلما اجتمعت الأربعة حدث منها أمر عجب. حدثت حياة دائمة بالتناسل والنظام المدهش، فيا عجباً تسوية وانتظام وإبداع منظر وحسن اتساق نشأ كله من مواد سامة مهلكة.

إذن الحياة مشتقة مما به الموت. فيا للعجب غازات سامة تتحد وتتكاثف فتصير أشكالاً منظمة فيها عقول منظمة لهذا العالم، هذه تسوية الإنسان وهذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، وأنا أيها الذكي بعد هذا البيان لم أعطك سراً ما من أسرار التكوين، لأن ذلك السر لم أطلع عليه، ولو اطلعت عليه لمنعت من إفشائه لك لأنه فوق متناول العقول. فما علاقة الروح الحية المشرقة النور المنبعثة من جانب ذي الجلال القدسي بهذه المواد السامة؟ وأي شيء هو غاز الأكسوجين

والأدروجين والآزوت والفحم حتى تطمئن النفس فيها وتسكن. سبحان من علمنا وأطلعنا على عجائب أجسامنا، أنا أكتب هذه الساعة وأنا أعجب من جسمي المجموع من أجسام هوائية غازية لا تستقر على حال مهلكة.

فيا أيتها الروح الساكنة في جسمي هاأنا ذا أخاطبك وأنا القائل وأنا السامع لأن لي لساناً ولي أذنين، فأنا القائل باللسان وأنا السامع بالأذن. فأقول لك: أنت لست من هذا العالم إنه عالم مضطرب، قد استقررت في هذا الجسم المضطربة الملتهبة أجزاؤه، وهل هو إلا تلك العناصر المفرقعة المهلكة جندرتها ونظمتها يد قاهرة غالبة إلى حين ترجع هذه العناصر إلى حالها مع جنسها، ثم إنك أنت ترجعين إلى عالمك تستقرين هناك، فسمعك وبصرك اللذان جعلا لك ما هما إلا بصيص نور من نورك قد أضاء لك في الأرض، وتمام نورك يكون بعد الموت، ألم تسمعي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[السجدة: ٩] الخ، وقوله حكاية عن الأرواح في تلك الحال إذ تقول: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ١٢]، إذن سمعك وبصرك الآن ليسا كسمعك وبصرك هناك، فالسمع والبصر هناك يورثان اليقين لأن السمع أتم والبصر أتم لانتزاعهما من هذه العناصر المتشاكسة المتحاربة المهلكة.

هذه يا روحي أسرار ما تحسين فيك من لذة وألم. والألم واللذة إحساسان ناريان. تألمين بالجوع وبالعطش وبإيذاء الأعداء وبالأمراض، وتستلذين بالغذاء والماء والنصر المبين، وما اللذة والألم إلا لغتان من اللغات التي أنزلت في هذه الأجسام ولها نطق وإفصاح أصرح وأبين من إفصاح اللسان، اجتمعت هذه العناصر في جسمي وأسكنت فيها فأخذت هذه العناصر تنطق لك بنطق فصيح بعد أن كانت بكماء خرساء وهي ملقاة في الأرض. فقالت لك تارة: احذري البرد، وتارة أخرى: احذري الحرّ، فإحساسك بالبرد نطق أفصح من نطق اللسان وإحساسك بالحر كذلك، وهكذا ذوقك الطعام والشراب واستلذاذك بهما إفصاح وتبيان لك.

فبهذا استبان أن كل ذلك رحمات لأنها بيان وكلام، فاللذة كلام والألم كلام وجميع النقم والنعم والموت والحياة كلها كلمات مفصحات مبينات مذكرات. وأي رحمة أجلّ من الذكرى والبيان إن حياتنا كلها رحمة استوى فيها الألم واللذة، وموتنا رحمة لإخراجنا من هذه المواد المضطربة، هذا هو بعض سر التسمية في أول هذه السورة، فهذه العوالم في جسمك وفي خارجه ناطقات اليوم مفصحات مبينات، ألم تقرئي: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[فصلت: ٢١]، هذا نوع من النطق، نطق جاء من الكائنات بلا حرف ولا صوت ونحن نسمعه لا من طريق الأذن بل نسمعه من سائر أجسامنا.

اللهم إنك علمتنا وأريتنا نطق المخلوقات، وأفهمتنا نزراً يسيراً من كتابك، وفهمنا ذلك الكلام الصحيح الذي أودعته في أجسامنا وفي الطبيعة، وأدركنا بعض سر ما نطقت به الجلود والأيدي والأرجل، إذ يقال للجلود: ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[فصلت: ٢١].
فهاهي ذه الأشياء تنطق للبارّ والفاجر منا وكل يسمع ذلك النطق ولكن لا يعقله إلا الأقلون. وهذا سر قولك: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الأعراف: ١٠].

لا يحيط بما تنطق به هذه العناصر إلا أرواح أرقى من أرواحنا القاصرة لأنها أرواح جزئية فلذلك احتجنا لمن يذكروننا من الأنبياء ولمن يعلموننا من الحكماء ولمن يداوون أجسامنا من الأطباء وهكذا فتختص كل طائفة بعمل عسى أن يقربوا من الكمال وما هم ببالغيه في هذه الأرض، فكان لا بد عندنا من كل علم ولا بد من طوائف تخصص لها، كما أنه لا بد بعد الموت من نفوس أعلى منا تقرأ نفوسنا وأخلاقنا وتعاملنا على مقتضى ذلك في تلك الدار بأمر خالقها وعلمها بسبب ضعفنا عن الاستيعاب لأننا محبوسون في أقفاص نارية سمية منعتنا عن تمام الحرية والاستقلال، ومنا في هذه الأرض من اختصوا بدرس الجلود والأيدي فعرفوا مسامهما وخطوطهما فشهدت على المجرمين في هذه الحياة الدنيا كما تقدم في هذا التفسير. وهذا أمر شائع في جميع حكومات العالم ومنها حكومتنا المصرية. شهدت جلودنا في حياتنا الدنيا، وشهدت خطوط أيدينا وذلك من التسوية العجيبة. أليس أمر هذا القرآن عجباً؟ يذكر التسوية في خلق الإنسان ويذكرها في سورة «القيامة» في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة: ٤]، ويقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان في هذه السنين فيسأل: لم أسلمت أيها العالم؟ فيجيب قائلاً: قرأت في القرآن المنزل على ذلك النبي العربي الأمي، ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة: ٤]، وقد أصبحت جميع الحكومات لا يستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامه، ولم يجد الناس رجلين في الكرة الأرضية تتشابه أناملهما في مسامها ونظامها، فلم اختص البنان بالذكر وعلم البنان، لم يكن ليعرفه الناس إذ ذاك ولم تدركه الحكومات السابقة، بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبي الأمي، فهذا القول إنّما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التي في الأرض فلذلك آمنت به وصدقت. انتهى كلامه.

وهذا الإفصاح والبيان من العناصر في أجسامنا يدخل فيه جميع خواص العقاقير في الأدوية ونواميس الوجود، فإذا خرجنا من هذه المادة أشرقت عقولنا وظهرت لها الحقائق على ما هي عليه كل على قدر طاقته الفاجر والصالح، وهذا قوله: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ١٢]، أي: أما في الحياة فإننا كنا محجوبين ولم ندرك سر الوجود، ولذلك يقال هناك أيضاً: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢]، ويقال: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤].

هذه شذرة من قصة هذا الإنسان ومبدأ خلقته وأحواله وموته وبعثه، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الأربعاء ٦ من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٩ ميلادية. انتهى الكلام على البسملة مع تلخيص سورة «السجدة».

فلننظر في الكلام الآن على تفسير البسملة في أول «الأحزاب» للموازنة بين السورتين من حيث الرحمة التي تضمنتها البسملة وتخللت آيات السورة.

لقد تكررت البسملة في أول كل السور ودرج المسلمون قديماً وحديثاً على التسمية في طعامهم وشرابهم ثلاثمائة وألف سنة، فترى جهلاءهم وعلماءهم كبارهم وصغارهم لا يعملون عملاً إلا بالتسمية، سنة محمدية وشريعة إسلامية طلباً لثواب الله وتقرباً إليه وزلفى لديه، فتلك سنة من خير السنن، وخصلة من أجل الخصال.

لقد تقدم الكلام على البسملة في « الفاتحة » وفي غيرها من السور مثل « الروم » و« لقمان » و« السجدة » ولكن بقي لها بقية لا بد من تداركها . وحكمة يجب إظهارها ، ونعمة حق علي إبداؤها لهذه الأمة المسكينة المضطهدة لفشو الجهالة وظهور الخطل في آراء عامتها ، والغفلة في نظام دراستها ، والنوم على التقليد الأعمى ، وتفيؤ ظل الكسل والجهل المبين الذي هو من يحموم لا بارد ولا كريم .

أبت النبوة المحمدية الشريفة أن تذرنا نتخبط في ديجور الظلام ، فعلمتنا أن الأعمال لا تصح إلا بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ، وما هي النية؟ هي ربيبة العلم ووليدة الفهم ، فمن تعلم فهم ومن فهم أحب ، ومن أحب الكمال ومحاسن الفضائل شاقته ، ومن اشتاق هم بالعمل ونواه ، وهناك تكون الأعمال على مقتضى تلك النيات والمعارف السابقات ، فليس في مجرد التسمية بلا علم بمواطن الرحمات ومحاسن الجمال في المخلوقات وبهجة العوالم الربانية والآيات الحكمية والإبداع وحسن التصوير والتنسيق ، منتهى مقاصد النبوة ولا مبلغ ما تريده من العلماء العاملين . لئن اكتفينا من العامي في صلاته وصيامه ومأكله ومشربه بالتسمية والحمدلة اللفظيين لنقولن لعلماء الأمة وعقلائها ونابغيها ليكن الدرس وأعمال الفكر ومعرفة الجمال في هذه العوالم حتى توقنوا بالرحمات إيقاناً علمياً تفصيلياً كالذي في هذا التفسير .

علم الله أن المسلمين سينامون نحو ألف سنة عن التفكر في مخلوقاته وينسون جميل صنعه فأنزل البسملة في أول كل سورة وكررها مائة وأربع عشرة مرة في القرآن ، ويكررها المسلمون في صلاتهم ، فقرأناها تعبداً وقلنا كفى . لا تقوم الأمم بمجرد الكلمات ، وإنما قيامها بما تضمنته من المعاني وما حوته من حكمة ومعنى جميل . لما وقف أكثر المتقدمين من العامة وصغار العلماء على القشور وجمدوا على الألفاظ جموداً معيباً نسي أكثر الناس في العصور المتأخرة روح معنى التسمية ، واكتفى الخطباء على المنابر والوعاظ في المساجد بذكر نعيم الجنة وعذاب جهنم ، حتى استقر لدى كثير منهم أن ربنا تجب العبادة له خوفاً من ناره وخشية من سطوته فحسب ، لا حباً فيه ولا ابتهاجاً برحماته الواسعة فأصبح المسلم إذ ذاك ما بين حاكم يسطو عليه لإخافته مثل ما حصل بمصر أيام المماليك البرية والبحرية وغيرهم من أبنائهم الذين فتكوا بأبناء البلاد أيام حكم الترك إلى أن أبادهم محمد علي باشا ، وما بين خطيب لا يجد سبيلاً للوعظ غير جهنم في الآخرة بحيث لا يرى ما أمامه من الرحمات ولا ما حوله من النعم التي أسبغها الله على الإنسان والحيوان ، وما بين المعلم والمؤدب الذي يضربه بالعصا أيام التعليم . يا سبحان الله إن الأمة أيام تقهقرها يكون أسلوبها في الدين وفي الحكومة وفي نظام التعليم على وتيرة واحدة ، فلقصور الحكومات عن تمام النظام لا تجد لها مناصاً من الاضطهاد ، ولجهل المعلم لا يعرف غير العصا ، ولسوء الملكة وقلة العلم يقتصر الوعاظ في أكثر أقوالهم على التحذير من عذاب جهنم وبئس القرار .

علم الله ذلك لأنه قدره قبل أن يخلق العالم ، فأنزل البسملة في أول كل سورة وعممها بالسنة الشريفة المحمدية ليقول لنا اليوم :

أيها المسلمون . لئن كنت أنا ذا رحمة وغضب في الآخرة بالجنة والنار لقد أسبغت النعم عليكم في الدنيا ظاهراً وباطناً ، وأحطتكم فيها بالمنذرات والمخاوف ، والآخرة في نعيمها وجحيمها نتيجة

حياتكم هذه، فمن غفل عن رحمتي الواسعة في الدنيا وجهل ما أحطته به من الجمال والنعم فإني عدل حكيم أذله في الدنيا جزاء وفاقاً، وليس هذا الإذلال للانتقام. كلا. وإنما هو نتائج. ألم تقرؤوا ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾[هود: ٣]، فكيف أهب رحمتي لمن لم يكن أهلاً لها. بل كيف أسبغ نعمتي على من لم يطلبها؟ ولا طلب إلا بنية، ولا نية إلا بالعلم، فالعلم بالمخلوقات حولكم يجعلكم لها عاشقين، والعشق تتبعه نية التحصيل والنية يتبعها العمل.

هذا سر من أسرار تكرار البسملة في أول كل سورة، إنه ليخيل إليّ الآن أن عقلاً كبيراً من العقول العظيمة في البرزخ اطلع على هذه الأمة الإسلامية فقال: عجباً أليس في هؤلاء رجل رشيد، كرر الله البسملة وكررها عامتهم وخاصتهم، ألم يتفكر منهم رجل في حكمة هذا التكرار، أليس التكرار لعظم المقدار والحاجة إلى هذا المكرر، تكرار القرآن ليس كتكرار كلام البشر. فأين الباحثون عن حكمته؟ هنا كررت آية: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الآية: ١٥] في سورة «المرسلات». ذلك لأن جرم التكذيب عظيم. وكررت آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الآية: ١٣] في سورة «الرحمن» لأن أمر النعم عظيم وهو كتكرار البسملة في أول السور. تهويل العقاب على التكذيب ناسبه تكرار الآية المتقدمة، وجمال النعم والرحمات عظمت العناية بها في سورة «الرحمن» وغيرها، فتكررت آية الآلاء وجعلت البسملة في أول كل سورة من القرآن.

رتب الإمام الشافعي رضي الله عنه أعضاء الوضوء كما رتبت في الآية وهذه دقة في الملاحظة واستمساك بالدين، فهل في خطة الإنصاف ومهيع العدل ونور العقل أن يحرص أوائلنا هذا الحرص على آي التنزيل؟ حتى إنهم يوجبون فرائض لأمر معنوي وهو التقديم والتأخير.

ثم إننا نحن المتأخرين نرى آلاء الله قد عمت الكرة الأرضية ونسمع البسملة وآية الآلاء تكرر كثيراً ثم لا نفكر في الحكمة ولا نقول لماذا هذا التكرار؟ ولم يقف مسلم عالم من أهل الإسلام يوماً ويقول تقديم وتأخير في آية الوضوء أنتج وجوباً شرعياً، وتقديم وتأخير في آية ذكر الله فيها المهاجرين والأنصار احتج بها أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة وقال: «أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء» الخ، وبنى على ذلك أمراً واقعاً وهو خلافة الخلفاء الأربعة والأمويين والعباسيين وبني الحسن والحسين وغيرهم من آل البيت وبقية قريش. كل ذلك لتقديم وتأخير. يحصل هذا كله أيام آبائنا الأولين. ثم إننا اليوم نسمع البسملة تذكر فيها الرحمة مكررة مرتين، وفيها كلمة الرحمن التي لا تطلق إلا على الله. ونسمع آية سورة «الرحمن» المكررة.

ومن عجب أن آية الآلاء المكررة عشرات المرات لم تكن إلا من السورة المعنوية باسم «الرحمن» والرحمن مذكور في البسملة. إذن هذه النعم المذكورة في سورة «الرحمن» إيضاح لمعنى البسملة، كأن الله يقول: البسملة المكررة في غدوكم ورواحكم تفسيرها يكون بنعمي، وابتدأها بأعظم نعمة وهي:

(١) تعليم القرآن، فأعظم نعمة إذن هو العلم.

(٢) ثم خلق الإنسان والشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والفاكهة والنخل والحبّ والمشارق والمغارب والبحار واللؤلؤ والمرجان والفلك في البحر.

يا عجباً. أيها المسلمون. أليست هذه النعم في سورة « الرحمن »؟ والرحمن اسم من أسماء ثلاثة في البسملة؟ فوا أسفاه على أمة ضاعت ودول هلكت ونعم ذهبت. الرحمة التي في البسملة فصلت في سورة « الرحمن »، ولقد ابتدأها الله بنعم الدنيا ثم أتبع ذلك بنعم الآخرة، وتخلّل ذلك التخويف بالعذاب في آيات قليلة، ليدلنا أولا أن نبتدئ بتعليم الناس هذه النعم الدنيوية مثل ما في هذا التفسير.

أقول أنا بأعلى صوتي: أيها المسلمون يجب وجوباً لا شبهة فيه أن أول تعليم المملم من الآن يكون في كتب يذكر فيها جمال هذه العلوم، بحيث يلذ الطالب منظرها وجماله من شجر وحجر وكوكب ونهر. هذا واجب في الكتب وفي الحقول وعلى شطوط الأنهار، كما أنزل الله في سورة « الرحمن »، ففي سورة « الرحمن » ذكر الله نعم السماوات والأرض والبحار، وليس معنى هذا أن نكتفي بمعاني هذه الآيات. كلا. وإنّما القصد أن ندرس علوم السماوات والأرض بهيئة جميلة لاسيما لأطفالنا الصغار، لا أننا نقول لهم: أيها الأطفال المساكين احفظوا سورة « الرحمن » ونحوها فحسب بل نريهم صور ما ذرأ الله من الجمال والبهاء والأزهار والأنهار، ونفهمهم ذلك بعبارة رشيقة جميلة ثم نتبع ذلك بذكر الآية، وإذن نكون أدينا ما وجب علينا. الله أكبر. أفليس تكرار البسملة في أول السور وتكرار آية الآلاء في سورة « الرحمن » وسرد نعم الدنيا أولاً ثم نعم الآخرة في نفس السورة التي ابتدأت بالرحمن ثانياً، أقول أليس ذلك كله يوجب علينا أن نفعل ما تقدم في تعليم الناشئين ويكون ذلك الوجوب ألزم وألزم بحسب الدليل وبحسب النتيجة من وجوب ترتيب أعضاء الوضوء ومن وجوب كون الأمراء من قريش اللذين استنتجا من مجرد التقديم والتأخير، وإذا وجب ذلك اليوم بهذا الدليل فليس لنا فضل في استنتاجه لأنه آيات واضحات لا يعوزها إعمال فكر في آيات سورة « الرحمن » مسندات إلى ذلك الاسم الذي في البسملة يكرره المسلم صباحاً ومساء في غدوه ورواحه. فأما أبو بكر رضي الله عنه والشافعي فقد أتيا بما يدق عن الأفهام لعظم منحة الله لهما، والله ذو الفضل العظيم.

اللهم إنك أنت الذي صرفت عقول الأمم الإسلامية المتأخرة المتفرقة في الأرض بعد القرون الثلاثة التي هي خير القرون عن الخطة المثلى في التعليم التي يقتضيها القرآن لأنك عدل، فإنك أبحت الغنائم لهم ليصرفوها في منافع أهل الأرض، وحاد الخلف عن طريق السلف الصالح فلم يفعلوا ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي من التجافي عن المال والزهد فيه وصرفه في مصارفه الحقة، وهي إسعاد أهل الأرض وعمارتها لأنهم خلفاؤه فيها. وعكف الذين سموا أنفسهم خلفاء بعد تلك القرون وكذلك الأمراء التابعون لهم على الخمر والفسوق، وأشاعوا ذلك وأذاعوه في أواخر دولهم في الشرق وفي بلاد الأندلس في الغرب. لذلك صرفت عقول العلماء عن هذه المباحث العالية غالباً لأن الأمم التي تقرأ العلوم الأرضية والسماوية تفتح لها أبواب الرحمات على مقدار ما يتعلمون ويعلمون، فأعطيتهم نعماً علمية وعملية على مقدار أخلاقهم ولم تفتح الباب على مصراعيه لئلا يستبدوا بعبادك، فانطبق على كثير من متأخريهم آية ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩]، وتمادوا في ذلك حتى أحرق علي بن تاشفين من المرابطين

كتب الغزالي ، وآذى المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحدين ببلاد المغرب ابن رشد . ذلك الذي نادى بأعلى صوته بين المسلمين يقول : أيها المسلمون ، علم التوحيد على هذا النمط ضار بكم أجمعين ، لماذا حدتم عن طريق القرآن الذي وصف هذه الأفلاك والأشجار . وما هذه الطرق العقيمة في التوحيد ، وهل من جادة الصواب أن يكون التعريف أخفى من المعرّف؟ والله يدركه العامي بغريزته ، وهذا التوحيد الممزوج بالفلسفة الصعبة يشكك المسلم في دينه . ثم أخذ ينشر آيات من القرآن من سورة « النبأ » ليدلهم عن طريق التوحيد الحق . وقد نقلت ذلك بالتطويل في كتابي « نظام العالم والأمم » فاقرأه هناك .

فهذا العالم المخلص للأمة الإسلامية هو وأمثاله اضطهدهم المسلمون ، فلما مات بعد أن أخرج من محبسه بسنة طلق المسلمون علوم الحكمة وصاروا غالباً صوفية ذوي وجدان منذ سبعة قرون . ذلك أن تلاميذ ذلك العالم حملوا علمه إلى أوروبا كما أوضحته في غير هذا المقام من هذا التفسير ، حتى إننا نحن الآن قد حرمنا من أكثر كتبه ، فإننا وإن عثرنا على خمسة كتب مطبوعة بالعربية مثل « التهافت » و« فصل المقال » و« الكشف عن مناهج الأدلة » والقسم الرابع من كتاب « ما وراء الطبيعة » و« بداية المجتهد » فإنا حرمنا من كتبه التي باللاتينية أو العبرية وهي (٢٨) كتاباً كلها في الحكمة ، ذكرها الأستاذ « لطفي جمعة » المحامي في كتابه « تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب » لا نطيل بذكرها . انتشرت كتبه في أوروبا إذ ذلك وأخذ القوم يدرسونها ثم انتقلوا من هذه الكتب إلى أصولها وهي باللغة اليونانية ، ثم ارتقوا بعد ذلك فأخذوا يفكرون بعقولهم ويستنتجون من نفس الطبيعة . الله أكبر . هذا مقصود القرآن وهذا معنى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

ترك متأخرو المسلمين النظر في جمال الله ولم يسمعوا نصح حكمائهم ، فهربت الحكمة إلى أوروبا فعقلوها وفهموها وانتقلوا إلى أصولها في اليونان ثم إلى الأصل الحقيقي وهو هذا العالم الذي خلقه الله ، فرتبوا تعاليمهم على مقتضاه ودرسوا لصبيانهم في مدارسهم على مناهج هي بعينها التي ذكرها الله في سورة « الرحمن » وهي الآلاء ، أي آلاء الله في الأرض والسماء من شجر ونبات ونهر وحجر ونجم .

فهذا هو الذي يدرسه الأمريكي والإنجليزي والألماني والمجري واليوناني والصيني الآن . لماذا هذا كله؟ لأنهم فكروا في الدنيا ، ولماذا؟ لأنهم اطلعوا على أصول فلسفة اليونان التي بنى عليها فلسفته ابن رشد ، التي استثيرت من مكامنها بسبب ظهور خاتم الأنبياء الذي أرسل رحمة للعالمين . يا عجباً نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] فهو رحمة لأنه علمنا ، وتعليمه أثار فلسفة أهل الأرض ، وامتدت الحركة العلمية إلى وقتنا الحاضر فقرأنا كتب أوروبا فوجدنا تعليمهم على مقتضى سورة « الرحمن » ، فاقرأ أيها الذكي كتبهم تجدها كسورة « الرحمن » التي هي في الحقيقة كيان لاسم الله الرحمن التي يتبرك بها المسلم كل صباح وكل مساء . فهو صلى الله عليه وسلم رحمة من الله الرحمن الذي علم القرآن ، وشرح في نفس هذه السورة عجائب السماوات والأرض .

إني أنا وأنا أكتب هذا القول في غاية العجب ، فوالله لم تكن هذه الموافقات وعجائب الحكمة

القرآنية لتخطر لي عندما أمسكت بالقلم، ولكن الله عز وجل هو الملهم المتفضل. بأمثال هذا عرفت أن في القرآن من السر ما لم تحلم به الآن ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

ومن ألطف ما في القرآن والعبادات أن « الفاتحة » مبتدأة بالثناء على الله وذكر رحمته، وهو كابتداء سورة « الرحمن » والرحمات المفصلة فيها، وتجد المسلم في التشهد يصلي على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى إبراهيم ليكون ذلك أولاً مزرعة للثواب الراجع للعبد من طريق العبادة للخاصة والعوام، وتذكرة عند العلماء باتجاه إبراهيم للذي فطر السماوات والأرض بعد نظره في الكواكب، فهو على منهج سورة « الفاتحة » نظر أولاً وعبادة آخراً، وبهذا كسر الأصنام وهذه الملة ملة إبراهيم، ولذلك درج على طريقه نبينا صلى الله عليه وسلم فكسر الأصنام.

فهذا تذكرة بأمرين: الابتداء بمحاسن الطبيعة كالخليل، ونبذ العادات الجامدة والارتقاء بالعقل كالخليل ومحمد صلى الله عليه وسلم.

تلخيص ما تقدم

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في التفسير، فقال: لقد أجدت فيما شرحت هنا فإنك قد أبنت أن النظام عند متأخري المسلمين كان استبدادياً غالباً. فظلم من حكامهم وجهل من خطبائهم وغباوة من صغار المعلمين، يضربون صغارهم بالعصي، وأن هؤلاء لم يفتح لكثير منهم باب الرحمة على مصراعيه، لأنهم حادوا عن طريق آبائهم، لأنهم جعلوا أن حكم الأمم لشهوات أنفسهم، وأنهم تمادوا في الجهل حتى أذلوا حكماءهم. وأن ابن رشد أفاد كيف يتعلم الأطفال في مدارسهم، وأن تعليمه على نمط القرآن، وأن علمه انتقل إلى أوروبا، ولما قرؤوه فهموا وقرؤوا أصله باليونانية ثم فكروا بأنفسهم.

وهاهي ذه تعاليمهم الآن أصبحت هي نفس ما طلبه « ابن رشد » من المسلمين بقراءة هذه العوالم المحيطة بأهل الأرض، وهي هي نفس ما جاء في سور كثيرة ومنها سورة « الرحمن »، والله تعالى جعل النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وهذه هي الرحمة العامة إذ تتعلم أوروبا الآن وأمريكا واليابان بالطريقة الحديثة بسبب ابن رشد وغيره من المسلمين، الذين لولاهم لم يرجع هؤلاء القوم إلى كتب اليونان ولا إلى العقل الإنساني والاجتهاد الفردي، وهذه من أجل المعجزات في زماننا. وكل هذا تقتضيه البسملة، ولماذا تكررت في سور القرآن وما فعلوه موافق لما فهمته أنت الآن من وجوب ابتداء التعليم شرعاً في الإسلام في كتب جميلة فيها صور العوالم السماوية والأرضية، تبياناً لمعنى سورة « الرحمن » وسورة « النبأ » وغيرهما، وهذه الكتب تكون فيها مواضيع مختلفة يفرح بها الشبان ثم يخرجهم الأساتذة فينظرون نفس هذه المناظر بأنفسهم في الخلوات وشطوط الأنهار والحقول، هذا يؤخذ من كلامك، ولقد جعلت لك في ذلك إمامين: أبا بكر الصديق رضي الله عنه والشافعي، بما استنتجا من تقديم وتأخير مسألتين: سياسية وعملية، وأفدت أن دليلك أنت لا يعوزه طول تفكير لوضوحه. أما دليلاهما ففيهما دقة لا يعرفها إلا من على شاكلتهما.

أقول: والله إن هذا كله حسن ونعمة عظمى، لأن المسلمين اليوم هم الأمة الوحيدة في العالم التي تباعدت عن طريق كتاب الله تعالى في أساليب التعاليم، وأنا أقول: والله ما من عالم أو أمير أو

عاقل في أمة الإسلام يقرأ هذا إلا وهو يسارع حالاً إلى هذا النظام، لأن هذا القول حجته قائمة ونتائجه واضحة، ولكني أسألك سؤالين: الأول: أنك قلت إن الفرنجة لما قرؤوا فلسفة « ابن رشد » رجعوا إلى أصلها باليونانية، والرجوع لليونانية جعلهم ينظرون بعقولهم. فهل الرجوع لمثل هذه الأحوال لا بد منه. الثاني: أنك قلت إن كتب الفرنجة في تعليم أطفالهم جميلة ترجع إلى سور القرآن بوجه عام وإلى سورة « الرحمن » بوجه خاص، وهي مبتدأة بالرحمة المذكورة في البسملة التي كلامك الآن فيها، وأن من قرؤوا على هذا النمط يفتح الله لهم أبواب رحمته في الدنيا على مقتضى ما وصلوا إليه، فأريد أن تذكر نموذجاً من كتبهم، نعم إن المقام طال ولكن المقام يحتاج إيضاحه إلى إجابة هذين السؤالين. فقلت: أما رجوع الفرنجة إلى الفلسفة اليونانية فهو واجب على كل من قرؤوا الفلسفة العربية، فقال: ولماذا؟ قلت: لأن كتبهم كثيرة وعلماءهم أكثر، والترجمة يدخلها التحريف بل التخريف، فلذلك وجب الرجوع إلى أصل اليونانية على من درس الفلسفة بالعربية متى أمكن ذلك في ذلك الزمان، فقال: هل تذكر مثالاً واحداً مما جاء في العربية ضاراً بالعقول مع أنه باليونانية كان نافعاً. فقلت: أظن أن هذا يخرجنا عن الموضوع. فقال: ولكن هو حسن ومفيد الآن. فقلت: أنت تعلم أن الفلسفة التي نقلت إلى العربية من اليونانية قد جاء فيها إن العالم قديم. فقال: هذه محور فلسفتهم. فقلت: هذا من مخزيات الدهر، فقال: وكيف ذلك. قلت: ألم تقرأ ما ذكرته سابقاً عن طيماوس الحكيم مع سقراط؟ فإنه برهن على أن العالم حادث مع أن الرجل قبل الميلاد بخمسمائة سنة، ولو أن هذا القول نقل إلى اللغة العربية لم يكن هذا الخلط في علم التوحيد والجدال، ولم نسمع أبا العلاء يقول وهو لا يعلم برهان طيماوس ما معناه:

قالوا إله بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فقال: إي والله هذان البيتان أسمعهما من جميع الشبان في الأندية ومحال شرب القهوة والخمور والمطاعم الفرنجية في مصر، والشاب منهم معجب بملابسه ومآكله الفرنجية وفسوقه وخمره، فهو فرح طرب أنه عثر على كنز ثمين، وهو أن الديانات كلها خاطئة بسبب هذين البيتين.

فقلت: ولكن هذا القول الذي قاله علماء التوحيد هو نفسه الذي قاله طيماوس فيما تقدم، وقد رأيناه نحن في كلام الفرنجة الذين اطلعوا على الفلسفة اليونانية. ألم تر إلى طيماوس فيما تقدم كيف يقول: إن العالم حادث. والله لم يكن في زمان ولا في مكان لأن الزمان ما هو إلا بحركات الفلك، فإن الليل والنهار نعرفهما بالشمس، ولا شمس ولا قمر قبل خلق الأفلاك، وهكذا لا مكان لأن المكان ما هو إلا سماوات وأرضون، ولا سماوات هناك ولا أرضين. وهذه المسألة أصبحت اليوم معروفة لأن علماء العصر الحاضر كلهم أجمعوا على أن هذه العوالم كلها كانت غازاً منتشراً ثم صارت سماوات وأرضين. فرأي طيماوس هو رأي علماء العصر الحاضر، إذن كون الله لا يحكم عليه زمان وليس في مكان قضية واضحة ظاهرة، لأنه لم يكن زمان قبل هذه الأفلاك ولا مكان.

إذن هذان البيتان اللذان جعلا للتهكم والسخرية خاطئان خياليان، والعقل هو الذي يحكم على أرباب الخيال. فلولا اطلاع القوم على آراء اليونان باللغة اليونانية لم نعرف ماذا قالوه، وبه أدركنا

الحقيقة ودفعنا تلك الآراء التهكمية التي يتسلى بها صغار العقول من الشبان والشابات في بلاد الشام، هذا جواب سؤالك الأول.

وأما نموذج كتب المطالعة لأطفالهم تطبيقاً على ما تقدم وموافقة للقرآن ولسورة «الرحمن» وللبسملة لكون نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. فإن ما تقدم في هذا التفسير فيه غنية لأولي الألباب، وسترى في سورة «يس» عند آية: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣٦] رسم ورقة شجرة، وكيف كان فيها آلاف وآلاف آلاف من الفتحات وتحتها ما يشبه الحجرات. وأن الحيطان الشفافة والسقوف المرصوصة بما يشبه اللبنات في أبنيتنا المعتادة. وفي وسط تلك الحجرات مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء تلون تلك السقوف. فهناك ستشاهد تلك الحجرات البهجة التي تعد بمئات الألوف في الورقة الواحدة، وترى أن الورقة هي رئة النبات، وإبداعها في غاية الإتقان والجمال والغرابة، فكيف تكون عشرات الملايين منها في شجرة واحدة؟ ثم كيف تكون هي معدة لتغذية الشجرة بالمواد الكربونية على شريطة أن يساعدها ضوء الشمس.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا أمر عجيب جداً ولكني الآن أسألك في أمر غير هذا. أسألك في نفس كتب الأطفال، وأما هذه فإنما هي تعاليم الكبار تناسب أمثال هذا التفسير، فلنرجئها إلى أن نطلع عليها في سورة «يس». فقلت: هاك نموذجاً وهو كتاب صغير يسمى «القراءة الملوكية» كان يدرسه التلاميذ في بلادنا المصرية في عهد الاحتلال على أساليب تعاليمهم في بلادهم. ولست أذكره إلا على سبيل المثال، فإني أريد أن توضع كتب الدراسة في بلاد الإسلام بعد الدرس والتمحيص من ذوي العقول الكبيرة الذين اصطفاهم الله من قراء أمثال هذا التفسير، فهاك مواضيع ذلك الكتاب بحسب ترتيبها.

(١) العنكبوت. (٢) الصبي والعصفور. (٣) الأرنب. (٤) العنزان. (٥) التبكير في الاستيقاظ من النوم. (٦) النحل. (٧) نظم في النحل. (٨) الإوز. (٩) قل الصدق. (١٠) أنعم صباحاً أيها الطائر (١١) الذئب. (١٢) صدى الصوت. (١٣) أنعم صباحاً أنعم مساء. (١٤) القط وطائر الكناري. (١٥) الزنبار والنحلة. (١٦) الحصان. (١٧) الكلب والمصباح. (١٨) معلومات عامة نافعة في الحيوان. (١٩) الجمل. (٢٠) تاريخ كلب. (٢١) القانون الذهبي. (٢٢) الحمار. (٢٣) قصة النعجة والحمل ولدها. (٢٤) الدب الأسمر. (٢٥) الأسد والفأر. (٢٦) الخروف. (٢٧) الغراب والإبريق. (٢٨) الجندي والحصان. (٢٩) الدب الأبيض. (٣٠) الثعلب والعنز. (٣١) معارف نافعة. (٣٢) الدب في المدرسة. (٣٣) القيطس، وهو حوت عظيم جداً. (٣٤) الأرنب والسلحفاة. (٣٥) السريع والبطيء. (٣٦) الصبي والخوخ «البرقوق». (٣٧) العصفور والدوري. (٣٨) الأسد. (٣٩) النمر. (٤٠) الفهد. (٤١) حمار الحبشة. (٤٢) المعادن. (٤٣) الأطفال. (٤٤) الملك والملكة. (٤٥) طائر بحري. (٤٦) نبات الشاي والقهوة.

هذه المواضيع هي مواضيع الكتاب الإنكليزي المذكور ولم أترك منه إلا عد الأصابع لعدم أهميته. فهذا أيها الأخ هو النهج الذي نهجه القوم في مدارسهم لأطفالهم، بحيث يشرحون الحيوان أو النبات، ثم يستخرجون بعض حكمه، كأن يذكروهم بنشاط النحلة واتكال الأرنب على سرعة جريه

واجتهاد السلحفاة، وكأن يذكروا عند ذكر عوم صغار الطيران الله، هو الذي علمهن بلا أساتذة وهكذا فلا يتمون كتاباً صغيراً مثل هذا حتى يكونوا قد علموا مبادئ العلوم بحكايات ومناظر مشوقة وأحبوا الحيوان والبحث فيه، وعكفوا عليه وتعلموا أخلاقاً مما يذكرهم به المدرسون.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: لقد أحسنت أيما إحسان وشرحت صدري، ولكني أسألك آخر سؤال، وهو لم اخترت هذا الموضوع في هذه السورة في تفسير بسملتها. فقلت: إن في هذه السورة آية ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الآية: ٤٠]، وفيها آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[الآية: ٤٥]، وفي سورة «التوبة» أنه صلى الله عليه وسلم ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية: ١٢٨]، فهو صلى الله عليه وسلم رحيم بالمؤمنين وسراج للناس منير، وأول السورة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فالله رحمن وهو صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم بالمؤمنين، بل هو خاتم الأنبياء مرسل للناس قاطبة، وباب رسالته مفتوح لجميع الأمم فيكون لهم رحمة. فتفسير الرحمة في هذه السورة بإظهار العلوم المخزونة في خزائن الأمم الأوروبية منذ أيام اليونان ونشرها بين المسلمين وتعليم المسلمين للأوروبيين، ثم تنقيح هؤلاء لها بالبحث، ثم رجوعها ثانياً لنا الآن لنستيقظ بعد نومنا العميق، كل ذلك رحمة بنا نحن المؤمنين، بل رحمة بالعالم قاطبة فهو في آية أخرى يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

فقال صاحبي: هذه رحمته للناس صلى الله عليه وسلم، فأريد الساعة أن تذكر لي رحمته بالحيوان حتى يعلم المسلمون أن درس المسلمين على منهج يقرب من المنهج المتقدم خير وأعظم.

فقلت: جاء في كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول» ما نصه:

كتاب الرحمة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الحث عليها

عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الله تعالى. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله تعالى» أخرجه أبو داود، إلى قوله: من في السماء، والترمذي بتمامه. الشجنة ــ بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

وعن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» أخرجه الشيخان والترمذي. وفي أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يَرحم لا يُرحم» أخرجه الخمسة إلا النسائي. وزاد رزين «أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة».

الفصل الثاني: في ذكر رحمة الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لما قضى الله الخلق، وعند مسلم: لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي » أخرجه الشيخان والترمذي. وعند البخاري رحمه الله في أخرى: « إن رحمتي غلبت غضبي »، وعند الشيخين في أخرى: « سبقت غضبي ».

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » أخرجه الشيخان والترمذي.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلائق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة » أخرجه مسلم. وله في أخرى: « إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة ».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال صلى الله عليه وسلم: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ؟قال: فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » أخرجه الشيخان.

الفصل الثالث: فيما جاء من رحمة الحيوان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر الله تعالى فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر » أخرجه الثلاثة وأبو داود. وفي أخرى: « إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها، فغفر لها به ». لهث الكلب وغيره: إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحر، وكذا أدلع لسانه. والثرى: التراب الندي والمراد هنا التراب مطلقاً. والكبد الرطبة: كل ذات روح ولا تكون رطبة إلا إذا كان صاحبها حياً. والبغي: المرأة الزانية. والموق: الخف.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه الشيخان. خشاش الأرض: هوامها وحشراتها.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي

صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ فقال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه» أخرجه أبو داود. الهدف: ما ارتفع من الأرض من بناء وغيره. وحائش النخل: نخلات مجتمعات. والحائط: البستان. وذفرى البعير: الموضع الذي يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران، وهما ذفريان. وتدأبه: تتبعه بكثرة استعماله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر إنّما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم» أخرجه أبو داود. شق الأنفس: جهدها وشدة ما تلاقيه عند مقاساة الأمور الصعبة.

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حمرة معها فرخان لها فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرش، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: من أحرق هذه؟ قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار» أخرجه أبو داود.

الحمرة ـ بضم الحاء المهملة وتشديد الميم: نوع من الطير في شكل العصفور، وقوله: تعرش ـ بالعين المهملة والشين المعجمة ـ أي: ترفرف وترخي جناحيها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع، وروي تفرش ـ بالفاء ـ من فرش الجناح وبسطه.

وعن محمد بن إسحاق عن رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور عن عمه عن عامر الرام أخي الخضر قال: «إنا لببلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية. فقلت: ما هذا؟ قالوا: لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وهو جالس تحت شجرة وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأسقام والأمراض، فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله عز وجل منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله وما الأسقام والله ما مرضت قط؟ فقال له: قم فلست منا» أخرجه أبو داود. والألوية: جمع لواء وهي الراية الكبيرة دون الأعلام، وأعفاه وعافاه بمعنى واحد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرقت، فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح» أخرجه الخمسة إلا الترمذي. وقرية النمل: مسكنها. اهـ ما جاء في الكتاب المذكور.

ثم قال صاحبي: لقد استوفيت هذا المقام وشرحت صدري.

فقلت: الحمد لله رب العالمين.

كتب في ليلة الخميس ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩م. وبهذا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة.

القسم الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ
يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي
ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم
مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ
وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن
صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾
إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ
بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن
يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا
يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾
قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن
ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي يا أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا اثبت على تقوى الله ودم عليها ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ﴾ ولا تساعدهم على شيء واحترس منهم. روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا من المدينة بعد قتال أحد فنزلوا على عبد الله بن أبي وأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقالوا: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع، وساعدهم المنافقون على ذلك، فهمّ المسلمون بقتلهم فنزلت، أي: اتق الله في نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا، ولذلك لما قال عمر: ائذن لي يا رسول الله في قتلهم، قال: إني أعطيتهم الأمان. قال عمر: أخرجوا في لعنة الله وغضبه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿ حَكِيمٗا ﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة. ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ ﴾ في الثبات على التقوى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ أي: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ وكل أمرك إلى تدبيره ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ حافظاً موكولاً إليه الأمور كلها، أي: اكتف بالله وكيلاً، وإذا كان الله لك وكيلاً فلا تخف من أحد فهو ناصرك، فلست في حاجة إلى المنافقين والكافرين، إذ لا يجمع بين المتضادين إطاعة غير الله وإطاعة الله، إذ ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصي بآخر. وإذا كان للإنسان قلب فمتى اتجه لأحد الشقين صد عن الآخر. فطاعة الله تصد عن طاعة سواه وهو يقوم بأمر من توكل عليه، هكذا ليس تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة والبنوة الحقيقية والتبني في إنسان واحد، فإذا ظاهر الرجل زوجته أي قال لها: أنت

عليّ كظهر أمي، فلذلك حكم سيأتي في سورة «المجادلة» فإما أن تحرم عليه إلى أداء الكفارة وإما أن تطلق، فهذا القول ليس بحق إذ لا يجتمع كونه زوجها وكونها أماً، فإما أن تكون زوجة وإما أن تكون أماً، هكذا المتبنى لا يكون ابناً حقيقة. وذلك أن زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له، فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد، قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فقال الله: ليس يجتمع النقيضان بنوة ولا بنوة، فزيد ليس ابناً بل هو دعيّ جمعه أدعياء وهو فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يدعى ولداً، وهذا الجمع شاذ لأن بابه ما كان بمعنى فاعل كشقي وتقي وأشقياء وأتقياء، وهذا قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ ﴾ في «تظاهرون» قراءات وفيها معنى التجنب، فعدى بـ «من» ﴿ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ لا حقيقة له في الأعيان كما يقول الهادي ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ والله يقول ما له حقيقة مطابقة له وهو يهدي السبيل إلى الحق.

وسيأتي بعد تمام السورة في الرسالة المسماة «السر العجيب» حكمة زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب وحل زواجها، وما يترتب على ذلك من نظام التشريع مع الحكمة في تعدد الزوجات في الإسلام وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ أي: انسبوهم إليهم ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا تعليل له ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أي: فسموهم بأسماء إخوانكم في الدين وأوليائكم فيه، وقولوا: هذا أخي ومولاي، بهذا التأويل ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده نسياناً أو سبق لسان ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي: ولكن فيما تعمدت قلوبكم الجناح ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لعفوه عن المخطئ.

ولما كان المؤمن أخا المؤمن في الدين كما مر وكان صلى الله عليه وسلم ليس أباً لزيد بن حارثة أعقب ذلك تبيان منزله النبي صلى الله عليه وسلم من الأمة كلها.

يقول الله: ليس محمد أباً مختصاً بواحد منك بل أبوته عامة وأنتم إخوة في الدين وأزواجه أمهاتكم، بل هو أولى بكم من أنفسكم لأن أهل الأرض خلقوا فيها وهم غافلون عن العالم العلوي الذي هو الحياة الحقيقية، فأنزل الملائكة بالوحي على الأنبياء، فهم في الحقيقة آباء لكم، ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم، وأبوة الأنبياء أشرف من أبوة الآباء إذ بها الحياة الحقيقية والأخرى بها الحياة الفانية، لذلك كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهي منزلة لم ينلها الآباء الجثمانيون، فإذا حضهم على الجهاد فذلك لارتقائهم الروحي، وهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ لما تقدم بيانه، فإذن كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم لما أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك، وهو أشفق من الآباء، بل هو أولى بالمؤمنين الخ، ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فترثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً ـ بفتح الضاد ـ أي: عيالاً فليأتني فأنا مولاه»، ومعنى عصبة الميت: من يرثه سوى من له فرض مقدر. وقد تقدم في سورة «النساء».

وهذا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما فرضه الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين والمهاجرين بحق الهجرة، وذلك نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين، فهذه الآيات فيها رجعت الأمور إلى نصابها، فليس للإنسان وجهتان معاً مع أن له قلباً واحداً، وليس للمرأة أن تكون أماً وزوجة، وليس الدعي ابناً، وليس المهاجر والمؤمن أولى بالميراث من ذوي الأرحام ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾.

لما نسخ الله الميراث بالحلف والمؤاخاة والهجرة وأصبحت الوراثة بالقرابة أباح الوصية لهؤلاء كما أباحها لغيرهم بالثلث، فقال: ولكن أن توصوا لمن تتولونهم من المعاقدين، أي: ولكن توصيتكم لهؤلاء مشروعة أو جائزة ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح المحفوظ. ولما كان ما تقدم مفيداً أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأنه يرفعهم إلى عالم الأرواح، أعقبه بذكر الأنبياء السابقين الذين هم آباء للأمم السابقين، فقال: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ على الوفاء بما حملوا ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهؤلاء أشهر أرباب الشرائع وآباء الأمم، وقدم عليهم إيذاناً بأن أمته ستكون أرقى الأمم أدباً وأخلاقاً لأن رقي الأمة تبع لنبيها ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ مؤكداً وإنما فعلنا ذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ فيسأل الأمم كما يسأل الأنبياء، فالأنبياء صادقون في التبليغ، والأمم التابعة لهم صادقة في تصديق الأنبياء، فكل هؤلاء مسؤول. فالأنبياء عما قالوه لقومهم والمصدقون لهم عن تصديقهم وهل قاموا بما وجب عليهم؟ فأثاب المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

واعلم أن سؤال الأمم عن صدقها إلى السؤال عن أعمالها، لأن الإيمان وحده لا يكفي كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وعليه لا بد من الأعمال والجد ومن أهمها الجهاد، والجهاد أمر عام يشمل فروع الحياة كلها. فالعلم جهاد والأعمال كلها جهاد وقتال العدو جهاد. لذلك أعقبه بذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب. والكلام عليها منحصر في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ملخص الكلام عليها.

الفصل الثاني: في تفسير الألفاظ.

الفصل الثالث: في ربط هذه الغزوة بما قبلها من الآيات وأنها أشبه بما كان في الأمم السابقة من امتحان الأمم وتذكيرها وفقاً لما جاء في قصص الأنبياء في القرآن.

الفصل الأول

إن نفراً من اليهود قدموا على قريش في شوال سنة أربع من الهجرة بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم: إن دينكم خير من دينه، ثم جاؤوا غطفان وقيساً وعيلان وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان وغطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارث بن عوف ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف وغيرهم. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خط الخندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسي وهو يومئذ حرّ، إذ قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقاً علينا، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه، وقد أقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، فخرجت لهم صخرة بيضاء من بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم. فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ــ يعني المدينة ــ حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضيء وكان التكبير. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذي رأيتم فأضاء له منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب. وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا. فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل ما سيأتي: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[الأحزاب: ١٢] الخ. ونزل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[آل عمران: ٢٦] الآية.

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزبهم اليهود وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلاً بينهم وبينها، فقالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، وهناك كانت مصادمات بين القوم كراً وفراً. فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمي بالحجارة ويقتل. ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيصيبه الموت وهكذا. ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: إنّما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فأتى قريظة وقال لهم: لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلاّ إذا أخذتم منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم تقية لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً لأنهم رجعوا وسئموا حربه فإنكم لا تقدرون عليه. وذهب إلى قريش وإلى غطفان فقال لهم: إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهناً يدفعونه لمحمد فيضرب أعناقهم، وهم يتحدون معه على قتالكم لأنهم ندموا على ما فعلوا معه من نقض العهد وتابوا، وهذا هو المخرج الذي اتفقوا عليه. فهناك تخاذل اليهود والعرب وحصل الفشل بسبب ذلك. وفي ذلك الوقت بعث الله ريحاً في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم

وتطرح آنيتهم، وقد قام صلى الله عليه وسلم يصلي هوناً من الليل ثم يلتفت ويقول: هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ فعل ذلك ثلاث مرات ولم يقم رجل واحد من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فدعا حذيفة بن اليمان فذهب إلى القوم فسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ أي: الأحزاب المتقدم ذكرها وهم نحو اثني عشر ألفاً ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ هي ريح الصبا ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الملائكة، وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينهم، ومضى على الفريقين شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أرسل الله عليهم الريح كما تقدم فأحضرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض، فقال طليحة الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء، كما تقدم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من حفر الخندق ﴿ بَصِيرًا ﴾ رائياً. وقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم ﴾ بدل من «إذ جاءتكم» ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق وهم بنو غطفان ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب وهم قريش ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصاً ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ هذا إما تمثيل أو أن الرئة تنفتح من شدة الروع، فتكاد ترتفع إلى رأس الحنجرة ويرتفع القلب بارتفاعها إليها. والحنجرة منتهى الحلقوم وهو مدخل النفس الذي وراءه المريء وهو مدخل الطعام والشراب، ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ الأنواع من الظن. فالمؤمن يعلم أنه امتحان فيخاف الزلل، والمنافق وضعيف القلب يقولان ما حكى الله عنهما. وألف «الظنونا» أثبتها بعضهم تشبيهاً للفواصل بالقوافي ولم يزدها بعضهم وهو القياس، ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من شدة الفزع ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ عطف على الأول ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما تقدم ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي: يا أهل المدينة لا قرار لكم هنا ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ من عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ وهم بنو حارثة ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي: ذات عورة أي خالية من الرجال نخاف عليها سرق السراق ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ بل هي حصينة ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي: ما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ المدينة أو بيوتهم ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ من جوانبها سواء أكان الداخل هم الأحزاب أم غيرهم ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي: الردة ومقاتلة المسلمين ﴿ لَءَاتَوْهَا ﴾ لأعطوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ ﴾ أي: وما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الفتنة ﴿ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ إلا

قليلاً حتى يهلكوا ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا ثم تابوا ألا يعودوا لمثله أبداً ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ عن الوفاء به مجازى عليه ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ فإن لكل امرئ موتة سبق بها القضاء فلا بد من نفاذه على حسب ما سبق به القضاء من قتل أو غيره ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: وبعد الفرار لا تمتعون إلا مدة آجالكم وهو قليل ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ أي: يصيبكم بسوء ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ ينفعهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع الضر عنهم ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ من ساكني المدينة ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي: ارجعوا إلينا ودعوا محمداً صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك، والقائلون هذا القول هم اليهود أرسلوا إلى المنافقين فقالوا لهم: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه ؟ فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يبقوا منكم أحداً، وإنا نخاف عليكم وأنتم إخواننا وجيراننا فهلموا إلينا، فأقبل عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه يثبطون الناس فلم يزدد المؤمنون إلا ثباتاً واحتساباً. وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لا يأتي الحرب المنافقون إلا إتياناً قليلاً حال كونهم ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بخلاء عليكم بالمعاونة النفسية والمالية ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في رؤوسهم من الخوف والجبن ﴿ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي: كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيته أسبابه، فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ أي: زال ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ آذوكم ورموكم في حال الأمن ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ذربة تفعل فعل الحديد إذ يطلبون الغنيمة ويقولون: إنا شهدنا معكم القتال فلستم أحق بالغنيمة منا. وقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ حال، أي: خاطبوكم حال كونهم أشحة على المال كما هم أشحة بأنفسهم ومالهم فلا قتال لديهم ولا إنفاق، وهم شديدو الحرص على الغنيمة ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ حقيقة بل هم مسلمون بالظواهر ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي: أبطلها بإضمارهم الكفر ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ إحباط أعمالهم ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هيناً ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ لجبنهم وجزعهم ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أي: لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا ﴿ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ كرة ثانية ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ أي: يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية عائشون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعتزلوا ما فيه الخوف من القتال ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ الركبان والقادمين إليهم من المدينة ﴿ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ عما جرى عليكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم ﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿ مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رياء وسمعة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأسوة: القدوة، وهو المقتدى به والمؤتسى، فاقتدوا به اقتداء حسناً، فإنه كسرت رباعيته وجرح في وجهه وقتل عمه، وأوذي بضروب الأذى فصبر، وقوله: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ متعلق بقوله: «حسنة» أي: حسنة لمن يرجو ثواب الله ونعيم الآخرة ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ وقرن بالرجاء كثرة الذكر وهي تؤدي إلى ملازمة الطاعة. ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾[البقرة: ٢١٤] الخ، وأيضاً: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ ﴾[العنكبوت: ٢] الخ، وقال صلى الله عليه وسلم: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم، وقوله أيضاً: «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر»، ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ وظهر صدق خبر الله ورسوله ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ الخطب والبلاء ﴿ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ أي إيمانا بمواعيد الله وتسليماً لمقاديره، ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ من الثبات مع الرسول والمقاتلة لتكون كلمة الله العليا ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ أي فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد، والنحب الذي هو بمعنى النذر استعير للموت لأنه كنذر لازم في رقبة كل حيوان، وذلك مثل حمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الشهادة كعثمان وطلحة ﴿ وَمَا بَدَّلُوا۟ ﴾ العهد ﴿ تَبْدِيلًا ﴾ شيئاً من التبديل كما بدل المنافقون.

روي أن طلحة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده، فقال صلى الله عليه وسلم: أوجب طلحة. فملخص ما تقدم أن قوماً صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقوم بدلوا بنقض العهد ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيهديهم إلى الإيمان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٤ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ ﴾ ولم يشف صدورهم فهم في حنق ﴿ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ ظفراً ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ بالريح والملائكة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا ﴾ في ملكه ﴿ عَزِيزًا ﴾ في انتقامه ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان وهم بنو قريظة ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ من حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به، ويقال أيضاً لقرن الثور والظبي ولشوكة الديك، لأن ذلك كله للتحصن من العدو ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ الخوف ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾. روي أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، فقال: يا محمد أتنزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم، فأذّن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة، فحاصرهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم: تنزلون على حكمي، فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ، فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسر منهم سبعمائة.

واعلم أن هذه الرواية ذكرها المفسرون ولم ترد في الصحاح كلها. ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارعهم ﴿ وَدِيَـٰرَهُمْ ﴾ حصونهم ﴿ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ بعد كخيبر ومكة وفارس والروم والقسطنطينية وغيرها من كل أرض تفتح للمسلمين ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقدر على ذلك.

روى البخاري عن سلمان بن صرد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم». وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». انتهى الفصل الثاني في تفسير الألفاظ.

الفصل الثالث

في اتصال هذه القصة بما تقدمها في أول السورة وفي سور القرآن كله

لقد ذكر الله في القرآن قصص الأنبياء وأمرهم أن يذكروا قومهم بأيام الله، ومنهم موسى عليه السلام وقصته ذكرت غير مرة في القرآن، وآخرها ذكراً ما جاء في آخر سورة «السجدة» قبل هذه، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾[الآية: ٢٣] الخ. ثم جاء في أول هذه السورة ذكر موسى إذ قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾[الأحزاب: ٧] الخ. ثم سوى بين الأنبياء وتابعيهم في سؤالهم عن عهودهم التي عاهدوها، فالأنبياء مسؤولون لتوبيخ المكذبين، والمؤمنون مسؤولون عما عاهدوا الله عليه هل صدقوا وثبتوا في إيمانهم فجاهدوا وصبروا أم هم منافقون مذبذبون. ولقد جاء في سورة «إبراهيم»: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[الآية: ٥]، فذكرهم بالشدائد التي لاقوها من فرعون، وبالنعم التي أنعم بها عليهم كخروجهم من ذل العبودية وأنهم ورثوا الأرض التي وعدوا بها هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر المسلمين بغزوة الأحزاب والإنعام عليهم بنجاتهم منهم كما أنعم على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون، فانظر كيف يقول لموسى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥]، ويقول الله للمسلمين في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٩]، ويقول موسى: يا بني إسرائيل ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [إبراهيم: ٦]، وهنا يقول الله سبحانه: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[الأحزاب: ٩].

إن السورة قد ابتدئت بذكر الدوام على طاعة الله وعدم الميل مع المنافقين والكافرين، أي: اتحاد الوجهة النفسية والعملية في الاعتقاد وفي الدعي وفي الزوجة، فإن اعتبار الزوجة أماً واعتبار الدعي ابناً جمع بين المتناقضين كاجتماع طاعة الله وطاعة غيره.

إن الله تعالى أرسل الرسل وهم صادقون وأتباعهم مسؤولون عن عهودهم، فهل يوفون بعهودهم، أم يكونون كالمنافقين الذين يجمعون بين المتناقضين؟ قول مصدق وعمل مكذب كما يجعل الدعيّ ابناً والزوجة أماً. إن هذه القاعدة عامة في الرسل وأتباعهم وهكذا هذه الأمة. إن الله لا يترك الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

إن الله ابتلى المسلمين بالغزوات ومنها غزوة الأحزاب، فمنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومنهم من بدلوا، فهذا الامتحان والابتلاء في الإسلام تطبيق على القاعدة العامة في قوله: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

يقول الله: إن هذه القاعدة عامة في الأرض فلا بد أن تنالوا حظكم منها فننظر أتصدقون، وإذا كنا ﴿ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾[السجدة: ٢٣-٢٤]، هكذا يا محمد ستكون أنت وأتباعك من صبروا منهم يكونون أئمة. وقوله: ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾[السجدة: ٢٣] فيه إشارة إلى هذا المعنى من طرف خفي، كأنه قال: آتيناك الكتاب كما آتيناه، وسيكون لك نصر وأتباع هداة كما نصرناه وأيدناه.

أمة الإسلام اليوم

فعلى المسلمين أن يتدبروا هذه الغزوة ويتفكروا فيها، فإنها لم تذكر في القرآن لمجرد التبرك. إن الله خلق الناس على هذه الأرض ليعدهم إلى الرقي إلى عالم أرقى من هذا العالم، ولا رقي إلا بأمرين: تهذيب جسمي وتأديب عقلي، فلا بد من نعم ونقم وخير وشر وعزّ وذل وصحة ومرض، والمرء بين ذلك يربي ولا علم له بالتربية ويؤدب ولا علم له بالتأديب. إن كل عمل نعمله في الحياة يبعدنا عن المادة ويقربنا من عالم الأرواح، فكل صناعة نتقنها وعلم ندرسه وعمل تتقنه يرقي نفوسنا فيجعلها صانعة ذات حكمة ما..

ولقد جاء الإسلام وأمرنا الله بالجهاد وأمر نبينا نفسه أن يجاهد فكانت حياته كلها جهاداً. فعلينا أن نقتدي به. علينا أن تكون حياتنا كلها جهاداً يحرم علينا التواني والكسل. الجهاد يستلزم جميع العلوم والصناعات. يستلزم علم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات. يستلزم علم السياسات وعلم الاقتصاد وعلوم الحرب كلها واستخراج المعادن من الأرض وعلم الزراعة وعلوم العالم قاطبة.

إن العلوم كلها والصناعات أشبه بحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها. فإذا اطلعت على ما كتبته في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الآية: ٢٨٦]، وأن العلوم كلها والصناعات لا ينفك بعضها عن بعض، عرفت أن الجهاد يكون بها كلها، وأن الأمم عليها أن تخص كل امرئ في الصناعة أو العلم الذي هو أليق به، فالجهاد في الإسلام يشمل جميع دوائر الحياة. ألا ترى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قال لنعيم بن مسعود لما جاءه وقد أسلم سراً: «إنّما أنت فينا واحد فخذل عنا»، فخصصه بما هو أقوى عليه وهو التخذيل، وقد نفذ الأمر فذهب إلى بني قريظة وإلى قريش وغطفان وأوقع بينهم الفشل. أليس هذا بعينه هو علم السياسة. أليس علم السياسة اليوم هو هذا بعينه. أليست الأمم تفتح المدارس لتربية الشبان لأمثال هذا. أليس هذا من الجهاد؟ لا لا بل هو سر الجهاد.

أوَليس صانع المدفع وسائق القطر وسفير الدولة وكاتب الجيش وأمثالهم مجاهدين. إن الجهاد يشمل سائر فروع الحياة، ومتى بطل فرع منها بطلت كلها. فإذا لم يكن قطرات تسير بالجنود لم يكن جهاد ولا قطرات إلا بالحديد، ولا حديد إلا بالتجارة، ولا تجارة إلا بالزراعة، ولا زراعة إلا بالأمن، ولا أمن إلا بحكومة منظمة، ولا حكومة منظمة إلا بعلاقاتها مع الأمم، ولا علاقة لها مع الأمم إلا بحفظ كيانها والذب عن حياضها.

اللهم إن هذا هو دينك. وإني قد أوضحت الأمر في هذا التفسير. وإني قد أديت ما علي، فألهم اللهم قراء هذا التفسير وأمثاله أن يجاهدوا فيك حق جهادك ويرجعوا مجد هذه الأمة ويكونوا رحمة للعالمين ويعدوا الأمة لمستقبلها الزاهر وسعدها الباهر ومجدها الفاخر، وليعلموا الأمة أنها خلقت لإنارة البصائر وتطهير السرائر وإقامة الشعائر وإسعاد الأمم وحفظ الذمم وأنهم خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين، وهذا نتيجة ظهوره على الدين كله لأن الله لا يظهر ديناً على الديانات إلا إذا كان رحمة عامة وهذا هو ديننا في مستقبل الزمان. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ
وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ
لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ
لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ
صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾
وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾
وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ
وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى
ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ
مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾
ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ
مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي
عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ
يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا

كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ
أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ
عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ
أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن
تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن
تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟
بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا
طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ
لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾
لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ
وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ
أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾
مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ

لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾

إن القسم السابق قد مضى في جهاد الرجال وحفظ الثغور. فلما أتم الكلام عليه أخذ سبحانه يشرح جهاد النساء كأن يتركن الفاحشة. وأن يقنتن لله ولرسوله. وأن يفيض أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الأمة العلم الذي عرفناه من النبوة. وكأن يأمرن جميع النساء بالحجاب الشرعي والآداب العامة وما أشبه ذلك من كل حكم يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بأزواجه أو بما يحوم حول ذلك من احترامه وحفظ حرمته واجتناب أذاه.

وفي هذا فتح باب للجهاد الأكبر بعد إتمام الكلام على الجهاد الأصغر، كما قال صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» فإن التدبير المنزلي ونظام العائلات وإقامة الشعائر كل ذلك جهاد عظيم أكبر من جهاد العدو.

ألا ترى إلى قول «أرسطاطاليس» للإسكندر: إن الناس يحتملون الشدة ولكنهم لا يحتملون الرخاء. يريد أن الناس يقدرون على مكافحة الحروب، ولكنهم إذا أبطرتهم النعماء لا يتحملونها بل تفتر قواهم وتضيع نخوتهم ويذهب مجدهم، ولذلك أكد عليه أن يراعيهم في أحوالهم ويشغلهم، فإن لم يشغلهم أيام الأمن هلكوا وضاعت دولهم، فهكذا هاهنا لما أتم الله الكلام على الجهاد أخذ يشرح الآداب المنزلية والأحوال الاجتماعية، فإذا لم تنتظم فلا حياة للأمة.

ولقد مضى مثل هذا في سورة «البقرة» فإنه بعد أن ذكر أحكام الطلاق والعدة والرضاع والخمر والميسر واليتامى وما أشبه ذلك من كل عمل للناس في أمنهم، أعقبه بذكر القتال فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾[الآية: ٢٤٣] الخ فهناك ذكر القتال بعد النظام الداخلي، وهنا عكس الأمر إشارة إلا أن كلًّا منهما في نفسه مطلوب في وقته لا فضل للآخر عليه. فإن لم يكن نظام داخلي فلا نظام للحرب. ومن أهملوا الدفاع عن مدنهم اختلت أحوالهم وضاعت مدنهم. وفي هذا القسم فصول:

الفصل الأول: في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه بالزهد في الدنيا، والإخلاص لله، وأن وزرهنّ وأجرهنّ ضعف غيرهنّ ووجوب ملازمتهنّ البيوت، وعدم التبرج، وإقامتهنّ الصلاة، وإيتائهنّ الزكاة

قوله تعالى: ﴿تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: السعة والتنعم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارفها ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن المتعة، ومعلوم أن المتعة تستحب لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضرار وبدعة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: تستحقر دونه الدنيا وزينتها ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾ كبيرة ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهر قبحها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهن، أي: مثليه، لأن الذنب منهن أقبح فزيادة قبح الذنب تتبع زيادة فضل المذنب والنقمة عليه، ولذلك جعل حد الحر ضعفي حد العبد. وجعل ذنب العالم أشد من ذنب الجاهل، وعوتب الأنبياء على ما لا يعاتب عليه غيرهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ ومن يدم على الطاعة ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة، ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أصل أحد وحد بمعنى الواحد، وهو في النفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والكثير، أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضا رسوله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ فلا تجبن بقولكن خاضعاً ليناً مثل المريبات ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فجور. ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الريبة ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من: وقر يقر وقاراً، أو من: قر يقر، مع تصرف بحذف الأولى من راءي «اقررن» ونقل كسرتها إلى القاف فتحذف همزة الوصل، ويصح أن يكون من: قار يقار إذا اجتمع ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تتبخترن في مشيتكن وتتكسرن، أو لا تظهرن زينتكن وتبرزن محاسنكن ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ تبرجاً مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية القديمة وهي جاهلية الكفر قبل الإسلام، أما الجاهلية الأخرى فهي جاهلية الفسوق في الإسلام ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه، ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ الذنب المدنس لعرضكن ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على النداء أو المدح ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من المعاصي، واعلم أن تخصيص أهل البيت بعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين لم يقم عليه دليل. وإذا ثبتت الأحاديث الواردة في ذلك فهي لا تفيد التخصيص. وقوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: من القرآن والسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، أي: هو عالم بأفعالكن وأقوالكن. انتهى تفسير ما يحتاج إليه من الألفاظ في هذا الفصل من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾[الأحزاب: ٢٨] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٤].

لطيفة

ورد أن سبب نزول آية التخيير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن يوماً لأحد بدخول منزله إلا أبا بكر وعمر، فدخلا فوجداه جالساً وحوله نساؤه وهو واجم ساكت، فأخذ عمر يضحكه ويقول: يا رسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله

عليه وسلم فقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام كل من أبي بكر وعمر إلى عائشة وحفصة يوبخانهما ويضربانهما ويقولان: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟ ثم اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً أو ٢٩ يوماً حتى نزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الآية: ٢٩] قال: فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله فنزل: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ [الآية: ٥٢].

حكم الآية

إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها:

(١) لا يقع شيء عند عمر وابن مسعود وابن عباس وأكثر الأئمة.

(٢) ويقع طلقة واحدة عند زيد بن ثابت، وفي رواية عن علي.

(٣) وإن اختارت نفسها وقع طلقة واحدة رجعية عند عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي رضي الله عنه.

(٤) وطلقة بائنة عند أصحاب الرأي. وفي رواية عن علي.

(٥) وثلاث طلقات عند زيد بن ثابت والحسن ومالك.

الفصل الثاني

في الصفات التي يجب على الرجال والنساء أن يكونوا عليها من المسلمين وفي قصة زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم

من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

هاهنا ذكر الله عشر صفات للرجال والنساء، وهي: الإسلام، وهو الانقياد لحكم الله. الإيمان، أي: التصديق بما يجب أن يصدق به. القنوت، أي: المداومة على الطاعة. الصدق في القول والعمل. الصبر على الطاعات وعن المعاصي. الخشوع، أي: التواضع لله بالقلوب والجوارح. التصدق بما وجب على الإنسان من ماله وبما هو مستحب. الصيام المفروض، أو هو وغيره. حفظ الفرج عما لا يحل. كثرة الذكر لله بالقلب واللسان.

فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات العشر ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً ﴾ [الأحزاب: ٣٥] لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات لها ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] على طاعتهم.

ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وزواجها لزيد بن حارثة ثم طلاقها منه وزواجها للنبي صلى الله عليه وسلم

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله، ولقد كانت رضيت في أول الأمر إذ ظنت أنه صلى الله عليه وسلم خطبها لنفسه، فلما علمت بالحقيقة أبت، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أي: وما

صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي: رسول الله ﴿ أَمْرًا ﴾ من الأمور ﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أي: أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه والخيرة ما يتخير ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ بين الانحراف عن الصواب.

واعلم أن الله عز وجل يعلم مستقبل الأمم الإسلامية، وأن للنسب دخلاً عظيماً، وأن الأمم يعتريها الاضمحلال والخراب بسبب تفرق أهوائها. وتفرق أهوائها إنّما يكون بالدواعي المتشعبة، وأنه لا مصيبة أنكى ولا فتق أوسع ولا صدع أعظم من تصدع المسلمين وتفرق شملهم وتفرق كلمتهم باتباع ذوي الأنساب المتصلين بذوي الشرف والعلم ولا سيما المتصلين بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم، علم الله ذلك فقطع الأمر قبل حصوله وبته قبل وجوده وأظهره بمظهر لا مدخل للشك فيه، إذ أوحى إلى نبيه أني مزوجك زينب ابنة جحش بعد أن يطلقها زيد، ألا وإن الله يعلم أن ابناً سيكون لأسامة اسمه زيد، وأنه سيكون له القدح المعلى في الغزوات أيام أبي بكر، فلو أن الأمر بقي بلا إيضاح عملي شرعي فعلي لجاز لأسامة أن يدعي الخلافة، وسيأتي تفصيل هذا وأمثاله في رسالة «تعدد الزوجات» التي ستذكر في آخر هذه السورة.

أقول: لما أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون زوجته ألقى الكراهة في قلب زيد لها كما أنها كارهة له، فلما جاء زيد وقال: إني أريد أن أطلقها، قال له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[الأحزاب: ٣٧]، فعاتبه الله وقال له: لم قلت: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾[الأحزاب: ٣٧] وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالإعتاق والتبني، وهو زيد بن حارثة حين قال لك: إني أريد أن أفارق صاحبتي، وقلت له: أرابك منها شيء، فقال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب، وهو مقول لقوله: «تقول»، ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في أمرها فلا تطلقها ضراراً وتعللاً بتكبرها ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ وهو أنك ستنكحها وأن زيداً قبل ذلك سيطلقها ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ تعييرهم إياك به ﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ إن كان فيه ما يخشى، فترى من هذا أن الله عاتبه على إخفاء ما أعلمه الله وهو أنها ستكون زوجته، وإنّما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيداً أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي، وذلك مقدمة لذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من الرجال.

روى مسلم عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: اذهب فأذكرها عليّ، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها فأبلغها، فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن، قال أنس: فلقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار، فخرج الناس وبقي أناس يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل حجر نسائه واتبعته وهو يسلم عليهن، فانطلق يدخل البيت وذهبت لأدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب. انتهى المقصود من الحديث ملخصاً.

ولقد كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لأدل عليك بثلاث، ما من امرأة من نسائك تدل بهن: جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام وهذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ حاجة بحيث ملها ولم يبق فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ أي جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ لأن حكم النبي صلى الله عليه وسلم وحكم أمته واحد إلا فيما خصه الدليل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ قضاؤه ماضياً وحكمه نافذاً ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ قسم له وقدر، كما تقول: فرض له في الديوان كذا، ومنه فروض العسكر لأرزاقهم، سنّ الله ذلك ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ من الأنبياء وهو نفي الحرج عنهم فيما أباح لهم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً، ثم وصف الذين خلوا بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ تعويض بعد التصريح ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

لطيفة

هذه الآية تفرض على الناس الشجاعة الأدبية، وقول الحق وإعلان الأمة بالحقائق، وإذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يكتم أمراً لا بد من ظهوره ولا ضرر في كتمانه، فكيف يكتم الناس العلوم، ولا يظهرونها للأمة، وهانحن أولاء الآن في زمان أحوج إلى إظهار الحقائق في كل زمان.

يا أمة الإسلام، نزلت هذه الآية وعوتب النبي صلى الله عليه وسلم في أمر لا ضرر في كتمانه. انظروا انظروا. كم مصيبة نزلت بالإسلام والعلماء يخافون أن يجهروا بالحقائق. إن الله جعلنا تابعين للنبي صلى الله عليه وسلم فالله هو الذي يؤمننا من المخاوف. قولوا للمسلمين كفى خمولاً وجهالة كفى نوماً. فكروا في هذه الدنيا ونظامها. اقرؤوا العلوم التي عرفتها الأمم. إن القرآن طافح بها. قولوا للرؤساء كفى تعاظماً. كونوا أيها الرؤساء خادمين للأمة. كفى تخاذلاً وتهاوناً لا تتعالوا بالأنساب لتجعلوا الناس عبيدكم حتى أصبحتم عبيد الفرنجة. قولوا لأبناء النبي صلى الله عليه وسلم الذين لهم ملك أن لا يناموا عن رقي الأمة، فإن هذا الملك لن يدوم وستأخذه الفرنجة لجهل الشعب.

حرام أن يجعل الناس جهلاء لأجل أفراد من الأمة. الشعب كله يجب أن يتعلم، يجب التصريح بذلك وإذاعة الحقائق، وإلا فالعلماء معاقبون أشد عقاب ولا سيما من قرأ مثل التفسير فإنه مسؤول عن إذاعته بين الناس.

الفصل الثالث

في فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته

من قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ على الحقيقة، فإذن لا تثبت حرمة المصاهرة كما في زيد بن حارثة، وهو وإن كان أباً للطاهر والطيب وإبراهيم والقاسم فهم لم يبلغوا

الحلم ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فهو إذن أبو أمته من حيث إنه شفيق ناصح لهم واجب التوقير والطاعة عليهم ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فهو آخرهم الذي ختمهم أو ختموا به. قال ابن عباس: يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً فيكون بعده نبياً، وعنه قال: إن الله لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي أن يكون شأنه.

يقول مؤلف هذا التفسير: إن تكرار القول في عدم بنوة زيد وخلق السبب العملي الموجب لذلك ذو شأن عظيم في قضية النبوة، لولا هذا التأكيد والتكرار والتقوية لادعى قوم أن زيداً نبي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن الله احتاط لذلك أشد الحيطة. ومن العجب أن أمة الإسلام مغرمة بالأنساب وبالأشخاص في بعض الجهات، وهذا من أضل الجهالات التي ابتلي بها المسلمون، فكم دخل في آل بيت النبوة من دعي. وكم ادعى قوم أنهم من السلالة الهاشمية وبنوا على ذلك الرياسة على الناس وأضلوا كثيراً إذ لم يكونوا أهلاً للرياسة بالعلم والعمل المؤهلين لها. إن فضل المؤمن بعمله وباتباعه وبصدقه وبعدله، والنسب أمر ثانوي، إن الله لم يتخذ ولداً ولم يكن شريك في الملك وقد أمرنا أن نحمده على ذلك، لأن الولد يشغل عن غيره فلا ولد ولا شريك ولا ناصر له، بل هو رب العالمين فهو عدل حكيم. ولما أراد تكميل رسوله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ وإنما هو أب للجميع منه يستضيء كل مستعد للإضاءة، فأما الأبوة البشرية فليس فيها هذا النظام إذ قد يلد الفاضل فاسقاً، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾. قال ابن عباس: «لم يفرض الله عز وجل على عبادة فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله». وأمرهم به في الأحوال كلها فقال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأنفال: ٤٥] يعني بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم وفي السر والعلانية. وقيل الذكر الكثير ألا ينساه أبداً ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره خصوصاً. والمقصود من التسبيح أن يكون الذكر على وجه التعظيم والتنزيه عن كل ما سواه، والمقصد من ذكر طرفي النهار المداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضاً، ويدخل في ذلك صلاة الصبح والعصر، ومن أدخل في الأصيل صلاة الظهر وما بعدها إلى العشاء فقد توسع في المعنى، ويدخل أيضاً «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ويكون من التكثير هنا أن الطاهر والجنب والحائض والمحدث يقولها، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار المؤمنين، ومن رحمته تعالى إشاعة الذكر الجميل للعبد في عباده والثناء عليه ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ يعني أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ حتى اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل في ذلك ملائكته المقربين ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي: تحية الله تعالى للمؤمنين ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يوم لقائه عند الموت وعند الخروج من

القبر وعند دخول الجنة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي: يسلم الرب عليهم ويسلمهم من جميع الآفات. روي عن ابن مسعود قال: « إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام ».

واعلم أن السلامة من الآفات في هذه الدنيا مستحيلة، ولذلك جعلوا مبدأها عند الموت، اللهم إلا قوماً أدركوا سر هذا لوجود ودرسوه وعرفوا أن الرحمة تغمر ظاهره وباطنه وظاهر الآخرة وباطنها وفهموا ذلك وتحققوه حتى صار ممتزجاً بنفوسهم، فمثل هؤلاء يرون الوجود كله سعادة، وكل ما يحل بهم أو بغيرهم أو يسمعونه من أنواع الآلام فإنهم يفهمونه كله على وجه يشرح صدورهم، ويرون أنه حكمة تامة ونظام جميل، ويوقنون أنه ليس في الإمكان أبدع من ذلك، وهؤلاء قد سمعوا السلام من الله في الحياة قبل الموت في هذه الدنيا وأنسوا بربهم، ولكن هذا الوجدان عزيز الوجود لأنه يعز على الناس أن يعقلوا شياطين وجناً وأبالسة ونيراناً جهنمية، ويقولوا: إن هذه رحمة، فأما أولئك الأفذاذ فلهم دراسة أتم ومعرفة أهم وعلم أكمل وعرفان أعم، ويصبح الوجود عندهم كأنه إنسان واحد وحيوان واحد، وهذه من لوازمه أو عمل من أعمال هيئته لا بد منه ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

وقوله: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ هو الجنة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم، وهذه حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ لمن آمن بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن كذب بالنار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى توحيده وطاعته ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ بأمره ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ يستضاء به في ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر، فراقب أحوال أمتك ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ على سائر الأمم فإنهم سيغيرون نظام النوع الإنساني من الظلم إلى العدل كما في نهضة الإسلام الأولى، وسيصلحون شأن الأمم المنهمكة في الضلالة في مستقبل الزمان بعد زماننا، كما قال تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣] وبهذا يكون ثوابهم في الآخرة عظيماً ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ودم على مخالفتهم ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ إيذاءهم إياك ولا تحتفل به ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فإنه يكفيكهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ حافظاً وموكولاً إليه الأمر في الأحوال كلها.

لطيفة

اعلم أن الله عز وجل لما قرر أمر النبوة وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس أباً لأحد من الرجال، وأن النبوة أبوة عامة، وأكد ذلك بالقول لقطع أطماع الرجال في الاعتزاز بذلك، أعقبه بذكر ما به يتفاضل الناس وتعظم أقدارهم ويشرفون في الدنيا والآخرة، فأمر بذكر الله كثيراً وتسبيحه، وأنه سبحانه يرحم المؤمنين رحمة خاصة بالهداية، وأنه يحييهم بالسلامة والأمان ويدخلهم نعيماً مقيماً وأتبع ذلك بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سراج، والسراج تقتبس منه السرج، فالأنبياء يستضاء بهم وتعرف بأنوارهم المشكلات في دياجي ظلمات الجهالات كما يستضاء بالسراج في الطرقات، ويقتبس من أنوارهم كما يقتبس من السراج سرج أخرى.

ولذلك تجد العلماء في كل أمة تابعين لأنبيائهم مقتبسين من أنوارهم مرشدين لأممهم، وليس الأب الجسمي كذلك، إن الأب الجسدي يلد ابناً ولادة مادية، والأنبياء يلدون ولادة نورية، هذا هو الذي يرشد له ذكر السراج في هذا المقام، فالأنبياء يلدون بهذا المعنى وخلفاؤهم هم المقتبسون منهم، وعليه فليس أحد أولى بالأنبياء ممن اقتبسوا من أنوارهم، وإلا فإن نوحاً قد كفر به ابنه وقال الله له: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾[هود:٤٦] فرجعت ولادة الأنبياء إلى الاقتباس منهم وإلى الاهتداء بهديهم، فمن اكتفى بالنسب الجسمي للأنبياء فهو ضال مضل كاذب على الله، فإذا ادعى أحد إخواننا وأبناء أعمامنا الشرفاء أن النسب وحده يرفع عند الله فإن هذه الآية تكذبه وإلا فلماذا هذا التأكيد كله والتذكير، فلا شرف لامرئ إلا باقتباس من الأنوار العلمية، ذلك هو الشرف الحقيقي في الدين، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣].

إن العرب في الجاهلية وأكثر الناس في هذه الحياة الدنيا شرقاً وغرباً لا يصدقون بعالم غير عالم الأجسام، ولا يعقلون أن هناك أرواحاً لطيفة تدبر أهل الأرض وتهديهم. فانظر كيف ذكر الله هنا أنه هو يرحم المؤمنين ورحمته عامة لهم ولغيرهم من حيث الحياة الجسمية، فأما رحمة الهداية فهي خاصة بهم، فهكذا أرشدنا إلى أنه سبحانه لم يدع هذا العالم بلا أرواح شريفة تقوم بالتدبير والتعليم كما نرى أنفسنا على هذه الأرض تقوم بالأعمال الجسمية والعقلية، إن جميع الأرواح لها عمل فلا شيء في الوجود معطل، وإذا كانت أرواحنا اليوم قائمة بتدبير هذه الأجساد فإن لها بعد الموت أعمالاً تناسب تربيتها في هذه الدنيا، فالضالون هنا يضلون غيرهم إما طبعاً وإما قصداً لقصد الشر والإيذاء. وهكذا النفوس الطيبة هنا ترجع إلى عالم الأرواح وهي في مركزها الذي خلقت فيه في الدنيا من حيث الاصطلاح والتعليم بالإلهام والتي قبلها بالوسوسة.

ولعلك تقول: وما لنا ولهذا البحث، إن الآية فيها ذكر الملائكة وإنهم يصلون على المؤمنين أي يستغفرون لهم، فأي مناسبة لذلك؟ أقول لك: على رسلك. اعلم أن هذا القرآن نزل للناس بأمور غائبة عن العقول لا يصدقها الناس تصديقاً حقاً ولكنهم يؤمنون به إيماناً، والإيمان شيء واليقين شيء آخر، ولقد ظهر اليوم في العالم الغربي هذا العلم. وقد تقدم في هذا التفسير أني نقلت لك ما ذكره العلامة «أوليفر لودج» الذي هو أشهر عالم طبيعي في أوروبا إذ قال: إنه أصبح موقناً بسبب تحضير الأرواح أننا نعيش في عوالم من الأرواح نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا من حيث الإدراك والعقل، وهم يهتمون بأمرنا ويسعون في مصالحنا، وعلم الأرواح اليوم شاع وذاع في أوروبا. وقد اتضح فيه أن أرواحنا بعد الموت صائرة إلى نحو ذلك، فهي إما ملهمة للخير أو ساعة للشر، فكأنها ملحقة بعالم الملائكة وعالم الشياطين.

ونجد نظير هذا في تفسير الإمام الرازي في سورة «إبراهيم» وسورة «النازعات» إذ قال في الثانية: إن الروح الإنسانية هي التي تصير من المدبرات أمراً. أي أنها قد تلحق بعالم الملائكة. وقد قسم المعلم الفيلسوف «ألان كاردك» الأوراح إلى طبقات ثلاث وهي: الأرواح السفلية والعلوية والنقية.

وقال: إن السفلية هي التي في مؤخر الدرجات والمادة متسلطة عليها، فهي في الحياة محبة للشر والفساد وفي الموت ملقية للشر والعداوات بالوسوسة.

فقال في العلوية: إنها متسلطة على المادة ومحبة للخير. ومنها الصالحة وهي تحب الصلاح العام وعمل البر وإلهام البشر أفكاراً صالحة، ومعارفها محدودة وأدبها أكثر من علمها، ومنها الأرواح الحكيمة وهي ذات أخلاق حسنة ولكن علومها أوسع. ومنها الأرواح الرفيعة وهي التي جمعت بين الكمال العلمي والأدبي، وهذه لا تعطي تعليمها إلا لمن يطلب الحق بخلاص نية.

وقال في النقية: إنها هي التي بلغت ذروة الكمال وتجردت من كل نقص، ولم يعد للمادة أدنى تأثير فيها، فأصبحت ناظرة لله مغتبطة به، ولن يناجيها الإنسان إلا إذا كان ذا فضيلة سامية وقلب مجرد من كل أمر ذميم ونقص أرضي مادي، واستنتج العلماء من ذلك أنه ليس كل إلهام نأخذ به، لأن معارف الأرواح الملهمة ليست في درجة واحدة فكم من إلهام ناقص يضر العمل به. اهـ.

هذا ما يدور في محافل العالم الأوروبي اليوم، فانظر كيف يخبر الله أن الملائكة يصلون علينا أي لإخراجنا من الظلمات إلى النور، وانظر كيف ترى أن علماءنا رحمهم الله قالوا: إن هناك وسوسة وإلهاماً من الملائكة. وكيف يقول الإمام الرازي والغزالي ورجال إخوان الصفاء: إن أرواحنا ملحقة بعد الموت بعالم الشياطين والملائكة إلهاماً ووسوسة. وكيف يقرر ذلك نفسه العلامة «الان كاردك» في أوروبا والمسلمون لا يعلمون.

انظر كيف يظهر سر القرآن في أوروبا والمسلمون في الشرق نائمون، كيف يقول «كاردك» المذكور: إن الأرواح النقية التي لم يبق بها مأرب في المادة تعاين الله وهي به مغتبطة. يقولها هذا الإفرنجي من علم الأرواح وهو لم يسمع قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣] فعبر الله سبحانه عن نقاوة الروح من كل رجس بنضارة الوجوه، ومتى نضرت الوجوه نظرت الله، فكأن أرواحنا ترتقي من عالم إلى عالم درجات وراء درجات وتتخطى في الجنان درجة بعد درجة حتى تصل إلى أعلى الدرجات وتكون إلى ربها ناظرة. وفي أثناء مرورها على النيران تكون موسوسة شريرة، وفي أثناء مرورها على الجنان تكون ملهمة للخير معلمة وتصعد إلى أن ترى ربها. ولا معنى لرؤية الله والنظر إليه إلا بزيادة الكشف المعبر عنه في الحديث بأننا نراه كما نرى القمر ليلة البدر، فالعامة يظنونه نظراً بصرياً والخاصة يرونه أرقى وأوسع من نظر البصر، بل نظر البصر ضعيف ضئيل مادي. أفليس المسلمون أولى بهذه العلوم وبمعرفة الأرواح حتى يدركوا سر هذه الآية.

أما أنا فأقول: الحمد لله الذي جعل في قدمائنا من بحثوا ودققوا وذكروا مثل هذا القول، ولولا أنهم ذكروه كما قلته لك لم يتجاسر أحد أن ينقل عن أوروبا مثل هذا لئلا يعد ذلك خروجاً عن الدين والأمة اليوم في مبدأ نهضة جديدة، فلن تقبل حديثاً إذا وصل بقديمها، ثم تأتي أجيال يستقلون بالرأي ويكونون أوسع حرية إذ يرون الجو فسيحاً والعلم منتشراً، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم.

الفصل الرابع: في المطلّقة قبل الدخول وفيما يحل للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء وفي بعض الأحكام المناسبة لذلك

من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾
إلى قوله: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهن ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ تستوفون عددها. وليس تخصيص المؤمنات مخصصاً للحكم بل هو عام، وذكرهن بفائدة تخير النطف لا تخصيص الحكم ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي: أعطوهن ما يستمتعن به، وقد تقدم إيضاحه في سورة « البقرة »، وذلك التمتيع إما فرضاً إذا لم يكن سمى لها مهراً، وإما ندباً إذا كان سمى لها المهر، فيكون التنصيف وجوباً والتمتيع سنة ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أخرجوهن من منازلكم لأنهن ليس عليهن عدة ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار ولا منع حق.

لطيفة

إذا طلق الرجل امرأة قبل النكاح لا يقع الطلاق لظاهر الآية، لأنه سبحانه قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾[الأحزاب: ٤٩]، ولم يقل: طلقتم ثم نكحتم، فلو علق الطلاق قبل النكاح عليه سواء أكان لامرأة معينة أم لكل امرأة فإن الطلاق لا يقع، وهذا رأي الأكثرين كابن عباس وعلي وجابر ومعاذ وعائشة والشافعي، وقال ابن مسعود وأصحاب الرأي والنخعي: يقع الطلاق، وقال مالك وربيعة والأوزاعي: إن عين امرأة وقع وإلا فلا. اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن لأن المهر أجر على البضع، وليس التقييد بإيتاء المهر معجلاً إلا لإيتاء الأفضل، وإلا فالحل ليس متوقفاً على ذلك التعجيل، كما لا يتقيد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من السبي مثل صفية وجويرية، وإنّما كان القيد بذلك لأن المشتراة لا يعرف بدء أمرها وما جرى عليها، وقوله: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ المعية هنا ليست للقرآن بل لوجودها فحسب كقوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[النمل: ٤٤]، فيحل له صلى الله عليه وسلم بنات العم والعمة من بني عبد المطلب وبنات الخال والخالة من بني عبد مناف بن زهرة بشرط أن يكن هاجرن من مكة إلى المدينة، والتقييد بالهجرة إما للحل وإما للأفضل، ويؤيد الأول قول أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أهاجر معه.

ثم عطف على ما سبق قوله: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يقول الله: أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً، كأم شريك بنت جابر العامرية أو ميمونة بنت الحارث أو زينب بنت خزيمة الأنصارية أو خولة بنت حكيم، وذلك مشروط بأن يريد النبي نكاحها فإن لم يقبله فلا تحل، وقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾

أي: بلا مهر، وهي حال من الضمير في «وهبت». وقوله: ﴿ لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنه يجب المهر على غيرك وإن لم يسمه أو نفاه.

حكم من تهب نفسها

إذا وهبت امرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر ظاهر أنه ينعقد نكاحها بلا ولي ولا شهود ولا مهر، لقوله تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾، وأيضاً له الزيادة على الأربع، ويجب عليه تخيير النساء وحده، وقال بعض العلماء: بل لا ينعقد له إلا بلفظ النكاح والتزويج كما في حق سائر الأمة لأنه عبر بلفظ الاستنكاح، فالاختصاص إنّما هو في ترك المهر، فأما من وهبت نفسها لغيره صلى الله عليه وسلم فإنه لا ينعقد نكاحها بل لا بد من لفظ الإنكاح أو التزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري وربيعة ومالك والشافعي. وقال النخعي وأهل الكوفة: ينعقد بلفظ التمليك والهبة. وقوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي: من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء إذا لم يسم ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي: ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين. وهذه الجملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي: أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة، واختصصناك بذلك لكيلا يكون عليك ضيق، والجملة الاعتراضية تفيد أن ذلك ليس للتوسيع عليه وحده والتضييق على المسلمين بل هناك معان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى، وسترى إيضاحه في رسالة «تعدد الزوجات» الملحقة بهذه السورة. وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ أي: لما يعسر التحرز منه ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بالتوسعة في مظان الحرج ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي: تؤخرها وتترك مضاجعتها ﴿ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ وتضم إليك وتضاجعها ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ ﴾ طلبت ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء فلا ضيق عليك في ذلك ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أي: أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً، لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله في ذلك، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بما في القلوب ﴿ حَلِيمًا ﴾ لا يعاجل بالعقوبة فعلى الناس أن يحذروه.

روي عن أبي رزين قال: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن، فقلن: يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا، فأرجأ منهن خمساً وآوى إليه أربعاً. انتهى باختصار، وسنوضحه في رسالة «تعدد الزوجات» الآتية. وكذا ما بعده مفصلاً هناك، وهو قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ من بعد التسع ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ حسن الأزواج المستبدلة وهي أسماء بنت عميس امرأة جعفر ابن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ وقد ملك بعد هؤلاء مارية القبطية ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ أي: حافظاً، وهذا

يدل على جواز النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » أخرجه أبو داود . وعن المغيرة بن شعبة قال : « خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

هذا وقد تقدم حديث أنس بن مالك . وقوله في الحديث ما ملخصه : إن القوم طعموا في وليمة زينب بنت جحش وخرج قوم وبقي آخرون . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وخرج معه أنس حتى جاء حجرة عائشة ورجع فإذا هم جلوس فرجع حتى بلغ حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا فرجع ورجع معه أنس فإذا هم قد خرجوا ، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أنس بالستر وأنزل الحجاب ، وسمع أنس النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : إلا وقت أن يؤذن لكم ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ متعلق بـ « يؤذن » حال كونكم ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي : غير منظرين نضجه ووقت إدراكه ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ تفرقوا ولا تمكثوا ، والآية لأولئك الذين يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهي لهم ولأمثالهم ، ولولا ذلك لمنع من يدخل بيته بالإذن لغير الطعام ومن يمكث بعد الطعام لمهم ولا قائل به فافهم ، ﴿ وَلَا ﴾ تمكثوا ﴿ مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ لحديث بعضكم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ اللبث ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ لتضييق المنزل عليه ﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ من إخراجكم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيي فأمركم بالخروج ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا ﴾ شيئاً ينتفع به ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ ﴾ المتاع ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ ستر .

روي أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فنزلت هذه الآية . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من الخواطر الشيطانية ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ وما صح لكم ﴿ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي : تفعلوا معه ما يكرهه ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ من بعد وفاته أو فراقه ، وخص التي لم يدخل بها لما روي أن أشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر رضي الله عنه فهمّ برجمها فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسها فترك من غير نكير ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي : إيذاءه ونكاح أزواجه ﴿ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ذنباً عظيماً ، ثم بالغ في الوعيد لحرمته صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا ﴾ كنكاحهن على ألسنتكم ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ في صدوركم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم ذلك فيجازيكم به ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ يعني النساء المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ من العبيد والإماء أو من الإماء خاصة . انظره في سورة « النور » . ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ فيما أمرتن به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ لا يخفى عليه خافية . روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله أونكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت . ولم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين . انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس: في وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه، وأن لا يؤذى في أهله وضرب مثل بالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وذكر التكاليف التي لم يكلف بها أحد إلا الإنسان لشهوته وغضبه ونوازعه الكثيرة، وهي الأمانة

وهو من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ إلى آخر السورة

اعلم أن العالم المشاهد كله منتظم، فالأعلى يسبغ النعمة على الأدنى، والأدنى مطيع للأعلى ومثال ذلك الملوك الوزراء والأمراء ومن دونهم. فكل من هؤلاء يستمد الأمر ممن هو فوقه ثم يصل الأمر إلى الزارع والتاجر والعامل. فهؤلاء جميعاً يعطون مالاً للمحافظين عليهم ويعيشون في أمن بتدبيرهم. فالأمراء يتناولون أجورهم من الرعية، والرعية محفوظة بتدبيرهم. فالأمة كالجسم. فالعين تستحسن أزهار الربيع فيساعد القدم والساق على النقلة إلى هناك في الحقول والبساتين، فالعين والرجل تشاركتا في العمل. هكذا الأمة عاليها وسافلها متشاركون وإن كانوا لا يعلمون، بل الأمم كلها فوق الأرض مشتركة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إذا عرفت هذا في العالم المشاهد فانظر إلى ما نحن فيه وتأمل. ألم تقرأ فيما مر في هذه السورة أن الله يصلي علينا وملائكته. أليس معنى ذلك أنه سبحانه يرحمنا وملائكته يستغفرون لنا. ورحمة الله العامة تشمل البهائم والكافر. وإنّما القصد رحمة الهادية. فالله يهدينا ورسله، فأما الملائكة فهم الملهمون لنا بلا واسطة كالإلهامات التي يحس بها كل منا، وهذه الإلهامات لا بد لها من قانون، لا قانون إلا الدين، والدين بالوحي والوحي من الملائكة إلى الأنبياء. فإذا قال الله إنه يرحمنا وملائكته وسائط في إيصال رحمة الهداية لنا فذلك يدخل فيه الأنبياء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾[الأحزاب: ٤٣] فلم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاء لوضوح المقام، وإلا فمن المخرج لنا من الظلمات إلى النور المصرح بها غير مرة في القرآن سوى الأنبياء، فإذن الله وملائكته ورسوله يصلون علينا. فالنور من الله والملائكة وسطاء والأنبياء مبلغون وهكذا العلماء بعدهم إلى أن يصل إلى جميع المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ ﴾[آل عمران: ١٨]. إذا علمت هذا فانظر قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ كما صلوا عليكم وصلى هو عليكم أيضاً، وعلى من أنعم عليه بنعمة أن يشكرها وشكر النعمة أن تدعو له. فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله، وخير الناس المنعمين الأنبياء، ولذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ ﴾ لأنه صلى عليكم، أي أعلمكم بوحي الملائكة، والعلم يوجب مغفرة الذنب إذا عمل به، ويخرج الناس من ظلمة المادة إلى نور عالم الأرواح، فتكون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أي الدعاء له شكراً على نعمة العلم التي جاءت على يديه. فإذا أضيف إلى ذلك انقياد المسلم وتسليمه لما جاء على لسانه من الشرائع كان قائماً بالشكر خير قيام، ولذلك قال: ﴿ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أي: انقادوا لأوامره انقياداً كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣] أي: التقرب لله. ولا جرم أن امتثال أمر الله في شريعته وصلاة المسلم على نبيه قيام بالشكر لأن ذلك هو المطلوب. إن مقصود الأنبياء رقي أممهم بانقيادهم للأوامر والنواهي. وتجوز الصلاة على غيره تبعاً له وتكره استقلالاً لأن الصلاة في العادة شعار الرسل، كما لا يقال: «محمد عز وجل». ثم وجوب الصلاة إما في العمر مرة أو في كل صلاة في التشهد الأخير أو كلما ذكر. والأول قول الأكثر والثاني قول الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، والثالث قول الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية وهو ضعيف. والجمهور أن هذا مستحب، والواجب: «اللهم صل على محمد» وما زاد سنة. والمعنى الآخر في السلام التحية أي حيوه بتحية الإسلام. يقول الله: ادعوا له بالرحمة وحيوه تحية الإسلام أي قولوا: «السلام عليك أيها النبي».

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والانقياد لأوامر الله والتسليم عليه صلى عليه وسلم مما يرفع العبد درجات، كيف ولا هو في حال الصلاة عليه قد ترك الغيبة ولامست روحه ذكر نفس طاهرة في عالم الكمال. إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عمل من الأعمال الحميدة له حسنات مذكورات مشهورات في الأحاديث، إن الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة التي هي معنى الصلاة يزيده رفعة هو ومن تبعه متواصلون في عالم الأرواح. وكلما زاد رفعة ازداد أتباعه لعلاقة الرابطة. إن بين الأرواح عاليها وسافلها لصلة متناسبة كالصلة بين الكواكب والشموس وبين جميع ما حولها. إن تذكر الأنبياء والسلام على الصالحين وعلى آل الأنبياء كل ذلك تذكرة لعلاقة النفوس الطاهرة بعد الموت في العالم الروحي ليؤهل نفوسنا إلى المقام معها هناك حتى لا تستوحش النفس عند مفارقة الدنيا، إن كل هذا يطلب به الاستيحاش من هذه المادة والائتناس بعالم الأرواح، يقول المسلم: السلام عليك أيها النبي، ثم يسلم على نفسه وعلى الصالحين من جميع الأمم ويصلي على نبينا ويذكر إبراهيم وأمثال ذلك، كل هذا ليأنس بتلك الأرواح. إن عالم الأرواح عالم الحياة كما أن عالم المادة عالم الموت، ولذلك يختم المسلم الصلاة فيستعيذ من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة الحياة وفتنة الممات وفتنة الدجالين والكاذبين، وهذه كلها من علائق الدنيا والمادة، فأما عالم الأرواح فهو عالم الجمال والبهاء والكمال.

ولما كان إعظام النبي صلى الله عليه وسلم يقضي بالأولى ألا يؤذى أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بأن يرتكبوا ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، ومنهم من كسر رباعيته، ومنهم من قال: هو شاعر ومجنون، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينهم مع الإيلام ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية استحقوا بها ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً وذلك كما حصل في مسألة عائشة وكإيذاء علي رضي الله عنه. وكما كان الزناة يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حاجتهن ولم يكونوا ليعرفوا الحرة من الأمة. ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، أو هي كل ما يستر به من كساء وغيره. قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن

يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة ليعلم الناس أنهن حرائر، وذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أي: لا يتعرض لهن أحد ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما سلف ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده إذ يراعي مصالحهم في الجزئيات كما في الكليات، ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ عن نفاقهم ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ضعف إيمان ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يرجفون أخبار السوء، مثلاً إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون في الناس أنهم قتلوا أو هزموا أو يقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: إلا زماناً قليلاً حال كونهم ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ سنّ الله ذلك ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ من الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وأرجفوا أينما ثقفوا ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ تعنتاً ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لم يطلع عليها ملكاً ولا نبياً ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ شيئاً قريباً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ناراً شديدة الاتقاد ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحفظهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى على النار ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ في الدنيا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ وهم رؤوس الكفر الذين زينوه لهم ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ أي: عن سبيل الهدى ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ﴾ أي: السادة والكبراء ﴿ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي: ضعفي عذاب غيرهم ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ لعناً متتابعاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ فطهره الله مما قالوه فيه ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ كريماً ذا جاه وقدر، أو حظياً عنده لا يسأل شيئاً إلا أعطاه فهو مستجاب الدعوة. فقد اتهمه قوم بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم حتى رأوه غير مقتول، أو أحياه الله فقال لهم ذلك. وأيضاً قد مر في سورة «الشعراء» أن قارون حرض بغياً على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها. أو قذفوه بعيب في بدنه كبرص أو أدرة وكان كثير التستر حياء فأطلعهم الله عليه، فبرأه الله ما قالوا، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذي رسوله ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صواباً عدلاً صدقاً ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ يتقبل حسناتكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي: ظفر بالخير العظيم.

جاء في رواية البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: «لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً في القسمة، كالأقرع بن حابس مائة من الإبل ومثله عيينة بن حصن، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تغير وجهه كأنه الصرف ـ بكسر الصاد ـ وهو صبغ أحمر يصبغ به الأديم، ثم قال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». انتهى ملخصاً. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ خفن منها ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ

كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . اعلم أن للمفسرين رأيين مشهورين في هذه الآية : أولـهما : أن الله خلق في هـذه الأجرام فهماً وقال : أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ وذلك أنكنّ إن أحسنتنّ جوزيتنّ وإن عصيتنّ عوقبتنّ ، قلن : يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً ، وتلك الأمانة هي الوفاء بالعهود والودائع وجميع ما حمله المكلف من التكاليف القولية والفعلية ، وهذا القول يناسب قوماً . الرأي الثاني : أن هذا القول من المجاز المركب ، يقول الله : إن هذه السماوات والأرض والأنهار والجبال والدواب والنبات كلها وكذلك الملائكة ، كل هؤلاء مسخرون لأعمال على مقدار الاستعداد ، فالشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض كلها قائمات بما خلقت له لا تحيد عنه شعرة ، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[مريم:٩٣] ، والبهائم ليس عندها من العقل ما به يصح التكليف ، فهذه المخلوقات كلها تأبى طباعها أن تكلف بعمل ما ، وإنّما عملها يكون على حسب جبلاتها ، والجبلات والغرائز غير عاصية ، فإن النحل والنمل والعنكبوت والطيور كل جماعة من هذه قائمات بأعمالهن بلا خلل في ا لنظام ، كما ترى في مسدسات النمل ، وفي نسيج العنكبوت ، وفي تربية الطيور لأفراخها ، وفي أن كل طائر إذا خرج من البيضة اتبع أمه وسار معها كأنه تعلم ذلك قبل خلقه ، وهكذا تسير الكواكب كلها وكذا الأرض لا اختلاف لسيرها ولا اختلال لنظامها ، فليس شيء من ذلك كالإنسان ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[القيامة : ١٤-١٥] ، ويخرج من بطن أمه ضعيفاً ثم يتعلم شيئاً فشيئاً حتى يبلغ أشده وله اختيار في الأعمال يتصرف بعقله في الأمور ، ولذلك تختلف أفراده اختلافاً كثيراً لتنوع تعاليمهم وقدرهم وتهذيبهم وأخلاقهم واجتهادهم وإنّما كلفناه لأنه ابتلي بقوتي الغضب والشهوة اللذين هما صفتا البهائم وهو بعقله يرقى عنها إلى ذروة الكمال ، فالشهوة والغضب يصرفانه في أمور كثيرة ويوقعانه في الفجور والكبرياء وغيرهما وتتنازعه الأهواء . فإذن كلفناه بالشرائع لأنه كان ظلوماً بأنواع الشهوات وفنون الغضب التي تقذف به إلى المهاوي ، جهولاً بما يجب عليه ، فهذه الأمانة وهي التكاليف والأمانات والودائع كالحواس الخمس والأعضاء والمواهب كلها حملها الإنسان لحاجته إليها في ردع ظلمه وجهله ، وتكون نتيجة ذلك أمرين : تعذيب المنافقين والكافرين والمنافقات والكافرات ، لأنهم لم يقوموا بحمل الأمانة حق القيام . وإثابة الله المؤمنين والمؤمنات وأن يتوب عليهم ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ حيث عفا عن فرطاتهم وأثاب على طاعتهم . وهاهنا سبع لطائف :

اللطيفة الأولى : في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي رسالة ألفها المؤلف وطبعت سنة ١٣٣٣ هجرية للرد على قوم اعترضوا على الإسلام .

اللطيفة الثانية : في قوله : ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب : ٤٠] .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الأحزاب : ٤١-٤٢] .

اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب : ٤٥-٤٦] .

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

اللطيفة السادسة: في ملخص السورة كلها وفيما قبلها وما بعدها.

اللطيفة السابعة: في معنى ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾[الأحزاب: ٧٢].

اللطيفة الأولى: في سر تعدد الأزواج في الإسلام وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

وهي رسالة ألفها المؤلف للرد على قوم اعترضوا على الإسلام في هذا المقام، وهذا نصها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المجلس الأول

محاورة دارت بيني وبين صديقي محمود أفندي طلعت أبو مسلم القاضي بالمحاكم الأهلية

المذرّه: أيها الأستاذ. كثر القيل والقال في أمر تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن معاشر المسلمين ولا سيما علماء القانون لا يزال بعضنا في شك مريب مما ذكر ويذكر في كل آن في المسألة، ولقد تربصنا قولك فلم نحسّ لك من خبر، ولم نسمع لك من ركز، فأقبل بعضنا على بعض متسائلين متخافتين بيننا قائلين: لولا أن الأمر عسير عليه ليس له فيه مقنع، وعقبة كأداء ليس لديه لها مطلع، ما أغمض الجفن على القذى، ولا بقي في غطاء عن الأمر مع كثرة الطلب والإلحاح المتوالي عليه من الفرق المختلفة عزين.

الأستاذ: لم أذر القول فيما مضى إلا لأعمال متراكمة، ودروس مترادفة، يتخللها سآمة، تتبعها كلالة. ولم أشأ أن أقف موقف الرادّ على فريق معين، أو قائل متهور، أو مدع يتبين جهله. فالقرين لقرينه منسوب والشي يذكر بضده، والمرء يتحدث مع نده. إنّما تربصت هذه المدة حتى تبين الحقيقة واضحة ناصعة وتكون رسالتي قائمة بنفسها، ولأقف على أكثر ما يجول في الخواطر حتى يكون الدواء على مقدار الداء والجواب على مقدار السؤال.

المذرّه: كيف تزوج النبي صلى الله عليه وسلم تسعاً وقد حرمت الشريعة ما زاد على الأربع، وأنت خبير بأن من مرن على القانون يختلجه الشك والريب إذا رأى أن المشرع قد اختص بما لم يبحه لغيره؟ وكيف يتزوج تسعاً ويمنع غيره مما زاد على الأربع وسنن الأنبياء تأبى ذلك. ألم تر إلى ما حكى الله تعالى عن شعيب: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود: ٨٨]، وهاهنا المخالفة واضحة. إنا معشر المتعلمين يستعصي علينا أن نفهم جواز مخالفة القانون ولو بحجة الخصوصية التي كثيراً ما سمعناها من شيوخنا وقرأناها في الكتب، فنبينا صلى الله عليه وسلم يتبعه نحو خمس النوع الإنساني وسيرته قدوة للأمة.

الأستاذ: لعل النبي صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء السيدات قبل تحريم ما زاد على الأربع وهن: عائشة وميمونة وصفية وحفصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة.

المذرّه: ما منعه أن يفعل معهن مثل ما أمر الحارث بن قيس، قال: «أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اختر منهن أربعاً» أخرجه أبو داود. وهلا

فعل هو كما أخبر غيلان بن سلمة الثقفي؟ أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعاً. أخرجه الترمذي، وروي: أن نوفل بن معاوية أسلم وتحته خمس نسوة، فقال عليه الصلاة والسلام: أمسك أربعاً وفارق واحدة. والنبي صلى الله عليه وسلم كان عنده تسع فهو وسط بين ابن قيس وبين ابن سلمة، أفما كان الأجدر أن يفارق خمساً ويبقي أربعاً؟.

الأستاذ: لقد أعددت ثلاث إجابات لك في كُلّهن شاهد مقنع.

المذرّه: هات أولاها.

الأستاذ: لقد حرم الله عليه أن يتزوج غيرهن وأن يستبدل بهن من أزواج، فكان للمسلم بكل من الأربعة غيرها بحيث يتزوج غيرها ويطلقها، والرسول محرم عليه ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. قال البيضاوي: لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾[الأحزاب: ٥٢] فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى. وقال ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر لهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن، فيتبين منه أن القانون قد اشتدت وطأته عليه فجعل لهن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقاً ولا استبدالاً، فكثرة العدد له تقابل الحصر والمنع، وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالاً وطلاقاً، فلئن ضيق على المسلمين في الكم فقد ضيق عليه في الكيف، ولئن وسع عليه في الكم فقد ضيق عليهم في الكيف. فالمساواة متعادلة ضيقاً وسعة.

المذرّه: لقد قال هذا القول قبلك أحد الكتاب ولم يكن لدينا واقعاً موقع الماء من ذي الغلة الصادي، فالقانون لم يزل كالمحترم وهو عند الله والناس المحترم، فليكن منهج المساواة أقرب من هذا وأدعى للطمأنينة، فإننا قد أصبحنا في زمن لا نعرف فيه للمحاباة معنى ولا نعد مثل هذا إلا تلمساً لجواب من أي باب. نعم هذا فيه مساواة في الحقيقة ولكن يصبح القانون نوعين لا قانوناً واحداً.

الأستاذ: لو طلق نساءه صلى الله عليه وسلم لكان ذلك خللاً في السياسة، وسوءاً في التدبير، وتفريقاً للكلمة، وبخلاً بالجاه على مستحقه، والأنبياء أحق الناس بالكياسة والفضل والسماحة. من ذا ترى أحق بالطلاق من نسائه، عائشة بنت أبي بكر، أم حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم زينب ابنة جحش الأسدية، أم أم سلمة بنت أبي أمية المخزومي، أم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، أم صفية بنت حيي بن أخطب، أم ميمونة بنت الحارث الهلالية، أم سودة بنت زمعة بن الأسود، أم جورية بنت الحارث المصطلقية؟ فوالله لئن طلقت عائشة بنت أبي بكر لزلزلت القلوب ولكان ذلك أمراً إداً تكاد الأفئدة تتفطر منه وتنشق المرائر، أنى يكون ذلك وأبو بكر رفيقه في الغار، وداعي أهل الضلال والكفر للإسلام، وصاحبه الأول، ومؤاسيه بنفسه وماله. لئن فعل ذلك لكان أسوة سيئة لنا، ولكان الغدر بالأصحاب، من خلال أولي الألباب. ولئن طلق حفصة بنت عمر بن الخطاب لكان ذلك نقطة سوداء في جبين الشرف. وسبه شنعاء في وجه الأدب وكفراناً للمنعمين، وطغياناً على الصحابة الصادقين، فيا لها من فضيحة يخجل لها وجه الزمان، ويسود لها الحدثان، ويندى لها جبين الفضيلة، وينتصر بها

جنود الرذيلة، ويشمت لها جماعة الأعداء، ويتمزق بها عن المصلح شمل الأخلاء. ألم تر إلى ما ورد في السيرة الحلبية ومثله في البخاري بزيادة وحذف في مختلف الروايات عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلاً فدق عليه بابه وناداه، قال عمر: فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ماذا؟ أجاءت غسان، لأنا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا، فقال: لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول. طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. فقلت: خابت حفصة وخسرت، كنت أظن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي ودخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: لا أدري هو هذا معتزلاً في هذه المشربة. وفيه أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وفي كل منهن يجيبه الغلام بقوله: ذكرتك له فصمت، قال: فلما كانت المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبراً. فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه صلى الله عليه وسلم، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ قال: فرفع رأسه إليّ وقال: لا. فقلت: الله أكبر. الحديث مطولاً. وفيه قال عمر فقلت: أأستأنس يا رسول الله. قال: نعم، فجلست وقلت: يا رسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فاستوى صلى الله عليه وسلم جالساً وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. فقلت: أستغفر الله يا رسول الله. ولقد اقتطفنا من الحديث ما يليق بالمقام. فانظر كيف كان عمر وصاحبه يظنان أن طلاق نسائه أشد من غزوة الأعداء وحلول البلاء، ثم يفرق ويدهش ويستأذن، ثم يرد وهو يوجس في نفسه خيفة، وكأنه ظن أن غضب الله ولعنته، وجهتم وخزنتها، والزبانية وسلطتها تحيط به وبابنته لو طلقها النبي. وروي: أنه كانت جفوة بين حفصة والنبي صلى الله عليه وسلم فبلغ أباها عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقها، فحثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها. فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم من الغد وقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر، أي: تصالحها. وقال عمار بن ياسر رضي الله عنه: أراد النبي أن يطلقها فقال له جبريل عليه السلام: إنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة. فهل ترى بعد هذا طلاق عائشة أم حفصة؟ فقال: أما هاتان فطلاقهما فتنة ومحنة ومفسدة أي مفسدة.

الأستاذ: فهل ترى طلاق أم سلمة المسماة هنداً زوج أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وهي برة بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع، مات أبو سلمة ومعها أربع بنات: برة وسلمة وعمرة ودرة، فآواها النبي صلى الله عليه وسلم إليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه، وقالت: إني امرأة مسنة وإني أمّ أيتام، وإني شديدة الغيرة، فأجابها على لسان رسوله بقوله: الأيتام أضمهم إليّ وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهدات والعقبات من أقوى الدواعي للإسراع في طلبها عطفاً عليها، ورحمة ببناتها، وصلة لرحمها ومعرفة بحق أخيه من الرضاع، وإيواء لصغاره من بعده، أفتراه يطلق بعد ذلك، ولو أنه فعل لكان أمراً نكراً، واستضعافاً للأيتام، واستخفافاً بصلة الأرحام، واحتقاراً لشأن اللاجئات إليه اللاتي يستحققن

معونته . أم يطلق زينب ابنة جحش امرأة زيد الذي تبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد رمزاً إلى ما يقع في بلاد المسلمين كل آن من بعده ، إذ يصطفي الدعيّ بعد النسب ويقصي القريب ، فيكون الخلل في السياسة والخطل في الرياسة ، والإسلام وإن سوّى بين الناس وجعلهم إخوة في أعمالهم الدينية والدنيوية فقد نظر من وجه آخر إلى الكياسة في السياسة ، فلقد يصدق المولى ، ولقد يكذب ، نعم صدق زيد وصدق ابن زيد أسامة ، نعم هؤلاء وأضرابهم كانوا من أجلّ الأنصار بل قواد الجيوش المدافعين عن حوزة الإسلام وبيضته بالقنا والسيف ، كل ذلك مسلم ولكن نظر النبي نظراً أدق وعلمه الله بالوحي ما جهله الملوك العباسيون كالمعتصم والترك ، فجعلوا الموالي أولى بالمناصب ، وأحق بالكراسي ، وأجدر بحفظ السياسة ، والاستبداد بالرياسة ، فحق القول على أكثرهم فهم يعمهون . نظر ذلك كله النبي فأمره الله أن يتزوج زينب وألقى في روعها بغض زيد ، فلما شكا زيد أنفتها منه ، وجفوتها له ، وشمخها بأنفها خيلاء وكبراً ، إذ كانت من صميم قريش وهو مولاهم ، قال له : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، ولامه الله على ما كتم في نفسه من أنه أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال له : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

ذلك لأن يصدع بالأمر ولا يخاف في الله لومة لائم ، فكيف يخجل من تغيير ما ظهرت عواقبه الوخيمة بعد ذلك واستبان ضرره ، فلقد كان للترك في دولة بني العباس من الفتك بالملوك ، وتسميل العيون ، وقطع الرقاب ما تقشعر منه الجلود ، ولكم شدخوا الرؤوس واستنزلوا قرابة النبي بعد عز من مراتبهم بشهوة عرضت ، ونميمة بدت ، وضغينة كاذبة يتدعونها ، وأغراض ذميمة يتبعونها ولآثام يقترفونها . وكذلك أولئك الجنود المختلفون والفرق المتشاكسون المسمون الإنكشارية ، علموا أنهم من وشيجة غير الترك ومن عنصر لا يتصل معهم ولا يلتئم ، فاتحدوا للمنفعة ثم أتوا صفاً وأهلكوا الحرث والنسل في أنحاء الدولة ، وقد استنام الترك لتلك العقارب والحيات كما استنام العرب قبلهم لغلمان المعتصم الذين تناسلوا وتكاثروا وأوقعوا الدولة في حيص بيص ، فتفرقت شذر مذر ، ومزقت كل ممزق وأصبحوا أحاديث الأمم الحاضرة والغابرة ، ذلك ما كان يرمز إليه زواج زينب ابنة جحش ، ذلك هو السر المصون والجوهر المكنون ، ذلك أصل سياسة الله في الإسلام جهلها الناس ، ولئن علموا فلقد غشى على أعينهم الطمع ، وذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

وهاهنا قال المذّره للأستاذ : آن أوان الانصراف ، فلنعد غداً صباحاً ، وإن موعدنا الصبح ، أليس الصبح بقريب .

المجلس الثاني

جاء الأستاذ والمذّره وقال الأستاذ : هانحن أولاء فرغنا من الكلام على زينب ابنة جحش أم المؤمنين رضي الله عنها ، فنقول اليوم : أترى أن يطلق أم حبيبة وهي رملة بنت أبي سفيان بن حرب ، وهي التي نبذت دين أمها هند وأبيها أبي سفيان فحل قريش زعيم القوم وكبير العشيرة أبي معاوية ، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى ، فتنصر زوجها هناك وثبتت هي على الإسلام ، فانظر كيف رزئت بهجر أبويها ثم بفراق أهلها وقومها وعاشرت قوماً سود اللون يخالفونها في العقيدة وهم الحبشان ثم تنصر زوجها ، فهل بعد ذلك

من محن تصبّ وإحن وعذاب واصب؟ فماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم فيكافئها؟ أرسل عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي رحمه الله، فزوجه صلى الله عليه وسلم إياها، وأصدقها النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار، والذي تولى عقد النكاح عثمان بن عفان، وجهزها النجاشي من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة، فهل يكافئها بمثل هذا ويرفع عنها الضيم الذي توالى عليها بسبب الإسلام، ويشرفها ويرفع رأسها بين قومها ثم بعد ذلك يفارقها؟ إن هذا لعار وأي عار، بل إثم كبير، وزلة لا يغفرها الدهر، ولا يرضاها الصعلوك الغرّ، فما بالك بمن هو القدوة الأعظم، والسيد الأكرم. أم يطلق جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق واسمها برة التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن أعتقها؛ ولما رأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية قالوا في حق بني المصطلق: أصهار رسول الله، فأعتقوا ما بأيديهم منهم، قال في الإمتاع: ولما تزوجها صلى الله عليه وسلم خرج الخبر إلى الناس وقد اقتسموا رجال بني المصطلق وملوكهم، ووطئوا نساءهم، فقالوا: أصهار رسول الله، فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي. فهل يطلقها بعد أن شرفت قومها بزواجه فرفعوا رؤوسهم بين القبائل؟ أفيجوز في شرعة الفضيلة أن ينكسوا رؤوسهم بين الملأ صاغرين، ويعيروا بالخيبة والتعاسة خاسئين؟.

المذَرّه: هذه المعاذير التي ذكرتها إقناعية لا تروي من غلة ولا تشفي من علة ولكنها تقوم حجة وقتية، ويجتزئ بها أواسط الناس، فأما الأذكياء فإنهم يبقون وعندهم بعض ريب وقلق واضطراب.

الأستاذ: ولماذا؟.

المذَرّه: إن ما جاز أن يكون شأنه مع نسائه يجوز أن يكون مع سراة العرب وأشرافهم، فلقد يحتج كل بما يرزأ نساءه من المصائب، وما ينتابهن من النوائب، وما يعتري أحبابهن والحبائب، من تنكيس الرؤوس، وحلول البؤوس، وذل النفوس، وشماتة الأعداء، وحزن الأخلاء.

الأستاذ: ليس شأن سراة العرب وصعاليكهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا وقائعهم كوقائعه، فالطامة هنا كبرى وهي متوجهة للأمة ونظامها كما أوضحته لك فيما مضى، وكيف تنسى عمر وما حثا من التراب على رأسه وهو ركن مهم في الإسلام. وكيف قال هو وصاحبه: إن طلاق نسائه أشد من احتدام وطيس الحرب وضرب الهام، وإعمال السيوف، والقنا يقرع القنا، وأمواج المنايا تتلاطم. ثم قال الأستاذ: فماذا كنت تفعل لو كنت مكان النبي صلى الله عليه وسلم؟.

المذَرّه: أنتهج خطة الحيلة بحيث أسلط القانون على الناس ثم لا أمس شرف هؤلاء السيدات بسوء.

الأستاذ: وكيف ذلك؟.

المذَرّه: أملكهن زمام أنفسهن، وأخيرهن. فأكون قد مهدت لنفسي العذر، وقطعت لسان العذل، فلو طلقت إحداهن نفسها لم يسود وجهها بما يقول الناس: إن النبي أبغضها فنبذها، وليس مقام النبوة يمسه سوء من فراق سيدة لم تختره.

الأستاذ: قد فعل النبي ذلك إذ قال الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]. فبدأ بعائشة

فقال: يا عائشة إني أعرض عليك أمر أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ومبشراً.

المدَرِّه: هذا كلام حسن، فماذا كان بعد ذلك؟.

الأستاذ: اختاره نساؤه كلهن، وحرم عليه استبدالهن وطلاقهن كما تقدم، وسمين أمهات المؤمنين، وأعطين هذه المنزلة السامية في التاريخ والأمم جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.

المدَرِّه: هل كان نساء النبي يقدرن هذا المجد قدره. وهل يرين أن المجد والشرف والاسم والصيت فضلاً عن الدار الآخرة أرقى وأرفع وأعز من المال والشهوات الحيوانية. وهل من حوادث تؤيد ذلك حتى نقول إنهن كن يردن الله والعزة والشرف والآخرة؟ وحتى نضرب الذكر صفحاً عما نعلمه من أنهن كن يطلبن منه النفقة وأن ذلك كان من أسباب هجره لهن شهراً كاملاً لمغاضبتهن له، فكان ذلك من أسباب نزول آية التخيير.

الأستاذ: نعم كن يقدرنه حق قدره، ألم تر إلى أخت دحية التي ماتت من الفرح لما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بها. ولما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن، فقلن: يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا. ألا إن للنساء نفوساً كما للرجال، يحببن الشرف كما يحبون، ويسعين للحياة والذكر والأجر وعلوّ الهمة كما يسعون. لقد برهنت النساء في كل زمان على أن فيهن من تفضل الموت على العار، بل إنهن أرق شعوراً، وألطف أفئدة، وأشد قبولاً لموعظة، وأكثر تقديراً لفضيلة، وأوفى ذماماً إذا صدقن العشير، فانظر كيف قضت أخت دحية الكلبي نحبها لما فاجأها من خبر زواجها بالنبي، فقل لي رعاك الله، أكان ذلك لمال والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينام على حصير، ويأكل الشعير، ولا يبالي بالحطام، ونساؤه يطلبن منه النفقات، ويقلن له كل يوم: هات. أم لشهوة وعنده كثير من العقيلات الفريدات وهو قائد حرب، ومعلم تلميذ، وقائم ليل وصائم نهار، وقاض بين خصوم، ومفرج هموم. فماذا يكون حظ النساء منه، كلا، وإنما ذلك الشرف والمنزلة الرفيعة في الدين والدنيا، فلا عجب إذا قالت سودة بنت زمعة: دعني حتى أموت تحت كنفك. وقالت هي والباقيات: لا تقتلنا بالفراق والطلاق، رضينا بالقوت ورضينا بما تصنع معنا من ترك قسمة على أننا أمهات المؤمنين وأننا لا ننكح بعدك، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥١]. قال البيضاوي: ترجي من تشاء منهن تؤخرها وتترك مضاجعتها وتؤوي إليك من تشاء وتضم إليك وتضاجعها. وهناك أقوال أخرى غير هذا لا حاجة لها في موضوعنا. وقال مخاطباً للمؤمنين: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[الأحزاب: ٥٣]، فكان له بعد ذلك على ما ارتضين واشترطن معه أن يترك القسمة لمن يشاء ويرضين منه بما يرضاه، فكانت الآية على وفق ما اشترطن وعلى ما ترضين عليه لما نلن من شرف، وما أحرزنه من فخر، إلى أبد الدهر.

المدَّره: لم حرمت أزواجه على المسلمين من بعده. وهلا أباح الله زواجهن أسوة بالناس؟.

الأستاذ: إن من الحكمة التي أودعت ذلك أن في التحريم سداً لباب الفتنة وحفظاً للسياسة وتوحيداً للكلمة. فلو أن إحداهن تزوجت برجل لتطاول للتدخل في السياسة، ولفعل بأدنى سبب ولأي وسيلة ما فعلته عائشة، فقد أداها اجتهادها إلى محاربة علي مطالبة بدم عثمان يوم الجمل، ولا ناقة لها في الخلافة ولا جمل، ولكنها رضي الله عنها أداها اجتهادها إلى النهي عن المنكر في نظرها واجتهادها. فلو أن إحداهن تزوجت برجل لتطاول للرياسة بحجة زوجية أم المؤمنين. ولكان له قدم صدق في الخلاف في مواطن السياسة. هذا فضلاً عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، فكان التحريم لحكمة بالغة وحجة نيرة وآية باهرة وبينة للباطل دافعة وللحق جامعة. فهل بقي في صدرك أيها المدره حرج؟ ألم يعذر الله والنبي وقد فعل ما لا مطمع بعده إعذار، ولا بقيت سبيل لعالم نطاسي وخرّيت لوذعي فيختار، بل قطعت الأسباب، ولا ملجأ لعاقل بعد ذلك أن يلج من أي باب؟.

المدَّره: لم يبق لي إلا باب واحد ألجه، ومحجة واحدة أسلكها. فهلا اتخذ ذلك فرصة ونحى منهن جماعة للعبادة خاصة ولدراسة العلم والحكمة، واصطفى منهن أربعاً ليكون جامعاً للخصلتين مؤدياً لغرضين محيياً للسنتين. فالمتروكات للدين والعبادات وذكر القرآن ومدارسته وفهم الأحاديث وحفظها على أن يقمن بهداية الخلق. وإرشاد الناس إلى الحق. والمصطفيات يكنّ على عدد الزوجات لسائر الناس ليكون ذلك قاطعاً لألسنة الملحدين، وإرشاداً للضالين، وحجة في هذا الزمان.

الأستاذ: قد كان كل ذلك، واختص النبي بأربع ولم يزد عليهن. وأبقى الباقيات يتذاكرن القرآن والحكمة. ففي النسفي والخازن والسيرة الحلبية ما يفيد ذلك. قال في السيرة الحلبية ما نصه: وقد كان أرجأ النبي صلى الله عليه وسلم من نسائه خمساً: سودة وصفية وجويرية وأم حبيبة وميمونة. وآوى إليه أربعاً: عائشة وزينب وأم سلمة وحفصة. ألا تعجب لم اختار أربعاً ولم يزد عليهن؟ فأما في ذكرهن الحكمة واحترامهن وعبادتهن فاقرأ ما قاله الله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣-٣٥] أمرهن بالصلاة والزكاة وأن يعلمن الحكمة ويذكرنها عسى أن يعلمن الناس ويكن قدوة، كما كانت أم سلمة وعائشة يعرفن كثيراً من الأحاديث وتروى عنهن. وكما كانت زينب بنت جحش صناع اليد الماهرة في الخرز وصنع الخفاف، فكانت بعده صلى الله عليه وسلم تخرز وتدبغ الجلود وتبيع وتتصدق بالثمن على الفقراء والمساكين فكانت قدوة. ويا ليت بنات المسلمين يعلمن ذلك، ليتهن يعلمن أن بعض الصناعات كانت مما قام به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، كما تفعل الأمم المتمدينة الآن في أوروبا والشرق واليابان.

المدَّره: عجب. إذن كانت تلك مدرسة؟.

الأستاذ: نعم هما مدرستان، فأول مؤسس لمدارس المعلمين والمعلمات في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم، وهنا انفض الاجتماع وانصرفا على أن يعودا من الغد.

المجلس الثالث

الأستاذ: ذكرنا أمس أن أول مؤسس في الإسلام لمدرسة المعلمين والمعلمات النبي صلى الله عليه وسلم وهذه مدرسة السيدات. أما مدرسة الرجال فهو المسجد والرجال هم الطلاب وهم أهل الصفة، منهم أبو هريرة وصهيب وسلمان وعمار وأمثالهم، ويقال: إنهم يبلغون أربعمائة يأخذون الصدقات ويحفظون القرآن ويتعلمون الدين عسى أن يكونوا معلمين كما كانت أمهات المؤمنين معلمات فيما بعد، فهل بقي بعد ما تقدم قول لقائل؟ أليس في إبعاد تلك السيدات عنه بحجة أو بغير حجة بعد ما ذكر قسوة وشدة لا محل لها. ألم يبين للشعب أن لا مطمع له في الاختصاص ولو كان جائزاً له فساواهم في الأربع وأرضى الباقيات أن يرجأن اختياراً منهن وقصرهن على العبادة والتعليم، فالطلاق إذن طريق وعر ومسلك خبيث بل معرة يأنف منها العاقل والجاهل فضلاً عن الصالح والعالم، والنبي صلى الله عليه وسلم لو أنه فاجأهن بالطلاق قسراً لكان ذلك أشبه بما صنع عمر من بعده، إذ فاجأ جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغسانيين بالشام، وقال له: لنقتص منك لهذا الأعرابي الصعلوك فلنكسر سنك كما كسرت سنه، ولم يتئد عمر في ذلك ولم يترقب حتى يجد له مخرجاً من عفو أو قبول أرش، ولم يطاوله، ففر جبلة ومعه ستون ألفاً من رجاله إلى بلاد الروم فتنصروا، ذلك لصرامة عمر في القانون، ولم يتربص حتى تتيح له الفرص مخرجاً. فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لا مفر منه ولا مخلص. فليس في الإمكان أبدع مما كان.

المذرَه: واهاً لك ثم واهاً واهاً. لقد أتيت بالعجب. وعلمت منك ما لم يكن ليخطر على بال. وإن في بيانك لسحراً. فما الجواب الثاني؟.

الأستاذ: أما الجواب الثاني فقيل: إن أولئك النفر وهم غيلان ونوفل بن معاوية والحارث بن قيس أسلموا بعد نزول آية التحريم، فيكونون قد اعتنقوا الدين بجميع نواهيه وأوامره، فتحديد العدد واجب عليهم. فأما أولئك الذين أسلموا قبل التحريم وهم جموع وافرة وألوف مؤلفة وربيون كثير. فما قرأنا ولا روينا أن أحداً منهم فارق ما زاد على الأربع. ولو كان ذلك لنقل إلينا واتصل بنا، وأمر تعدد الزوجات ليس بيسير وإنّما هو أمر اجتماعي يؤثر في أحوال الأمة ونظام الأسرات. بل نظام الاجتماع ليس يصح إلا بعد نظام الأسرات. فلو أنه أمر بفراق ما زاد على الأربع جميع من أسلموا قبل التحريم ما خفي علينا، ولتعدد النقل وكثرت الشواهد والدلائل، وعليه يكون صلى الله عليه وسلم واحداً من جم غفير من المسلمين أسلموا وعندهم جمع الكثرة من النساء ولم يطلقوهن فليس يعقل أن تكون تلك الألوف المؤلفة والجموع المختلفة والفرق المتفرقة المنتشرة في جزيرة العرب يمتنعون عما زاد على الأربعة قبل التحريم من القحطانيين والنزاريين، ويختص بذلك أربع: النبي وأولئك الثلاثة، ويكون كل أولئك الذين أسلموا قبل نزولها غير متجاوزين الأربع وفيهم السراة المثرون والشجعان الجحاجيح والقروم القماميم والسادة الصماميم وذوو البأس والشدة الذين هم أقدر الناس على الشهوات وإحراز العقيلات الفاتنات فهذا كاف وحده لمنع هذه الشبهة.

ثم قال الأستاذ : أما الجواب الثالث فلنضرب الذكر صفحاً عما تقدم وكأن الجوابين السابقين لم يكونا لا سيما أن الإجماع قام على أن ذلك خاصية له صلى الله عليه وسلم والإجماع حجة فيسقط الجواب الثاني بذلك ، ونقول : إنه ما من دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك في لفظه أو فعله أو نتائجه ، فانظر في سير الأنبياء السابقين واللاحقين تر أن لكل واحد منهم ولكل قائم بعمل من سائر الناس في أحواله وأعماله وجهين : وجه يتلألأ نوراً وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تنعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسود وجوههم ، فيلج الشك في قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، وهذا في المشاهدات معلوم . يرى الناس الأشجار على شواطئ البحار ذات ظل في الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا ، وإنّما ظله مرتسم على سطح الماء فيخيل للناس أنه متدل إلى أسفل ، ويرون النار المتقدة من بعيد كبيرة وهي صغيرة ، ويرون الشبح فوق الجبل صغيراً وهو كبير ويرون الزجاج المصدوع أبيض ولا بياض وإنّما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتتبين الحقائق عند التدقيق ، ومثل هذا في المسموع عن الأنبياء . ألا ترى إلى قصة الخضر عليه السلام إذ اقتلع لوحاً من السفينة فلامه موسى عليه السلام ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وأن الوجه الذي تراءى له أسود ، وأن المقصد إغاثة اليتامى بعيب السفينة لئلا يأخذها الملك غصباً .

وما كان ذلك إلا للأخذ بظواهر الأمور ، وانعكاس الحقائق في المرويات كما عكست في المرئيات . وفي قصة داود وسليمان معتبر ، فقد كان لأولهما (٩٩) امرأة ولآخرهما المئات من الحور الحسان ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[الرحمن : ٥٨] مما ماج به قصره ، وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء المعمورة ، وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرون الأرض نحو نصف النوع البشري نحو سبعمائة مليون ، يؤمنون بداود وزبوره ومزاميره ، وترى اليهود والنصارى يتلونها آناء الليل وأطراف النهار ، يناجون ربهم بكرة وعشياً ، متضرعين بما في المزامير من الآيات ، ولا يجدون في صدورهم ما يجد الناس اليوم مما تموج به بحار الأنفس وقواميس العقول ، وتغلي به مراجل التعصب اليوم لبضع من النساء كن عند آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، علمت الأنفس بفطرتها أن الديانات والملل لا تتصدع بمثل هذه المتشابهات التي قد يعوزها الدليل والبحث ، فلا يعبؤون بمثل تلك الشكوك ، إذ هو مما يبدو لبعض النفوس وجهاً أسود باديء الرأي ، ولو حقق الأمر الأديب ، ودقق الأريب ، لوجدا العالم كله ليس يخلو من الوجهين في ظواهر الأمر ، وعند التحقيق يتجلى لا عوج فيه ولا شبه ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك : ٣] ، ولأضرب لك مثلاً بالشمس ترسل أشعتها الذهبية فيكون منها حياة الحيوان ، وقوام النبات ، واستضاءة الطرق والمسالك ، وجري الأنهار بحرارتها ، ومع ذلك لا تعدم زارياً عليها ، عائباً لها لوجهها المسود في نظره لحكمة لم يفقهها ، وآية لم يدركها لهاجرة لدغته ، أو ريح سموم آذته ، أو ضربة شمسية في رأسه أصمته ، أو زيادة حرارة في عينيه أعمته . لاستعداده في نفسه ، وضعف في جسمه ، وخلة في المزاج .

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فلا عيب على الشمس المضيئة ، إنّما العيب على القوابل الرديئة ، فيعمى إذ ذاك عن فضائها ، ويحكم

بالجزئي الموهوم على الكلي والعموم، وقد دق ذلك الجزئي فلم يحط به علماً، فكان النظر جزئياً لا كلياً، بل وهمياً لا عقلياً. فالأنبياء والمصلحون كالشموس، وعلومهم كالأضواء والأنوار، والملحدون أصابهم حرها لضعف عقولهم وإدراكهم.

ومن يتطلب جاهداً كل عثرة　　يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فلا ضرورة إذن لما صح من الجوابين السابقين إلا رداً لما يقال على ألسنة أولئك الثرثارين، وإلا فبالله قل لي كتاب الله بين أيدينا وما لنا ولهذه الأضاليل والسخافات. مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجم من النساء ولا اعتراض عليهم حسب شرائعهم وأزمانهم وأممهم، لا نعترض ولا نسخط. قتل الإنسان ما أجهله. قتل الإنسان ما أظلمه. قتل الإنسان ما أقل علمه، وما أتعس نفسه، يتركون ما لديهم، ويأتون بخيلهم ورجلهم وصفوفهم ليحاربوا ديناً في مسألة عرضية لا جوهرية، وثانوية لا أولية. اللهم إن عبادك في الأرض يصلون وأكثرهم فاسقون؛ يتبعون الشهوات في لهجة. فوالله لا يريدون وجه الله، إنّما هو وجه الشيطان وخبث النفوس، وجهل العامة. اللهم إن أكثر الناس ظلوم كفار. اللهم إننا خلقنا في أمم يسير سوادهم مع الأهواء يساقون كما تساق الأنعام. ما حججهم إلا المغالطات. كل يسعى لملء بطنه، وسد نهمته، وشهوة فرجه، وسلخ جلود الأمم الضعيفة وذبحها على أنصاب الأمم القوية، فسلاح العلم أذكى سلاح وأمضاه، وهو طليعة جيش المدافع والسهام.

المذرّه: قد تجلت الحقيقة، وتلألأ نورها، ووضح الحق، واستبان السبيل، وإني أريد الكلام على تعدد الزوجات وجعلها أربعاً.

الأستاذ: لها وقت آخر، وانصرفا وهما فرحان مستبشران.

المجلس الرابع

المذرّه: قد اتفقنا في الاجتماع الفائت أن نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا في أمر تعداد الأزواج للمسلمين، ولكني اليوم تبدت لي شبهة فلأقدمها بين يدي ذلك السؤال.

الأستاذ: أنا لا أفهم أأنت مؤمن أم كافر. فإن كنت كافراً فلا شأن لي معك، وإن كنت مؤمناً فلندع المقال. ألا وإن نبوته ثابتة عقلاً، ألا ترى إلى ما قاله كارليل المؤرخ الإنجليزي في كتاب الشجاعة والشجعان، وكيف برهن كما برهن شراح العقائد النسفية بالنتائج والثمرات. قال كارليل: رجل بنى بيتاً حسن البنيان متين التركيب. قائم الجدران منتظم الأركان، ثم بقي البيت ألفاً ومائتي سنة لم ينهدم منه ركن، ولم تسقط من أعلاه شرفة، وهو لا يزال يزداد جدة مهما تقادم عهده، وبعد أمده، فهل يبنيه دعي في البناء. الباني محمد صلى الله عليه وسلم والبيت الإسلام، فإذا ثبتت لديك نبوته فاضرب بالشكوك عرض الحائط، وهناك أدلة التجربة فجرب قوله في الحديث وفيما أنزل عليه من القرآن وانظر هل تكون النتيجة كما أخبر الدين أو ماذا تكون؟ فإن صدقت النتائج فالقول حق، فإذا قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩] فاعمل بها وانظر النتائج، هذه أمور قد فرغ العلماء والكتاب منها، وجربوها وصدقوها، فكن على آثارهم واقتد بأعمالهم تفز كفوزهم.

المذرّه: أنا مؤمن ولكن أسألك ليطمئن قلبي ولأحاج الجاحدين.

الأستاذ: الجاحدون إذا لم يؤمنوا فلنترك الجدال معهم.

المدّرَه: حقاً، ولكن بعض الشبان يحار فيها لعموم المضلين، أذناب الأوروبيين في بلادنا. إذ قد أتوا صفاً، وقالوا: لقد أفلح اليوم من استعلى.

الأستاذ، وغلا دمه: ماذا يقول أذناب الأوروبيين؟.

المدّرَه: يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مغرماً بشهوة النساء، وقد استدلوا بحديث في طبقات ابن سعد أنه جيء له بقدر فأكل منها فأعطي قوة أربعين رجلاً في الجماع، وهذا الكتاب يسمى كتاب الطبقات الكبير تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدي رحمهما الله وطبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، وهو خمسة عشر جزءاً، وصححه علماء الألمانيون بأمر من الجمعية الكبرى الأكاديمية الملوكية البروسيانية سنة ١٣٢٢، فيه أن المؤلف روى عن محمد بن عمر عن رجل يسمى موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كنت من أقل الناس في الجماع حتى أنزل الله عليّ «الكفيت» تصغير الكفت، فما أريده من ساعة إلا وجدته وهو قدر فيها لحم. وفي رواية: لقيني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت الكفت قوة أربعين في الجماع.

الأستاذ، تبسم ضاحكاً وقال: أهذا حديث النبي؟.

المدّرَه: نعم.

ضحك الأستاذ ثم استهزأ بالقول وسخر، وقال: إما أن تصدق ما في القرآن من آيات، وإما أن تصدق هذا الكلام. يقول الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]، ويقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، ثم يأتي أذناب أوروبا وصغار العقول وذبان العلماء، يقولون: إنما جاء يعلم الناس قوة الجماع بأكل لحم في قدر. وفي المثل العامي: إذا كان المتكلم مسلوب العقل فللسامع فؤاد بعقل ونهي وإرب. يميز الحق من الباطل. نبي يقول الله على لسانه: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[الأحقاف: ٢٠]، ثم يقال: كان يعلم الناس علم الشهوات. هذا ضلال مبين.

المدّرَه: ما قلت معقول، فماذا تصنع في الحديث؟.

الأستاذ: الحديث مزوّر مكذوب، وقد أخطأ ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير.

المدّرَه: إن هذا الكتاب أجمع وأحسن كتاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، وإذا لم نثق به فبمَ نثق؟.

الأستاذ: الحديث مكذوب موضوع.

المدّرَه، غضب غضباً شديداً: كيف تقول مكذوب وما برهانك؟.

الأستاذ، تبسم ضاحكاً: هذا الحديث مروي عن عمي نصار بائع الفول المدمس أمام باب الصعايدة بالأزهر.

المدّرَه: أتخرج من الجد إلى الهزل؟.

الأستاذ: ما قلته لك حق.

المدّرَه: الحديث في طبقات ابن سعد. وهو في القرن الثالث، وهذا الرجل في أوائل هذا القرن الرابع عشر فليس ما تقول مقبولاً.

الأستاذ : اسمع أيها الصديق ، إذا أثبت لك أنه مروي عن رجل يشابهه في صنعته أراد أن يشتهر ببيع الهريسة ، القمح المدقوق المطبوخ في القدور كالمدمس ، فماذا تقول ؟ .

المذَره : أقول : إن إذناب الأوروبيين جميعاً قوم لا خلاق لهم ، وإنهم صعاليك الأمم يريدون بنا شراً ، ولسنا نذم إلا الكاذبين الضالين منهم . فأما حكماؤهم وعظماؤهم وأجلاؤهم فلهم عندنا مقام عظيم .

الأستاذ : أتعطيني عهداً؟ .

المذَره ، قال : نعم .

الأستاذ : قال العقيلي : حدثنا معاذ بن المثنى ، حدثنا سعيد بن المعلى ، حدثنا محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله هل أوتيت من الجنة بطعام؟ قال : نعم ، أوتيت بهريسة فأكلت فزادت في قوتي قوة أربعين وفي نكاحي نكاح أربعين . قال : وكان معاذ لا يعمل طعاماً إلا بدأ بالهريسة . قال العقيلي : هذا حديث وضعه محمد بن الحجاج اللخمي وكان صاحب هريسة وغالب طرقه تدور عليه وسرقه منه كذابون . أليس يا صديقي هذا نصاً على أن هذا الرجل هو المخترع ، وأخذه كثير عنه بأسانيد اخترعوها وألفاظ غيروها . أو لم أكن صادقاً في قولي لك إنه مثل عمي نصار بائع المدمس ، فهذا اشتهر بالمدموس ، وذاك اشتهر في هريسة فكسب مالاً عظيماً بهذا الكذب . وذبان أوروبا يتبعون ذلك الفحش والحقارة والدناءة ليضحكوا على عقول الجهال . وقال ابن عدي : هذا الحديث روي عن سلام بن سليمان عن نهشل ونهشل وسلام متروك مرمى ، وأن أحدهما سرقه من محمد بن الحجاج وركب له إسناداً . وقال الأزدي : هذا حديث روي من طريق إبراهيم بن محمد وإبراهيم هذا ساقط . فنرى أنه سرقه وركب له إسناداً .

المذَره : الآن قد اكتفيت فلك الشكر والثناء على ما أوفيت . إذ قد حصحص الحق . وانقشعت غياهب الشك ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء : ٨١] ، وإني لأعجب كيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأستاذ : الموعد غداً في المجلس الخامس إن شاء الله تعالى .

المجلس الخامس

انتظم المجلس وتناجى الأستاذ والمدره

المذَره : وعدت أيها الأستاذ أن تفيض في الكلام على الأحاديث الموضوعة وكيف تسنى لامرئ أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأستاذ : لا تعجب من قولي . فكم من عجب في هذا الإنسان ، فلقد طغى وبغى وكذب قديماً وحديثاً ، ولم يذر من شيء إلا أحاطه بشروره وألبسه من أثواب زوره ، ونسج بعناكب بهتانه على حقائقه ولكم أنبت في طيب أرض الحقائق من شوك قتاده وحسك عناده وعضاه اختلافه . فإذا رأيت الأمم الحاضرة والجرائد السائرة تختلق إفكاً وتفتري إثماً فهكذا كانت فرق من السابقين وعزون من الأولين يتقولون على النبي صلى الله عليه وسلم لأغراض يقصدونها وآثام يجترحونها ومقاصد يؤمونها ومناصب يرتقونها وممالك يحكمونها وظلامات يقترحونها . ألم تر إلى ما روي عن عبد الله بن يزيد المقري قال :

(١) رجع رجل من أهل البدع عن بدعته فجعل يقول: انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنا كنا إذا تراءينا رأياً جعلنا له حديثاً.

(٢) وعن ابن لهيعة قال: سمعت شيخاً من الخوارج تاب ورجع، فجعل يقول: إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً.

(٣) وعن حماد بن سلمة قال: حدثني شيخ من الرافضة. قال: كنا إذا استحسنا شيئاً جعلناه حديثاً.

(٤) وعن أبي أنس الحراني قال: قال المختار لرجل من أصحاب الحديث: ضع لي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كائن بعده خليفة مطالباً بترة ولده وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم، فقال له الرجل: أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا، ولكن اختر من شئت من الصحابة وحط من الثمن ما شئت.

المدَرّه: إن شئت أن توضح هذا الأخير فإني لفي حاجة إليه.

الأستاذ: إن المختار كان أميراً على الكوفة مطالباً بثأر الحسين رضي الله عنه ظاهراً طالباً للملك باطنا، وفي المثل: «أسرّ حسواً في ارتغاء»، وفيه أيضاً: «بعلة الورشان يأكل رطب المشان»، وفي المثل أيضاً: «فلان مخرنبق لينباع» أي: يطرق ليثب. ولقد كان من خدعته أنه يخلق إفكاً ويتظاهر بخوارق العادات. وكان من حديثه أنه يوماً ما كان محارباً فقال لقومه: ستفرون من العدو بذنوبكم، فإذا كانت الهزيمة فستأتي الملائكة في صورة الحمائم البيض دون السحاب فبها تنصرون، ثم أعطى بعض خواصه تلك الحمائم البيض التي رباها، فلما كان الغد وقعت الواقعة وانشقت جموعهم وكانت واهية لكثرة العدو فأطلق أصحاب الحمائم البيض فاجتمعوا وأتوا صفاً وغلبوا العدوّ ومزّقوه شر ممزّق، وكان من جملة احتياله ونصب شراكه ورصد فخاخه ومبرم حبال أشراكه أن جعل لذلك العلامة في الحديث مالاً وافراً وهدايا ثمينة توافق مرامه وتواتي أن يقول: إنه خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم مطالب بثأر ولده ـ يعني سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه ـ فأبى الشيخ عليه ذلك حفظاً للدين ورضاء لله عز وجل.

(٥) ومن الوضاعين قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعمهم على الخير ويزجروهم عن الشر، ومضمون هذا أن الشريعة ناقصة وتحتاج إلى تتمة بزعمهم. فعن عبد الله النهاوندي قال: قلت لغلام خليل: هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق، من أين أتيت بها؟ فقال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة. قال ابن الجوزي: غلام خليل كان يتزهد ويهجر الشهوات ويتقوت الباقلاء صرفاً، وغلقت أسواق بغداد يوم موته فحسن له الشيطان هذا الفعل القبيح. وسئل عبد الجبار بن داود النخعي فقال: كان أطول الناس قياماً بليل وأكثرهم صياماً بنهار وكان يضع الحديث وضعاً. وكان أبو بشر أحمد بن محمد الفقيه المروزي من أصلب أهل زمانه في السنة وأذبهم عنها وأخفهم لمن خالفها، وكان مع هذا يضع الحديث ويقلبه. وعن أبي عمار المروزي قال: قيل لأبي عصمة بن أبي مريم المروزي: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ قال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة

ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة. وكان وهب بن حفص من الصالحين مكث عشرين سنة لا يكلم أحداً. قال أبو عروبة: كان يكذب كذباً فاحشاً. وعن يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير. فإذا كان هذا حال الزاهدين والأتقياء فما بالك بالفجرة الأشرار؟.

ومن الوضاعين قوم كانوا يتقربون للملوك والأمراء كغياث بن إبراهيم. فإنه حين دخل على المهدي وكان المهدي يحب الحمام، فقيل له: حدّث أمير المؤمنين، فقال: حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح، فأمر له المهدي ببدرة. فلما قام قال المهدي: إنه كذاب وأنا حملته على ذلك، ثم أمر بذبح الحمام ورفض ما كان فيه.

ومن الوضاعين من كان يضع الحديث في ذم من يريد أن يذمه، كما حكي عن سعد بن طريف أنه رأى ابنه يبكي، فقال: ما لك؟ فقال: ضربني المعلم. فقال: أما والله لأحدثنهم، حدثني عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: معلمو صبيانكم شراركم، وقيل لمأمون بن أحمد: ألا ترى إلى الشافعي وإلى من تبعه بخراسان؟ فقال: حدثنا أحمد بن عبد الله بن معدان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس. وقيل لمحمد بن عكاشة الكرماني: إن قوماً يرفعون أيديهم في الركوع وبعد رفع الرأس من الركوع، فقال: أنبأنا المسيب بن واضح حدثنا عبد الله بن المبارك عن يونس عن يزيد عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رفع يديه في الركوع فلا صلاة له.

أقسام الوضاعين

إن الوضاعين ثمانية أقسام:

(١) الزنادقة قصدوا إفساد الشريعة وإيقاع الشك في قلوب العباد والتلاعب بالدين، كعبد الكريم بن أبي العوجاء. قال ابن عدي: لما أخذ ابن أبي العوجاء إلى محمد بن سليمان بن عامر فأمر بضرب عنقه قال: والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحلل فيها الحرام وأحرم فيها الحلال. وعن جعفر بن سليمان قال: سمعت المهدي يقول: عندي رجل من الزنادقة وضع أربعمائة حديث فهي تجول في أيدي الناس.

(٢) قوم كانوا يقصدون بوضع الحديث نصرة مذهبهم كما تقدم عن عبد الله بن يزيد المقري.

(٣) قوم وضعوا للترغيب والترهيب كما ذكرته لك إجمالاً فيما تقدم، والمثال في ذلك ما يروى عن ابن عدي: حدثنا أحمد بن حفص السعدي حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا خاقان السعدي حدثنا أبو مقاتل السمرقندي عن عبد الله بن نافع عن ابن عمر مرفوعاً: من زار قبر أبويه أو أمه أو عمته أو خالته أو أحد من أقربائه كانت له كحجة مبرورة، ومن كان زائراً لهم زارت الملائكة قبره. قال ابن حبان: ليس لهذا الحديث أصل وأبو مقاتل حفص بن سليم يأتي بالأشياء المنكرة. وقال ابن عدي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن حدثنا أحمد بن صالح المكي حدثنا علي بن عباس الحمصي حدثنا سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسنوا أكفان موتاكم فإنهم يتزاورن في قبورهم. قال بعض العلماء: هو موضوع وصححه آخرون من

طريق غيره. وقال عبد الوهاب بن المبارك الحافظ: أنبأنا شهر بن حوشب بن عبد العزيز الجبلي أنبأنا أبو حامد محمد بن همام حدثنا محمد بن سليم حدثنا إبراهيم بن هدبة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيع جنازة فلما صلى عليها دعا بثوب فبسط على القبر وهو يقول: لا تطلعوا في القبر فإنها أمانة فلعل وعسى تحل العقد فينجلي له وجه أسود، ولعله يحل العقد فيرى فيه حية سوداء مطوية في عنقه فإنها أمانة، وعسى أن يقبله فيعود إليه دخان من تحته فإنها أمانة. هذا موضوع وأكثر رواته مجهولون وإبراهيم بن هدبة كذاب. وقال الخطيب: أخبرني أبو الفرج الطناجيري أنبأنا عبد الله ابن عثمان الصفار أنبأنا أبو محمد بن الحسن بن أبي الحسين بدر بن عبد الله مولى المعتز بالله حدثنا أبو القاسم أنس بن محمد بن علي الطحان حدثنا محمد بن بشر الأرطباني حدثنا محمد بن معمر حدثنا حميد بن حماد عن مسعر بن كدام عن عبد الله عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دفن البنات من المكرمات. قال لا يصح، وحميد يحدث عن الثقات بالمناكير، وروي من طريق آخر وهو منكر. قال الشيخ السيوطي: سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأنماطي الحافظ يحلف بالله عز وجل إنه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا قط.

(٤) قوم استجازوا وضع الأسانيد لكل كلام حسن كما حكي عن محمد بن سعيد أنه قال: لا بأس إذا كان كلام حسن أن نضع له إسناداً.

(٥) قوم كان يعرض لهم غرض فيضعون له الحديث كالتقرب للملوك كما تقدم عن غياث والمهدي.

(٦) قوم وضعوا أحاديث قصداً للأغراب ليطنبوا ويسمع منهم، قال أبو عبد الله الحاكم منهم إبراهيم بن اليسع وهو ابن أبي ضبة كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن عروة فيركب حديث هذا على حديث ذاك تستغرب تلك الأحاديث بتلك الأسانيد.

(٧) قوم شق عليهم الحفظ أو رأوا أن المحفوظ معروف فأتوا بما لا يعرف مما يحصل مقصودهم وهؤلاء منهم القصاصون الذين لا ربح لهم إلا بالأحاديث الموضوعة.

(٨) الشحاذون وأغلبهم يحفظون الموضوع، وروى الدارقطني عن أبي حافظ البستي: دخلت تاجردان «مدينة بين الرقة وحران» فحضرت الجامع، فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب، فقال: حدثنا أبو خليفة حدثنا الوليد حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قضى لمسلم حاجة فعل الله به كذا وكذا، فلما فرغ من دعوته قلت له: رأيت أبا خليفة؟ قال: لا، قلت له: كيف تروي عنه ولم تره؟ فقال: إن المناقشة معنا من قلة المروءة أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد وكلما حفظت حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد.

فصل

قال ابن الجوزي: والوضاعون خلق كثير من كبارهم وهب بن وهب القاضي ومحمد بن السائب الكلبي ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب وأبو داود النخعي وإسحاق بن نجيح الملطي وعباس بن إبراهيم النخعي والمغيرة بن شعبة الكوفي وأحمد بن عبد الله الجويباري ومأمون بن أحمد العروي ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن القاسم الطائكاني ومحمد بن زياد اليشكري.

وقال النسائي: الكذابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: ابن أبي يحيى بالمدينة. والواقدي ببغداد. ومقاتل بن سليمان بخراسان. ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام. وقال الحافظ سهل بن البراء: ثم وضع أحمد بن الجويباري ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن تميم الداري على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرة آلاف حديث.

اعتراف الكذابين

قد أقدم جماعة من الكذابين على كذبهم وتنصلوا من ذلك. عن ابن أبي شيبة قال: كنت أطوف بالبيت ورجل ورائي يقول: اللهم اغفر لي وما أراك تفعل؟ قلت: يا هذا قنوطك أكثر من ذنبك، فقال: دعني، فقلت له: أخبرني. فقال: إني كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين حديثاً فطارت في الناس وما أقدر أن أردّ منها شيئاً. وقال ابن لهيعة: دخلت على شيخ وهو يبكي فقلت: وما يبكيك؟ قال: وضعت أربعمائة حديث أدخلتها في الناس فلا أدري كيف أصنع. فعند ذلك قال المدره: كفى قد شربنا من هذا النهر حتى ارتوينا فحسبنا ما علمنا.

الكلام على تعدد الزوجات بين المسلمين

وإني أرجو أن تفيض الكلام على تعدد الزوجات عند المسلمين فليس على الإسلام والمسلمين أشد انتقاداً ولا أمرّ مذاقاً ولا أعظم وقعاً من هذه، فهي التي أطالت ألسنة القادحين وأطمعتهم في هذا الدين فأوضح القول فيه إيضاحاً والتمس في القول نهجاً وسطاً لا رمزاً ولا شططا بين ذلك متخذاً المساواة سبيلاً، وإن شئت فليكن الإيجاز أحسن تأويلاً.

الأستاذ: لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشرقيين والغربيين ولن تجالس امرأ من بني التاميز أو السين أو الطونة أو من الألمان أو الطليان وكان من المغرمين بالديانات إلا فاجأك بهذا الحديث، ولقد والله عجبت لهذا الإنسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى الفضيلة والشرف وينحط حتى يستنزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات. هذا الإنسان أيها العزيز مخلوق غريب ترى الأوروبي عالماً بكثير من الشؤون طائراً في الجو جارياً على الأرض بالصناعات عائماً في البحر سابحاً فيه بعمله حتى إذا دخل في مجادلات الدين هالك أمره فأيقنت أن هذا الإنسان المسمى بالمتمدين مقلد يستتلي كما تستتلى الجنيبة.

عاب الإسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة، ويا ليت شعري لو أنها كانت ثلمة في الدين لم تغن فتيلاً في الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه، فكيف وهي كما سنوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الإنساني. التعدد المعتدل على ما سترى من أعمدة المدنية المقبلة ومن عقاقير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع أيما تعديل، وتقومه أحسن تقويم، فمزاج الإنسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تعفن الأخلاط وتراكم أدرانه وتتابع آلامه ومسألة اجتماعه المنزلي من عويصات المسائل وكبرياتها، فلأفض في القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول:

(١) اعلم أن المقرر في الطبيعة كما هو المعلوم في سائر الدول والممالك أن عدد الذكور في الميلاد يساوي عدد الإناث تقريباً كما أوضحت في كتابنا «أين الإنسان»، وعليها بنينا نظام الأمم المقبلة إن

صحت عزيمة الإنسان وأراد التملص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته ، فلو أنك استقصيت مواليد الأمم أمة أمة والبلدان بلدة بلدة لرأيت هذه العجيبة الغريبة وهي التساوي بين الجنسين محكمة مطردة صادقة ، فلتقرأ مواليد بلدتك أو أي بلدة تجاورك أو أي مملكة أحصت ذكورها وإناثها تجد التساوي تماماً إلا قليلاً لخلل عرض ، وضعف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية ، هذا هو القانون العام وهذه أس بنينا عليه ما لهذا الإنسان من نظام طبيعي في أخلاقه وسياسته وصناعته وحكومته وكيف زاغت الحكومات وضلت السياسات واضمحلت الجماعات واكفهرّت الأجواء واختلفت الأنواء وتواثبت الشبات ونقضت العهود والأمانات كل ذلك لجعل الإنسان بفطرته وزيغه عن جادته فاقرأه في كتاب « أين الإنسان » تر العجب العجاب مما لا محل لذكره هنا ، وإنّما نريد من ذلك أن هذا الإنسان تساوت ذكرانه بإناثه ، فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطراراً ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل بل كل ذلك بمقدار ، فلم نسمع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوماً ما جميعاً إناثاً أو ذكوراً بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة .

(٢) المقدمة الثانية أني قرأت في إحدى صحائف « اللورد كرومر » الذي كان عاملاً للإنجليز في مصر في صحيفته السنوية أن تعداد الزوجات بين المسلمين لا يزيد عن خمس في المائة ، ثم نقل عن آخر من السائحين من بعده فقال : إنهم لا يزيدون عن ثلاثة في المائة ، هذان هما الأصلان اللذان أبني عليهما النتائج الآتية . فإذا تقرر هذان الأصلان نقول : منذ سنين معدودة عدّت أمة الإنكليز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة في كل ألف رجل وامرأة ، فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئات الآلاف وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل ، وقالوا : إن هذا إلاّ تباب ، أين نضعهن ومن يعولهن وماذا نصنع فيهن ، وزلزلت أرض نادي العموم زلزالها وأخرجت أرض الهموم أثقالها وقال سادات الإنجليز : ما لها؟ فيومئذ حدّثت الجرائد أخبارها أن عدد النساء ازداد وما تغني المدافع والجنود . هذا ما كان من أمة الإنكليز في التعداد العام ، ولعمرك ما من أمة إلا أصابها موت الأبطال في ساحات الوغى وفقد الرجال مما يقلّ تعداد رجالها عن نسائها ، وهذه الحرب المستعرة الآن شاهد عدل ، فكم من نساء أيمات قد فقدن النصير وأعزهن العشير ، فقلت الرجال وكثرت النساء ، وقد بلغنا عن التعايشي خليفة المهدي السوداني أنه ذبح الرجال واستحيا النساء فكنت ترى في القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلافاً من النساء ، وقد صح في الحديث عن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم إذ قال في أشراط الساعة : « وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » . عجب أمر النبوة يذكر أيام المسيح الدجال ، وإن أول أيامها يساوي سنة وثانيها يساوي شهراً وثالثها يساوي أسبوعاً الخ ، مشاكلة لحال الكرة الأرضية حذو القذة بالقذة كما في رسالتنا على هلال رمضان فانظرها ، وهاهنا تذكر أشراط الساعة ويذكر أنه يكون للخمسين امرأة القيم الواحد مطابقاً لحالنا الحاضرة في هذه الأيام السود ، إذ يفنى الرجال ويبقى النساء ، ولا عائل لهم ولقد علا صراخ الإنكليز وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت في كل ألف رجل وامرأة لعلة عارضة في النسل وطارئ من الضر على أرحام النساء وأصلاب الرجال ومناهج التربية وطرق الأغذية وما شاكل ذلك ، فما بالك بهذه الحروب الطاحنة والأضغان الظاهرة وقد جندل الأبطال وعم النكال

واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدهم بأساً في العراك والقتال، فطاحت تلك القماقيم الجحاجح وبادت تلكم الصناديد الفواتك والصماصيم الصوائل فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وحرمهم الفواتن الحرائر والبوائر العوانس.

المذَرّه: لقد أطلت في هذا المقام وخرج القول إلى الإبهام. فإن حاصل الأمر يرجع إلى أن الرجال وإن سادوا النساء عدداً فقد ينقصون عنهن بالطبع كما حصل نادراً بإنجلترا، وقد يكون بالمصائب في الحروب والأحوال العارضة العامة لسائر الناس، وأنا لا أرى هنا مجيزاً لتعدد الزوجات فإن القانون العام لا يكون لمثل هذه الأحوال العارضة والأمور الطارئة، على أنه لو أن ذلك يكفي في التشريع لعارضه تشتت الأسرات وتفرق الجماعات بتعدد الأمهات في الأسرة الواحدة. وهل أتاك حديث الأزواج وبؤسهم والزوجات ونكد عيشهن وأبناء الضرائر وضغنهم وسوء العيش والشجار والعراك والتقاضي في المحاكم وسوء العشرة. كل ذلك الشر لا يقاوم الخير الناجم من زواج تلكم الأيامى اللائي مات أزواجهن، وإذا اجتمعت علتان يتبع الأخف وهذه الشرور الكثيرة في الأسرات أنكى من ضرر عدد من النساء فقدن العائل وعشن على غير طائل وهن أرامل.

الأستاذ: لقد تعجلت ولم تتمهل حتى أتم القول فاصغ لما أقول موجزاً: إن أكثر الرجال سائرون على هذا النهج الطبيعي يتزوجون بامرأة واحدة والقليل انقسموا قسمين: ففريق أصبح شديد الشهوة قوي البنية كثير المال مغرماً بالنساء بالطبع. وفريق ترك النساء إما زاهداً دينياً كالرهبان، وإما ضعفاً عارضاً، وإما فقراً مدقعاً، وإما غماً وهماً. وهذا صنف دائم ثابت في نوع الإنسان فضلاً عن الحرب والنكال في الأمم، فهذا يدحض ما أشرت إليه من أنه نادر أو عارض يزول فلا مناص من جواز التعدد لأن النساء اللاتي لا عائل لهن يقابلن الفريق الأول من القسمين السابقين وهم الشهوانيون؛ فلو أنا حرمنا التعدد لأصبحنا وجهاً لوجه أمام الخطر الداهم الذي طغى سيله وطم وعم فساده من أوروبا فأغرق الشرق سيله الجارف، ألا وهو الزنا الرسمي كما هو في مصر الآن، وسعى له سائر الممالك المتمدينة لأن ذلك الغني يطلب أكثر من امرأة، وتلك النسوة البائسات الجميلات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات، فلو حجرنا عليهم وعليهن وجب أن تخصص أماكن للفجور كما هو حاصل الآن، فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت المروءة. أما الإسلام فتعجب ولتنظر، أباح تعدد الزوجات فزال الخطر المحدق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف. انظر أليس التعداد كان خمسة في المائة أو ثلاثة في المائة أي ثلاثين في كل ألف، ومن عجب أن هذا العدد الإحصائي يواتي ما قدمناه، فإن هذا المقدار في الألف يقابل المتقاعدين في كل أمة من الزواج وهو القدر الذي يجتمع فيه الخصال الثلاثة: الشباب والفراغ والجدة، وهي مفسدة للمرء أي مفسدة.

فانظر وتعجب كيف جعل الإسلام هذه المفسدة مصلحة، واستبدل الزوجات بالبغايا، وأبناء الرجال الأشراف المتعلمين العالمين بأبناء الزنا المتردين والمخنوقين، والعفة بالخنا والأمانة بالخيانة والصيانة بالإهانة، أباح الإسلام تعدد الزوجات فماذا جرى؟ تقدم أولئك الأقوياء أولئك الأغنياء المسرفون فمدوا أيديهم إلى من عندنا من النساء اللاتي لا قيم لهنّ فتزوجوهن، وأقفلوا بيوت الخنا ومحال العهر والفحش. شهد «اللورد كرومر» في تقريره أن هذا العدد لم يزد. جعل الله لكل رجل

امرأة فضعف بعض الرجال أو مات فقام غيره فاتخذ نظيره من النساء وعالهن؛ وهل جل المسلمين يعددون أو كلهم، وهل الممدون استوعبوا النساء حتى فقد عددهم؟ كلا ثم كلا، لسببين: الأول: أنه لم يخلق الله إلا امرأة واحدة نظير كل رجل، فالمتروكات نظير الهالكين والضعفاء. الثاني: أننا لم نسمع أن رجلاً ما أراد أن يتزوج فوق واحدة من النساء فلم يجدها، لم نسمع هذا في تاريخ أمة من الأمم حتى التي أباحت العدد المطلق إلى ما لا يحصى، فعلمنا أن الحكمة الإلهية حفظت نظام العالم.

أما ما يقال من سوء العشرة وفساد المنازل بين الإخوة فهذا كلام ناشئ من جهل القائلين به وعدم تبصرهم، فليس كل أخوين من أمين متشاكسين، ولا كل أخوين من أم واحدة متحابين. إن واحداً من ذوي قرابتي رأيته يحب أخاه لأبيه، ولما مات ذلك الأخ بكى عليه قريبي أكثر من أخي الميت الشقيق، فعجبت لكذب القوم الصراح وجهلهم الفاضح، على أن الحسد في الإخوة أمر طبعي وإنما يهذبه العلم والتربية والأدب والدين، ولو كانت المشاجرة والعداوة بين الأسرة علة لمنع التعدد لقلنا: فليتنزل نوع الإنسان من فوق سطح الكرة الأرضية، فالأمم كلها في ضغائن والأفراد متشاكسون، ولو سلمنا جدلاً أن العداوة كائنة فالأبناء خير والشر العارض لا يمنع الخير العظيم وهو ازدياد عدد الأمة وظهور الرجال فيهم، على أن أكثر من نراهم في الأمة هم أبناء أولئك الأقوياء المترفين الأغنياء الذين يعيشون ليلدوا، كما أن آخرين يعيشون ليعلموا ويؤلفوا. قوم يلدون أجساماً وآخرون يلدون عقولاً، كم من رجل في البلاد المصرية خلف ثلاثين ذكراً أو أربعين، ومنهم من بلغ أبناؤه وأبناؤهم عدداً وافراً فاختلطت عليه الأسماء. ما أسوأ الأمم الغبية الجاهلة التي تقول لأقويائها: لا تتزوجوا علناً وتزوجوا سراً لتموت أبناؤكم في المراحيض، ما أجهل تلك الأمم، ما أقل علمهم، ما أكثر جهلهم، ما أوضح العلم وما أجهل أولئك في علم الاجتماع.

فالحق والحق أقول: إن العالم الإنساني اليوم يعوزه الفلاسفة والحكماء ليعرف كيف يعيش، فإن نظرياته ضئيلة ضعيفة يحيا ويموت على عادات موروثة ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ما ليس من عادته، وفي التنزيل: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٩].

يقولون: تعدد الزوجات أفسد المجتمع الإسلامي، ويا للعجب لو أن التعدد إفساد لم يكن الثلاثون في الألف شيئاً مذكوراً حتى يفسد الألف، ومن ذا الذي ضل عقله وزاغ بصره فحكم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون، هذا قول من في قلبه مرض وعلى عينيه غشاوة فكيف وقد استحال الفساد صلاحاً وأضحى الثلاثون في الألف أو الخمسون منها إصلاحاً لباقيها يلدون لهم البنين والبنات ويخرجون القواد والعلماء والعقائل والفتيات وهم أقدر في الغالب على التربية والتعليم لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال، فيا ليت شعري كيف تسنى للأمم أن يقولوا للمرأة: افعلي الخنا إذا اخترته سبيلاً وكوني زانية إذا راق لديك وصفا وقتك، ويا أيها الرجل أبحنا لك الزنا واخترنا لك الخنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تغازل من تشاء من الفتيات، فأي فتاة فضحتها وأفزعتها، وأي امرأة أزلت صونها ومددت يديك إلى سترها فمزقته وإلى بيت شرفها فهدمته، وكان ذلك على اختيار منها ورضاً فإنا لكم معينون، وإن أثمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام في الأمة، وإن فاق أعداؤها عدداً

فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيوشهم، ثم تقول تلك الأمم أنفسها: أيتها المرأة ويا أيها الرجل إياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً، فلا يكن عندك أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع، احذروا ذلك فإنها عادة المتوحشين، ولو صينت الأعراض وأقفلت بيوت الخنا وقمت أيها الرجل على امرأتك فأقتها وكسوتها ورحمتها ونحن نحرم عليك ذلك، وعليك أيتها المرأة نحرمه تحريماً باتاً، ولكنا في الوقت نفسه نبيحه على سبيل الفجور والخنا، فاجمع يا رجل من شئت من النساء ولو ألفاً ما دام ذلك سفاحاً، وإياكما أن تجتمعا اجتماعا شرعياً ولو أدى ذلك إلى حياة البنين والبنات وكثرة القواد والمؤلفين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو المفاجئ الداهم، رضينا بالخنا رضينا بالزنا رضينا بقلة النسل وكثرة العقم، رضينا أن يكون نسبتنا إلى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيس إلى الألمانيين، لما في الأولين من إهمال أمر الزواج وفي الآخرين من الحرص عليه، وإنّما علينا إذا حكمنا أمة من الأمم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها، علينا أن نحسدها ونتطير منها ونشفق ونسومهم سوء العذاب، ونوجس شراً من كثرة نسلها، ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ونصطفي الحكام من صغار النفوس المتواضعين ونوحي إليهم أن قبحوا لهم هذه الشريعة البيضاء سودوها في وجوههم أفعموا أفئدتهم بالسوء والجدل والمناقشة وهوشوا عليهم لعلم يرجعون عن التعدد بل لعلهم يزنون ولعله يقل نسلهم فنتمكن من حكمهم، كما قال هنري الفرنسي في كتابه عن الجزائر إذ قال:

قعدنا لهؤلاء المسلمين كل مرصد وسددنا عليهم السبل وأحطناهم بسرادق من نار لعلهم يقلون فلم نقدر، حتى الخمر سلطناها عليهم وهي السلاح الفذ لمحاربة الشرقيين، فمنعه الإسلام أن يشرب حبه في قلوبهم أو يفتت أكبادهم، فهم يتناسلون والفرنسيون لا يتناسلون. حارت والله تلك الأمم. حارت في محاربة النسل في الأمم المستعمرة، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة، ولقد أخبرني صديق أن إحدى الأمم لما رأت الزنوج الأفريقيين والوثنيين يتزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس في خيمته طول نهاره يتمتع بما تكسب النساء له من كدهنّ وعملهن وهو قوي البنية ولا يصرفها إلا في إحبالهن وإيلادهن وإنجاب الذرية فكثر النسل، ولم يقدر الأوروبي أن يحاربه. ضربت الحكومة على المتزوجين من هذا القبيل الخراج عسى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الإنسان.

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[ابراهيم: ٣٤]، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم: ٤١].

المذّره: والله لقد شفيت صدري وأزلت الغمة وكشفت النقاب عن وجه الحقيقة الجميل. تمت الرسالة في صباح يوم الأحد ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٤ في ميدان القلعة بالقاهرة، ولما أضيفت هذه الرسالة إلى السورة تمت في يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٩٣٠م و٢١ شوال سنة ١٣٤٨هـ بقسم السيدة زينب.

الإسلام وتعدد الزوجات

جاء في «مجلة المرشد» ما نصه:

إن قوانين الاقتصار على زوجة واحدة أكثرت فرائس العزوبة في الغرب، وزيادة عدد الإناث على الذكور أوقعت العقلاء في مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[ص: ٣].

جاء في المجلد السابع من العرفان ما نصه : إن عدد النساء في إيطاليا يزيد على عدد الرجال بمليوني نسمة ، وفي ملزمة ٣٤ من « الهلال » في ضمن مقال بقلم « أميل زيدان » عن جريدة « الماتان » الإفرنسية عن الأستاذ « بيتار » الطبيب الكبير الذي هو اليوم عضو مجلس النواب في فرنسا إنه يقول : إن في فرنسا الآن ١,٥٠٠,٠٠٠ فتاة لن يجدن لهن أزواجاً ، على افتراض أن كل شاب إفرنسي يتزوج بفتاة واحدة ، وإني أقول بصراحة ما أنا واثق من صحته أن المرأة لا تتمتع بصحة جيدة ما لم تصبح أماً ، وفي اعتقادي أن القانون الذي يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على نقيض ناموس الطبيعة إنّما هو قانون وحشي بل مناف لكل عدالة .

وفي م ٣٧ منه أيضاً : يزيد عدد الإناث على الذكور في إنجلترا بمليون ونصف مليون ، أما زيادة الإناث على الذكور في ألمانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة في عدد المتزوجين ففي إنجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع أنها في سن الزواج . وقال « شوبنهور » الفيلسوف الألماني الشهير في رسالته « كلمة عن النساء » تعريب حسن رياض ما نصه : إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل ، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعفت علينا واجباتنا ، على أنها ما دامت أباحت للمرأة حقوقاً مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضاً عقلاً مثل عقله . إلى أن قال : ولا تعدم امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجاً يتكفل بشؤونها ، والمتزوجات عندنا نفر قليل وغيرهن لا يحصين عداً تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار ، ففي مدينة « لوندره » وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحة الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما آن لنا أن بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره ، إلى أن قال : على أنه من العبث الجدال في أمر تعدد الزوجات ما دام منتشراً بيننا لا ينقصه غير قانون ونظام . أمعن النظر في هذه الفقرة ، إلى أن اعترف بقوله : بل إننا لا ننكر أننا في بعض أيامنا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء ، وما دام الرجل محتاجاً لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شؤون هذه النساء .

وعن مؤلف كتاب « العشيقة الشرعية » الذي حاز السبق في مضمار الزواج في فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ نسخة : أنه ذهب إلى أن يكون لكل رجل إلى جانب زوجته خليلة تكون لها صفة قانونية فلا تحتقر ولا تمتهن في نظر الشريعة أو في نظر الرأي العام . قال : هذا هو الأمر الواقع اليوم في آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعترف بهذه الحالة وندخلها رسمياً في عرفنا . قلت : من هذا نعلم أن القوم لا يأنفون من تعدد الزوجات ومعترفون بإباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيحه لهم بعد أن ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ، ورأوا المفاسد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله . هذا ولا يخفى أن التعدد الذي يعيبه الجاهلون اليوم قد أباحه بالأمس المصلح الكبير في النصرانية « لوثر » ، فسمح لأمير الألمان « هس » بأن يتزوج ثانية لأن امرأته كانت شوهاء ، و« ادوارد السابع » وهو من علمت أصدر في أواخر أيامه منشوراً يبيح فيه تعدد الزوجات ، وكانت أمه

من قبل معارضة لهذا الرأي أشد المعارضة، وسيأتي يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد فيميلون إليه ميلة واحدة ويعترفون بفضل القرآن الكريم. اهـ ما جاء في المجلة المذكورة.

فمن فوائد التعدد: تكثير النسل، وتقليل الزنا، والتكفل بمن ليس لها كفيل، والمحافظة على الأعراض عند ازدياد النساء وقلة الرجال، وحفظ الزوجة الأولى لدى عقمها أو مرضها مثلاً. وأما قول إن التعدد ينغص العائلة فهو غير مقبول، لأن قلب الرجل يسع التعدد سيما مع استعمال العدل المطلوب.

في يوم الثلاثاء ١٤ يناير ١٩٣٠م سألني أحد المدرسين بمدرسة عابدين الخيرية، فقال: قد حصل بيني وبين ناظر المدرسة جدال في أمر تعدد الزوجات، وأن في الإسلام هذا ضد المدنية. قال: وأنا أجبته بأن العدل إذا لم يتم فإنه يمتنع التعدد بمقتضى الآية وهكذا. فقلت له: أريد أن تسمع مني ما أقوله لك بعقلك وتتخلى عن كل ما لديك من الآراء المحفوظة وتخلي بيني وبين عقلك وحده. ثم لتكن حراً في أن تعترض بما تشاء والعقل هو الحكم. فقال: أحب ذلك، فقلت: أولاً إن هذا المقام مستوفى فيما تقدم تقريباً، فلندع هذا الآن ولأقل لك: اعلم أن بني آدم على وجه هذه الأرض قد وضع لهم نظام لا اختلال فيه وهو أن يكون الذكور والإناث متساويين وهكذا كل حيوان، لأن اختلاف العدد خلل في النظام، ولذلك تجد الناس في كل بقعة من بقاع الأرض يكادون يتساوون في عدد الرجال والنساء، والذي يمنع هذه المساواة عوارض تعرض للحياة فتختل هذه الموازنة اختلالاً يسيراً. قال: نعم. قلت: إن المسلمين أطلق لهم العنان فيما مضى فتزوجوا ما يشاؤون. أتدري ماذا حصل؟ قال: لا، قلت: لم يعدد من الرجال في الإسلام إلا ٣ في المائة أو ٥ في المائة، وهذا القدر صغير جداً. قال: نعم والله. قلت: وهنا نسأل: إذا أراد رجل أن يتزوج امرأة في أي قطر من أقطار الإسلام فهل يجد امرأة يتزوجها مع هذا التعدد؟ قال: نعم والله يجد، قلت: فهل جاء في تاريخ الأمم أن الناس بحثوا عن النساء فلم يجدوا لأن الآخرين قد استحوذوا عليهنّ. قال: كلا ورب الكعبة. قلت: إذن المسألة واضحة، تساوى الرجال والنساء عدداً ولكن قد يموت بعض الرجال في الحرب أو بالمرض أو لا يتزوج الآخر للفقر فيلهم الله بعض الأغنياء الأقوياء أن يتزوجوا بعض الباقيات، فقال: هذا والله عجب، فقلت: إذن النوع الإنساني اليوم مقلد كالطفل، فلولا اتباع الإنسان للتقاليد الجاهلة لم تبق النساء البائسات بلا أزواج في أمة من الأمم، فالمسألة كلها مسألة القسيسين الذين ملؤوا الأمم صياحاً والأمم لا تفكر بل تتبع آراءهم، ولا يفكر إلا العقول الكبيرة عندهم ـ كما تقدم قريباً ـ فالنوع الإنساني اليوم لا يزال في حال المراهقة وسيأتي يوم يعرف الحقائق. فقال: هذا والله حق وليس لي عليه رد. فقلت: الحمد لله رب العالمين. تم الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في معنى قوله: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

الجواب الكافي

وهو ما أجاب عنه «عبد الله كويليام» الإنجليزي المهتدي للإسلام عن سؤال أحد علماء أوروبا في الشريعة المحمدية الغراء. وقد أتى في الجواب بالأدلة الفنية والبراهين العقلية على أن الديانة الإسلامية أكمل الأديان وأرجح الشرائع وناسخة لجميع ما سبقها وأنه لن ينسخها شيء بعدها أبداً ما دامت الأكوان وبقي الإنسان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال: ما هو البرهان العقلي والدليل الفني على أن الشريعة المحمدية أفضل الشرائع وأكملها وأنها ناسخة لكل ما سلفها ولا ينسخها شيء بعدها أبداً؟.

الجواب: لو أنعمنا النظر ذات ليلة ـ وكان الهواء صافياً والجو من الغيم خالياً ـ في الفضاء الذي لا يتناهى لرأينا لأول وهلة شموساً تدور حولها سيارات كثيرة كمنظومتنا الشمسية، تظهر لأبصارنا من أبعد المواقع في هذا الفضاء، تسير منقادة كل الانقياد للقانون المسنون لها لا تحيد عنه ما دامت، فإذا انقضت تلك الليلة نرى الشمس تطلع من المشرق. وما أسرع ما تنشر أشعتها على هذا العالم فيتمثل بين تلك الأشعة صور متتالية بديعة الجمال، ولو لفتنا النظر إلى الكرة الأرضية التي نحن عليها، التي إذا نسبت إلى سائر الأجرام العلوية لا تكون إلا كذرة صغيرة، نراها كتلة تألفت من البحار والأنهار، من الأودية والبراكين والجبال، من الصحارى والفلوات، من الأتربة والمعادن والرمال، من الأشجار والأزهار والأثمار، من النباتات والجمادات وذوي الحياة، من الإنسان والوحوش والحشرات.

وإن عقل البشر على ما بلغ من الارتقاء وما وصل من الدرجات العالية لعاجز عن اكتناه هذا الأجناس التي تألفت منها الكتلة الأرضية وما يعتورها من الأشكال والهيئات، وقاصر عن إدراك حقيقتها لما بين أشخاصها من الاختلاف وبين خواصها ونفعها وضرها من التغاير والانحراف.

كثيراً ما يكون جو السماء صافياً، والهواء راكداً ساكناً، فيفاجئنا هبوب ريح شديدة تثير السحاب ثم تحيطنا بالأمطار حتى نظن أننا في وسط البحار، وإذا بحثنا في هذه الحادثة الجوية وفحصناها لننظر علة حصولها بمقتضى القواعد الفنية نرى أن حرارة الشمس قد مست وتدخلت برطوبة الأرض، فتجعل تلك الرطوبات بخاراً، ثم تتصاعد تلك الأبخرة إلى الجو كما هو شأنها وتجتمع وتتكاثف حتى تصير سحاباً، ثم تتحلل فتصير ماء وتتساقط مطراً، وأيضاً لما كان في بعض ذلك السحاب بالضرورة كهربائية سالبة وفي البعض الآخر كهربائية موجبة كما هو الحال في سائر الأجسام يحصل في الهواء من احتكاك تلك السحب بعضها ببعض صوت يقال له الرعد، ولا ريب أن الحكمة في هذه التحولات والتركبات الجوية هي حصول المطر لتزدان الأرض وتنشط الحيوانات وتروى النباتات وبالإجمال لتحيي الأرض بعد موتها. ولو أردنا أن نبين ما في هذا الفضاء الذي لا نهاية له من العجائب والغرائب بياناً يشفي الصدور ونفصلها حق التفصيل لوجب علينا أن نملأ الأسفار. ولخرجنا عن بيان المقصد.

فيكفينا ما تقدم ذكره، ولنرجع إلى ما نحن بصدده، ماذا يخطر لنا عند مشاهدة هذه المصنوعات بما فيها من عجائب الترتيب وبدائع النظام، لا ريب أن أول ما نجده في نفوسنا هو الميل إلى البحث عن مظهرها من العدم إلى الوجود، عمن جعلها منقادة وخاضعة للقوانين والسنن الفطرية التي لا يعتريها تغير ولا يشوبها خلل ولا تشويش، عمن جعل كل فرد من أفراد هذه الكائنات مختصاً وممتازاً بخاصة من الخواص وسر من الأسرار الطبيعية، عمن يحفظ على هذه الكائنات تأثيراتها وتأثراتها في كل آن وزمان.

فإذا سرنا وراء تلك الخواطر القلبية وتأملناها كل التأمل، فلا محيص لنا من أن نصدق بالقلب والوجدان ونقر وننطق باللسان بأن ما نشاهده من العوالم ـ وما لا نشاهده أكثر ـ ليست إلا آثاراً للذات

المقدسة، ألا وهي ذات واجب الوجود جلت قدرته وعظم سلطانه، وأن هذا التصديق ينادينا نداء بليغاً ظاهراً وباطناً بقوله: إن ظهوري بين هذه الكائنات بين ما لا نهاية له من الآيات البينات، لدليل واضح على أننا من آثار قدرة ذلك الفاطر العظيم، وبراهين جلية على وجود الخلاق الذي يفعل ما يريد.

وبعد أن ندرك وجود ذات الواجب على هذه الصفة نجد بأنفسنا سائقاً وجدانياً يسوقنا لمعرفة كيفية تكون الكرة الأرضية التي نحن عليها، وهنا نحس أنه يجب أن نرجع إلى الفن فقط، إذ الفن إنّما هو قوانين وقواعد مستنبطة بالعقل الموهوب للإنسان من القوانين التي اندمجت في هذه الكائنات. فإذا رجعنا إليه رأينا أن ما يوجد فيه من النظريات الفنية في تكون العالم ترشدنا إلى أن الخلاق الأزلي والموجد الحقيقي أوجد هذه الأرض من البخار فجعلها مائعاً نارياً، واستمرت أزماناً كثيرة على حالها هذا تنتشر حرارتها، وكانت حرارتها تنقص زماناً بعد زمان، وكلما تناقصت الحرارة تبردت الأرض وكلما تبردت تكاثفت حتى حصل عليها قشرة وصارت صلبة على كر الأزمان، ثم بدأ الخلق فيها فأول ما خلق النباتات ثم سائر المخلوقات، وكان يعرض التبدل والتغير على النباتات والحيوانات على ممر العصور وتعاقب الأزمان، فكما أن ازدياد تصلب الأرض يوماً فيوماً سبب لتناقص الحرارة فكذلك تناقص الحرارة سبب لتغير القوة الإنباتية. ولهذا التبدل والتغير تختلف أصول الخلقة والقوانين الطبيعية دائماً.

نعم إن هذه الدعوى صحيحة، فإنه كما أن حياة المخلوقات التي وجدت في بداية تكون الأرض مستحيلة بعد مرور عصور وأزمان على تلك البداية؛ فكذلك حياة ما وجد من المخلوقات في الأعصر البدائية خارجة عن حيز الإمكان أيضاً بعد ذلك، فإن ما يعيش في الماء من المخلوقات لا يعيش في التراب، وما يعيش في التراب لا يعيش في الماء، إذ ليس لها إلا ذلك الاستعداد وتلك القابلية التي وهبت لها.

وخلاصة القول: إن أشكال طبائع المخلوقات ومهاياها كانت ولا تزال تتغير بتغيير الأزمان والأحوال والأمكنة.

ومما لا مرية فيه أن المخلوقات بقسميها النامي والجامد خاضعة لناموس طبيعي في تكونها ونشئها ونموها وتكاملها وبقائها وفنائها، فلا يخطرن بالبال أن ما يشاهد في الخلقة من التكامل آنيّ. كلا إن ما يحصل جميعه ليس إلا تدريجياً وتابعاً لناموس التكامل المسنون في هذا العالم، ومع هذا فلا ريب في فنائه إذا بلغ الغاية في كماله لوجوب زوال كل شيء عند انتهائه. وفي هذا يقول الشاعر:

إذا تمّ أمر بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

فالشرع يقول لهذا الزوال «القيامة» والحكماء يعبرون عنه بالانقراض. ثم إن كل شيء إذا فني وزال لا بد أن يتكون ثانياً، إذ ليس هناك ما تنعدم أجزاؤه كلياً، فما نظنه قد فني وزال من المخلوقات إنّما استحال شكله الأول وماهيته الأولى فيظهر في شكل آخر وماهية أخرى. وأيضاً فإنه كما أن الأحوال الطبيعية التدريجية كالتكون والنمو والمرض والموت تعرض للحيوان والنبات، فكذلك تعرض تلك الأحوال للأجرام السماوية، وهذا الذي يقول له أرباب الفن ناموس التكامل، وبالإفرنسية «ثه وولسيون»، والإنكليزية «ثه وليش».

وإلى هنا أكتفي بما ذكرته من المقدمات لما للسائل الفاضل من التبحر وطول الباع فيها، وما ذكرتها إلا لتوقف الجواب عليها، فأرجع إلى المقصد وأقول: إن ظهور الإنسان في هذا العالم متأخر عن تكون سائر المخلوقات كما هو مشاهد لنا، ومع هذا ينبغي أن لا يرتاب في أنه أشرفها وأفضلها خلقة وطبعاً مادة ومعنى، إذ أن قانون التكامل يقضي بأنه أتمها من حيث توجه الأشقياء نحو الرقي إلى الكمال. فالإنسان في الظاهر جرم صغير وفي الحقيقة عالم كبير. الإنسان مهبط السجايا القدسية وقطب الخصال البهيمية ومركز الخير والشر وقرارة الأنس والوحشة، فهو مجتمع الأضداد ومكمن الغرائب، فمهما كان الإنسان مدنياً بطبعه لا بد أن تقضي عليه حيوانيته باتباعه القانون الطبيعي ضرورة فلا يتسنى له أن يعرج بنفسه من حضيض الذلة والوحشة ودرك السفالة والجهالة إلى منصات العلم وذرى السعادة. على أن الإنسان في بداية الخلقة كان كسائر الحيوانات والبهائم متوحشاً يضرب في الأرض عاري الجسم مكتسياً ثياب الغفلة. الجهل رفيقه والعمى قائده. يتجول صباح مساء في الصحارى والقفار. لا يفقه من الحقائق شيئاً. ولا يفرق بين القبيح والحسن وبين الغث والسمين، تتجاذبه شهواته حيث توجهت فهو مغلوب لها خاضع لقيادتها. لا يعرف الليل إلا بغروب الشمس ولا النهار إلا بطلوعها، ولا يدرك ما هو الأكل والشرب والنوم والقيام والقعود. كان يتجول في مواقع كثيرة وأمكنة متعددة من الأرض وهو لا يدرك أين يتجول وأين يوجد وما هي ذاته. نعم إنه كان يشاهد ما لا يتناهى ولا يحد بالبصر من الصحارى والقفار والبحار وسائر الحيوانات والطيور، لكنه لا يفرق بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد وبين الجماد والإنسان. ترى هل كان الإنسان إذ ذاك يتخيل شيئاً عندما يرى ما تمثله الأجرام السماوية كل ليلة من المناظر العجيبة والأشكال البديعة، أو كان يلفت نظره ما يراه من صور القمر حينما يظهر هلالاً ثم يكون بدراً ثم يتناقص حتى يمحق ثم رجوعه إلى منواله السابق، أو كان يمعن نظره فيفكر في كسوف الشمس وخسوف القمر؟ كلا. إنه لم يكن يدور في خياله أو يخطر بباله شيء من ذلك. إذن ماذا كان يتصور الإنسان، وحول أيّ شيء كان يجول فكره؟ إنه كان لا يفكر في شيء سوى أن يفترس كل ما يصادفه من الحيوانات الضعيفة ليدفع بها بلية جوعه، وأن يهرب مما هو أقوى منه من الحيوانات لئلا يكون غذاء لها فيلتجئ إلى الكهوف والمغارات ومقعرات الأشجار لينجو بنفسه منها، ومع هذا لم يكن همه وفكره منحصراً في ذلك بل كان لا ينسى أيضاً التعارف بمن يلاقيه ليسكن شهوته إذا ثارت عليه. وخلاصة القول أنه كان لا يتوانى في التوسل بما يفضي إلى قضاء حاجاته الحيوانية والشهوانية فكان لا يحجم عن قتل أخيه الشقيق في هذا السبيل، ليتحتم إذن احتياج الإنسان لقانون آخر غير القانون الطبيعي ليهتدي به إلى الصراط المستقيم في معاشه، ويصون من الخلل نظام حياته، ويسلك أعدل السبل في واجباته وكل شؤونه، ويعلم علو شرفه على سائر الحيوانات ومكانة فضله، فإن الإنسان من حيث هو حيوان ميال بالضرورة لاتباع الهوى وترتيب المكائد والحيل والكذب والظلم والعدوان وغير ذلك من الأخلاق المذمومة، فلو ترك الإنسان وشأنه لبقي حليف التوحش أليف الجهل أبد الآبدين ودهر الداهرين، لكنه إذا وجد من يرشده إلى النافع والصواب في أمره، لا ريب أنه يصعد إلى ذرى درجات المدنية لغلبة السجايا القدسية فيه على الطبائع البهيمية.

إن كل ذي عقل سليم وفكر مستقيم يدرك مما سبق حتماً أن ما نشاهده في عصرنا من الترقيات العظيمة وما نراه يوماً فيوماً من الاكتشافات الجديدة، وما تحار فيه العقول من الاختراعات العجيبة، وما امتاز به الإنسان على غيره من إدراك آثار الصانع المختار البديعة لهو بقانون وراء القانون الطبيعي وبسائق غيره وهو الذي يقول له الحكماء «القانون المدني»، ويسميه أهل الشرع «الدين».

وقد اختار الحق تعالى أناساً متصفين بوفرة العقل وجودة الفكر يفوقون معاصريهم بسلامة الفكر والتصور والعواطف الوجدانية وباتباع الحق والتزام الحقيقة، ليؤسسوا هذا القانون المدني وينشروه بين البشر لحفظ سلامته وإقامة سعادته. هؤلاء الرجال هم الذين أرشدوا البشر إلى ما يوجبه الزمان والمكان وتقتضيه المصلحة والحاجة، هم الذين بلغوا بالبشر تدريجاً إلى ما نشاهده من الأحوال المستحسنة والأخلاق الفاضلة، هم الذين أخرجوه من الوحشة إلى التمدن بقدر ما اختصوا به من الحس الصادق المتناسب باستعدادهم وما امتازوا به من القدرة. وبعبارة أخرى بقدر ما أوتوه من الوحي الإلهي والنور القدسي.

فهؤلاء الرجال هم الذين يقال لكل واحد منهم «مؤسس المدينة» عند الحكماء، ونبي لدى الشرائع والأديان، ومن هذا يتضح أن الفن والشرع متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالشريعة مجموع فنون كثيرة لا تخالف الفن بل الفن شعبة منها.

إن أول نبي أو مؤسس للمدنية أتى ليسوق البشر إلى نهج الهداية قد جعل فاتحة أعماله وباكورة إرشاداته الأمر بستر الجسم، والنهي عما كان عليه الإنسان من كشف البشرة، وأكل كل ما يصادفه كسائر الحيوانات، وقد جد في سبيله حتى تمكن من أن يسن عادة التستر بين البشر ولو بأوراق الأشجار ويحصر الغذاء عليها، فإن المجتمع البشري كان محروماً إذ ذاك من كل حاجات المدنية ولوازم الإنسانية، فالمعامل مفقودة والصناعة والتجارة مجهولة، فلم تكن الأقمشة والأصواف ولا شيء من المنسوجات، ثم اتسعت الأفكار بمرور الزمان فوجد في الإنسان قابلية التعلم والتعليم واستعداد لمعرفة الأمور الحسنة ومنافعها، فيأتي النبي الثاني والعالم في حاجة شديدة إلى ظهوره فيوسع ما وضعه سلفه المحترم من القانون ويعلم البشر ما عجز عن إدراكه بعبارة أوسع من سابقتها، فتتوسع ساحة الإدراك حتى تصير أمة النبي الثاني تهزأ من الأمة السالفة كلما تذكرت وحشيتها وضيق إدراكها، وهذا من أحكام التكملات الأرضية والترقيات الزمانية، فإنها تولد في الأفكار انتباهاً يعين النبي الثاني على تبليغ كثير من الأحكام وتلقين كثير من الحقائق التي لم يتسن تبليغها للسابق لعدم الاستعداد، فإذا زاد توسع الأفكار على مرور الأزمان ينتظر ظهور نبي آخر، فإذا أتى بذلك النبي سهل عليه تبليغ الأحكام التي لم يبلغها النبي السابق أيضاً لضعف إدراك البشر حينئذ، ومع هذا لم يكن مفقوداً من له قابلية الأخذ واستعداد القبول لما أتى به النبي، إلا أن هذا الفريق كان لا يجيب دعوة النبي لعناده وتمرده حباً في البقاء على التوحش والهمجية، وهؤلاء هم الذين أطلقت عليهم الكتب المقدمة اسم الكفار، ثم يفيض العالم نوراً بظهور النبي الرابع فيقسم الحيوانات لما يركب وما يؤكل، ويأمر بقتل المضرّ منها وبترك غيرها على حالها، وعلى هذا المنوال قد جاءت أنبياء كثيرة ساروا بالبشر تدريجاً إلى ما نراه من الترقيات العظيمة وقطع المراحل في سبيل المدنية الفاضلة.

ولما جاء موسى عليه السلام اتسع نطاق المدنية بالنسبة للأزمان الغابرة وتكاثرت أفراد الجمعية المتمدنة ووجدت الصناعة والتجارة. وفي زمن عيسى عليه السلام تقدمت الجمعية تقدماً يفوق ما قبله بالضرورة، ويمكن أن يقال: إن زمن هذين النبيين العظيمين كان متفوقاً على أزمان سابقتهم، وهذا التفوق لا يحط من قدر الأنبياء السابقين ولا من شرفهم، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا يبلغون في زمن رسالتهم إلا ما كان ملائماً لعقول المرسل إليهم، فإذا أهمل أحدهم الأمر بشيء أو النهي عنه ثم جاء نبي آخر وقرر فيه حكماً فليس من الصواب أن يقال: إن النبي الأول حرم ذلك الشيء أو حلله. فإن قال قائل: لماذا إذن تركه ذلك النبي ولم يشرع فيه حكماً، وإلَامَ نحمل ذلك؟ أجبناه بأن عدم تكلم النبي الأول في أمثال ذلك الشيء لاشتغاله إذ ذاك بالأهم منه والأعظم نفعاً. مثاله أن عدم تحريم الخمر في زمان نبي وعدم النهي عن نكاح الأخت في زمان آخر لا يدلان على أن الخمر حسنة مباحة، وأن نكاح الأخت جائز عندهما، وإنّما لم يرد النهي في ذلك لعدم استعداد القوى العقلية لإدراج مضرات تلك الأشياء، فلو حرم شيء منها قبل وقته لنجم عنه فتن عظيمة ومنازعات طويلة ومقاتلات شديدة، ولذلك لم تحرم ولم تمنع حينئذ، فلا يفهمن من هذا الكلام أنا نعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متساوون فضيلة وعرفاناً، فإن من الحقائق التي لا تنكر أن بعضهم مفضل على بعض حيث كان تجدد الزمان من العوامل في نموّ وازدياد القوى المدركة، فالنبي المتأخر أعظم تكاملاً من السابق وهذا قطعي لا سبيل للارتياب فيه، وقد يقول بعض من استولى عليهم الوهم واستسلموا له: إن الحمق والسذاجة التي عند البعض في عصرنا لهي أعظم وأشد منها في بعض من كان في العصور الأولى. فيقال لهم: إن هذا صحيح ولكنه لا ينقض مدعانا، فإن الحكم دائماً يكون على الأغلب، فاستيلاء التوحش على مدينة لا يقتضي عدم التمدن في إقليم آخر، وارتقاء المدنية وعدم خلوّ إقليم منها في يومنا هذا هو ارتقاؤها من حيث العموم، وإلا فليس المراد أن المدنية عمت كل مكان ولم يبق للتوحش أثر في كل الجهات، فإنه لا يستبعد وجود من هو أفحش توحشاً ممن سبق في الأعصر الخالية.

ولما تشرف العالم بظهور سيد البشر الذي هو الوسيلة العظمى، والواسطة الكبرى، لارتقاء الإنسان إلى أعلى درجات المدنية، محمد صلى الله عليه وسلم، أكمل للإنسان حاجاته الضرورية على نهج مشروع، وما أسرع ما وصل به إلى أرفع مراتب السعادة، إذ كل من ينعم نظره ويحكم وجدانه فيما كان عليه الإنسان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم من الضلالة والغواية والسفاهة والجهالة ثم يتأمل في حال الإنسان وترقياته منذ البعثة لا شك أنه يرى ما بين الحالين من البون العظيم والفرق الذي لا يتأتى معه القياس والتقريب.

نعم نعم، إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد عرف الناس بخالقهم، وزجرهم عن عبادة الأوثان والشمس والنجوم والنار وما أشبه ذلك، وهداهم إلى سبيل النجاة والفلاح، وكانت دعوته باللطف واللين تارة والعنف والشدة أخرى حسب ما يقتضيه الحال، حيث كان بعض الناس المعاندين يستعمل أنواع التهديد مرة ويحاربه أخرى ليثني عزمه ويرجعه عن دعوته، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل بعضهم بالترغيب وبعضهم بالإرهاب والتخويف كما توجبه المصلحة ويقتضيه

الحال. فلما لبثت أنوار المدنية الإسلامية أن سطعت في أنحاء العالم وأزاحت ظلمات التوحش عن كل ما وصلت إليه، ولعمري إن انتشار تلك الأنوار بسرعة برقية وتكاثر أتباعها في أزمان قصيرة لمما أدهش أولي الألباب، وإذا بحثنا عن سر ذلك التقدم السريع والنجاح العاجل لا ترى له سبباً إلا كون أوامر الإسلامية ونواهيها موافقة للعقل ومطابقة للحكمة، فهاهو القرآن المبين الذي كل كلمة منه عين الحكمة، من ينعم نظره في إعجازه وأسلوبه وبدائعه وأحكامه يرى نفسه مضطراً للحكم بأنه قد أنزل في يومنا هذا رغماً عن نزوله قبل ثلاثة عشر عصراً، فإنه بليغ معجز مع سهولته ومفيد لجميع ما يرمي إليه من المقاصد مع إيجازه، وموافق لأسلوب كل زمان، ومهما ارتقت الكتابة وارتفع شأنها لا يزال في أعلى مراتبها، يعلم ذلك كل من له دراية بالمزايا القرآنية، وإنه كما أعجز البلغاء وتركهم يتيهون في مهامه الحيرة فكذلك قد جمع أسباب سعادة الدارين، سعادة الدنيا والآخرة، ولو بحثنا في الأحكام التي جاء بها وأدركنا ما فيها من المنافع والحكم لوجدناه جامعاً لكل ما يحتاج إليه البشر في بقاء حياته وتهذيب أخلاقه وبلوغه الكمال، فهو يأمر بالأخلاق الحسنة والخصال العالية وبكل ما يكفل للبشر سعادته في الدنيا والآخرة، وللبيان أذكر نبذة من أوامره:

يأمر بالعدل والتواضع، وحسن المعاشرة والتعاون، وحسن الخلق، وترك المرء ما لا يعنيه، وقدر النعمة حق قدرها، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، والإحسان بالوالدين، والترغيب في طلب العلم، والسعي وراء المعيشة، وعيادة المريض، وقبول النصيحة، والاعتراف بالجهل واحترام أهل العلم، واتباع الحق، والتأني في الأمور، وملاطفة الأيتام ومجاملتهم، وإعانة المحتاجين وحب الخير والشجاعة والعفو والإحسان، والاعتناء بالطهارة والنظافة، وإطاعة أولي الأمر، وعدم المبالاة بالحياة الشخصية لأجل الحياة العمومية، والحلم والصبر وعدم الغش وعدم الغدر والسخاء، ومعرفة الحقوق والثبات عند مشكلات الأمور، والقناعة وحفظ الأمانة والتعلم والتعليم، والاستقامة والعفة والصدق والمروءة وصفاء النية وعلو الهمة والاعتراف بالتقصير والإذعان للحق، والإنصاف والرأفة وصيانة العرض والشرف، والدلالة على الخير، وفصل الدعوى ومجانبة الهزل، والسعي لتهذيب النفس وصلة الرحم، وحفظ المحبة والوفاء بالوعد وإيفاء الدين، والشورى والتزام الحقيقة، وتوقير الكبير والرأفة بالصغير، وغير ذلك من الأمور المستحسنة التي كل واحد منها ركن عظيم من أركان سعادة البشر.

وأما ما نهى عنه فهي الأفعال القبيحة والأخلاق السيئة التي قد ثبت بالتجارب العديدة أنها مضرة بالإنسان ومفسدة لمعاشه ومعاده. ومن تلك المنهيات: الزنا واللواطة وشرب الخمر وأكل الربا والظلم والغدر والكبر والحسد والبغض والحقد والحرص والكذب والغيبة والنميمة والرشوة وسوء النية وقتل النفس والعناد وعقوق الوالدين وإكثار الكلام فيما لا فائدة فيه والميل للقبائح والرياء والجبن وإعانة الظالم والحيلة والغرور والغصب وكتم شهادة الحق وشهادة الزور والتجسس وسوء الظن والميسر «لعب القمار» والتفاخر وتطفيف الكيل والميزان واحتكار الطعام وعدم إعانة المحتاجين وقطع المودة والتعادي والقذف في عرض الناس ونقض العهد وخلف الوعد.

وفي القرآن أحكام أخرى جليلة لا يمكن إنكار فوائدها، منها ما يتعلق بسياسة الملك والدولة وعمران البلاد ورقيها، ومنها ما يحفظ أمن الرعايا واستراحتها، ومنها ما يتعلق بتقسيم المواريث وإيتاء كل ذي حق حقه، وفيه أحكام غير هذه لم تكن في غيره من الكتب السماوية، وأن كل ذي عقل وإذعان يعلم أن أحكام الشريعة المحمدية واسعة بقدر سعة العقل وامتداد الفكر متكفلة بصيانة كل حقوق متبعيها أحياء وأمواتاً.

وكم في القرآن من أحكام غامضة ومعان دقيقة ولما يكشف الفن نقابها رغماً عما بلغه من الرقي، ولم تستلفت تلك الأحكام أنظارنا فضلاً عن إدراكنا، وسبب ذلك أن عقول البشر لم تزل غير كافية لفهمها حتى إذا ارتقت الأفكار وبلغت كمالها واتسعت العلوم والفنون ووصلت غايتها. لا ريب أنها تنجلي أيضاً. مثال ذلك: حركة الكرة الأرضية لم يتسنّ لنا إدراكها وثبوتها إلا لزمان قريب من زماننا. والقرآن المبين قد رفع حجاب هذه المسألة قبل ألف وثلاثمائة سنة ولكنا معشر الإنسان لم نكن لندرك تلك الحقيقة حتى كشفت بعدما مضت عليها العصور وتعاقبت القرون.

وفي القرآن من أحكام حفظ الصحة ورعاية أسبابه، ومن أحوال الأمم الماضية وأخبارها ما يخول لنا الحكم عليه بأنه قانون طبي وكتاب تاريخي أيضاً. فإذا قرأنا ما فيه من القصص والحكايات نشاهد أنه ذكرها بأبدع أسلوب وأعلاه بلاغة وإعجازاً، وأنه يؤثر على نفوس البشر تأثيراً لا نجده في الكتب الأخلاقية والتاريخية والروايات الأدبية، سواء كتبت بالعربية أو التركية أو الإفرنسية أو غيرها. وإنه يصور الحقائق بكلام موجز كأن تلك الحقيقة مشاهدة وملموسة، وغير ذلك مما يعلن أن هذا الكلام المعجز منزل من لدن حكيم عليم.

ثم إن جلّ المباحث القرآنية لم توجد في غيره من الكتب المقدسة وهذا ضروري، فإن الإنسان في تلك الأزمنة السابقة كان محتاجاً لما هو أهم من هذه الأحكام بداهة، ولم يكن من هم المرشد حينئذ أن يشتغل بتبليغ غير ذلك الأهم، حتى إنه لو بلغ الأحكام المتأخرة لم يكن ليفهمها أحد فتبليغها إذن عبث، وأن كثيراً من المطالب الرفيعة والفنون العالية ذكرت في القرآن ولما تدركها العقول وستدركها مع ما حوتها من الأسرار على مرور العصور والأزمان. وقد ذكرت آنفاً قاعدة تفيد أن قانون التكامل تدريجي ليس آنياً، فيعلم بالضرورة أن القانون المذكور مفتقر إلى كتاب سماوي كالقرآن الحكيم إذ شريعة النبي الأول أكملت بشريعة الثاني، وشريعة الثاني بشريعة الثالث، وهكذا حتى جاءت شريعة موسى فأكملت بشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام، ثم أكملت الشرائع السابقة كلها بشريعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ظهر أن شريعة موسى عليه السلام أكمل وأرجح مما سبقها وشريعة عيسى أكمل من شريعة موسى عليهما السلام، فلم يبق مجال للشك في أن الشريعة المحمدية أكمل الشرائع السابقة وأنها ناسخة لها. فقد أتى الإنجيل بأحكام جمة لم تكن في التوراة حيث كان بعدها، ولهذا كان الإنجيل أرجح من التوراة، وللسبب عينه كان القرآن أرجح من الإنجيل.

فلو عكسنا القضية وزعمنا أن التوراة أرجح من الإنجيل والإنجيل أرجح من القرآن لحملنا أنفسنا كلفة القول بأن عقل البشر قد أصيب برجعة قهرية. وبهذا القول الذي لا يتفق مع المنطق نرتكب خطيئة لا تغفر ونظلم النوع البشري رغماً عما يدهش أبصارنا وعقولنا من الترقيات الجديدة

والاختراعات الحديثة . ولهذه الأسباب كلها كان المتأخر ناسخاً للمتقدم . وبموجب هذه القاعدة كانت الشريعة المحمدية ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع ، ولن تنسخ بشريعة أخرى فهي باقية إلى الأبد . فإن نسخ الشريعة بأخرى لم يكن إلا لأن أحكام الشريعة الأولى غير كافية لسد عوز البشر واحتياجاته التي يولدها الزمان وتزداد يوماً فيوماً . ومهما تكثرت حاجات الإنسان وازدادت لوازمه فلا يحتاج إلى شريعة أوسع من الشريعة المحمدية .

فقد ذكرت لك قسماً من الأحكام القرآنية . ولو أنعمت فيها نظرك قليلاً لرأيت أن حاجات الإنسان ولوازمه المدنية مهما كثرت لا تخرج عن دائرة الأحكام القرآنية . فالقرآن كافل لكل احتياجات البشر في كل عصر . وأن العقل البشري مهما ارتقى وتكمل لا يمكنه أن يخرج عن حدود الأحكام التي اشتمل عليها القرآن ، فأصبح من الضروريات اللازمة التي لا محيص للعقل عنها أن يتبع البشر الشريعة المحمدية الغراء في كل زمان ومكان .

وظهر بما قررناه آنفاً ظهوراً لا غبار عليه أن القرآن المبين قانون إلهي ونظام سماوي ومحكم أزلي لن ينسخ أبداً ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن اتباعه في كل زمان والعمل به في كل مكان لهو السعادة والنجاة والفوز والفلاح ، ومخالفته لهي الذلة والمسكنة والخسران العظيم ، وأن من أتى به لهو خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة : ٢١٣] . انتهى بالحرف الواحد من « رسالة الجواب الكافي » لعبد الله كويليام التي ترجمها إلى العربية الأستاذ « زهدي الخماش » أستاذ علوم الدين بالمدرسة السلطانية في بيروت . ويحسن لنا أن نلمّ بما كتبه المترجم الفاضل ترجمة لحياة المؤلف . قال :

نبذة من ترجمة المؤلف

هو عبد الله ويليم كويليام الإنجليزي المحامي بالمحكمة العليا بمدينة ليفربول يبلغ من العمر نحواً من الخمس والخمسين حينئذ ، نحيف الجسم ربعة وله ولدان اسم أحدهما بلال والآخر أحمد .

نشأ الرجل بين المتمذهبين بمذهب « الوسيليان » وكان من رؤسائه وواعظاً لشيعته ، كان يعتني بالعلوم الرياضية ، وله الباع الطويل فيها ، وفي سنة ١٨٨٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٣٠٠ هجرية ، أصيب بمرض عضال جعله طريح الفراش نحو سنة ، فأوصاه الأطباء بالسفر إلى أسبانيا الجنوبية لتبديل الهواء فتوجه إلى جبل طارق ثم إلى طنجة ، وأقام حيناً من الزمان يشاهد محاسن الدين الإسلامي وصفاء المسلمين وإخلاصهم ويتعلم العقائد الإسلامية ، فكان يزداد بالإسلامية حباً وشغفاً كلما ازداد علماً .

ولما رجع إلى بلاده أخذ نسخة من القرآن مترجمة للإنكليزية فكان يقرؤها بتدبر وإمعان ويقرأ كل ما يصل إليه من الكتب الإسلامية ، فعلم علم اليقين أن الإسلامية هي الشريعة الحقة التي لا شك فيها ولا ارتياب ، ولم يعجل في اعتناقها بل أخذ يبحث في الشرائع الأخرى وذلك مما زاده إيماناً ويقيناً ، فصمم على اعتناق الإسلامية ، إلا أنه كان يحول بينه وبين ذلك كثرة العيال وما أهمه من الأشغال ، ولما تمكنت تلك العقيدة من نفسه وخالطت حلاوة الإيمان مجامع قلبه فاتح أحد أصدقائه بما عزم عليه فأجابه ذلك الصديق : إن كنت تأنف أن تعتقد بالثالوث وأزمعت على تركه فادخل في مذهب الموحدين من النصارى . فقال له : كلا ، إنه يتعذر عليّ الوقوف بمنتصف طريق التوحيد ولا بد لي من ترك النصرانية

بتاتاً، فاعتنق الإسلامية وأقر بالشهادتين، وأفشى إسلامه بين أقربائه وذويه فسحروا منه وزعموا أنه مجنون، ثم جعل ينظم أحوال معيشته على القواعد الإسلامية، ولم يأل جهداً في دعوة بني جلدته إلى طريق الهداية والسعادة إلى الفوز الأبدي والفلاح السرمدي، فهدى الله بدعوته من ألهمه الإجابة؛ يزل يشتغل بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما اجتمعت كلمته مع من تبعه اتخذوا لهم مسجداً لإقامة الصلوات الخمس والجمعة والعيدين وهو الآن شيخهم ومرشدهم، ولما اتصل نبؤه بالخليفة الأعظم دعاه إليه وأناله من التفاته ما قرت به عينه وثلج صدره، وقد اجتمع مشاهير العلماء والأفاضيل بدار السعادة، فكل هنأه بما ناله من السعادة والمجد باهتدائه لهذا الدين المبين، ثم رجع إلى بلده ليفربول ولم يزل عاكفاً على الواجبات الدينية والشعائر الإسلامية. وقد ترجم محمود أسعد أفندي زيد فضله كتاب «دين الإسلام» للمومى إليه. فقال بعد ما ذكرنا من ترجمه حاله: وقد شاد المسلمون هناك مدرستين إسلاميتين إحداهما للذكور والأخرى للإناث يقبل فيها كل من يأتي من أطفال المسلمين من الخارج بأجرته، ولهم مجتمع منتظم فيه رئيس وأعضاء ولهم أئمة وخطباء ومؤذنون، ويجتمعون في كل سنة اجتماعاً عمومياً ينتخبون فيه من يستخدمونه في مصالحهم، وفقهم الله أجمعين لما فيه الخير والصلاح، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

من آثار كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين: (١) أن دين الإسلام لا يبيح أن يفضل أحد أحداً إلا بالتقوى، أما الأنساب فلا. (٢) وأن أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام فارتقوا، وسترى مثل ذلك في «سيرة موسى بن ميمون» و«اعترافات جاسوس» أو «ثلاثون عاماً في الإسلام».

الإنسانية الآن جاهلة متعصبة لكل شيء حتى للون. ألم تر إلى ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩، وهذا نصه:

معاملة الزنوج في لندن

عاد المستر «ابوت» صاحب الجريدة اليومية في شيكاغو ــ وهو زنجي واسع الثروة ــ إلى الشكوى من معاملة الإنكليز لغير البيض، فأبرق إلى المستر «مرلي» العضو البرلماني يشتكي أنه منع هو وزوجته من حضور حفلة على ظهر إحدى البواخر البريطانية في دعوتهما إلى أمريكا. وقال المستر «مرلي»: إن عدداً معلوماً من غير البيض كلفوا أخيراً أن يخرجوا من حفلة راقصة في لندن فرفعوا شكواهم إلى «اللورد باسفيلد»، وقد صمم المستر «مرلي» أن يثير هذه المسألة في مجلس العموم. وقال إنه ورد عليه كتاب من «المستر مكدونلد» عن مسألة تحريم الفنادق على المستر «ابوت» الصحفي الزنجي، قال فيه ما نصه: إن هذا من الأمور المزعجة جداً ولا تتفق مع العادات المرعية في الفنادق البريطانية، ولكني لا أرى أية مصلحة من مصالح الحكومة مسؤولة عن هذا الأمر، ولست قادراً أن أجد أية طريقة تخول الحكومة حق التدخل. اهـ.

فأين النوع الإنساني الجاهل من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] وقد أذن بلال في الكعبة بمحضر قريش عند فتوح مكة، بل أين هذا النوع الإنساني الكافر بالنعمة من النعجات والكلبات والثيران

والحمير، فإنها تعيش معاً ولا تبالي باختلاف الألوان، فإننا نرى الهرة والكلبة والنعجة والحمارة والبقرة ذوات اللون الأبيض تصاحب القط والكلب والحمار والخروف والثور ذا اللون الأسود أو الأحمر فلا ملازمة بين الألوان والأخلاق، إذن هذا الإنسان جهول كفار، نسي الفطرة فذكره الله بالإسلام، وأصبح المسلم في مصر لا يفرق بين لون ولون في صلاته ومجالسه، إذن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين والإنسان جهول كفار، وأما كون أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام وارتقوا فهاك منه مثلاً، وهو ما جاء في جريدة المقطم تحت العنوان التالي وهاهو ذا:

موسى بن ميمون

رسالة الحاخام الأكبر

إنني مغتبط بأن أوفق الآن إلى تحقيق الرغبة التي أبداها أحد الأفاضل في المقطم في الاطلاع على نبذة من حياة موسى بن ميمون وسيرته، وهاأنا أبر بوعدي السابق موجزاً مقالي على قدر الاستطاعة، ذلك لأن الشروع في بحث أصله ونسبه يؤدي حتماً إلى بحث حياته الشخصية وعلوّ أخلاقه ومكنونات صدره وحدة ذهنه وعلومه وآدابه ثم تأليفه وتأثير كل ذلك في الهيئة الاجتماعية وهذه كلها من الأمور التي يتعذر شرحها في مقال واحد مهما روعي الإيجاز والاختصار، فقد كتب عنه أكثر من مائة وخمسين عالماً من إسرائيليين وغير إسرائيليين، ولو جمعت كل الكتب التي أتى ذكره فيها لتألفت منها مكتبة كبيرة، ولذلك أترك جانباً كل ما يختص بالوجهة الإسرائيلية من تعاليمه ومؤلفاته، وهذا ليس بالشيء القليل بالنسبة لما في علومه الدينية والفقهية من الأهمية، وأقتصر على الكلام عن المكانة العليا التي بلغ ذروتها في تاريخ الفلسفة ولا سيما تأثير الآداب الإسلامية فيه باتصاله بعلماء الإسلام المعاصرين له، مكتفياً بذكر الدور العظيم الذي مثله هذا العالم الجليل في القاهرة مدة ٣٧ سنة بصفته حجة دينية ورئيساً روحياً للإسرائيليين وطبيباً في البلاط الأيوبي والمجتمع البشري.

أصله ونسبه

ولد أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله يوم ٣٠ مارس ١١٣٥ م. في مدينة قرطبة عاصمة الأمويين بأسبانيا، وتوفاه الله يوم ٢٠ ديسمبر ١٢٠٤ في مدينة القاهرة. وبعد أيام من وفاته نقل جثمانه إلى مدينة طبريا بفلسطين حيث دفن. وقد حفظت التقاليد الإسرائيلية أسماء أجداده حتى السابع منهم وأسماء ذريته حتى النسل السابع فيهم. وبين محفوظات الإسرائيليين الأثرية في القاهرة مخطوط على جانب عظيم من الأهمية كتب بالعبرية والعربية، وفيه ذكر لأحد أفراد ذريته من الجيل السابع يدعى داود ميموني كان كجده صاحب الترجمة رئيساً روحياً للطائفة الإسرائيلية في القاهرة سنة ١٤٠٤ م ويغلب على الظن أنه هو الذي قصد في أواخر حياته إلى دمشق الشام ليستوطنها مع عائلته.

وبعد ذلك تشتت تلك الذرية في أنحاء مختلفة. فقد ورد في التاريخ ذكر اسمين أحدهما عالم يدعى ميمون الفاسي نسبة إلى فاس وذلك في سنة ١٤٣٨ والآخر في سنة ١٥٦٨ كان عائشاً في بلدة مورانو بإيطاليا ويكنى بالباز، وفي أيامنا هذه نرى عائلات إسرائيلية كثيرة من أصل أسباني تحمل هذا الاسم، إلا أن كلمة الميموني لم تكن في الأصل اسماً لعائلة بل لشخص. فوالد صاحب الترجمة كان يدعى ميمون بن عباديا أي عبد الله، وكثيرون من إسرائيليي المغرب والجزائر يدعون بهذا الاسم

كميمون الدهان وميمون البريلي . والثابت عن أسلاف الميموني أنهم كانوا قد رحلوا من مراكش إلى قرطبة مع غيرهم من الإسرائيليين ، وكان ذلك في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث .

صباه ودروسه الابتدائية وأسفاره

تولى والده تربيته وتثقيفه وكان منذ حداثته يبثّ في نفسه محبة العلم ، ثم سلم زمامه إلى أشهر الأساتذة في قرطبة . فكان يدرس أصول الدين الإسرائيلي على أساتذة إسرائيليين والعلوم على أساتذة مسلمين ، وكانت العربية والعبرية لسانه القومي . وعدا تضلعه من العلوم العبرية يدرس العلوم اليونانية والعربية والرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة . على أنه لأسباب سياسية اضطر والده للهجرة مع أسرته فغادروا قرطبة أيام كان صاحب الترجمة في الثالثة عشرة من سنيه .

وبعد أن تجولوا مدة اثني عشر عاماً في مدن الأندلس عقدوا النية على التوطن في مدينة فاس سنة ١١٦٠ فقصدوا إليها وإذا لم يجدوا فيها راحتهم شدوا رحالهم إلى فلسطين ومنها إلى الإسكندرية حيث أقاموا شهوراً ثم جاؤوا إلى القاهرة واستقروا فيها . وكان صاحبنا قد بلغ الثلاثين من سنيه ، على أن كل هذه الأسفار وما كان يتخللها من مشاق وأخطار فضلاً عن العذاب المادي والأدبي الذي كانوا عرضة له في كل آن ، كل ذلك لم يوقف صاحب الترجمة عن متابعة سيره نحو الغاية العلمية التي كان يسعى لها ، فحياته من هذه الوجهة يجدر تشبيهها بحياة ابن سينا ، كما أنها من حيث الجهود والتأليف والشهرة أشبه شيء بحياة الغزالي . وبالفعل أنه لم يبلغ العشرين من سنيه إلا وكان قد ألف كتاباً في التقويم الفلكي وكتاباً آخر دعاه مقالة في صناعة المنطق .

أما مؤلفاته العلمية فيمكن حصرها في ستة أقسام وهي : (١) علم التفسير . (٢) علم الفقه . (٣) علم الكلام . (٤) الفلسفة وعلم ما فوق الطبيعة . (٥) علم التصوف أو الأخلاق . (٦) الفتاوى والرسائل .

علم التفسير وعلم الفقه

لا نتعرض لبحث مذهبه في علم التفسير العبري لأن ذلك من الموضوعات التي تهمّ رجال التفسير الإسرائيليين دون سواهم ، إلا إنه لا مندوحة من القول إنه التزم في كل تآليفه خطة الوضوح والدقة في التعبير ، وهي الخطة التي ينبغي أن تتوافر شروطها في علم العقليات . أما فيما يختص بعلم الفقه فبوسعنا أن نقول إنه كان أول مهندس شرعي فكر في ترتيب وتبويب جميع أقسام التشريع الإسرائيلي ، وقد كانت حينذاك مبهمة ومختلطة بموضوعات أخرى لا علاقة لها بالتشريع وواردة في التلمود ، وهو سفر مؤلف من ستين جزءاً عدا التفسيرات الكثيرة ، فقد كان كالمهندس يبدأ بوضع رسم البناء ثم يقسمه إلى طبقات ومساكن وغرف بحيث يتيسر للزائر الدخول والخروج من غير صعوبة .

وكانت هذه خطته في تأليف كتابه الشهير المعروف باسم « اليد القوية » وهو مؤلف من ١٤ جزءاً ويقسم إلى فصول وبنود وأبواب ، ولغزارة مادته وتضلعه في جميع العلوم واكتسابه شهرة عظمى لقب بالمنور الغربي والنسر الأكبر كما لقب الغزالي بحجة الإسلام .

والآن نشرح للقارئ المسلم الكبير مكانة هذا العالم الكبير فيما يختص بعلومه الدينية والفلسفية والأخلاقية .

علومه الدينية وفلسفته

إن هذه العلوم مع شدة اتصالها بعلم التفسير مرتبطة به كل الارتباط لأنها ترجع في أحكامها وأدلتها إلى النصوص المقدسة . فإنك تجد في كتاب « أنوار التنزيل في أسرار التأويل » للبيضاوي المبادئ الدينية ، كما تجد مبادئ الزمخشري في كتاب الكشاف فيما يختص بالعلوم الدينية والفلسفية والعقلية ، وتعلم أيضاً من أبحاثه في كتابه « دلائل الحائرين » أنه وقف على أسرار فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس وعلى علوم الصوفية وإخوان الصفاء وأصحاب العدل والتوحيد ، وأنه لم يخف عليه شيء من مبادئ هذه الفرق . وإذ تراه يذكر الزمخشري فلا بد من الاعتراف بأنه كان مطلعاً كل الاطلاع على كتاب « الملل والنحل » كذلك في كتبه التي بحث فيها عن المعتزلة ومؤسسها واصل بن عطاء . ومن الأمور التي تستوقف الأنظار وجود شبه كلي بين مؤلفاته ومؤلفات الغزالي من حيث الأسماء والموضوعات . ففي كتابه « مقالة في التوحيد » تجد شبهاً بينه وبين كتاب « العقيدة » ، وكتابه « دلالة الحائرين » كثير الشبه بكتاب « المنقذ من الضلال » ، وكذا مقالاته في الأخلاق . انتهى الكلام على موسى بن ميمون .

أما ما جاء في مجلة المرشد فهذا نصه :

اعترافات جاسوس
أو
ثلاثون عاماً في الإسلام

ندبت الحكومة الفرنسية في القرن الماضي المسيو « ليون روش » ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر الجزائري ، وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام ، وأن يتوصل إلى أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته ، ففعل ذلك ونجح وأقام في ديار المسلمين ثلاثين عاماً ، تعلم في أثنائها اللغة العربية وفنونها والإسلام وعلومه ، واختبر الأوطان الإسلامية المهمة : الجزائر وتونس ومصر والحجاز والقسطنطينية . ثم ألف كتاباً اسمه « ثلاثون عاماً في الإسلام » ، قال فيه ما نصه :

اعتنقت دين الإسلام زمناً طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا ، وقد نجحت في الحيلة فوثق بي الأمير وثوقاً تاماً واتخذني سكرتيراً له ، فوجدت هذا الدين الذي يعيبه الكثيرون منا أفضل دين عرفته ، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي ، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه ، بل إنني عدت إلى الشريعة التي يسميها « جون سيمون » الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت عن الشريعة الإسلامية أخذاً ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به من الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب ، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوءاً ، ثم هو لا يستحل محرماً في طلب الرزق ، ولذلك كان أقل مالاً من الإسرائيليين ومن بعض المسيحيين ، ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى في قول القرآن : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية في فرض الزكاة على كل ذي مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً ، وهذا دواء الفوضوية .

إن الإسلام دين المحامد والفضائل، ولو أنه وجد رجالاً يعلمونه الناس حق التعليم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين وأسبقهم في كل الميادين، ولكن وجد بينهم شيوخ يحرفون كلمه ويمسخون جماله ويدخلون عليه ما ليس منه. وإني تمكنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والإسكندرية ومكة، فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأن لا ينزعوا إلى الثورة، وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس. وكل ذلك لم يكلفني غير الآنية الذهبية. اهـ.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ مع قوله فيما سيأتي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

أقول: ومن شأن السراج المنير وهو الشمس أن تعم أشعتها، ويضم إلى ذلك آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الخ، وإنّما جعلنا هذه الجوهرة مشتركة في هذين الموضوعين موضوع عموم شريعته وجواز تعدد زوجاته فوق الأربعة، لأن ذلك كله جاء في المقال الذي عنوناه بهذه الجوهرة من كتاب العلامة «الكونت هنري دي كاستري» المسمى «الإسلام. خراطر وسوانح» قال تحت عنوان الفصل السادس ما نصه:

انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية

تخطيط ممالك الإسلام، انتشاره في أفريقيا الوسطى، تجار المسلمين ومستكشفو الأوروباويين الإسلام في مبدئه وبعد ذلك، أسباب الانتشار، المرسلون المسلمون، الفولبوسيون والخواصة

أسباب انتشار الإسلام الإلهية

قد كشفنا الغطاء عن العلل التي انتحلوها سبباً في انتشار الإسلام انتشاراً عظيماً وبينا فسادها ووعدنا ببيان الأسباب الحقيقة عند البحث عن تقدمه في هذه الأزمان، لأنا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقي أثراً لما زعموه من أنه إنّما انتشر بحد الحسام كما فندناه من قبل، ولو كان دين محمد صلى الله عليه وسلم انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة، وهذه الحركة المستمرة في هذه الأيام تحمل على الاعتقاد بأن الإسلام هو الدين الذي جاء موافقاً لطبيعة البشر. وظن آخرون بأن الإسلام كان تابعاً لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التي كانت تأخذ بالنفوس في دمشق وقرطبة وبغداد وأنه انقضى بانقضاء ذلك. قال «بارتلمي صانت هيلير»: ما عاد أحد من الناس يعتنق الإسلام.

والواقع أنهم أخطؤوا في معرفة حقيقة الأمرين: انتشار الإسلام وتمدن العرب، فأما التمدن فهو أمر يعتبر لغواً في الإسلام أو هو نقيض له، وعلى كل حال فهو عارض فيه وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن، ولو أنه استمر لأطفأ نور دين النبي العربي بسقوط الأمراء في مهواة عدم التصديق وقلة الإيمان وانحياز الأمة إلى عالم التخيل والأوهام.

وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الآهلة بالعمران فلا تحصى شعراؤها ولا تعد الأدباء، وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء في المعارف يتناقشون، كانت صحارى العرب وليبيا وأفريقيا محتفظة على

الدين الإسلامي في كماله الأصلي ولم تمسسه فيها يد أجنبي عن تعاليمه أو خارج عن شرائعه، هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا في الأصقاع كما تدل عليه قبورهم البيضاء التي نشاهدها الآن في أفريقيا الشمالية.

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة أفريقيا، وإنّما نذكر على سبيل العرض أن له في الصين عشرين مليوناً من النفوس، وأن للمسلمين ويقال لهم عندهم « هوى هوى » منزلة علية في المملكة الوسطى. قال موسيو « وازيليف » ـ وهو من الذين اشتغلوا بالإسلام في تلك النواحي ـ أن مصيره القيام مقام مذهب « ساكياموني » ـ وهو أحد ملوك الصين، تخلى عن الناس في التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وسمى نفسه « بودا » ومعناه العالم أو المتنور، ووضع المذهب الذي اتخذته الصين والهند ديناً وكان ظهوره في القرن الحادي عشر قبل المسيح، وقيل في القرن السابع وهو الأرجح ـ وأن لمسلمي المملكة السماوية اعتقاداً جازماً بأن الإسلام لا بد أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البودية، وهي مسألة من أهم المسائل إذ الصين آهلة بثلث العالم أو تزيد، فلو صاروا كلهم مسلمين لأوجب ذلك تغييراً عظيماً في حالة تلك البلاد بأجمعها، فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادي ويخشى على الدين المسيحي مرة أخرى، ومعلوم أن الصين عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها، فلو جاءها التعصب الإسلامي ذو البأس القوي لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها.

وقال موسيو « مونطيط »: لقد صار من المحقق أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية، والإسلام قليل في أوروبا ومع ذلك نراه في شمال تركيا ليطونية، وهو أيضاً في أمريكا حيث أدخله الزنوج وغيرهم إلا أن أفريقيا لا تزال بلده المصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية في أوروبا. قال موسيو « بولنياك »: يسكن المسلمون جميع الشواطئ من « سياراليون » إلى موزنبيق البرتغالية ماراً بمراكش وولايات البربر « المغاربة » وقنال السويس، وأما في الوسط فيمتد الإسلام من البحر الأحمر إلى المحيط الأتلانطيقي ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط إلى الدرجة السادسة من العرض الشمالي، وتقدم أنه في الساحل يمتد إلى موزنبيق البرتغالية، أعني أنه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبي، وفي « مدغسكر » كثير من المسلمين حتى إن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن اسم الجزيرة « مدغسكر » أصله مأخوذ عن العرب. قال موسيو « مونطيط »: وأكثر انتشار الإسلام في أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدماً سريعاً وينجح نجاحاً كلياً لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة في الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية في تلك البقاع التي تغيب في الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة، فلا ينازع الدين الإسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام.

وقد تخطى سيره السودان واشرأب نحو أرجاء خط الاستواء وكان له مقر يقرب من أملاك فرنسا في بلاد النيجر، لذلك عرفه ضباط الطلائع وإن كانت معرفة سطحية، ولكنا لم نقف على سيره تماماً إلا عندما استولينا على الكونغو وشاهدنا القوافل الإسلامية تهرب أمامنا كمن يريد أن يخفي سراً عن أجنبي، والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا في شمال أفريقيا ومراكزنا في الكونغو وسنغال حتى كأنهم في قراصة نشدها أو نفسح فيها حسب ما تقتضيه سياستنا.

ولانتشار الإسلام في وسط أفريقيا منبعان: الأول في الغرب وهو قديم امتد أثره إلى الشاطئ الأتلانطيقي حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات، ولكنه انثنى أمام تقدم الفرنساويين من ناحية سنغال إلى بلاد النيجر، ولم يزل ينثني آناً فآناً حتى خرج من «تنبكتو» وهي منبعه الأصلي إلى «سقطو» ومنها إلى «كانو» ثم إلى «كوكا»، والظاهر أنه استقر فيها. وأما المنبع الثاني ففي الشرق وهو حديث العهد ويصل أثره بين وادي ودارفور بمحركين هما المهدي ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين المنبعين أنهار «شاد» و«اشارى» و«لوغوني» الجنوبية، وأهل الشرق أهل حروب متعصبون أمام قوم الغرب، فيميلون إلى التجارة والمسالمة.

وكان الفريقان يتقدمان بالإسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثني عشر ألف كيلومتر حتى تلاقوا بالفرنسويين قبيل الكونغو نواحي نهر شاد، فلم تقرّ أعينهم لهذه اللقيا لأنهم كانوا هجروا البلاد التي هاجمها الكفار وظنوا أنهم يأمنون لقاءهم في الجنود، فلا يجدون غير الوثنيين ممن لم يعرفوا للأوروبيين خبراً، ويقال إن الأوروباويين الذين التقوا معهم أتوا من أقطار بعيدة في الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة، ولهم فيها مراكب ومدرعات تروح وتغدو في أنهار واسعة تجري من الشرق إلى الغرب.

ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى بالنظر إلى انتشار الإسلام توسط الأوروباويين في أفريقيا وحلولهم في نهر الكونغو، لأنهم بذلك قسموا القارة الأفريقية من طرف إلى طرف، وربما يخشى على حركة الإسلام الذي كان يمتد رويداً رويداً مطمئناً من الشمال إلى الجنوب، كما يخشى على التجارة التي كانت تروح وتغدو مع القوافل الإسلامية فينعكس مجراها فتميل إلى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الأمر اشتغالاً لا مزيد عليه، حذراً من انقلاب الحال في تلك البلاد، ولقد يفيد المتأمل أن يعرف كيف كانت نتائج مقابلة الأوروباويين القادمين من جهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان، لولا أن هذا البحث يبعدنا عن مقصدنا، فلنقتصر على البحث عن العلة في حياة الدين الإسلامي تلك الحياة القوية، وما السبب في انتشاره هذا الانتشار العجيب.

وهنا يجب البحث فيما إذا كان الإسلام ديناً عمومياً بطبيعته أو هو دين خاص بأمة من الأمم وهو بحث طرق بابه من قبل «موسيو كينان»، والجواب عليه صريح لا شك فيه من الجهة العلمية فالإسلام دين عام بغير شبهة، لأننا نشاهد المسلمين في كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان، فمنهم الشرقي والتتري والغربي والهندي والزنجي، بقي علينا أن نعرف مع «موسيو كينان» إن كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين أو متولدة من أسباب أخرى، وهو يرى أن الأمة العربية ليست مهده الطبيعي وإنّما هو ينتهي إليها، وليس في طبيعة هذا الدين أنه دين عومي وهو قد ناشئ عن نظر في الموضوع من إحدى جهاته فقط، لأن الدين الإسلامي الذي منشؤه القرآن والسنة هو الذي تولد عنه ذلك الإسلام الذي يعترف المؤلف المشار إليه بأنه دين عام، لا محالة انتقاله من حالته الأولى إلى الثانية، حصل تدريجاً بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأثير الزمان والأمم المختلفة التي اعتنقته، بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو في أصله، وتأثيره بعد أن صار كما نراه في هذه الأيام، فلا يغضبنّ «موسيو كينان» إذا حذفت تقسيمه الإسلام إلى أولي ولاحق، وقلت فيه كله كما

قال في كتابه إنه دين عمومي، على أن الانتقال من حالة أولية إلى غيرها ليس عرضاً خاصاً بالدين المحمدي بل تشترك فيه جميع الأديان.

فمما يعزى إلى حالة الإسلام الحالية انتشار مذهب الزهد والاعتقاد بالأولياء وبعض الأموات وكثير من التعبدات الأخرى، وسببه أن المرء طماع في الدين بأصل الخلقة، ولكل أمل خاص، ومن هنا تولدت تلك المذاهب والأفكار إرضاء لشهوات تشتد ظهوراً كلما تقادم العهد عليها، ولم ينج الإسلام من لوازم هذه الضرورة بل خضع إليها وأداها حقها وهذا من أكبر أسباب تقدمه، ولكنه أيضاً سبب من أسباب تناقضه، لأن تلك المذاهب تخالف مبدأه، ولقد تجد النفوس التي رفعت أعنتها إلى السماء ومالت إلى التجرد عن الحواس ورغبت في مشاهدة الحضرة الربانية طريقاً مسلوكاً في مذهب التصوف يسهل عليها النسك والتعبد، وقلما يلومهم بعض المتشددين من العلماء، وإن كان التزهد بهذه الصفة أي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد، ومن الناس من يرى نفسه بعيداً عن ربه فلا يستطيع أن يرفع دعاءه إليه، وهو في بعض الأحيان غريب، كقوله: إلهي ارزقني من الأبناء ذكوراً ولا تجعل ماشيتي تلد إلا إناثاً، ولمثل تلك الأفهام وجد في الإسلام مذهب الواصلين والذين صار بيدهم توزيع كثير من الميرات في اعتقاد العامة، وإليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل، فيجتمع إليه قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان يريدون الثروة أو الجاه، وشيوخ نضب عود قواهم، مع أننا لو رجعنا إلى القرآن لرأينا التصديق بالأولياء غير شرعي ولوجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الاعتقاد بهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣]. والواقع أن الإسلام في مبدأ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقد بقي هذا المذهب كما بدا فهو اليوم جامعة تلك المذاهب وإليه ينتهي كل اعتقاد.

ومن مزايا الإسلام أنه دين رحيم، فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن من دون تمييز على التقريب، فالمحارب يموت شهيداً والعالم يكتفي بتلاوة القرآن، والاثنان مقبولان عند الله وللفقير مكان عليّ وللغني درجة رفيعة.

ولقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها، ولكنه تساهل كثيراً في تقدير الإنسانية، لذلك تسامح الناس كثيراً في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله، ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها، إذ لا ينبغي له أن يطلب لنفسه الكمال، ولن يصل إليه، لأن من أراد الكمال فكأنه أراد أن يساوي الإله في جلاله، وهو أسوأ الأعمال وأخبث الرغبات، وكان رسول الله يميل إلى بعض ما يميل الناس إليه من المشهيات فكان يقول على أسلوب بسيط: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة». ولقد يسعر الجمع بين هذا التفضيل وبين الميل إلى النساء، حتى يكاد العقل أن يرى في الأمر تهكماً، ولكن هذه الجملة لا تحتوي في الحقيقة على معنى خفي بل ما يفهم من لفظها هو الذي قصد منها، ومن وعاها فقد عرف الإسلام كما ينبغي، وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلهم إلى ما كان يميل إليه، فللصلاة في قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصاً بالنساء والأطفال كما هو عند المسيحيين

بل هي مزية من مزايا الرجال وإحدى جهات فضلهم على النساء، ولا يواظب عليها الصبي أو المرأة إلا نادراً لاعتبارها عند المسلمين من أعظم الأمور التي تلزم فيها صفات الرجل التام.

ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه، فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي، فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الإسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الإنساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الإسلامية.

هكذا جذب الإسلام قسماً عظيماً من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئاً مما يشتهون، وأعظم عامل في انتشار الإسلام خصوصاً عند الأمم الزنجية «السود» بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه، وهو سبب موجود في القرآن نفسه، فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيراً الذين لم يعرفوا ديناً من قبل ذلك. ديناً لا أسرار فيه وكلمته أي كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاحتضار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى، فكلما وجد الرجل الجاهلي أمامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الإسلام ودين عيسى، تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئاً عن تينك الحقيقتين ويعتنق الإسلام بلا محالة، وهي قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار، وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك نقرأ في كتاب القس «ماراشي» الذي سماه «الرد على القرآن»: ولا يغيبن عن ذهن القارئ أن تلك الطائفة الشريرة أو المخرفة أو ما تشاء من الأسماء لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحي من الأمور الظاهرة الوضوح القريبة التصديق مضافاً إليه ما يوافق نظام الكون وقانون النشأة الدنيوية، فقد أبعد عنه أحاجي الإنجيل التي تخالها في أول الأمر غير صحيحة لا تدركها العقول؛ كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب، وبهذه الواسطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح، وهما عقبة الروح وعقبة الجسم، وهذا هو السبب في أن الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يعتاضون عنه بالإسلام دون الديانة المسيحية.

بقي علينا أن نستقصي الأسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الإسلام، وهنا أيضاً نجد سبباً عظيماً من أسباب انتشار القرآن فرافعو راية الإسلام هم في العادة تجار تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية، فالبشر الإسلامي ـ وليلاحظ أن هذا الاسم غير صحيح عند المسلمين إذ ليس لدينهم مبشرون منقطعون لهذا الأمر كالمسيحيين ـ لا يوجب عند الأمم الجاهلية خوفاً منه ولا فرقاً لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين، وهم كما قال موسيو «مونتيل» يعتنقون دينه لأنه لم يعرضه عليهم، فما أشبه الأمم بالأطفال ترغب عما يقدم إليها وترغب فيما تحسبه ممنوعاً عليها، أما الطرق المستعملة في انتشاره فكثيرة متنوعة وأحسن موقع نبحث فيه عنها جهات أفريقيا بجانب الأملاك الفرنساوية قرب خط الاستواء، فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الإسلام أحسن منها.

والقائمون بهذا العمل هم « الفولبوسيون » وهم الجنس الأبيض في السودان وله الأولوية على غيره. وهم أعرق في الإسلام وإليهم أشرنا عندما قلنا بأن أحد منبعي الإسلام أقاليم نهر شادو، وقد شاهدهم المكتشفون الفرنساويون في « شاري » و« لوغنه »، والفولبوسيون يقصدون نشر الإسلام وتوسيع متاجرهم، ثم هم يرمون إلى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم، فلهم خطط سياسية في الاستعمال مثل أوروبا يعملون لأجلها في أفريقيا. قال موسيو « مستران »: إن الذي لفت ذهننا كثيراً لما قدمنا إلى جهات شاري هو النظام السياسي الذي تمكنت ملوك الإسلام في أواسط أفريقيا من إيجاده بين الأمم التي دانت لكلمتهم، وللفولبوسيين مساعد كبير من عشائر يقال لها الخواصة وهم من الجنس الأبيض، وأقرب عهد بالإسلام وأقل منهم منزلة، فنسبتهم إليهم كنسبة اليهودي للعربي، ولقد شبهنا باليهودي لأنه تشبيه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الأوروباويين، فالخواصة أمة لازمة لكنها محتقرة، كما هو شأن اليهودي يحب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بمتجره فيسير خلف « الفولبوس » وهو رجل الحرب والفتوح، ولا يستقر به القرار إلا إذا آمن وتمكن، والخواصة هم أهل المعارف والعلوم في السودان حتى كأنهم احتكروها، إلا أن علمهم قاصر على شيء يسير كالقراءة والكتابة في اللغة العربية، وهو كاف لنفوذهم في الوثنيين لأن هؤلاء يعظمون الكاتب والقارئ إلى درجة العبادة تقريباً، ومع ذلك فلا يزال الخواص وضيع الدرجة في عين متبوعه الفولبوس، فالفولبوسيون هم أنصار الإسلام في الحقيقة والخواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء، ويعزى امتداد سطوة الفولبوس دينياً وسياسياً إلى تدخلهم في الخصومات التي تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة إليهم، فما تخاصم الأهالي إلا وتدخل الفولبوسيون، أما الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم بدينهم وسياستهم إلا بالعناء، ويتوصلون إلى غرضهم في الغالب عندما ترتكب جريمة قتل أو سلب حيث يوجد قوم من المسلمين، لأنهم يرسلون إليهم الكتائب لتقتص منهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم، ومهما تنوعت أسباب تدخلهم فإن طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها إلى مبدأ الحماية الذي توصلوا إلى وضعه بين الأمم الهمج كما رواه موسيو « مستر »، فمن احتمى بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم أصبح مهدداً، ومتى احتمت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها إلى ملوك الإسلام في السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع ويردونهم إلى أوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم، فإن كانت القبيلة أو القرية عظيمة أرسل السلطان إليها رسولاً من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه، والسفراء كلهم من الخواصة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوي كلمة ونفوذ، ومعارفهم وما تعلموه من الأحكام بالقرآن تؤهلهم إلى القضاء لمنفعة اللاجئين إليهم، وهم كالعلم يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان.

وقد يتفق أن بعض القبائل الوثنية لا تخضع من أول ظهور الفولبوسيين بينهم، هنالك تسطو عليهم قبائلهم فتسلب منهم وتأخذ أبناء الرؤساء فتبعث بهم إلى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواصة، وبعد زمن يرجعونهم إلى بلادهم فيقومون فيها كنواب عنهم، مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الأوروباوية في مستعمراتها، وفي تلك الأثناء ينتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد بدون أدنى إكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين، إذ بمجرد أن يشتري الوثني خرقة

القطن من أحد الخواصة ويستر بها عورته يأخذ في تقليد البائع في الصلاة كالقردة، ويتعسر بيان اللحظة التي يصير فيها مسلماً حقيقياً، لأن إسلامه يأتيه تدريجاً، ومتى كثر عدد المسلمين في بلد أقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواصة التعليم فيها ولكنهم لا يتدخلون في نشر الإسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواصة أو للأهالي أنفسهم.

ونذكر من الوسائل الناجحة في يد الفولبوسيين لانتشار الإسلام الزواج، فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية، ولا تمكث النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الإسلامي، وقد أشار موسيو «رونان» إلى ذلك في بعض كتبه حيث يقول: من الصعب أن يصم المرء أذنه إذا تقدمت إليه النساء والأطفال ومد كل يديه وطلب منه أن أعتقد بمن نعتقد.

على أن الزواج هو السبب في وجود أنصار الإسلام الأولين، وكثيراً ما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة دينه لا لشهوة في نفسه، فقد صرح بأن الله أباح له الجمع بين عشرة نساء خلافاً لما فرضه لجميع المسلمين، وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل في الأمور، لأنه كان معصوماً عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الأول، وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلده، ولم يمل إلى ما أباحته العرب قبل الإسلام وأباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يتسرّ، ثم توفيت خديجة سنة ٦١٩م وعاش بعدها اثنتي عشرة سنة تزوج خلالها بعشر نساء ليس بينهم إلا اثنتين كانتا بكراً والباقيات مطلقات أو مترملات. قال «رولان»: إن كثرة زواج النبي كانت ليزيد في نشر أوهامه وهو قول يقصد به قائله القدح، ولكنه حجة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في تعدد الزوجات شهوياً.

هذه هي أهم الأسباب في انتشار الإسلام، ولست أدري أكانت تكفي لإدراك سر هذا الدين في انتشاره أو أنه يجب البحث معها عن أسباب سماوية؟ غير أن الإسلام خرج من ذرية إسماعيل وسرى في الأرض كما خرجت المسيحية من ذرية إسحاق، وقد بارك الله في أبناء الخادمة كما بارك في أبناء السيدة، ونحن نعلم أن يهوذا قال لإبراهيم عن إسماعيل: إنه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيراً، وكرر له ذلك بقوله: إنه سيبارك له في ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لكونه من أولادك، وأعاد يهوذا هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجا في الصحراء حيث رمي ليموت عطشاً، وقصة ظهور الملك إلى هاجر من أجمل الروايات، ووصف بادية الظمأ ولهف الأم على ولدها من ألطف ما يقال: نضب الماء في الزق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلاً ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل، وقالت: لست أصبر أن أرى ابني يموت، ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها إلى السماء، فناجاها الملك من قبل الله: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذي وضعته فيه فقومي وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فسيكون من ذريته أمة كبرى.

ولقد ارتعشت يدي عندما مددتها لأزيل الغطاء عن الكتاب المقدس كي أنقل الآيات التي سطرتها، ولولا ما قاله الأب بروغلي من أن تقدم الإسلام أمر مندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين لما

تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الإسلام، ولا ذهبت إلى أن في انتشار هذا الدين سراً من الأسرار الربانية. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

في هذه اللطيفة أربعة فصول:

(١) في الذكر الكثير. (٢) والتسبيح.

(٣) وصلاة الله وملائكته على المؤمنين. (٤) وفي التحية والسلام.

الفصل الأول: في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

إني لأعجب كيف أقرأ نفس هذا المعنى في كتاب «راجايوقا»، ومعناه الحكمة التامة، المترجم سنة ١٨٩٦ في أمريكا، وقد ألقاه المترجم عدة محاضرات في تلك الأقطار بعد أن ترجمه من اللغة الهندية القديمة، وقد أشرت إلى هذا الكتاب فيما مضى من التفسير مراراً، ونقلت عنه ما يناسب الآيات. إن في الكتاب مسألة الذكر الكثير وقد أوضحها الهنود فيه إيضاحاً عجيباً، يقولون منذ آلاف من السنين قبل النبوة المحمدية ما ملخصه: إن الإنسان لا يعيش إلا بالتنفس، والدورة التنفسية لها الحكم على الدورة الدموية، وعلى مقدار الآثار في الدورة التنفسية تكون الآثار في الدورة الدموية والدورة الدموية تؤثر في الأعصاب والأعصاب توصل الآثار إلى العقل، ولو أن امرأ حكم أمر تنفسه فأخذ يدخل الهواء ويخرجه بالتدريج شيئاً فشيئاً ثم يحفظه في الرئة قليلاً قليلاً بقدر إمكانه، ثم يخرجه بالتدريج عدة مرات ويكرر ذلك في اليوم والليلة عدة دفعات بشروط خاصة، فإن ذلك يعطيه قوة في العزيمة والإرادة، ومعنى ذلك أن زمام العقل والتفكير والإرادة في يد أعصابنا، وأعصابنا في يد الدم والدم في يد التنفس، فإذا أحكمنا التنفس وذللناه لنا ذل ما بعده وخضع لنا، وهنالك تكون الإرادة والعزيمة طوع تفكيرنا.

ولست أقول لك إن هذا القول يمكن العمل به بمجرد هذا البيان، ولكني أقول يمكنك أن تتنفس كل يوم عدة مرات في الخلاء بحيث تدخل النفس بالتدريج وتحبسه وقتاً ما على قدر طاقتك ثم تخرجه وتقفل الفم بقدر طاقتك ثم تتنفس مرة أخرى، فهذا نافع جداً في الصحة والقوة الجسمية، وهذا يمنع الزكام وكثيراً من الأمراض، وليس هذا مقام الإفاضة في هذا التنفس، فإن علم التنفس نقله الفرنجة عن علماء الهند وقد قصدوا به التداوي ونجحوا واستغنوا به عن كثير من الأدوية، وإنما هذا المقام مقام ذكر الله كثيراً، وذكر الله كثيراً إنما يكون بالكلام والكلام بالتنفس والتنفس يصل حكمه إلى الأعصاب الواصلات إلى النخاع الشوكي الآتي بيانه في سورة «فاطر» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[الآية: ١١] الخ.

والأعصاب هناك قسمان: أعصاب حس وأعصاب حركة، خارجات كلها من الحبل الشوكي المتصل بالمخ، والحبل الشوكي والمخ هما المركز الأصلي للإحساس والحركة، وقد وزعت أعصاب

الحس وأعصاب الحركة على جانبي الفقرات توزيعاً عادلاً وهي ٣١ زوجاً، والزوج عصبان: عصب للحس وعصب للحركة، وهذه الأعصاب تتجه إلى أطراف الجسم كاليدين والرجلين وظواهر الجلد، ومتى أحست تلك الأعصاب بطارئ ما وصلت خبره إلى النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي يطير خبره إلى المخ، والمخ حالاً يأمر الآمر فيه أعصاب الحركة بالعمل لما يناسب ذلك الطارئ جلباً أو دفعاً، أما المخ ففيه ١٢ زوجاً من الأعصاب كلها موصلات للحواس التي في الرأس كالعينين والأذنين والمنخرين، وكل هذا ستراه في سورة «فاطر» كما قلته لك الآن مرسوماً مشروحاً، وهو الذي أجمله علماء الهند في ذلك الكتاب الذي قرأته بالإنجليزية مترجماً عن اللغة الهندية لشرح ذكر الله كثيراً. قالوا: إن الأعصاب المذكورة هي الموصلات للأخبار الدوافع للحركات، وليس لهذا الإنسان ولا الحيوان إلا أمران: حس وحركة، وبعبارة أخرى: علم وعمل، وهذا النوعان قد تجليا في أعصابنا وأعصابنا خارجات من النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي متصل بالمخ وهو مقر الملك وهو العقل المدبر، فالمرجع كله لهذا الرئيس المدبر المستوي على عرش مملكتنا، ولكن هذا الرئيس يتأثر بهذه الأعصاب سلباً وإيجاباً، فإذا أكثرنا من ذكر الله وكررنا مراراً فإن الكلام حركات في النفس، والنفس يؤثر في الدورة فيصل إلى هذه الأعصاب، وينقل بحكم المجاورة إلى الأعصاب، فيحصل الحب ويكون الوصول لله. إذن الذكر الكثير لله يقرب إليه.

وهذا ما أوضحه القوم في ذلك الكتاب. ولكنهم يقولون: إن حب الله ربما يفيد الإنسان، ولكن ما دام محباً للدنيا فإنه يكون ناقص النفس، فليس كل من أحب الله ووصل إليه وصولاً ما يكون كاملاً، فحب هذه الحياة نقص عظيم.

أنا لست الآن أقول إن هذا القول كله حق، ولكني أقول: العجب أن العرب في جزيرتهم لا يعرفون ما هو ذكر الله، والقرآن جاء فيه: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأنفال: ٤٥]، والعقل ليس عنده براهين تدل على أن الإنسان إذا ذكر الله مراراً يكون له الفلاح، وهذا إنما جاء بالوحي وظهور أمم قبلنا كانت عندها هذه المباحث وعللوها وفكروا فيها أمر عجيب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت: ٤٩]. فهؤلاء القوم سبقونا، وقد تقدم أن كتاب «الفيدا» الهندي الذي سبق الإسلام بعشرات آلاف السنين بل جاء في آثار الهند كتاب لعالم منهم ألف منذ نحو ٦٠ ألف سنة يقول: إن كتاب «الفيدا» لا يعلم متى وجد، فهو مجهول التاريخ والمبدأ. إذن هذه معجزة لدين الإسلام، وكم في الإسلام من معجزات، وهنا في هذا المقام معجزة ثانية، ذلك أنهم يقولون: إن في الفقرات أمرين: النخاع الشوكي «الحبل الشوكي» الموصل للحس والحركة، وفراغ لا مادة فيه، وذلك الفراغ ممتد من العصعص الملتحم الذي لا فراغ فيه إلى المخ. قالوا: وهذا الفراغ المستطيل الواصل بين هاتين النهايتين ملغى لا عمل له عند أكثر الناس، ولكن هناك أناس قد قويت عزائمهم وعظمت مواهبهم بالأعمال العظيمة وممارسة الذكر والفكر أو التنفس المتقدم أو ذكر الله، فهؤلاء بهذه الأعمال المقويات لعزائمهم تجعل جميع قوى العقل تحت إرادتهم، ويقولون: إن كل عمل من أعمال الناس أنموه يفتح لهم فتحاً جديداً في تلك العظمات المثلثة التي في آخر تلك العظمات وتسمى «اللوتس»، وهذه يقولون إن فيها سر الإنسان وعلمه وحكمته،

وللإنسان في نظرهم حالان : الحال المعتادة وهي ما نحن عليه من وصول الآثار من الخارج إلى نفوسنا بطريق هذه الأعصاب كما هو حاصل للحيوان ، فلنا وله حس وحركة بهذه الأعصاب الواصلات للنخاع الشوكي الموصل للدماغ . والحال الخارقة للعادة بأن يفتح ذلك المثلث وهو « اللوتس » الذي فيه عجب الذنب ، ومتى فتح اتصلت العلوم المخزونة فيه بالمخ ، والموصل بينهما الفراغ الذي في فقرات الظهر . وهناك يعرف الإنسان علم كل شيء ، فلا يحتاج إلى تلك الأعصاب حتى يعرف العلوم القليلة . فكيف هذا وقد أصبح محيطاً بالعلوم التي يقدر عليها الإنسان بحسب روحه هو لا بحسب ما توصله إليه الحواس كما في الحيوان .

هذا ملخص ما قرأته في ذلك الكتاب أوضحته إيضاحاً تاماً ولم أدع منه شيئاً . فهذا هو المشار إليه بعجب الذنب في الشريعة الإسلامية ، فإن في الآثار والأخبار ما يدل على أن الروح باقية وعجب الذنب باق ، فما معنى هذا؟ ولماذا يجيء ذلك في الأخبار؟ ولماذا ينزل الله ذلك على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم؟ونفس هذا المعنى جاء في كتب الهنود بطريق آخر ، وهو أن هذا هو سر الإنسان وعلمه . فإذا ورد أن عجب الذنب باق كبقاء الروح ؛ ووجدنا أن علماء الهند قبل عشرات الألوف من السنين يقولون : إن عجب الذنب متى اتصل بالمخ من طريق هذا الفراغ فإن العلوم المخزونة هناك يعرفها العقل ؛ فمعناه أن ذلك المكان في نظرهم مستودع العلوم .

ومستودع العلم يمد العقل فكأنه غدة العلم ، كما أن البنكرياس غدة المادة الهاضمة ، والغدد الست في الفم جعلت لهضم المواد النشوية ، والصفراء وغدد المعدة والأمعاء كلها لهضم المواد الكربونية والدهنية وهكذا ، وكالغدة المسماة بالنخامية والمسماة الصنوبرية في الدماغ فإن لهما تأثيراً على نظام الأعضاء الجسمية ، وسيأتي أيضاً في سورة « فاطر » .

ولست أقول إن ما قاله الهنود مبرهن عليه في هذا أيضاً ، ولكني أقول العجب أن يتكلم الهنود في عجب الذنب وأنه غدة العلم فيما كان وما يكون ويجيء في ديننا أمثال قول علماء التوحيد :

عجب الذنب كالروح ولكن حققوا   وصوله إلى البلى ودققوا

فللعلماء قولان : قول إنه باق كالروح ، وقول إنه فان كما يفنى الجسد ، وليس هذا هو المقصود إنّما المقصود أن يرد هذا في ديننا ويوازن بالروح تارة وبالجسد تارة أخرى ، فبالأول يحكم ببقائه وبالثاني يحكم بفنائه ، وعلماؤنا رحمهم الله معذورون في هذا ولهم الحق أن يرجحوا فناءه لأنه من نوع الأجسام ، ولكن كلام أهل الهند أرجعه إلى العلم المخزون ، وهذه أمور فوق عقولنا لا برهان عليها ولكن المهم أن هذا معجزة ثانية ، والله يقول : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] ، فهذه علوم عند أمم خلت وربما كانت لها أسرار لا نعقلها الآن ووردت في الإسلام ليعقلها قوم ويشرحوها ، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب : ٤] . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[الأحزاب : ٤١] .

الفصل الثاني:في قوله تعالى:﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

اعلم أن الإنسان إذا ذكر الله كثيراً فتحت بصيرته ، وقد علمت أن أهل الهند سبقوا الإسلام بذلك في الفصل الأول ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾[الشورى: ١٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[النساء: ١٣١]. وقد تبين لك أن هذا معجزة إسلامية من حيث تلاؤم الديانات في الأصول وإن كانت مهجورة بعيدة المدى، ومن اطلع على طرق الصوفية في العالم الإسلامي وجد بينها وبين طرق أهل الهند ملاءمة ترجع كلها إلى ذكر الله تعالى ولكن بصبغة الإسلام لا بصبغة كتاب «الفيدا» الهندي.

ولقد حقق علماء الإسلام أن هؤلاء الذاكرين لربهم لا يصل إلى المعرفة التي يقول بها علماء الصوفية إلا النادر جداً، بل كثير منهم يمسهم الجنون فلا تنتفع بهم الأمة، وهذه إحدى نكبات الأمم الإسلامية. كثرت فيهم طرق الصوفية وعاشوا عيشة روحية كأهل الهند، ولكنهم في الوقت نفسه لم يصل جميعهم إلى العلوم التي بشرهم بها أشياخهم، بل ران على قلوبهم التقليد. وهنالك يحصل لهم شكوك وأوهام، فيقول الأذكياء فيهم: كيف يكون الله أرحم الراحمين وهو يمرضنا ويميتنا، وأهل الشرق والغرب في نضال وقتال مستمرين، وأصحاب الأسلحة النارية من أوروبا يهجمون على الشرق فيذلون الأمم.

ثم ما هذه النظم الأرضية؟ وما هذه الحرارة والبرودة والمتناقضات في الأرض؟ وكيف يكون زيد الصالح فقيراً وعمرو الطالح غنياً. إن هذا لشيء عجاب! فيقال لهم في القرآن: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٢] والتسبيح تنزيه عما يظن فيه سبحانه من أنه ترك العوالم تتخبط كأنه لم يعن هو بصغيرها وكبيرها، بل هي دائرة بلا نظام، ولو كان صانع العالم مطلعاً على جلائل الأمور ودقائقها لم نجد ناسكاً أحرق ثوبه وعجوزاً هدم البيت عليها وطفلاً ولد مشوّهاً وامرأة مات طفلها فاحترق فؤادها، ولا طغت أمة على أمة ولا طغى طوفان الأنهار وحريق النار على فريق من الناس فأهلك الحرث والنسل، وهكذا مما لا حصر له. فذكر التسبيح في الآية بعد ذكر الله كثيراً ليكون في الأمم الإسلامية فريقان:

الفريق الأول: فريق العبّاد

فريق العبّاد ــ بتشديد الباء ــ الذين يسبحون الله بكرة وأصيلاً إذ يسمعون قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه: ١٣٠]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[غافر: ٧]، وقوله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحديد: ١]، ويسمعون: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور: ٤٨، ٤٩]، وقوله: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفتح: ٩]، وقوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]، وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤].

فهذا الفريق المسبح يكون تكرار التسبيح منيماً لما يعلق بنفسه من تلك الشبهات، فكما أن الذكر يفرحه بربه ويقربه له، فإن التسبيح بتكراره بكرة وأصيلاً يمرن النفس على أن تتباعد عن تلك الشبهات وتوطن الضمير على أن يعتقد أن الله منزه عن الشرور أو الغفلة، وأن ما نشاهده من تلك المصائب في هذا العالم هو يعلم نتائجها وله فيها حكم عجزنا عنها، فالتسبيح إذن أشبه بالحارس الذي يحرس العقل من

التعرض لهذه الشبه . فهاهنا أمران عجيبان : الذكر بقوله : ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[الأحزاب : ٤١] ، وذلك لاستحضار المذكور وتكون النتيجة حبه ، ولكن الحبيب الذي يفسد الواشي حبه معرض حبه للذهاب فتكون القطيعة فجأة بعد ذكر التسبيح ، وبتكراره يحصل ما يشبه التنويم المغناطيسي فتذهب تلك الوساوس فيبقى الحب على حاله ، حتى إذا فارق الإنسان هذا العالم فهناك يدخل في عوالم يفهم فيها ما جهله هنا . فالذكر تحلية والتسبيح تخلية ، ولذلك نسمع الله يقول : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾[غافر : ٧] ، فالحمد نوع من الذكر والتسبيح تخلية عن تلك الشبهات . ويقول : ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾[يونس : ١٠] فجعل التسبيح مع الحمد . وبعبارة أخرى : التخلية مع التحلية . هذا هو الفريق الأول وهم العبّاد ـ بتشديد الباء .

الفريق الثاني في الأمم الإسلامية

الفريق الثاني في الأمم الإسلامية هم الذين يسبحون الله بكرة وأصيلاً كالفريق الأول ، ولكنهم لهم عقول راجحة فلا يقفون عند الشبهات التي ترد عليهم بتكرار التسبيح ، لأن العابد درجته محدودة ولكن العارف بالله أرقى من العابد ، فيقول هذا الفريق : نحن قرأنا في سورة « آل عمران » : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[الآية : ١٩١] فيقولون هاهنا : سمعنا ذكر النار وعذاب النار بعد الذكر والفكر . وهاهنا يقولون الذكر للعباد ولكن العارفون بالله لا يقفون عند الذكر ، فهذه مرتبة ضعيفة ، بل يفكرون في جمال ربهم وصنعته .

وهذا معنى قوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[آل عمران : ١٩١] . نعم نحن نسبح في الركوع والسجود وبعد الصلوات . ففي الأولين ١١ مرة ، وفي الثالث ٣٣ ، وعند النوم كما في الحديث ٣٣ أيضاً ، ونسبح بكرة وأصيلاً ، ولكننا لا نقف مكتوفي اليدين أمام عظمة ربنا وجلاله . وهذه الطائفة هي التي ستظهر بعد انتشار هذا التفسير . وسيكون في الأمم الإسلامية فطاحل الحكماء الذين لم يخلق في أمة مثلهم ، وهؤلاء هم عماد هذه الأمة بل هم عماد الأمم . فهؤلاء يعيشون محبين لربهم ولخلقه ، ويجعلون حياتهم كلها في درس نظام الطبيعة وجمالها ، ولا معنى لهذا كله عندهم إلا أنهم أحبوا وعشقوا مبدع الكائنات وأحبوه لما نقش وزوق وأبدع وأحكم ونوع وصنف . وهذا الفريق فقط هو الذي يفهم لم كان المرض والموت والفقر والطوفان والحرب واحتلال الأقوياء أرض الضعفاء في هذه الأرض . ومستحيل أن ينال هذا الإنسان في الأرض إلا بدراسة مجمل العلوم الرياضية والطبيعية لأنها آثار الصانع الحكيم ، فإن لم ندرس آثاره واكتفينا بقراءة كلامه كنا أشبه بمن قرأ كتاب الملك الذي نشره في رعيته ولم يعمل به . وغاية الأمر أنه يكرر الكلمات التي أرسلها في ذلك الكتاب المنشور . وهذه وإن كانت سخافة وقلة عقل وجهل في كتب المخلوقين فهي ليست كذلك في كتاب الخالق ، لأن كتاب الخالق عز وجل له مزية خاصة . فانظر رعاك الله إلى أجسامنا وأجسام حيواننا وإلى نباتنا فإنك ترى أكثر نوع الإنسان يعيش ويموت وهو لم يدرس هذا الجسم ولا عقل من عجائبه شيئاً . وهكذا يأكل من الحب والفاكهة وهو لم يدرس ولم يعرف عجائب النبات كما لم يعرف عجائب جسمه ، ومع ذلك ينتفع بالفاكهة وبالحب وبجسمه المجهولات عنده جهلاً تاماً . أكثر هذا الإنسان هكذا حاله ،

فجسمه المملوء من الجمال في نظام، وكل ما حوله من مطعوم ومشروب مجهول جماله عنده، وهذا الجهل لم يمنعه أن يعيش بجسمه عمراً طويلاً ولا أن ينتفع بالنبات والحيوان، وأقل هذا النوع الإنساني هم الذين أدركوا جمال أجسامهم وجمال طعامهم وشرابهم من حيث النظام والإبداع. فإذا صح هذا في أجسامنا وفي كل ما حولنا وكله من حسن الإبداع وسعة الرحمة من المبدع الحكيم. فهكذا صح في تسبيحنا. فالمسبح بقوله: «سبحان الله» وهو من العابدين قد نال أثر ذلك التسبيح في نفسه، فتباعدت عنها تلك الشبهات، كما انتفع الإنسان بجسمه أمد الحياة وبما حوله من طعام وشراب وهو جاهل بذلك كله. فأجسامنا وتسبيحنا وذكرنا أشبه بما قيل في كتاب «كليلة ودمنة»، ولله المثل الأعلى، فهو للجهال حكايات تفرحهم، وهو للخواص حكمة وعلم وسياسة. هكذا أجسامنا وما حولنا للجاهلين حياة في الدنيا وللحكماء دراسة بهجة جميلة. فهكذا التسبيح هو للجاهل عبادة تشرح الصدر وللحكيم حثّ على العلم والحكمة، مثال ذلك أن ينظر في جسم الإنسان مثل ما تقدم في سور كثيرة، ومثل ما ستراه في سورة «فاطر» كما أنبأتك في أول هذا المقال، إذ قلت لك: إني سأفصل عجائب الجسم الداخلية هناك.

فسترى هناك الدورة التنفسية مرسومة، ومثلها الدورة الدموية. ثم أعصاب الحس والحركة. وتعجب جد العجب من غدد ـ جمع غدة ـ موضوعة في الفم وهي ست، وأخرى في المعدة وغيرها في الأمعاء، وتدهش أيها الذكي من هذه الجنود المجندة التي تقف في طريق الغذاء معدة لإصلاحه مخرجات من خزائنها تلك السوائل الموزعات على أنواع الطعام، فمنها ما أعد لإذابة المواد النشوية والسكرية كالتي في الفم، ومنها ما أعد لإذابة المواد الفحمية أو المواد الدهنية أو المواد الأوزوتية كالتي في المعدة والأمعاء، وسترى إيضاحه هناك مع هذه المادة التي يسمونها «الكيموس» أولاً ثم تصير كيلوساً بعد ذلك، وهي مادة أرق وألطف من الأولى، فتراها تنتقل من حال إلى حال وتجد لها هناك نوعين من العروق: فالنوع الأول عروق تأخذ السائل الدموي أي الذي استحال من الحال الأخيرة وهي الكيلوس إلى الحال الجديدة وهي الدم، فترى هذه العروق هناك تحت الغشاء المخاطي في الأمعاء فتجتذب تلك المادة اللطيفة المستخرجة من الطعام، وتأتي عروق أخرى فتجتذب السائل المستخلص من الدهن، فيكون هناك دورتان: دورة دموية، ودورة ليمفاوية، والثانية تشابه الأولى بعض المشابهة من حيث تفرغ عروقها في الجسم. ولا أشبه الدورة الليمفاوية إلا بقلاع الجنود وثكنات العساكر، والمادة التي فيها ليست حمراء ولا فرق بينها وبين الدم، إلا أن هذه ليست فيها كرات حمراء بل تخلق فيها الكرات البيضاء التي تدخل مع السائل الليمفاوي إلى الدورة الدموية، وهذه الكرات البيضاء هي الجنود التي أعدت لمساعدة الكرات الحمراء في الدم التي لونت باللون الأحمر، باجتماعهما معاً يحاربان الجيوش الجرارة الداخلات على جسم الإنسان والحيوان من الخارج لإحداث الجدري والحصباء والطاعون وأنواع الحميات المختلفات، إذن دهن السمسم وزيت الزيتون وزيت بزر القطن والكتان والقرطم وشحم الحيوان، كل هذه أعدت لخلق هذه الكرات البيضاء المحاربات لأعدائنا الداخلات في أجسامنا. فإذا كنت منذ أيام قد توجهت إلى بلدة «الخانكا» من أعمال مديرية القليوبية وشاهدت الآلة الطاحنة للسمسم وهي آلة بخارية وبها يعصر الزيت وهكذا أمثالها في غيره؛ فهذا

معناه أن هذه الآلات البخارية الفاصلات بين العجينة المسماة «الكسب» والمواد الزيتية التي يأكلها الناس مساعدات لنا على حفظ حياتنا من حيث إن هذا الزيت وأمثاله هو المساعد على خلق الكرات البيضاء في الدم المهلكات للجيوش القاتلات لنا بالأمراض المختلفات. فيا سبحان الله. شمس تشرق على الأرض، وحب يبذر فيها، وماء ينزل عليها، وذلك الحبّ ينبت فيصير حباً مثل الأول وهو السمسم، ثم تتلقاه تلك الآلات العاصرة فيكون زيتاً. لم هذا كله؟ ليكون لنا حافظاً إذ تأكله الكرات البيضاء التي جعل لها في أجسامنا عروق ليمفاوية سيأتي شرحها، وما هي إلا ثكنات عسكرية. يا سبحان الله، أيكون في أجسامنا ثكنات كثكنات الجنود التي تحمل البنادق والمدافع والغازات الخانقة لقتل الأعداء. أهذا الزيت المستخرج من السمسم أمامي معدّ لثكنات العسكر في جسمي.

الله أكبر. هذا معنى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٢]. انتهى الكلام على الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث: في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾

ولا جرم أن هذا الفصل مرتب على ما قبله. إن صلاة الله رحمة. وصلاة الملائكة استغفار. وقد أبان الرحمة بقوله: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[الأحزاب: ٤٣]، وصرح بها بقوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٣].

ذكر المسلم ربه كثيراً فأحبه بذكره الكثير، كما نرى بني آدم يجعلون نظام الجند بتسليم رجالهم على ضباطهم، وبتلبيتهم نداءهم واصطفافهم وقوفاً أمامهم، وتمرينهم على ذلك وعلى كثرة التعظيم لهم، من موجبات انتظام الجيش وحسن تدريبه، لما يحصل من الآثار بهذه الأقوال والأفعال في الأنفس. ونرى الملوك يزور بعضهم بعضاً فترفع أعلام الدولتين متجاورات، كما اتفق لملك البلجيك أيام طبع هذه السورة في شهر مارس سنة ١٩٣٠م، فيحدث ذلك في نفوس الأمتين مودة.

فهذا ضرب مثل دنيوي لذكر الله عز وجل وآثاره في النفوس. وهذا الذكر كما تقدم له حارس وهو التسبيح لتنزيه المذكور عن خلق العالم عبثاً لعدم قدرتنا على إدراك جميع الحقائق. وهذا وذلك لا يتمان إلا برحمة الله، ولذلك قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾[الأحزاب: ٤٣] الخ. فرحمة الله هنا جلبت لنا منفعة الذكر وصرفت عنا الشكوك والأوهام المهوشات على ذلك. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في التحية والسلام

وهل بقي بعد ذلك إلا التحية والسلام؟ وبيانه أن الإنسان لا سعادة له حقيقة إلا بأمر واحد كما اتضح سابقاً في مواضع، وهو الثقة الحقة بنظام هذه الدنيا، وبأن كل ما يصنع في هذا العالم إنّما هو خير أو آيل للخير، وهذا لن يتم ويثق به الإنسان يقيناً إلا بالاطلاع على العجائب دواماً كالتي ذكرنا في الفصل الثاني من عجائب جسم الإنسان، وهنالك يحس الإنسان بالأمان والسلام في نفسه في الدنيا والآخرة، ذلك لأنه إذا عقل ما ذكرناه في الفصل الثاني وزاد على ذلك أن ينظر في الدائرة العصبية فإنه يرى أمراً عجباً. يرى مثلاً أن هناك غدتين في الدماغ وغدتين بجانب العينين. فالأولان لتنظم أحوال الجسم والآخران لإفراز الماء الملح الذي يحفظ العين لئلا تتلف، ويرى غدة في الرقبة وأخرى تسمى

« التيموسية » وأخريين فوق الكليتين ، ويرى الأنثيين في الرجل والمبيضين في الأنثى ، وهناك يعجب جداً من أن بعض هذه الغدد لو أزيل لم يتميز الذكر من الأنثى في المظاهر ، كشعر اللحية في الرجل ، وانسجام عظام الصدر في المرأة ، وكحفظ اللون ، فإن بعض الغدد لو أزيل لصار لوننا كلون البرونز أو النحاس ، وبعض الغدد بإزالته تكبر العظام جداً فتصير كالنخلة والعين كالبطيخة ، وبعضها لو أزيل لحصل للإنسان تشنج واختلال عقل ، وبعضها لو أزيل لحصل للإنسان البول السكري أو غيره من الأمراض كما سيأتي تفصيله في سورة « فاطر » .

هذا هو العلم الموجب لليقين الذي يعرفنا تنزيه الله وتسبيحه ، وهو الذي يعرفنا تناهيه في الرحمة والعناية بنا وبغيرنا ، وهناك نحس بالسلامة في الدنيا والآخرة . هذا هو قول المسلم : « التحيات لله » فهو يحيي الله أولاً ثم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له منادياً : يا أيها النبي إن الله آمنك فأنت عليم برحمته الواسعة وأيقنت بذلك ، ومن أيقن بالرحمة فلن يصاب بعذاب . ثم يقول : « السلام علينا » ويعمم عباد الله الصالحين في الأرض وفي السماء . وفي الحقيقة إن الوجود منحصر في الموجودات المدركة ، فأما هذه العوالم فهي كلها كما ظهر في هذا التفسير أضواء متحركات تبدت لحواسنا على هذا المنهج المشاهد .

المسلمون يسلم بعضهم على بعض . ويسلمون في الصلاة على كل صالح . ويسلمون في آخر كل صلاة ، فإن كانوا دارسين لعجائب الحكم الإلهية كما في هذا التفسير الذي تكفي دراسته كل عاقل في الأرض ؛ فإنهم فعلاً يكونون قد أمنوا العذاب من الآن على سبيل الرجاء ، وإن كانوا مؤمنين ليسوا من المطلعين على العجائب أو اطلعوا عليها وهم لا يعقلون جمالها كبعض علماء التشريح وعلماء الطب إذا كان معلموهم غافلين عن الإبداع في التركيب مثلاً ، فالسلام لم يعط إلا مجرد العبادة ولهم عليها ثواب مؤجل .

ومن هذا القبيل أنك تسمع الناس يقولون عند التعزية : لا أراك الله سوءاً ، فهذا مستحيل في الظاهر ولكن في الحقيقة لا سوء ، لأن مصائب الناس سبب في إسعادهم بل هي سلالم ارتقائهم والموت من منازل ارتقائهم . فهم يقولون في العيد : أبقاك الله لكل عيد ، أو : جعل الله جميع أعيادك سعادة ، وكل هذه أدعية مطابقة للحقيقة لأن الناس لا يفنون بالموت بل هم أحياء . إذن السلام والأمان موجودان وإن حجب عنهما الناس . والأولون ثوابهم معجل لأنهم شاهدوا جمال الصانع بمجرد مشاهدة جمال الصنعة وعقلوا حكمة الحكيم في مظاهر حكمته وذكروه عند مشاهدة بدائعه ، وصار ذلك سجية لهم ، فهؤلاء في الدنيا سعداء فما بالك بهم بعد الموت؟ هذه أقصى سعادة لأهل الجنة .

انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة . كتب صباح يوم الأحد ٢٣ مارس سنة ١٩٣٠م .

اللطيفة الرابعة

سر من أسرار التنزيل قد أظهره الله في أيامنا هذه بالعلوم الطبيعية مع موازنتها بحوادث التاريخ في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب : ٤٥-٤٦] . جاء في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[نوح : ١٦] وهنا يشبهه صلى الله عليه وسلم بالسراج . إذن هو شمس وهذا كلام الله عز وجل .

فإذا سمعنا النابغة يقول للنعمان:

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فإنا نقول هذا تشبيه لم يكن له أثر في الوجود. ولا جرم أن أعذب الشعر أكذبه وهذا مستفيض فإن الأدب في جميع اللغات إنّما تكون نتائجه الانقباض والانبساط، وعلى مقدار تباعد القول عن الحقيقة بإلباسه لباس الخيال يكون أوقع في النفس.

إن نفوسنا المحبوسة في هذه الأجسام تريد أن تنال الحرية ولو في خيالها فتفرح بأنواع التشبيه والمجاز والكناية. تفرح أن تسمع قول القائل:

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فهذا خفض قوم بعد الرفعة بمجرد هذا التخيل. وقول القائل في بني أنف الناقة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وتفرح بقول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فمجرد هذا التخيل من بشار رفعه على امرئ القيس القائل يصف عقاباً:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

هذه صورة آثار التشبيه عند العرب.

فهل قول الله عز وجل: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٦] كقول النابغة: كأنك شمس الخ؟ ننظر في آثار النعمان فلا نجد له أثراً يشبه آثار الشمس. إن للشمس آثاراً نراها وهي معروفة عند أهل الشرق والغرب. فهل هكذا آثار النعمان. كلا. ثم كلا. إن التشبيه والاستعارة والمجاز والكنايات كلها ترجع إلى أمر خيالي. وكلما كان الخيال أكذب كان أعذب. هذا هو اصطلاح علماء اللغة العربية ولذلك تجد الشاعر أيام مجد الأمة العربية كالمتنبي وأبي تمام والبحتري وأضرابهم لا يبتدئون القصيدة إلا بالغزل، ويصفون فتاة بالجمال والحسن وأنهم هاموا صبابة ووجداً وغراماً، والسامع يعلم أن كل ما يقوله مكذوب، ورواة القصائد جميعاً يعلمون ذلك. إذن التشبيه وجميع أنواع التخييل التي فصلت في علم المعاني ليست تراد بها الحقائق، وقد جعل هذا في علم المنطق ركناً من أركان مادة البرهان الخمسة، وجعل هذا الخامس مقصوداً لإحداث الاشمئزاز أو المسرة، والقائل والسامع شريكان في العلم بكذبه. إذن لتنظر في هذه الآية وما آثارها في الوجود؟ وما مناسبة النبوة لآثار الشمس؟ لندرس الشمس من علم الطبيعة وآثارها في الأرض. لنمثل هذا المقام برجل ماهر في اللعب أراد إظهار براعته فوقف في مكان متسع وقسمه ١٨٠ قسماً، وعلم الأقسام بعلامات، وذلك في أرض العباسية بمصر، ثم وقف في وسطها بحيث يكون ٩٠ عن اليمين و٩٠ عن الشمال، وكل ٩٠ قسمها ثلاثة أقسام بحيث يكون القسم الذي يليه من كل منهما يبعد بنحو ٢٥ درجة عن موقفه، والقسم الذي عند النهايتين قريب من هذا في اتساعه، فيكون مكان اللعب من ناحيتين ٦ أقسام: ثلاثة يمينه وثلاثة شماله، فلما رتب هذه الأقسام قال مخاطباً الواقفين: أيها الناس أنا سألعب لعبة تدهشكم ولا تقدرون أن تأتوا بمثلها. فقالوا: وما هي؟ قال: أرمي بكرتين من يدي اليمنى واليسرى أولاً، تذهب

إحداهما إلى الشمال وثانيتهما إلى الجنوب، ولا تقعان إلا عند نهاية القسم الأول من كل ناحية، بحيث لا يحصل خطأ مني مدة حياتي. ثانياً: متى وصلت الكرتان في الجهتين تنقسم كل منهما إلى قطعتين: قطعة ترجع إلى أسفل وقطعة تذهب إلى القسم الثالث من الجهتين، ومتى وصلت هاتان القطعتان إلى القسم الثالث يرسل رجلان واقفان على آخر الملعب من الجهتين كرتين أخريين فيرميان بهما فيحلان محل هاتين القطعتين المرتفعتين في القسمين المذكورين، وهذه الحركات متصلات منتظمات. فإذا رأينا لاعباً فعل هذا فإنه لا محالة يدهشنا لأننا نرى كثيراً من الناس يلعبون لعبة البلياردو، والمدار فيها على أن الكرة المضروبة بالعصا تصيب كرة أخرى بشروط خاصة، فهناك يحكم للاعب أو عليه، أما هذا اللاعب فإن حركاته متى صدق فيها تكون من أدهش اللعب الذي لا يأتي الزمان بمثله.

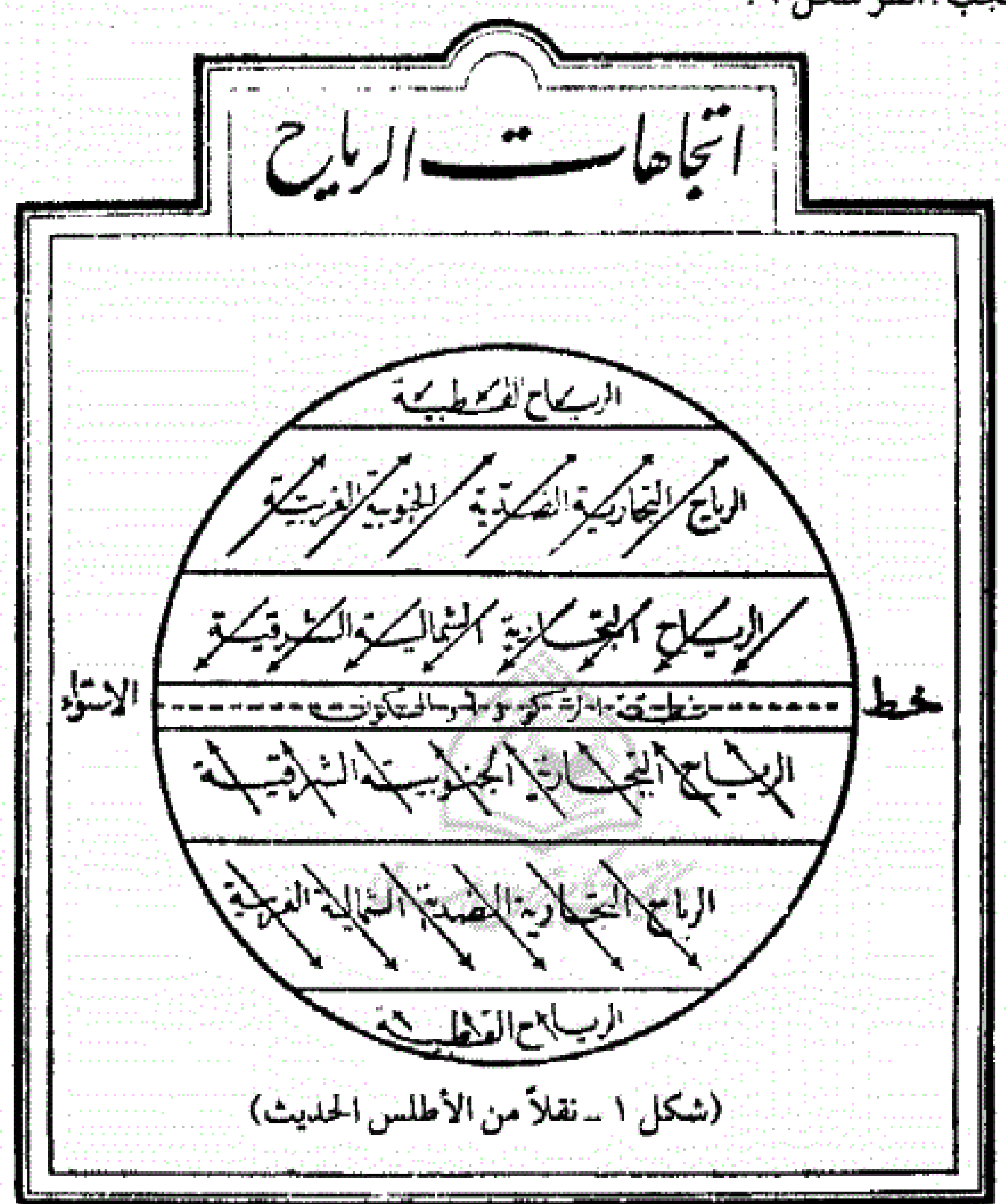
هذا المثل الذي ضربته تقريب لما ستراه، فالملعب المقسم ١٨٠ قسماً هو نصف الكرة الذي نحن فيه ووسطه خط الاستواء، فالشمس مثلنا لها باللاعب وحرارتها مسلطة على خط الاستواء، والرياح تخف هناك فترتفع كما يترفع الهواء في منازلنا بسبب الحرارة في تنانيرنا، ومتى خف هواء منازلنا هبت رياح شديدة من أبواب تلك المنازل داخلة على ساحاتها، مع أن الجو في جميع القرية وما حولها ساكن هادئ ولا رياح إلا هنا لأجل الحرارة.

فهذا المثال الصغير هو الذي يحصل بسبب الشمس، فهي تجعل الريح عند خط الاستواء يخف فيرتفع فيذهب إلى الجنوب والشمال وهو الذي مثلنا له بالكرتين، ومتى وصل هذان التياران إلى نحو نيف و ٢٠ درجة من الجانبين، قلت الحرارة الرافعة للهواء فأراد النزول إلى الأرض كما تنزل الطيارة إذا قلّ ما فيها من «البنزين»، هناك ينزلان في تلك المسافة فيقابلان سطح الأرض فتقابلهما حرارتها فيرتفع كل منهما كرة أخرى إلى أعلى ثانياً وهو قسمان، كما أن الكرة المتقدمة ارتفعت وهي مقسمة قسمين فيرجع قسم منه إلى خط الاستواء ليحل محل ما ارتفع هناك من الهواء بخفته، وقسم يذهب إلى الدائرة القطبية من الجانبين، ومتى وصل هناك وقابل وجه الأرض خف ثانياً بسبب الحرارة فيرتفع وهناك يحل محله رياح تأتي من القطبين، وهو الذي عبر عنه باللاعب في آخر الملعب من الناحيتين، والرياح التي من جهة القطبين إنّما أتت لتحل محل الرياح الصاعدة في الدائرتين المتقدمتين.

هذه حال الشمس والهواء والبرد والحرارة، اللهم إن الحرارة والبرودة جنديان سائقان لهذه العوالم، وكرة الهواء حولنا هي ميدان العمل، فما هي حياتنا يا ربنا؟ حياتنا راجعة لتدبير محكم لو كشف لنا لاحترقت قلوبنا من الحب والدهش، أمور بديعة، ما هذه الأعاجيب؟ شمس وحرارة منها سلطت على خط الاستواء فجرت الرياح فقابلت الأرض حوالي دائرتي الجدي والسرطان فقابلتها الحرارة فارتفعت ثانياً ثم وقعت عند الدائرتين القطبيتين وحلت محلها رياح أخرى، ثم إن هذه الحركات لا مقطوعة ولا ممنوعة.

إن الهواء ساعة وسلكها الذي هو «الزمبلك» هي الشمس. وهذه الساعة لا تفتأ تدور ليلاً ونهاراً والناس غافلون تائهون. الناس جميعاً يا الله يعيشون ودواليب هذه الساعة تجري فوقهم وتحتهم وهم يعيشون فيها، وغاية الأمر أنك أنت علمتهم صناعات ليعيشوا بها وما هي إلا ضرب مثل لهذه

العجائب المحيطة بهم، ومن أجلها حرارة الشمس وتأثيرها في الهواء الذي لولاه لم تكن هذه الحركات فيه ولم يكن سحاب ولا مطر ولا أنهار ولا حيوان ولا إنسان ولا علماء، فلو أن هذا اللاعب في المثال المتقدم زاد على ما قاله فقال: إن هذه الحركات يستنتج منها مخلوقات حية وغير حية، لكان هذا من أعجب العجب. انظر شكل ١.



(شكل ١ ـ نقلاً من الأطلس الحديث)

إنّما رسمت هذا الشكل لك أيها الذكي ليزيد فهمك بهذا الموضوع وما هو؟ هو المشبه في الآية لأنه صلى الله عليه وسلم سراج بنفس الآية، والسراج يطلق على الشمس، فنريد أن نبين آثار الشمس العامة ثم نتبعه بآثار الإسلام والقرآن في الأرض، ثم نبين آثار أعاظم الفلاسفة فعلاً في أرضنا، وهناك فقط نفهم أن قول الله هنا: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦] ليس كقول شعراء العرب في الجزيرة وفي البوادي للنعمان بن المنذر:

كأنك شمس والملوك كواكب

إن حرارة الشمس تقع على خط الاستواء فيرتفع الهواء نحو ٢٠ ميلاً، ومعلوم أن الحرارة تمدد الأجسام فتخف كما قدمت لك، ومتى ارتفع الهواء بسبب الخفة تحل محله رياح من الشمال والجنوب ثم هو يتأثر بالحرارة ثانياً ويرتفع وهكذا، فترى الرياح المرتفعات عند خط الاستواء تجري إلى الجهتين ورياح أخرى تجري من تحتها من الناحيتين إلى خط الاستواء فهي دائرة دائماً أبداً. وهذه أشبه شيء

بالدولاب يجري ليلاً ونهاراً وكالنجوم والشمس والقمر، والتي تهب إلى خط الاستواء من الناحيتين تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية، والرياح المرتفعة إلى الشمال والجنوب تسمى الرياح التجارية الضدية، والرياح الآتية من القطبين تسمى بالرياح القطبية. فهنا رياح تجري من القطبين ورياح تجري من خط الاستواء ورياح تجري من بعد مخصوص إلى خط الاستواء وإلى الدائرتين القطبيتين. هذا هو التدبير والنظام البديع.

يقول الله هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٧].

هاأنت أيها الذكي عرفت المشبه به وهو الشمس وعرفت آثارها وأنها بحرارتها حركت هواءنا فارتفع ثم انخفض ثم ارتفع ثم انخفض ثم ارتفع وهو في ذلك دولاب يجري، والمحرك للدولاب هي الشمس.

الله أكبر. ماذا كانت نتيجة هذه الحركات والدواليب الدائرات؟ نتائجها بديعة وجميلة، نتائجها سحاب يجري بجري الرياح والسحاب آتي بآثار الحرارة في الماء، فالحرارة أثارت الرياح من البحار والحرارة أثارت الهواء. فهذا الأثران يلتقيان ويتعانقان وهما أخوان، البخار والهواء الجاري كلاهما بسبب الحرارة فتراهما يتعانقان ويحمل أحدهما وهو الهواء أخاه وهو البخار ويجري به، لماذا يجري به؟ ليسقي الأرض فيكون الزرع وكل حي، عجيب جداً، حرارة تنبعث منها حركتان. حركة لتيار يؤخذ من الهواء وحركة البخار من الماء، فيجري هذان الطائران ويلتقيان ويحمل أقواهما وهو الهواء أخاه وهو البخار الذي صار سحاباً فيمطر على الأرض فتكون الأنهار والزروع والثمار والحيوان، المشبه به جميل جداً بهي حسن. فماذا نقول في المشبه وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلام على آثار النبوة وهي المشبهة بالشمس

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي فقرأ ما كتبته الآن فقال: إن ما كتبته الآن قد تقدم في هذا التفسير. أفلا يكون هذا تكراراً؟ مسألة الرياح القطبية. والرياح التجارية المنتظمة، والرياح التجارية الضدية. كل هذا قد تقدم في هذا التفسير.

وأزيد على ما ذكرت هنا الرياح الموسمية، ذلك أن الأرض تتأثر بالحرارة أكثر من الماء فيصعد الهواء من فوقها إلى الجو، والماء طبعاً محيط بالقارة، فيجيء الهواء الذي فوق الحار ليحل محل الهواء المرتفع فيحمل البخار، فيكون المطر على السواحل، فتكون إذن حرارة الصيف في القارة سبباً لارتفاع الهواء، وحلول هواء البحار محل الهواء المرتفع وقد حمل معه البخار فكانت الحياة، فيحصل المطر صيفاً على الشواطئ كالذي يحصل في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي، وبهذه تعيش أمم وأمم. وهذه هي الرياح الموسمية، أما في الشتاء فإن الهواء يخرج من وسط القارة إلى البحار لأنها إذ ذاك تكون أدفأ من الأرض، وهذه الرياح تهب ستة أشهر إلى جهة وتهب بالعكس ستة أشهر أخرى، وهي في ذلك كنسيم البر والبحر، فإن النسيم عند شواطئ البحار بالليل يهب من البحر إلى البر ويسمونه نسيم البر. لماذا؟ لأن الأرض أسرع برودة من الماء، وفي النهار يهب الهواء من البحر إلى البر ويسمى نسيم البحر، لأن الأرض أسرع حرارة فيرتفع هواؤها ويحل محله الهواء الذي فوق الماء، فتتم هناك دائرة

كالدوائر الحاصلة من الرياح الموسمية والرياح التجارية ونحوها . ثم قال : هذا القول منك تكراراً لما تقدم . فقلت . كلا بل يجب إيضاحها لسببين :

السبب الأول : إن كثيراً من الأذكياء لم يتصوروا ما كتبته سابقاً حق تصوره ، لذلك رسمت هذا الرسم حتى يعرفوا الحقيقة العلمية التي نعيش بنظامها ، فإعادة القول هنا ليعقلها من صعبت عليه هناك ، والرسم هنا لم يكن له نظير فيما تقدم ، وأيضاً هذا لزيادة التثبيت وتذكير بجمال الله وإبداعه وحسن صنعته وجماله ، وإن لم يكن التذكير تدوم الغفلة ، ومعلوم أن الله يكرر القصة على أنحاء شتى في القرآن ليكون ذلك أدعى للاعتبار والحكمة ، إذ في كل مرة تظهر حكم ليست في غيرها ، فهنا لا بد من ذلك .

السبب الثاني : في أننا هنا نريد أن نفهم الحكمة في جعله صلى الله عليه وسلم سراجاً منيراً ، ولسنا نعرف المشبه إلا بعد إدراك المشبه به ، فإذا لم نفصل الكلام فيه لم ندرك المشبه بقدر طاقتنا ، فإذا فصلنا الكلام في المشبه به هنالك ندرك المشبه ، ولا جرم أن هذا من التشبيه المركب ، وأعظم التشبيه المركب ما قاله بشار وفخر به وهو :

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا .... الخ

فالتشبيه المركب الذي قاله محصله أن غبار الحرب المحيط بالشجعان تتخلله السيوف اللوامع ذاهبات آيبات مرتفعات منخفضات . مشبه هذا كله بليل داج حالك تساقطت فيه الشهب من السماء . تتخلل أكنافه لامعات متقابلات كثيرة الحركات .

هذا أعظم تشبيه عند العرب كما يقول علماء البيان ، فلو لم نعرف المشبه هنا لم يمكننا إدراك المشبه ، فقال : حسن هذا ولكن المقام هنا صعب ، كيف نصل إلى أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم كالشمس في هذه الحركات . فقلت : إن الله شبه القرآن بالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .

فهذا التشبيه المركب أرقى من تشبيه بشار المتقدم ، ألا ترى أن القرآن شبه المطر وهو الصيب . والوعيد في القرآن شبه الرعد . والبرق شبه بالحجج . ومن يعرض عن سماع الوعيد يشبه بمن يضع أصبعه في أذنه خوفاً من الرعد . ومن يسمع الحجج في القرآن ثم يعرض عنها كمن يمشي في البرق وإذا أظلم وقف ولم يتحرك . فهذا التشبيه المركب أوسع نطاقاً من تشبيه بشار . وقد تقدم هذا في سورة « البقرة » .

هنالك قال صاحبي : أسمع جعجعة ولا أرى طحناً ، ماذا أفدتنا بهذا التشبيه ؟ أنا أعترض عليك من وجهين : الأول : إن الآية هنا أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير . ولكن أنت تذكر أن القرآن مشبه بالمطر ورجعت في قولك إلى ما ذكرته أنت في أول « البقرة » . الوجه الثاني : إن أول كلامك أفهمنا أنك ستظهر لنا سراً مصوناً من تاريخ النبوة يشبه ذلك السر المصون الذي ظهر في الشمس ، لأنها بحرارتها وحدها كانت منها الرياح الموسمية ونسيم البر والبحر والرياح الاستوائية والرياح التجارية المنتظمة والرياح الضدية والرياح القطبية . وكل هذه حاملات سحباً وسقناً ونعماً . فأنت لم تأت لنا بهيئة في النبوة تناسب المشبه به ، وغاية الأمر أنك رجعت إلى علم التشبيه الذي أنت نهيت عن الوقوف عنده لأنه أمر لفظي . والأمم الإسلامية الآن قد عرفت من آثار النبوة ما لم يكن

فيما مضى في الزمان الأول . وقد نقلت أنت عن العلامة السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » في سورة « العنكبوت » أن الأنبياء كانت معجزاتهم كلها حسية . أما معجزته صلى الله عليه وسلم فهي راجعة إلى ما سيظهر في القرآن للأمم والأجيال من المعاني التي تتجدد بتجدد الأمم والأجيال .

وملخص اعتراضي أمران : أنك لم تذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التشبيه بل ذكرت القرآن . وأنك لم تأت بما كنا نرقبه . فقلت له : أليس عندك اعتراض بعد هذا؟ فقال : لا . فقلت : من عجب أنك في هذا الاعتراض أشبه بهؤلاء الذين يقال يقرؤون الأفكار . إن كل ما قلته هو الذي ستسمعه ، وغاية الأمر أني أتيت بهذا التشبيه مقدمة فقط للجواب الشافي ، فلو أنك صبرت علي لوجدت الجواب على النحو الذي ترضاه فقال :

أنعم برد جواب ما أنا سائل عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب وهناك أرسل الجيوش هو وأبو بكر وعمر وبقية الخلفاء إلى أطراف جزيرة العرب وللفرس ومصر وبلاد المغرب والأندلس والسودان وهكذا في جهة الشرق إلى بلاد الهند والصين ، فهذه الجيوش كالرياح والقرآن معها كالسحاب ، فإذا كانت الشمس أرسلت بحرارتها رياحاً في الهواء عند خط الاستواء وكانت لها فروع وفروع وكانت الرياح الموسمية ونسيم البر ونسيم البحر وهكذا ، وحملت تلك الرياح السحب فأمطرت الأرض ، هكذا هذه الجيوش الجرارة المجاهدة والعلماء والفقهاء والحكماء الإسلاميون فهؤلاء كلهم هم رياح مختلفة الأشكال يسمون بأسماء مختلفة ، وهؤلاء يحملون السحاب ، فالقرآن منزل عليه صلى الله عليه وسلم والجهاد بتعاليمه . ثم إن الدين انتشر بالدعاية ، فلننظر إلى رياح الجهاد الواصلة إلى الأندلس لنجعلها مثالاً لنا لنستدل على الباقي ، أليس الإسلام بقي في الأندلس ٨٠٠ سنة ؟ أليس هو كالرياح التي وصلت إلى أحد المدارين « الجدي والسرطان » ، وقد قلنا : إن الرياح هنالك انقسمت قسمين : قسم رجع إلى خط الاستواء . وقسم ذهب إلى الدائرة القطبية ، فانظر الشكل السابق . هكذا السحب الإسلامية التي وصلت مع رياح الجهاد إلى الأندلس قابلها القوم أيام ابن رشد بحرارة التعصب ضد العلم ، لأن العلم عند هؤلاء قد اعتقدوا أنه ينافي الدين ، فارتفع عنهم إلى أهل أوروبا وأخذ يرقي القوم ، وقد نام المسلمون إذ ذاك نوماً عميقاً . ولأذكرك بمسألة وهي أن الله رب العالمين لا رب المسلمين وحدهم ، وإذا خلق الشمس فلم يخلقها للمسلمين وحدهم بل خلقها لأمم ولكواكب كثيرة ، إذن نبينا صلى الله عليه و سلم جاء لإيقاظ أهل الأرض مهما كانت نحلهم وأديانهم ، كما أن الشمس لأهل الأرض جميعاً لأن الله رحيم ورسوله رحمة للعالمين .

إذا فهمت هذا عرفت السر في أن أوروبا لما أخذت علم ابن رشد كما عرفته في غير هذا المكان قامت من رقدتها ، وهنالك حصلت هناك شعبتان : شعبة توجهت إلى أمريكا في أيام اضطهاد المسلمين للعلم ففتحت أمريكا ، وشعبة رجعت إلى الشرق بالحروب الأوروبية ، فهانحن أولاء نرى أهل أوروبا لما أيقظتهم الحروب الصليبية التي تشبه من كل وجه الرياح التي تأتي من المدارين إلى خط الاستواء رجعوا إلى بلادهم ووجهوا هممهم إلى أمريكا من جهة وإلى أمم الإسلام والشرق من جهة أخرى ، فهم فتحوا أمريكا فارتقت ، وهم جاؤوا بلادنا يحاربوننا ومعهم تلك العلوم التي تصرفوا فيها ورقوها

بعد أن أخذوها من آبائنا. أليس هذا بعينه هو الحاصل من الشمس؟ شمس تشرق على خط الاستواء فتثير الرياح فتصل إلى مداري «الجدي والسرطان»، فتكون هناك ريحان: إحداهما تتجه إلى خط الاستواء. والأخرى تتجه إلى جهة ضدها. فهنا كذلك اتجه الإسلام إلى بلاد الأندلس، ولما استقر هناك العلم مدة كره المسلمون العلم فحمله اليهود إلى أوروبا فدهشت من هذه التعاليم فأخذت ترتقي وتوجه منها قوم إلى أمريكا وطردوا المسلمين من بلادهم لأنهم جهلوا العلم والدين، وهاهم أولاء يجرون وراءهم في شمال أفريقيا وفي آسيا. فهذا نفسه هو الذي حصل في الرياح بحرارة الشمس إذ توجه منها تياران مختلفان لما وصلت الرياح إلى المدارين، فهكذا هنا تياران مختلفان. فأما أمريكا فقد ارتقت وبقي أمر أمم الإسلام فهذا دورهم، ولا عيب علينا في ذلك، فإن الرياح الجارية من خط الاستواء تحل محلها الرياح الآتية من المدارين. وإذا كان هذا طبيعة ملك الله فلنسر على نظامه ولنعلم أن هذا هو وقتنا وأيام رقينا، وما مثل هذه الأمم الإسلامية مع دينها إلا كمثل أرض نزل عليها الغيث فأنبتت نباتاً حسناً ولكن تركت بركاً ومستنقعات هنا وهناك لعدم المصلحين للأرض، وهذه البرك أخذت تكثر وتزداد على مدى الأيام، فبعد أن كانت الأرض أخذت زخرفها وزينت أصبحت كلها حشائش ومياهاً مرة قذرة وأرضاً مستوخمة كثرت فيها الأمراض والجدري والحصباء يجهل أصحابها.

هذه حال المسلمين لما نسوا الشمس المحمدية، وناموا على كلام شيوخهم المتفرقين، وظن كل شيخ طريقة أو عالم مذهب من مذاهب الإسلام أن الدين هو ما يعرفه وما عداه لا يجب عليه ولا على الناس، صار الناس كأنهم في مستنقعات وبرك، ولذلك ترى المبتدعين والخارجين وأصحاب المذاهب السقيمة كثروا في الإسلام، فهؤلاء كالماء الراكد أضروا بتلاميذهم وحجبوهم عن العلم فذلوا، وكما أن الشمس تطهر الأرض هكذا النور المحمدي بالرجوع إليه يستيقظ المسلمون.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا حسن، ولكن من المسلمين من منع عنهم المستعمرون العلم. فقلت: ولكن لا يمنعون القرآن ولا هذا التفسير، وهذا التفسير وأمثاله في أمم الإسلام كثير منه يفهمه كثير من العقلاء وإن لم يكونوا متعلمين العلوم الحديثة، وهل للمسلمين عذر بعد الآن؟.

فاقرأ أيها الذكي مذهبك الذي تعلمته في الصبا فليس يناقض هذا التفسير، لأن المذاهب كلها في أمور عملية جزئية وهذا في الأمور العامة، ومنه تظهر لك بعض أنوار الشمس المحمدية التي بها نعرف أن وقوف المسلمين في هذه البرك والمستنقعات المملوءة من الحيوانات الذرية الفكرية الضارة بالمسلمين هلاك لهم، وهم أجدر بالسعادة والرقي من جميع أمم الأرض.

فقال صاحبي: الآن فهمت ولكن أين موازنة نبينا صلى الله عليه وسلم بأعاظم الفلاسفة. فقلت: إن أفلاطون ألف جمهوريته وهي أعظم كتاب ألفه عالم في الأرض كلها، وهذا الكتاب علم عرّف الأمم كيف تنظم الحكومات والجند والعامة وما الذي يرقيها. وما الذي يخفضها. وتقدم تلخيصها في هذا التفسير، ومع ذلك لم نجد لهذا الفيلسوف دولة، بل إنه مع شهرة كتابه الآن وانتفاع الأمم به لم يحدث جزءاً مما أحدثه هذا النبي العربي الذي استحق بمقتضى التاريخ ونتائج أعماله أن يسمى سراجاً منيراً، لأنه حرك الكرة الأرضية كلها، حتى إن الحركة وصلت إلى اليابان والصين، فاليابان ما حركها إلا تعاليم أوروبا والصين كذلك، فحركات الإصلاح تتجه شرقاً وغرباً وجنوباً

وشمالاً بسبب الحركة الإسلامية. إذن هو صلى الله عليه وسلم شمس منير حقاً، وبه ارتقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين، والمسلمون الحاليون الذين جنى عليهم جهل آبائهم المتأخرين سيأخذون دورهم في الرقي وتهب رياح سعدهم إلى الأمم كرة أخرى تحمل لهم علماً غزيراً.

فقال صاحبي: إن هذا البيان عجيب وأنا أحمد الله عليه. فقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى صباح يوم الأحد ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦م.

زيادة إيضاح في بعض أسرار قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

لقد تم الكلام على تفسير هذه الآية وإيضاحها، ولكن لا بد من إيفاء المقام حقه من حيث العمل بعد العلم في بلاد الإسلام. لا جرم أن ضوء الشمس له منافع جمة في علم الطب. ولقد أكثر الأطباء من تعداد منافع التعرض للهواء والشمس نابذين تعاطي الأدوية من الصيدليات في أنحاء العالم. ومعنى هذا أن الأطباء في العالم اليوم راجعوا فعلاً إلى منافع ضوء الشمس والهواء والتداوي بما هو طبيعي، وهاهم أولاء ينكرون كل الإنكار ما يزاوله الأطباء غالباً من المداواة بالعقاقير المشهورة ويقولون: إنها تحدث أمراضاً وأمراضاً. وهذا القول نقلته في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[الآية: ٦١]، وهكذا ترى كثيراً منه في سورة «الأعراف» عند آية: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[الآية: ٣١]، وفي سورة «الحجر» في أوائلها عند الإشارة إلى قصة آدم، وفي سورة «طه» عند قصة آدم أيضاً، وفي سورة «الشعراء» عند آية: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الآية: ٨٠].

فترى في هذه المواضع ما يغنيك في علم الطب ويرجعك إلى المعالجة الطبيعية ومن أهمها ضوء الشمس. هذا في شمس السماء وهي المشبه بها، أما المشبه في الآية وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم فإننا نريد أن نعرف لماذا كان هذا التشبيه، وما فائدته لنا معاشر المسلمين الآن بطريق أجلى بحيث نعرف من هذا التشبيه ما عرفه الأطباء في علمهم، فإذا كان الأطباء رجعوا إلى ضوء الشمس ونحوه في طبهم وهم مصيبون فهل أمراض المسلمين الاجتماعية يكون الشفاء منها بنفس هذا التشبيه، وبقوله تعالى: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٦]، هذا ما أريد بحثه اليوم فأقول: اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم وبهجة الحكمة. اللهم إنك أنت الذي أعنت ووفقت وشرحت الصدر ودبرت الأمر ووعدت ونصرت وأوفيت العهد، فأنا أسألك اللهم أن تجعلنا وافين بعهدك حتى نستحق منك هذا الوفاء وهذا الجميل وهذه النعم العلمية التي نحن نقرّ بها ونحمدك عليها.

أيها الذكي: أكتب هذا صبيحة يوم الخميس ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩م ذاكراً ما اتفق لي أمس الأربعاء ١٨ منه، ذلك أني أحسست بألم من البرد في كتفي اليسرى، ولقد اعتدت أن أتعرض لضوء الشمس متى أحسست بهذا الألم منذ سنين طويلة، فذهب ذلك المرض، ومن أعجب العجب أني قبل أن أعرف ما لضوء الشمس من الفوائد ولم أقرأه في كتب الأطباء وبعد ما جربته صح عندي.

أقول: إذ ذاك قابلت طبيباً مصرياً فسألته: لِمَ لَمْ يظهر الأطباء فضل حرارة الشمس مع أني أنا أعرف منفعتها في شفاء جسمي؟ فكان جوابه: لقد وضعوا الأدوية الحارة وهي من نوع حرارة الشمس فسكت ورضيت بهذا الجواب.

ثم بعد ذلك اطلعت على فوائد الضوء الذي تقدم في هذا التفسير مشروحاً شرحاً مستفيضاً من أقوال نفس الأطباء، فدل ذلك على أن ذلك الطبيب الذي سألته قبل ذلك كان مقصراً أشد التقصير في جهله الأمور العامة وحصر فكره في العقاقير الطبية، فمثله كمثل كثير من علماء الإسلام في القرون المتأخرة الذين حصروا عقولهم وأضاعوا مهجهم ووضعوا نبوغهم في المسائل الجزئية من الطلاق والبيوع والحيض والنفاس، ولم يرفعوا رؤوسهم إلى الشمس المشرقة المحمدية فيدرسوا نفس القرآن ونفس السيرة المحمدية وسير الصحابة والتابعين ليستخلصوا من ذلك رقي الأمم الإسلامية المسكينة. إن نسبة هؤلاء في علومهم المحصورة كنسبة الأطباء في حصر عملهم في العقاقير المشهورة، ونسبتهم في رجوعهم إلى القرآن وتفسيره بالهيئة الحديثة التي رأيتها كنسبة رجوع الأطباء إلى التداوي بالماء وبضوء الشمس وبالهواء النقي.

أقول: لما أحسست بذلك البرد توجهت إلى الخلوات خارج القاهرة وجلست في مكان قصي نحو ساعتين متعرضاً للشمس على عادتي، وبينما أنا كذلك إذ صاحبي قد تتبع خطواتي فسمعت نبأه خلفي، فسلم وحيا وجلس وقال: فيمَ تفكر الآن؟ فقلت: وإذا عرفت أني أفكر فلماذا قصدت قطع التفكير؟ فقال: قصدتك بعد مدة كافية لتمام الفكر، فقلت: أنا أنظر إلى الشمس وإلى السحاب وأعجب من مهرجان وعرس وأفراح في هذا الجو. انظر، ألست ترى السحاب يحيط بالآفاق شرقاً وغرباً. هاأنا ذا جالس على هذا الرمل وأرفع طرفي فأرى قبة زرقاء تحيط بي مهندسة الشكل بديعة الوضع حواشيها موشاة بالسحب المجللة لآفاقها، وهاهي ذه تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وتتقارب وتتباعد.

أفلست ترى أن هذه هي عين ما يفعله الناس في أعراسهم وأفراحهم وولائمهم في عقود زواجهم، الناس شرقاً وغرباً قديماً وحديثاً يصنعون الولائم فيضربون الطبول ويطلقون الرصاص من البنادق بل القنابل من مدافعهم. ولهم أغان ينشدونها ومجالس ابتهاج مجموعهم وأنعام يذبحونها وصدقات يوزعونها وأعلام يرفعونها. لم هذا كله؟ لاقتران فتى بفتاة أو ولادة ولد. والمظاهر عادة تتبع في ضعفها وقوتها العسر واليسر والغنى والفقر وكل امرئ بقدره. فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان فهي مجمع عليها، وإجماع الإنسان على عمل واحد يكون له شأن الفطرة والفطرة صادقة. فلم هذا كله؟ نظرنا فوجدنا هذا الاقتران نتيجته الولادة والولادة ترجع إلى وجود حي على الأرض.

إذن هذا الإنسان إنما يكون فرحه بالوجود، فلا فرح إلا بموجود ولا حزن إلا على مفقود، ثم ننظر فنرى أن الذرية التي فرح بها الإنسان ربما تموت وربما يموت الأب قبل كبر الابن، فدلنا ذلك على أن هذا الفرح فرح جزئي لا كلي لأنه ليس بدائم، وما ليس بدائم لا قيمة له، إذن عواطف هذا الإنسان وهذا الحيوان عواطف جزئية جعلت غرائز لأعمال جزئية لا دوام لها، فلننظر إذن في العوالم التي منها خلق هذا الإنسان، فنرى هذه الأفراح والأعراس تقام في السماء دائماً في يوم أن خلقت السماوات والأرض، ولن تقام تلك الأعراس إلا ابتهاجاً بالوجود العام كما أقامها الإنسان للوجود الخاص، وعظمة أفراح السماء مناسبة لعظمة الموجودات التي أقيمت الأفراح لها.

انظر أيها الذكي، ألست ترى هذه الشمس تختفي تارة وراء هذه السحابة وتارة تظهر كأنها تفعل فعل الناس في أعراسهم يظهرون أفانين اللعب، وبعد الاختفاء يظهر وجهها كرة أخرى وقد

رفعت نقابها تحييني أنا وتحييك بالسلام وهي بسامة، ثم إن أفراح السماء عامة، فهاهي ذه أمامك في جميع جوانب السماء لأن هذا الفصل فصل المطر وقد جعل المطر للحياة.

فأفراح السماء ترى: (١) السحاب. (٢) والرعد والبرق. (٣) وأصوات الرياح المغنيات بأعواد الأشجار. (٤) والأعشاب والزروع الراقصات على تلك النغمات وفيها الطيور المغردات بأنواع النغمات. (٥) وهل فعل الإنسان غير ذلك في أعراسه.

مدعوون كالسحاب كثرة وقلة، وإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع يحدث صوتاً مشاكلة للرعد، وضوءاً مشاكلة للبرق، وضرب الدفوف والطبل مشاكل لأصوات الرياح والرقص والغناء كرقص الأشجار وغنائها وغناء الأطيار.

ولكن الفرق بين العرس الذي أقامه الله وأعراس الناس أن عرسه دائم بدوام السماوات والأرض يراه الآباء والأبناء وعرسنا ذاهب جزئي مقدر بمقدار عواطفنا وأحوالنا. ثم إنّما مثل المسلمين السابقين بعد العصور الأولى الذين هم خير العصور المقتصرين على دراسة القشور من دين الإسلام في اقتصارهم على كتب خاصة في المذاهب المعروفة كمثل أهل الأرض في إقامة الزينات وإعداد الولائم في أعراسهم الجزئية، وحال المسلمين الذين يقرؤون اليوم أمثال هذا التفسير وينظرون في القرآن ويفهمون هذا الوجود فهماً حقاً، إنهم يرون ما أراه أنا وأنت اليوم أيها الذكي. فقال: وما هو ذلك؟ فقلت: إني أنظر فأرى أن هذه الأعراس والزينات المقامات في هذه الآفاق مقصودة لدعوتنا أهل الأرض أن نشاهد العرس الأعلى والأوسع نطاقاً. فهمة العاقل تتجه إلى المثل الأعلى، والمثل الأعلى هنا أن نعرف لمَ دامت هذه الزينة السماوية دائماً. فقال: لدوام الوجود من حيث الكليات كالكواكب ومن حيث الجزئيات كالمواليد على الأرض. فقلت: إذن سيتجه نظر المسلمين بعدنا إلى هذه الأعراس العامة ولا ينحصر نظرهم في الأعراس الخاصة. قال: إن شاء الله فيدرسون الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والهواء. وهنالك يفرحون ويقرؤون: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهنالك يفهمون لماذا قال الله هنا في الآية: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

ومتى برزت الشمس قتل ضوؤها كل المكروبات «الحيوانات الذرية» وأزال العفونات من الأرض. فهكذا متى درس المسلمون أمثال ما نكتبه في هذا التفسير زالت تلك العفونات العلمية والأخلاق الوراثية التي خلفها أناس من قبلنا لم يرفع شيوخهم أعينهم إلى معرفة نفس القرآن ونصوصه ولا إلى جمال الله وإبداع تركيبه. وهنالك سيتجه الجميع وجهة واحدة فيعرفون الجمال الأسمي والحكمة في هذا الوجود. وهنالك يفرحون بالوجود الأعلى وهو الوجود الدائم، وجود رافع هذه الزينات ومرسل الرياح في الآفاق ومعلم الطيور أنواع الغناء. ومطلق في الجو أصوات الرعود ولألاء البروق والجمال، فبدل أن يفرح الناس بمولود يموت وبزوجات ستفارق وبنعم ستزول؛ يفرحون بموجود هو الحاضر الدائم الذي لا يفارقهم، وهنالك يعلمون أن تلك الأعراس وتلك الزينات الجزئية ما هي إلا مدرسة صغرى ومقدمات لفهم الأعراس الكبرى، ومتى عرفوا أن هذه الأعراس والأبناء كلها فانية توجهوا للعرس الأكبر ولمن أقام زينته ونصب خيمته، وهو الموجود الذي لا ابتداء له ولا غاية.

هنالك يرتقي المسلمون ارتقاء لا حد له، وتضمحل تلك الحزازات الحقيرة الصغيرة التي ولدها قصر النظر الذي طال أمده، إذ يرون دراسة الوجود كله دراسة القرآن، وما الخلاف في الإسلام إلا كاختلاف الأشجار ورقاً وطعماً وجمالاً لا غير.

وهذه العقول الإسلامية بعدنا التي يكون فرحها وعلومها كلها متجهة إلى نظام هذه الدنيا يسعدون في الدنيا وفي الآخرة، لأنهم يعرفون الرحمة التي تقدم تفسيرها في أول سورة «الروم» وما بعدها للبسملة، ويوقنون بأن من جعل هذه العوالم خادمات لكل إنسان ليس يرسل آلاماً لمخلوق إلا لفائدة ذلك المخلوق وهو لا يدرك حكمتها، ولأنهم يوقنون بعد دراسة ما تقدم بذلك كل الإيقان. وهنالك فقط يعرفون معنى قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، فلا إيقان باللقاء ولا فرح بذلك اللقاء إلا بعد تفصيل الآيات التي جاء بعضها في هذا التفسير، وبدون ذلك لا إيقان بل هو إيمان.

فالله أخذ يفصل الآيات اليوم في الكرة الأرضية. وهانحن أولاء ذكرنا بعضها وسيقوم بباقيها من بعدنا. وهاهي ذه أيام اليقين قد أقبلت، ويدرس المسلمون نظام الدنيا ويرفعون شأنها ويردعون إلى ربهم فرحين به مستبشرين.

فقال صاحبي: فاذكر لنا كلمتين فيما رأيت اليوم من الأفراح؛ كلمة عامة وأخرى خاصة حتى يكون ذلك نموذجاً لتفكيرك اليوم. فقلت: أما الكلمة العامة فإني أقول لك إنك يحق لك أن تقول إن هذه القبة السماوية والأرضية وما بينهما وهذه الأعراس الطبيعية القائمة الآن هي لك أنت. قال: وهل الوجود ليس فيه غيري؟ قلت: إنها لك أنت. فقال: ما البرهان؟ فقلت: أنت من الأمة المصرية البالغة ١٤ مليوناً، وارتقاؤها ينفعك وضعفها يضرك. قال: حقاً هذا. إذن كلهم نافعون لك إجمالاً. قال: هذا حق. فقلت: والأمة المصرية بينها وبين الأمم علاقات التجارة والبريد والطرق الجوية للطيارات والبريد الجوي والبحري وهكذا، قال: حقاً. قلت: فكل الأمم نافعات لها. قال: نعم. قلت: ولك؟ قال: ولي. قلت: الشمس والهواء والسحاب كلها نافعات لك ولأمتك وللأمم والحيوان والنبات الخ. إذن هذه الشمس وهذا الهواء مسخرات لك لأنها نفعت الأمم النافعات لأمتك النافعة لك. إذن العوالم كلها تخدمك، ولا ينافي هذا أنها تخدم غيرك لأن هذا نظام إلهي يحار فيه العقل. فكما خدمت الأمم كلها والعوالم نفسك هكذا أنت تعتبر خادماً لأمتك ولأمم غيرها بطريق غير مباشر. هذه هي الكلمة الكلية العامة.

أما كلمتي الخاصة فإني أقول: إن هذا الإنسان لن ينال السعادة التامة إلا بعد معرفة الحقائق معرفة تامة، والمعرفة التامة في هذه الدنيا مستحيلة، لأنه محبوس في جسده بل هو محبوس في سجن مظلم، ولم ينل من العلم إلا قليلاً لأنه محوط بآلام داخلة وأخرى خارجة كالمسجونين في سجون المجرمين في عالم الأرض، ولكنه هو هنا قد يتلمس بعض الجمال من خلال نوافذ السجن كما سأوضحه هنا، فأقول:

إني اليوم لما توجهت تلقاء العراء وفسيح الخلاء لم أجد هادياً يهديني إلى الطريق إلا ضوء الشمس، هذا الضوء لولاه لم أعرض الطريق. وهذا الضوء هو نفسه الذي بسببه امتص الورق في

الأشجار مواد الكربون « الفحم » البالغ جزءاً من ألف ألف جزء من الهواء كما ستراه موضحاً مشروحاً في سورة « يس » عند قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾[يس: ٣٦] الخ . فالضوء به كان هذا الورق في الأشجار المحيطة بنهر النيل حولي ، وسترى هناك فتحات الورقات مصورة بالمصور الشمسي ، وقد شرحها العلماء فقالوا : إن كل فتحة توصل إلى حجرة ذات حوائط شفافة مغطاة بسقف بديع ، وفي داخلها مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء بها تكون خضرة النبات ، وفي الورقة الواحدة قد يكون نحو مائة حجرة أو مائتين وقد يكون فيها ألوف بل ألوف الألوف في نفس الورقة الواحدة وكلها بهذا الصنع المتقن ، فإذا أيقن المسلم بذلك وهو لا شك يوقن لأنه سيشاهد بعينه تلك الحجرات ويقرأ شرح العلماء لها .

فهذا الإيقان الذي منحه الله لقراء هذا الكتاب ستتخرج به طبقات ممتازات في بلاد الإسلام يرفعون أممهم إلى أعلى درجة في الكمال ، وهل يفكر الجاهل في ضوء الشمس وأنه نعمة ؟ كلا إن أكبر هذا الإنسان لا يرى نعمة إلا ما اختص به أو كان ممنوعاً عنه فبذل له كالغنى بعد الفقر .

إن من عرف ربه بهذه الرحمة أيقن أن الآلام والمصائب المحيطة بالإنسان لم تخرج عما تفعله الحكومات الأرضية في الناقصين من بني آدم إذا سجنوهم ، واستنتج من ذلك أن هذا الحكيم لن يفعل ذلك فينا إلا لنلحق بعالم أعلى من هذا العالم الناقص ، كما تفعل حكوماتنا في الناقصين منا حتى يصلحوا لأن يعيشوا معنا غير مفسدين لأممنا ، وهنالك تحرض هذه الطبقات الممتازة أمم الإسلام على الاغتراف من الحكمة والعلم . وهذه الطبقات الممتازة في بلاد الإسلام المؤمنة بهذه الرحمة الواسعة تكون صفاتهم الممتازة أنهم يحبون أممهم بل كل أهل الأرض ويسعون لرقيهم ويفرحون بلقاء ربهم .

فهم إن عاشوا عاشوا سعداء مسعدين ، وإن ماتوا ماتوا فرحين بلقاء ذلك الحبيب الذي أسعدهم بالخيرات وهذبهم بالنقم ، فالنعم والنقم سيان عند قراء هذا التفسير وأمثاله .

واعلم أيدك الله أيها الذكي أن كل ما ورد من صفات هذه الأمة وفضلها وأنها خير أمة أخرجت للناس قد تم بعضه أيام النبوة وفي عصر الراشدين ومن نحا نحوهم . وسيتم باقيه بعد نشر أمثال هذا التفسير ، إذ يتبوأ المسلمون متبوأ العلم والحكمة وحب الله المبني على الإيقان وإدراك الجمال والحسن والبهاء والإشراق وإسعاد العالم الإنساني . وسيكون نبراسهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥] إلى قوله : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٦] ، فهذا تفسير هذه الآية وسيظهر أثره للعالم الإنساني ، والله هو الولي الحميد . اهـ

آثار النبوة وانتشارها في أوروبا
وكيف نرى العلماء فيها هم الذين يعتنقون هذا الدين
وذلك من آثار كونه صلى الله عليه وسلم سراجاً منيراً

ذكرنا فيما تقدم قريباً رسالة عبد الله كويليام الإنجليزي الذي أسلم ، مع نبذة من ترجمة حياته وهي الرسالة المسماة « الجواب الكافي » ، وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ زهدي الخماش ، ونزيد على ذلك الآن ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ يناير سنة ١٩٣٠م ، وهذا نصه :

المستشرق الفرنسي المسيو ايتان دينيه
السيد ناصر الدين دينيه
المسلم الفرنسي والمصور الشهير

مات هذا المستشرق النابه، وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين، ومن أصدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله، من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبها وخدمها، وقد وجب علينا وإن كنا لم نقف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه الطيبة تحيات السلام والاعتراف بالجميل.

أحب المسيو دينيه حياة العرب وهو ذلك الفنان الكبير، فاتخذ له بينهم مقاماً محموداً في بلاد الجزائر في تلك الواحدة السعيدة الهادئة الجميلة «بوسعادة» ينتقل إليه يسكنه نصف العام كاملاً. يرتاح للعرب وجيرتهم ويروح عن نفسه بينهم، وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم، وتلك المكارم المعروفة بهم، والتي لا يميل إليها إلا عشاق الخيال السامي، ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية، وقد وضع في حياة العرب كتاباً جميلاً جليلاً ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها والبيان في صمتها.

والمسيو دينيه يبلغ من العمر سبعين عاماً وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم، وله في متحف لوكسمبرج ـ وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس ـ عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم «غداة رمضان»، وكذلك له صور في متحف «بو» وكذلك في متحف «سدني» بأستراليا وغير ذلك كثير.

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء وتصوير حياة الصحراء، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة. وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين، وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الإسلامية وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر.

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح، حتى قيل عنه: إنه المصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل، وهم يقولون عنه: إنه المصور العربي.

وقد جاءت ترجمة المسيو «دينيه» وأعماله في معجم «لاروس» الكبير وفي معلمه «هاشيت» للفنون الجميلة، وله عدة مؤلفات منها كتاب «حياة العرب» الذي ذكرناه، ومنها كتاب «السراب»، وكتاب «حياة الصحراء»، وكتاب «ربيع القلوب»، وكتاب «الشرق كما يراه الغرب». وكلها تشير إلى ما في طبيعته من الخلق الطيب، وما يحمله في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين.

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة، ومن ريشته الخاصة يمثل فيها المناظر الإسلامية ومشاهد الدين ومعالمه. وطبعه طبعاً غاية في الإتقان والعناية حتى إنه يعد تحفة من تحف الطباعة، كل ذلك تقديراً منه لموضوعه. ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين. ونشره كذلك باللغة الإنجليزية

بنفس الحجم الكبير والإتقان التام. والكتاب في طبعته قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية غاية في الدقة والإبداع، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية، والذي أشار إليه المسيو «الازار» الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها، وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٢٩، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية.

وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للمسيو «دينيه» شيئاً بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له «أشعة خاصة بنور الإسلام» والتي نشرت بمصر في هذا العام، وهي التي جعلها بحثاً عصرياً في مبادئ الدين الإسلامي، وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية، وأنها تفضل مبادئ المدنيات الحاضرة ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب، اللهم إلا إذا كان قد فرغ من «رحلة الحج» التي كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط، وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام بعد أن أدى فريضة الحج، وإذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئاً فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشيء الكثير رغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة، ورغم نسيانه المشقة في سبيل الله، وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالاً ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

والمسيو «دينيه» كاتب رقيق العبارة واسع الاطلاع لذلك هو صحيح الحجة ناهض البرهان ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع، ذلك لأنه غيور على مبدئه الذي لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير. وقد أعلن إسلامه رسمياً بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧، وطلب أن يدفن في قبره مسلماً حنيفياً. وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة «بوسعادة» بالجزائر، وقد ذكرت الأهرام في تلغرافاتها الخصوصية أمس أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته، ويقول: إنه لم يسلم لمطمع أو مغنم، والرجل غني موسر الحال، وإنما أسلم إرضاء ليقينه وضميره وأنه ناقش الناصرين والطاعنين فخرج من «دينيه» إلى «ناصر الدين».

وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ولوحات تصويرية تشهد له بإخلاصه في حب الشرق وتقوم دليلاً على حبه للعدل والإنصاف. وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب، فكتب يقول: إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق مع أن للشرق على الغرب أفضالاً متواصلة في مدنيته متغلغلة في حياته، ذلك من أثر الدينيات التي هو مدين فيها للشرق، ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية. ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء التي منشؤها أنظمة الفروسية العربية. ومن أثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية.

ويقول: إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وإنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة.

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولاً للسلام بين الشرق والغرب، وهو المثل الطيب لكل فرنسي يحب بلاده الأصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل. ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش

مسلماً ومات مسلماً فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيماً على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة، وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من الوزراء يذكرون حسناته ويؤبنونه أحسن التأبين. ذلك لنبالة قصده ومتانة إنسانيته.

راشد رستم

هذه هي المقالة التي كتبها الأستاذ المذكور، وإنّما كتبنا تاريخ المسيو «ايتان» لأنه توفي أثناء تقديم هذه السورة للطبع، فكتبناه هنا تذكيراً لقراء هذا التفسير، ويحسن بنا أن نذكر شذرات من رسالته المسماة «أشعة خاصة بنور الإسلام»، وهي التي ترجمها الأستاذ المذكور وإليك بيانها:

الشذرة الأولى

مما لا نزاع فيه أن التربة والمكان والموقع لها الأثر الكبير الفعال في نشأة الأمور وحياتها. وأن الشجرة الطيبة التي تزرع في أرض خبيثة تخرج ثمراً أضعف مما تخرج الشجرة الخبيثة التي تنبت في أرض طيبة، كذلك كان الشأن مع المسيحية، فهي وإن ظهرت أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها، بل إن مرجع ذلك هو إلى ما تستفيده من القوة المادية التي أوجدتها المستكشفات التي قام بها العلماء الغربيون، ومن الغريب أن أغلب هؤلاء في ذلك هم اليهود، أو من الملاحدة والمعطلين أو المشركين. بل إن منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم. خذ مثلاً «جاليليه» الفلكي الإيطالي و«أتين دوليه» الكاتب الناشر الفرنسي وغيرهما كثيرون ممن ذهبوا ضحية التعصب الذميم.

وأمر غريب آخر. ألم تجد الأمم الأوروبية التي تأصلت فيها المسيحية أن الضرورة قضت عليها بالتباعد عن روح مسيحيتها في سبيل المحافظة على مملكتها ومستعمراتها. انتهت الشذرة الأولى.

الشذرة الثانية: المعجزات

إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد نسي «رينان» أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينكرها قد جاء بأكبر المعجزات مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها، جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرناً حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس دون أن يكون له دعاة أو مبشرون.

على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن، وإنّما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليداً للمعجزات التي تنسب إلى المسيح، فهي ليست من الدين في شيء.

وأما تلك الخرافات والمعتقدات الغريبة التي نشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة فهي غريبة عن القرآن ودخيلة على الدين، ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته صلى الله عليه وسلم. فقد جاء في الأثر أنه لما مات إبراهيم حزن عليه محمد حزناً عظيماً. وحدث أنه ساعة دفنه كسفت الشمس فقال الذي من حوله: إنها لمعجزة يا محمد فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك. ومع أن النبي

كان مأخوذاً بالحزن الشديد فقد أنب القائل، وقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع. وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا. انتهت الشذرة الثانية.

الشذرة الثالثة: التسامح والرفق في الدين

إن القرآن، دون الكتب المقدسة الأخرى، هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في الدين. جاء إلى الرسول أحد بني سالم بن عوف واسمه الحسين، وقال له: يا رسول الله إن لي ولدين مسيحيين يأبيان الدخول في دين الله وإني لمجبرهما على ذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لا إكراه في الدين».

وفي هذا الباب ما جاء في سورة «الكافرون»: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الآية: ٦]، كذلك ما جاء في سورة «العنكبوت»: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الآية: ٤٦].

ومن الحقائق التاريخية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أهل نجران المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية.

وهانحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيون في الدعوة إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يمجها الذوق السليم.

وقد أنصف القس «ميشون» الحقيقة في كتابه «سياحة دينية في الشرق» حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم.

زد على ذلك أن المسلمين يحملون لعيسى في نفوسهم التبجيل والتعظيم، في حين أن أنصار المسيح يمطرون محمداً وابلاً من اللعنات والسخطات، الأمر الذي يدعونا إلى الدهشة والغرابة، ذلك لأنهم أتباع يسوع صاحب عظة الجبل والقائل بالعفو والإحسان.

بل كيف يكون موقف المسيحية أمام هذا التسامح الإسلامي الشريف إذا ما ذكرنا رسالة القديس «أغسطين» إلى الحاكم «بوتيفاس» وهو يبرر له فيها اضطهاد المخالفين وقتلهم، متذرعاً لذلك بأن الديانات الأخرى تفعل مثل ذلك، قائلاً: إنه لخير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك، لأن الكنيسة إن هي اضطهدت أحداً فإنّما هي لا تقدم على ذلك إلا مدفوعة بعاطفة المحبة. فما أعظم محبة الكنيسة وما أكرمها لأولئك الملايين الذين راحوا ضحية «القديسة» محاكم التفتيش. وضحية القديس «بارتلمي» وغيرهما من القديسين والقديسات الذين يستبيحون المذابح والمجازر البشرية. انتهت الشذرة الثالثة.

الشذرة الرابعة: العلم

رفع النبي محمد صلى الله عليه وسلم قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم. وفي ذلك يقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء. شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء. فضل العلم خير من فضل العبادة.

وقد نظر المسيو « كاز أنوفا » أحد كبار أساتذة « كوليج دي فرانس » بباريس في هذه الكلمات الغاليات كيف يقولها أحد أصحاب الديانات، فعلق على ذلك يقول: يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا. يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة. فأي رئيس ديني كبير، وأي قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوي الفاصل المتين؟ هذا القول الذي هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة.

نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار.

كما أنه سوف يقال: إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كسفت أمثال « لوثير » و« كالفين » وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع. ذلك هو صاحب شريعة الإسلام. انتهت الشذرة الرابعة.

الشذرة الخامسة: الخمر

ذلك هو الداء الفتاك وهو أحد الأمراض الاجتماعية الويلة في عصرنا الحاضر، على أن محمداً هو الشخص الوحيد الذي أحس بالأثر السيئ الشديد للخمر في النفوس ففاز به حتى حرمه تحريماً تاماً وقد فاز في ذلك فوزاً كبيراً. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

نعم إن من المسلمين من لم يعمل بذلك فهو يخالف الدين في تحريم الخمر تحريماً قاطعاً. غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تابوا وأنابوا، وهم لم يفعلوا ذلك إلا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهي عن الخمر والأمر بالتحريم، في حين أننا لم نسمع أحداً من المسيحيين الذين يدمنون الخمر قد تركوها أو عادوا عنها.

ولا يخفى أن الأناجيل المسيحية ذكرت أن المسيح في أفراح « قانا » ملأ من النبيذ ستاً من قدر الماء، تسع كل واحدة منها ما يقرب من سبعين إلى تسعين لتراً بمكيالنا الحاضر.

كما أن الكنيسة قد جعلت « مونيك » الأفريقية في عداد القديسات، مع أنها كانت من مدمنات الخمر كما ذكر عنها ذلك ولدها نفسه القديس « أغسطين » في اعترافاته. انتهت الشذرة الخامسة.

الشذرة السادسة: الوسيلة

الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان، إذ ليس بين الله وعبده وسيط، وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان. إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان، وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم.

وقد أدرك المسيح نفسه ذلك. ألم يطرد بائعي الهيكل؟ غير أن أتباعه لم يفعلوا مثل ما فعل، واليوم إذا عاد عيسى فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟ كذلك ما أكثر البلايا والمصائب بل ما أكثر المذابح والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب. وهم في ذلك كله يصيحون: باسم مجد الله.

ثم إنهم قد عكسوا الآيات وبدلوا النيات، وغيروا الأوامر والنواهي، ولم يدركوا قصد عيسى ولا مرماه النبيل العالي، ولا فهموا معناه الحقيقي حين يقول: جئت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم: بل انقساماً، لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة. ينقسم الأب على الابن والابن على الأب. والأم على البنت والبنت على الأم. [إنجيل لوقا. الإصحاح الثاني عشر ٣٩ _ ٥٣].

وقد حرم الإسلام نظام هذه القداسة ومحا الولاية، فنفى بذلك تلك الخرافات الضارة والمعتقدات الفاسدة وأزال آثارها ونتائجها.

وليس للمسلم أن يدعو الرسول ويتضرع إليه، وإنّما له أن يدعو الله وحده لا شريك له. وقد يكون للمسلم أن يدعو الله للرسول، ولكن لا يدعو الرسول لله ولا لذاته.

كذلك يحرم القرآن الشفاعة وينكر الشفعاء. ويوم القيامة لا تسأل نفس إلا عن نفسها.

وأما ما نراه من الزوايا وأضرحة الأولياء فإن ذلك لم يقم إلا بعد الهجرة بنحو قرنين من الزمان تقليداً للمسيحية. على أن ذلك لم يقبله العبيديون كما ألغاه الوهابيون أخيراً من مكة والمدينة وما إليهما. انتهت الشذرة السادسة.

الشذرة السابعة:الإله

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً، أو ما إلى ذلك من الأشكال.

أما في المسيحية فإن لفظ «الله» تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسله مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء.

ونسمع القوم يصيحون: ليحيى الله، فلا نرى للغرابة محلاً. ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر. فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء وكيف لا يطلبون له الحياة؟.

كذلك «ياهو» [ياهو، أي الله. وهي الأصل العبري] الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة وكذلك تراه في متحف الفاتيكان وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة..

أما «الله» في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجري به ريشته أو ينحته إزميل. ذلك لأن «الله» لم يخلق الخلق على صورته، وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ولم يكن له كفواً أحد.

وقد يقال لنا: إن تلك الصورة التي وصفناها، والتي يمثل بها المسيحيون الإله عندهم هي مما لا يرضى عنه أهل التدين السليم منهم. على أننا لو سلمنا بهذا الاعتراض جدلاً فماذا هم قائلون؟

وليس في الكنيسة كلها إلا صلاة واحدة وقصيرة يخصون بها الإله « الأب الأزلي الدائم ». وأما الابن والأم وزوج الأم والصلب وقلب يسوع المقدس فلها كل الصلوات ولها آلاف الصور والتماثيل ذات الاحترام والإجلال. وكلها مقدسة عندهم مثل تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل معبوداتهم. انتهت الشذرة السابعة.

الشذرة الثامنة: علو الهمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « علوّ الهمة من الإيمان »، وذلك أنه لما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس، ولما كان لا بد للناس من مراتب ودرجات، لم تجعل لأحد منهم فضلاً على أحد إلا بعلو الهمة في مكارم الأخلاق وبالنبل وبالذكاء. وفي هذا فليتنافس المتنافسون. وأما ما جاء في الإنجيل من قوله: من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. فذلك ضرب من ضروب الحطة بالنفس والنزول بها والذهاب بكرامتها، كما أنه تشجيع ضمني لأهل السوء والخباثة في أن يظهروا ويسودوا. وفكرة التسليم هذه والتساهل في شأن النفس وعدم الأخذ لها بالشدة ترجع إلى أصل هندي. ولذلك تسكن في طياتها تلك الأسباب المتأصلة التي أخضعت الهند الكبيرة لنير إنجلترا الصغيرة، وليس عجباً بعد ذلك أن نرى الإنجليز يخرجون على تعاليم الكنيسة ولا يعملون بأوامر المسيح في عظة الجبل من السكون وعدم التعدي. انتهت الشذرة الثامنة.

الشذرة التاسعة: المساواة

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة هذه بين القبائل والشعوب، وهي النظرية التي لم تأت أخيراً إلا على يد الثورة الفرنسية. وهذا بلال الحبشي أقامه الرسول مؤذناً للمسلمين، فكان العرب، وهم من الشعوب التي تفخر بالأجداد والأنساب، تسمع له وتسعى إلى الصلاة إذا ما أذن فيهم هذا العبد الحبشي. انتهت الشذرة التاسعة.

الشذرة العاشرة: مسايرة الطبيعة

لا يتمرد الإسلام على الطبيعة، التي لا تغلب، وإنّما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة، مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة. فهم لا يتزوجون وإنّما يعيشون أعزاباً. على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها وإنّما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور، حتى لقد سمي القرآن لذلك بـ« الهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير، والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا للقصد نأخذ بأشهرها، وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات، وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمة ومطاعن كثيرة، ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه. لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً ولا يأمر به أمراً باتاً. والذي فعله الإسلام أول كل

شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[النساء: ٣]، وأي رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات. ولذلك كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية في الرقة والدقة واللطف مع الحكمة. ثم انظر هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه، وإلا فهؤلاء مثلاً ملوك فرنسا دع عنك الأفراد الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات، وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام. إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم. ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي أرادته، فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه. وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التي حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء.

على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء.

تلك هي: الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين. وأن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق. وإنّما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية. ومن الأمثلة القائمة على ذلك ما كان من أمر وادي «ميزاب» حيث تسكن القبيلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر، إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسان عام ١٨٨٣، وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كل سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل. ومما نرويه من هذا القبيل ما جاء في كتاب «الإسلام» تأليف «شمتز دو مولان»: إنه عندما غادر الدكتور «مافروكورداتو» الأستانة سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن لعاصمة العثمانية كلها بين واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري، وهو السفليس المعروف في الشرق بالمرض الأفرنكي، فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أي سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال.

وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة: إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الأفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الأفرنكي. على أنه من جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشي من أضرار هذا التعنت في القصر على زوجة واحدة.

ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سيئة من السيئات. إذن ماذا؟ إذن أي الأدواء قد خلا تماماً من بعض السميات، على أن الكنيسة قد أساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد في الزوجة. وذلك بمخالفتها أيضاً لقوانين الطبيعة. انظر هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا عن بعضهما صبراً، وقد خاب ظنهما في الزواج ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا يقضيان بقية أيامهما في عذاب ونكد وشقاء، كذلك إذا كان

أحدهما عاقراً أو كان غير كفء لزميله، هل يحرم الآخر من أن يبني لنفسه بآخر وأن يقيم له عائلة من جديد، وإننا ونحن في صدد الطلاق لا تفوتنا حكمة التشريع الإسلامي وهو يرى السوء في فوضى الطلاق، فيسمع النبي الكريم يقول: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». انتهت الشذرة العاشرة.

الشذرة الحادية عشر: بساطة الصلاة والنظافة

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها. كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف. ولا العيون بالشخوص إلى السماء، واستنزال الدموع التي تذكرنا بالدموع الجليسرينية التي يصطنعها ممثلو السينما في عصرنا الحاضر. حقاً إن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصور المسيحية، مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار، حقاً إن الأقوال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان، وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك مما هو غريب في العبادات، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو الغني العزيز. ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله في السماء عند دعوته. وهذه الحال تحمل في طياتها إلحاداً، إذ تجعل السماء منفاه، وتنفي بذلك عنه صفة الوجود في كل مكان. وحركات الصلاة الإسلامية فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم؛ تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية. فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد. وكم من شيخ كبير وبدين وسمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة مما لا يستطيعه مسيحي في مثل هذه السن أو في مثل هذه الحال ما لم يكن قد استراض على ذلك من قبل. انتهت الشذرة الحادية عشر.

الشذرة الثانية عشر: الأذان

يتميز الإسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة. وأن صوت الإنسان صوت طبيعي وهو أدعى إلى حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الإسلام من أي آلة صناعية ومن القلب إلى القلب رسول. اهـ.

هذا ما أردته من رسالة المسيو «ايتان دينيه» المسلم الفرنسي والمصور الشهير. ثم انظر إلى ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم السبت أول فبراير سنة ١٩٣٠م، وهذا نصه:

المؤتمر الديني الأول لخدمة السلام في العالم

منذ نحو سنتين قام جماعة من رجال الأديان في أمريكا يسعون لإنشاء مؤتمر ديني دولي يمثل مختلف الأديان والمذاهب في العلم بقصد خدمة السلام العام بواسطة الدين، وعقدوا اجتماعهم الأول في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨م في جنيف تحت رئاسة الدكتور «شابلرمائيو» رئيس الكلية الدينية في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة، وكان الحاضرون ١٩١ مندوباً من بلدان مختلفة وأديان شتى، وقد قرر المجتمعون إذ ذاك انتداب لجنة مؤقتة لتنظيم أعمال المؤتمر برئاسة الدكتور «ماثيو» المشار إليه، وألفت تلك اللجنة من خمسة وعشرين عضواً وجعل سكرتيرها الدكتور «اتكنسون» من نيويورك.

وكان ١٢ من أعضائها يمثلون المسيحية وعضو واحد يمثل الإسلام، وعضو يمثل الهندوس، واثنان يمثلان دين « كونفوشيوس »، واثنان لليهودية، وعضو يمثل البهائية، وعضو يمثل الشنتوا في اليابان، وعضو للبوذيين في سيلان، وعضو للثيوصوفية بهولندا، وعضو للمجوس في الهند.

وقد تقرر إذ ذاك عقد مؤتمر عالمي للسلم يبني عمله ومساعيه على مبادئ الأديان التي ينتمي إليها أعضاؤه بدون أن يجر ذلك إلى المفاضلة بين مزايا هذا الدين على ذاك، على أن يكون غرض الجميع واحداً. وأن يبنى هذا الغرض على المبادئ الآتية :

(١) أن يذكر كل ممثل لدين من الأديان تعاليم ذلك الدين فيما يتعلق باستقرار السلام ووجوب إحلاله محل الخصام في العالم.

(٢) ذكر مجهودات الهيئات الدينية في سبيل نشر لواء السلام في العالم.

(٣) وضع القواعد التي يمكن السير عليها بصفة عامة لإزالة العقبات الحائلة دون استتباب السلام وانتصار الحق وضمان العدل بين الدول وازدياد محبة الخير العام.

(٤) انتهاز كل فرصة لاستثارة الشعور الديني في كل طائفة ضد روح العدوان والخصام وكل ما يؤدي إلى الشحناء بين الأمم.

وقد عقدت بعد الاجتماع المتقدم اجتماعات متعددة في أنحاء مختلفة ولا سيما في أمريكا، إذ يظهر أن فكرة المؤتمر الديني العالمي نشأت من هناك.

وآخر اجتماع للجماعة عقد في شهر أغسطس الماضي في مدينة مانكفورت في ألمانيا تحت رئاسة الدكتور « شابلرفراثيو » حامل لواء المؤتمر. وقد حضره ٦١ عضواً يمثلون جميع الأديان الحية في بلدان العالم.

وفي هذا الاجتماع ذكر السكرتير الأمريكي أنه ساح في بلدان الشرق الأقصى وقابل فيها زعماء الأديان والمذاهب المختلفة وباحثهم في مسألة اتحاد المؤتمر الديني العام لمقاومة الخصام وإحلال السلام محله بين البلدان، فأيدوا المشروع وحبذوه.

وقد تقرر في اجتماع فرانكفورت انتخاب لجنة لتنظيم المؤتمر القادم وعقده، على أن يكون له ستة رؤساء وثلاثة عشر وكيلاً انتدبت للتنفيذ، وأنشئت للمؤتمر سكرتيرية رئيسة مركزها في نيويورك، وأنشئت لها ثلاثة فروع في لندن وباريس وبرلين. وتقرر تعيين سكرتير في اليابان وسكرتير في الصين وواحد في الهند وواحد في الشرق الأدنى وواحد في البلقان وسكرتير لأوروبا الجنوبية، ثم أصدرت الهيئة القرار الآتي :

قررت أن يعهد إلى اللجنة اتخاذ التدابير اللازمة لعقد المؤتمر الديني الدولي في سنة ١٩٣١ في إحدى بلدان الشرق، وأن يدعى لحضوره ممثلو الأديان الحية في العالم.

وقد انتهى إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا الذي أصبح علماً من أعلام الشرق وقطباً من أقطابه كتاب من المستر عبد الله يوسف علي الهندي الذي كان وزيراً للمالية في حكومة نظام حيدر أباد، يلتمس فيه من سموه باسم لجنة المؤتمر أن يقبل رئاسة المؤتمر فيكون في مقدمة

الرؤساء الستة الذين تقرر اختيارهم من كبار الرجال لرئاسته، ويكون ممثلاً للإسلام في الرئاسة، وتلقى سمو الأمير أيضاً كتاباً من سكرتير المؤتمر الدكتور «نكتسون» الأمريكي يبسط فيه لسموه الأغراض النبيلة التي يسعى إليها القائمون بأمر هذا المؤتمر الديني الجديد، ويقول: إن البارون «ساكيتاني» الياباني والدكتور «طاغور» الشاعر الهندي الشهير سيكونان من الرؤساء الستة، وإن الكنيسة الكاثوليكية ستختار عظيماً من عظمائها ليكون من الرؤساء، وإن الأستاذ «اينشتين» الألماني العالم المشهور سيكون رئيساً ممثلاً لليهود، والمفهوم أن الأمير الجليل لم يقرر حتى الآن شيئاً بهذا الشأن. اهـ.

ومما يناسب قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب:٤٦]، ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ يناير ١٩٣٠م وهذا نصه:

حالة العميان في مصر

وجهت جمعية العناية بالعميان في سان فرنسيسكو إلى وزارة الخارجية المصرية أسئلة طالبة الجواب عليها، وأنها أحالتها إلى الجهات المختصة، وفيما يلي نص الأسئلة وإجابة وزارة المعارف على كل منها: (س) هل يأخذ العميان إعانة؟ وما مقدارها؟ وما وجه استحقاقها؟.

(ج) تدفع الحكومة الإعانات المختلفة لبعض معاهد العميان حسب درجة تقدم كل منها كما يأتي: ٧٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالزيتون، و٢٥٠ جنيهاً لمدرسة العميان بالإسكندرية التابعة لـ«كونتس ميث»، و١٥٠ جنيهاً لمدرسة العميان الأهلية بالعطارين، و١٥٠ جنيهاً لمدرسة الكفيفات بالزيتون، ويدفع بعض أعضاء الجالية البريطانية إعانات لسد نفقات ثمانية تلاميذ بمدرسة الزيتون بمعدل ١٢٠ قرشاً في الشهر لكل تلميذ، وتدفع سيدتان مصريتان إعانات لسد نفقات تلميذين آخرين بهذه المدرسة.

(س) كم عدد العميان تحت إشراف الحكومة؟.

(ج) يوجد ٨٠٠ طالب تحت إشراف الحكومة، منهم ٢٠٠ بمعهد الأزهر بالقاهرة، و١٠٠ بمعهد أسيوط، و١٠٠ بالإسكندرية، و١٠٠ بمعهد طنطا، و١٠٠ بمعهدي دسوق والزقازيق، و٥٠ بمدرسة الزيتون للعميان، و٥٠ بالإسكندرية. أما الإناث فيوجد منهم ١١ تلميذة بقسم العميان الكائن بمدرسة تمرين معلمات بولاق التابعة لوزارة المعارف، و٣ بمدرسة الكفيفات بالزيتون. أما العميان الذين ليسوا تحت إشراف الحكومة منهم ٢٠٠ طالب بمدرستين في القاهرة: إحداهما ببولاق والأخرى بشارع البيطار بالأزهر، تحت إشراف لجنة إنكليزية برئاسة المطران «جوين»، و٩ طالبات بكلية البنات الإنكليزية ببولاق تحت إشراف اللجنة المذكورة، و٥ طالبات بمدرسة الأمريكان بالزقازيق، و٥ طالبات بمدرسة الأمريكان في المنصورة، و٤ طالبات بمدرسة الأمريكان بدمنهور، و٩ طالبات بمدرسة الأمريكان بأسيوط، و٨ طالبات بمدرسة الأمريكان بالأقصر، وكلهن تحت إشراف كلية الأمريكان، ويبلغ مجموع العميان بالقطر المصري ١٥٥٠٠٠، منهم ١٠٥٠٠٠ ذكور و٥٠٠٠٠ إناث، منهم نحو ١٠٠٠ تحت إشراف الحكومة وجماعات مختلفة، والباقي يحترف قراءة القرآن في المنازل والجبانات إذا كانوا مسلمين، ومرتلين في الكنائس إذا كانوا مسيحيين.

(س) هل بذلت الحكومة مجهوداً لتعليم العميان صناعة، فإن كان كذلك فما درجة نجاحهم؟

(ج) ابتدئ في تعليم العميان الصناعات سنة ١٨٩٦، ولكن نجاحهم فيها متوسط بالنسبة إلى قلة الإعانات.

(س) هل توجد مصانع يقدم فيها العميان على غيرهم؟.

(ج) لا توجد صنائع مشتركة بين الأعمى والبصير، بل توجد مصانع خاصة بالعميان فقط، وهذه المصانع هي مصنع للسلال والكراسي بالمدرسة الاكليريكية القبطية بمهمشة، ومصنع السلال والكراسي والسجاد بمدرسة العميان بالزيتون، ومصنع للسلال والكراسي والفرش بالإسكندرية تحت رعاية «الكونتس ميث»، ومصنع للسلال فقط بإسكندرية تابع لجمعية أهلية، ومصنع للشيلان والجوارب والسلال التي تصنع من الخرز والسلك بكلية البنات الإنكليزية ببولاق وهو خاص بالبنات فقط، ومصنع للسجاد والكراسي والسلال بقسم العميان بمدرسة معلمات بولاق التابعة لوزارة المعارف.

(س) ما نوع الأشياء التي ينتجونها؟.

(ج) الأصناف المنتجة هي السلال، وهي تصنع من الغاب الهندي والصفصاف والكراسي الخيزران المصنوعة من الغاب الهندي والصفصاف والكراسي التي تصنع من قلب الخيزران وقش الباسمم وقش الأرز.

(س) أي الأصناف من أعمالهم وجدت رواجاً في الأسواق؟.

(ج) الأصناف الرائجة هي السلال بجميع أنواعها والكراسي وأطقم القش والفرش.

(س) ما هي الطرق التي تتبع في عرض منتجات العميان في السوق؟.

(ج) تعضد الحكومة هذه المصانع بشراء ما يلزم لها من السلال وغيرها لمصالحها وتعرض هذه المصنوعات في المعرض الدائم لمصلحة التجارة والصناعة.

(س) أي النسبتين أكثر في العميان نسبة الذكور أم نسبة الإناث؟.

(ج) تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث كما هو مبين في الإجابة عن السؤال الخاص بعدد العميان.

(س) أي الجنسين أكثر استعداداً لتحصيل الكسب؟.

(ج) الذكور أكثر استعداداً للكسب بما يبذل من المجهودات لتعليمهم، وعند الحكومة مشروع لتوسيع نطاق العميان بالقطر المصري، وقد أنشأت الوزارة فعلاً قسماً لتخريج معلمات لهذا النوع بمدرسة المعلمات الأولية الراقية ببولاق في سنة ١٩٢٧م، وأتم الدراسة في هذا القسم ١٣ طالبة سيتخرجن في نهاية هذا العام، وألحقت بهذا القسم فرقة من الضريرات ليكن بمثابة أداة تمرين للطالبات وعلى ذلك أرسلت الحكومة إلى إنجلترا بعثة للتخصص في فن تعليم العميان مؤلفة من طالب وطالبة.

(س) ما مقدار متوسط ما يكسبه أحدهما في الأسبوع أو الشهر؟.

(ج) يبلغ متوسط كسب الذكور في الشهر أربعة جنيهات والإناث جنيهين.

(س) هل تمدون العميان بالإعانة، وإن كان كذلك فما هي الطريقة التي تتبعونها؟.

(ج) توزع الحكومة إعانات حسب مقدار نجاح كل مدرسة من مدارس العميان.

(س) هل توجد ملاجئ للعميان وأي الجهات تنفق عليها؟ .

(ج) لا يوجد للعميان سوى ملجأين أنشأتهما الحكومة للأيتام أحدهما بطره، والآخر بالغربية يقبل فيهما العميان، وملجأ للعجائز بشبرا تابع للحكومة الإيطالية يقبل فيه العميان أيضاً، وملجأين للإناث تابعين لكلية الأمريكان أحدهما في فم الخليج والآخر بأسيوط يقبل فيهما العميان.

(س) أي الصناعات وجدت أكثر فائدة على العميان الذين دربوا تدريباً راقياً؟ .

(ج) صناعة الفرش والسلال والكراسي.

هاتان الرسالتان رسالة المؤتمر الديني ورسالة جمعية العناية بالعميان توجبان دقة النظر والملاحظة.

أولاً: إن خدمة السلام العام لم نقرأها في التاريخ قبل النبوة المحمدية، فإن الإسلام هو الذي أيقظ الأمم شرقاً وغرباً، وبنشاط حركته حرك الأمم في اختراع الآلات والقطارات والطيارات فتقاربت الأمم، وهذا من أسرار كونه صلى الله عليه وسلم سراجاً منيراً، وأيضاً يذكرنا هذا بآية: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد: ٤]، وإن علماء الإسلام يقولون: إن الحرب سيقضى عليها.

ثانياً: إن إرسال جماعة من أمريكا رسالة للمحافظة على العميان في مصر المسلمة يدل دلالة واضحة أن إشراق النور النبوي قد أثر بطريق غير مباشر في أمم غير مسلمة، والأمم المسلمة نائمة، وهذا عار، فكان الأحرى بهذه الأمم الإسلامية أن تكون هي آباء للأمم كلها لا أن يكونوا أذناباً. وسيكون في أمم الإسلام بعد الآن نهضة فكرية يرقى بها نوع الإنسان. تم الكلام على اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾

اعلم أن بين القول والعمل مناسبة وصلة تظهران في هذه الآية، إن الإنسان يعقل الأشياء وتصدر عنه تلك الأشياء من منفذين: منفذ اللسان. ومنفذ الأعمال، فهما فرعان لأصل واحد، ونظام أحدهما يؤثر في الآخر، فما من قول نقوله إلا وله آثار في أعمالنا، وكلما كان القول أحكم كانت الأعمال إلى الصواب أقرب، لأن الدربة على الفضائل تكون في النفس ملكة تكون مصدراً لها من بعد. فكل فضيلة في اللسان أو في الأعمال تحدث في القلب أثراً، وبتوالي الآثار تتأسس الملكات، ومن الملكات الفاضلة تكون الأعمال الشريفة، وملكة اللسان في الصدق وفي حسن القول تؤثر في النفس آثارها، فيتعدى ذلك الأثر إلى الأفعال فتنتظم، إن الأعمال والأقوال فرعان للنفس، والقول أسهل ونزعاته أشد وجراحاته أنكى وسهامه أنفذ وخطره عظيم، وفي الحديث: «وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم». انتهت اللطيفة الخامسة.

اللطيفة السادسة: في معنى قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾

جاء في الفيروزأبادي ما نصه:

قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾[الأحزاب: ٧٢] أي: أن يخنها وخانها الإنسان. قال: والإنسان هنا هو الكافر والمنافق. اهـ. وهذا المعنى واضح، والحمد لله رب العالمين. انتهت اللطيفة السادسة.

اللطيفة السابعة

هذه اللطيفة عامة في السورة كلها وفيما قبلها وبعدها

ذلك أن الله تعالى يقول فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ [الأحزاب: ٩] الخ. ذكر الله المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ نصرهم في غزوة الأحزاب، كما ذكر قوم موسى بنجاتهم من فرعون وهذا تذكر جزئي، وإلا فكم لله من نعم. إن الناس يتقبلون فيها صباحاً ومساء، فأجسامهم ملئت حكمة وهم مغمورون في ضياء الشمس ونور القمر والكواكب والهواء، وعندهم نبات وحيوان وما لا يعدّ ولا يحصى، وإنّما هذه يعرفها العامة والخاصة لأن أكثر الناس لا يشكرون الله إلا على النعم الخاصة كالنصر في هذه الغزوة، وإلا فالنعم لا نهاية لها. ولذلك أردف هذه السورة بسورة «سبأ» المبدوءة بالحمد لله، وعلل الحمد بأن له ما في السماوات وما في الأرض وأنه يحمد في الآخرة وحده، ومقتضى هذا أن نعم الدنيا والآخرة له وهو يحمد عليها لأنها كلها واصلة إلينا، فليس الحمد لله خاصاً بالنصر في الأحزاب. انظر هذا المقام في أول السورة الآتية.

تم تفسير سورة «الأحزاب»

يوم الثلاثاء ٢٤ مارس سنة ١٩٢٥م ٢٨ شعبان سنة ١٣٤٣هـ.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة « سبأ »

هي مكية

إلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ الآية

آياتها ٥٤، نزلت بعد « لقمان »

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في تفسير السورة كلها.

القسم الأول: في تفسير البسملة

لك الحمد اللهم على ما أوليت من نعمة العلم وأوفدت من آثار العرفان، وهديتنا إلى ما نحن بصدده من تفسير آيات كتابك، وألهمتنا أن نذكر أنفسنا والأمم الإسلامية برحمتك الواسعة التي كررتها في أول كل سورة من كتابك، تفتح بصائرنا إلى عجائب حكمتك وبدائع صنعتك وبواهر خلقتك وجواهر نظمك، فحمدناك على ما في سماواتك وأرضك، وعلى ما فتحت من بصائر هذه الأمم الإسلامية الحاضرة والمستقبلة بما أنزلت في هذه السورة من غرائب ما تخرج من أرضك في زماننا من أنواع المعادن وأصناف الخزائن التي أودعتها أمم قبلنا، كأهل سبأ ذوي الجد والتشمير وأصحاب الجنتين اللتين عن يمين وشمال، وأنهم لما حفظوا نعمتك وحافظوا على هبتك أبقيتهم، ولما كسلوا عن ذلك الحفظ وتقاطعوا أرديتهم في حفرة الهلاك وأذقتهم سوء النكال، والذي يدلنا على ذلك تلك الرسوم المصورة التي أخرجت من أرض سبأ في زماننا تذكيراً لملوك اليمن وعلماء اليمن وعظمائه أن في بلادكم نعماً إن استخرجتموها أبقيت بلادي بأيديكم، وإلا فأرضي أعطها لمن يستخرجون منافعها ويحفظون نعمها ويسعدون بها عبادي، فليس من العدل أن يكون أتباع خاتم الأنبياء أقل شكراً للنعم من أولئك الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله، كل ذلك الإيقاظ والتحذير من رحمتك الواسعة التي صاحبها العلم بكل جليل ودقيق.

ومن رحمتك الواسعة المذكورة في البسملة أنك أفدتنا في قصة داود وسليمان أن شكر نعمتك والقيام بخدمتك ليس قاصراً على العبادة، ولو كانت الجبال مؤوبات مع العابدين، مرددات لتلك الصلوات، مرتلات لتلك التسبيحات، فمن حق الشاكر أن يقوم بما يقدر عليه من الصناعات ويتقنها كإذابة الحديد وصنعة الدروع واستخدام الريح، ومن أجلّ الرحمات على المسلمين اليوم أن يعلموا أن ما تلقيه الأرواح من الأقوال لأهل الأرض أثناء تحضيرها ليس حجة قاطعة، فهم لا يعلمون الغيب

وليس يدعيه منهم إلا أرواح صغيرة ضيقة العطن قليلة الفطن، ومن الرحمة التي ظهرت آثارها في الأرض بعد النبوة أنك أعلنت في هذه السورة أن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل للناس كافة بشيراً ونذيراً وأن أكثر الناس لا يعلمون، وأنك أنت المختص بعلم ذلك، ولقد ظهرت تلك الآثار لنا عياناً وصدق وعد الله. ومن اطلع على مؤلفات الفرنجة في انتشار الإسلام في إفريقيا عند خط الاستواء وفي شماله وجنوبه يدهش إذ يسمعهم يبرهنون على أن هذا الدين لا ينتشر بالسيف بل بالمحبة والمودة والإخلاص، وأن اتهام قومهم في أوروبا بأن انتشار الإسلام إنّما كان بالسيف ضلال مبين، ولقد وجدوا في إفريقيا ملوكاً عظاماً وأعظمهم قبائل بيض الوجوه لهم السلطان والسيطرة، وهم في احتلالهم أرض غيرهم وحمايتهم لهم سياسة أشبه بسياسة الأوروبيين، فعلم الأمم الإسلامية بهذه المزايا وبما انطوت عليه آيات السورة في زماننا من أجلّ النعم التي ستثير العزائم وترفع الأمم الحالية إلى أوج العلا، ويخرج جيل إسلامي جديد أعز نفوساً وأرقى عزائم وأعلم بما أبدع الله في أرضه وما خلق في سمائه، هنالك تصلح الأمم الإسلامية لعمارة الأرض ولحب ربهم والهيام به والغرام بعمله، هنالك يشكرونه فلا يكفرونه ويذكرونه ولا ينسونه، ويصبح خاصتهم بما يرون من العجائب في هذه الطبيعة الأرضية والسماوات، ناطقين في قلوبهم بمثل ما ذكره الكونت «هنري دي كاستري» عن بعض علماء الإسلام: رب إن الجنة لا ترجى إلا لرؤيتك فيها، ولولا نور ذاتك البهية لعفناها. وما نقله هو أيضاً عما يؤثر عن «الشيخ القشيري» في القرن الرابع الهجري: إلهي إنك تهددني بفراق يحرمني على الدوام من تجلياتك البهية، فيا رب اصنع بي ما تشاء ولا تحرمني من مشاهدتك العلية، فليس سم أمرّ مذاقاً وأشد قتلاً من ألم هذا الفراق، وما حيلة النفس بغير ربها إلا أن تعيش في فزع وتبقى في حيرة واضطراب. رب إن النفس لترضى بأن تذوق الموت مائة ألف مرة ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة.

رب إن مصائب الدهر وجميع الأمراض القتالة لو اجتمعت عليّ لاحتملتها غير متوجع من موقعها ولكن لا طاقة لي على احتمال بعدك عني، رب لو احتجبت عنا برهة أقحلت أرضنا وغاضت أنهارنا فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب؟ لولاه لما أحرقت نار الجحيم واشتد لهبها، رب إن في تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا. اهـ الكلام على تفسير البسملة وهو القسم الأول.

القسم الثاني: في تفسير السورة

مقدمة

اعلم أن في مبادئ السور حكماً غالية وإشارات عالية ورموزاً شريفة، ألم تر إلى سورة «الفاتحة» كيف ابتدأها بعد البسملة بالحمد لله على تربيته للعالمين، وقد شرحت التربية هناك ونظامها وتناسقها وعمومها في العوالم كلها، فهناك تربية العوالم إجمالاً، وأما «البقرة» ونحوها فهناك نكتة لطيفة وهو ابتداء السورة بحروف ﴿الٓمٓ﴾، ولها فضلاً عما ذكر بأول «آل عمران» إشارتان بديعتان: الأولى: أن الحروف الهجائية هي العناصر الأولى لكل كلام نظم أو نثر، ولن يفهم الكلام حق فهمه إلا بالرجوع لحروفه وتحليله وتقطيعه حرفاً حرفاً، فلن تكون علوم البلاغة ولا الصرف ولا النحو ولا سائر العلوم العربية إلا بإرجاع الكلمات لأصلها وبحثها وتقليبها على جميع وجوهها بالتصريف

وغيره. وإذا كان ذلك في علوم اللغة فأحرى أن يكون في علوم الكون من الطبيعيات والرياضيات، فلا هندسة إلا بتحليل البراهين والرجوع لأصولها. ولا حساب ولا جبر ولا فلك إلا بتحليل الأعداد ومعرفة الأولية، فيقال: عدد ٥ أولي، و٤ زوجي، و٧ أولي، وهكذا تعرف جميع الأعداد وبمعرفتها يعرف ما تركب منها، وهكذا في الكيمياء والطبيعة، فهل تعرف المركبات من الحيوان والنبات إلا بتحليلها. وهل يعرف الناس مركباً صناعياً إلا بإرجاعه إلى عناصره الأولى.

هذا هو الذي يشير له ذكر الحروف في أول السورة، كسورة «البقرة» و«آل عمران» و«الرعد» و«الروم» و«العنكبوت» وغيرها، وهذه النكتة عامة. وهناك لطائف خاصة كأن يقال في «البقرة» مثلاً ﴿الٓمٓ﴾ هذه حروف جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [الآية: ٢٤٣] الخ، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [الآية: ٢٤٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥٨].

فانظر كيف أتى بقوله: ﴿الٓمٓ﴾ للاستفهام الإقراري في مسألة الحرب والدفاع عن البلاد، وفي مسألة النظر في العوالم ونظامها وتحليلها كما حلل إبراهيم الطير وركبه وذلك هو العلوم الطبيعية، فكأن ﴿الٓمٓ﴾ تنبيه على ذلك، فكأن الله يحث المسلمين بهذه الحروف على معرفة الكائنات بحثاً وتدقيقاً وتفكيراً وتحليلاً وتركيباً.

هذا ما أذكره لك في «البقرة» وفي كل سورة مبدوءة بالحروف المقطعة، كما تقدم بعضه في «الروم» وما قبلها وما بعدها. فانظر إلى الابتداء بالحمد. قد رأيت الابتداء بالحمد لله في سورة «الفاتحة» ثم في سورة «الأنعام»، ففي «الفاتحة» يحمد الناس ربهم على التربية الإجمالية لأن السورة افتتاح للقرآن، ولكن في «الأنعام» الحمد لله على نعمة السماوات والأرض والظلمات والنور ففيها بعض التفصيل وإظهار الجمال وبدائع النور البهيج البديع المشرق في العالم كله، والحمد في أول «الكهف» على نور العلم كما كان في «الأنعام» على نور الكواكب وإشراقها. وهاهنا ابتدأ السورة بالحمد على أن لله ما في السماوات وما في الأرض، وليس الحمد خاصاً على النجاة من الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله والمؤمنين ونصر الله المسلمين عليهم. يقول الله: إن لي ما في السماوات وما في الأرض وأنا محمود عليهما. إن كل عبد له انتفاع بجميع العوالم. فالنعم المشتركة ينتفع بها الجميع.

إن إدراك نعم الله وعمومها أعظم سعادة للمدرس لأنه يرى ما لا يراه غيره، ولذلك يكون سعادة أهل الجنة باصطلاحهم على خزائن إبداعه ويدركون الحقائق تامة، وهو قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] الخ، وأما قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] فاعلم أنه كما يشير في أول سورة «الروم» و«العنكبوت» و«البقرة» بالحروف الهجائية إلى أمور هامة في السورة كعجائب التحليل المذكورة في قصة إبراهيم في سورة «البقرة» وكيف بدأ الله الخلق في سورة «العنكبوت» ونحوها؛ هكذا هنا قال الله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: ٢]، يشير بذلك إلى ما سيذكر في هذه السورة من الكشف الحديث.

يريد الله أن يقول للمسلمين: أنا لم ألهم عبادي أيام مجد الأوائل من سبأ وقحطان والتابعة أن يكتبوا على الأحجار ويطمروها إلا لعلمي أنها ستخرج لعبادي في هذا الزمان. إني ألهمت الأوائل أن

يدخلوا في الأرض مصنوعاتهم ويكتبوا أخبارهم على أحجارهم لأخرجها لعبادي المتأخرين فيعرف الآخرون ما ترك الأولون عظة واعتباراً وحكمة.

ستقرأ أيها الذكي ما كشفه العلماء الألمان والنمساويون والإنجليز وغيرهم في أصقاع سبأ والمسلمون لا يشعرون. دفن الله ذلك هناك ليرينا آثارهم فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٢]، كتلك الآثار التي أولها في أرض سبأ وما يخرج منها كما تخرج تلك الآثار اليوم كما ستراه في هذه السورة. فانظر لماذا ابتدأ هنا بذلك. انظر أنه لم يذكر كذلك في أول سورة إلا هذه. انظر كيف بدأ بالحمد على أن له ما في السماوات وما في الأرض ليدلنا على أنه ليس النصر على الأحزاب هو النعمة وحدها. إن النعم كثيرة فاحمدوا الله عليها. ثم ذكر الولوج والخروج في الأرض ومنها ليدلنا على ما سيأتي ذكره في السورة من علوم تلك الأمم في أرض اليمن. وأما قوله: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾[سبأ: ٢] فإنه يشير به إلى نكتة أدق وحكمة أشرف ونور أصفى وعلم أعلى وبهاء أجلى وجمال بهيج.

ذلك أنه قد ذكر في سورة «النور» أن من الحيوانات ما يمشي على رجلين، ومنه ما يمشي على أربع، وذكر النمل بعد ذلك وهو يمشي على ست، وذكر العنكبوت بعد ذلك وهو يمشي على ثمانية أرجل ولم يذكر العدد، لأن أكثر الناس لا يفطنون لذلك، ولكن جعل ذلك خزائن مخزونة في القرآن حتى يأتي هذا الجيل الإسلامي الجديد المقبل، فيتغلغل في الحكمة والعلم ويدرس الوجود، ويقول: انظر يا أخي، انظر كيف خبأ لنا ربنا العجائب في القرآن. انظر كيف جعل (٢) و (٤) من أرجل الحيوان في سورة «النور»، و (٦) في سورة «النمل»، و(٨) في سورة «العنكبوت» بالترتيب ولم يعلن ذلك، لعلمه جهل الناس وخبأه لنعرفه. ثم انظر كيف جاء في هذه السورة وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢]، وقد عرفت رمزه. ثم قال: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢] ومما ينزل من السماء ويعرج فيها الملائكة. وسيأتي في سورة «فاطر» بعد هذه أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ثم قال: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[الآية: ١].

لم يذكر الله فوق الرباع في القرآن لأن الناس لم يعرفوا من الأجنحة فوق الأربع ولا من الأرجل فوق الأربع، لأنهم لم يدرسوا ولم يفطنوا إلا قليلاً، فذكر أنه ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[فاطر: ١]، كأنه يقول: إن للملائكة أجنحة فوق الأربع لا عدد لها، والزيادة في الخلق لا تختص بأجنحة الملائكة، فهكذا في أرجل الحيوان التي ذكر منها أربع يزيد فيها ما يشاء.

ومعلوم لك أن هناك من الحيوان ما له أربعون رجلاً فأكثر فهذا من زيادة الخلق كما يشاء الله تعالى. انتهى الكلام على المقدمة.

تفسير السورة

فلأشرع في تفسير السورة ولأجعله فصولاً ثلاثة:

الفصل الأول: في تفسير الألفاظ بطريق الإيجاز.

الفصل الثاني: في جعل السورة ستة مقاصد وتفسيرها تفسيراً عاماً كنت كتبته منذ عشر سنين في بعض المجلات العلمية.

الفصل الثالث: في معجزات القرآن التي أظهرها العلم الحديث في مسألة الجن وأنهم لا يعلمون الغيب، ثم كيف كان سد العرم لا تزال آثاره باقية للآن، وكيف أظهر أسرار تلك البلاد علماء أوروبا والمسلمون نائمون هائمون. إن ذلك كله معجزات للقرآن، وكيف ظهرت مسألة الجن في علم الأرواح ولا علم للمسلمين بذلك، ولعلك تعجب حين ترى خريطة السد المذكور في القرآن كشفها الأوروبيون «مع أن القرآن كتابهم والبلاد ملكهم، وهم لا يعلمون بذلك ولا يشعرون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الأول: في تفسير ألفاظ السورة كلها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ

غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ
خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟
فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ
إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن
شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ
عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ
فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ
إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ

لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: إن كل نعمة من الله، فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجلها ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِۚ ﴾ كما هو له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه، وحمد أهل الآخرة راجع لانكشاف الحقائق لهم، فيكون الحمد على مقدار العلم وهو غزير ويرمز إليه ما ورد: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والحمد كما تلهمون النفس». ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي أحكم أمور الدارين فاستحق الحمد لذلك ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأشياء ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر وكالكنوز والدفائن والأموات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون وما استخرجه علماء أوروبا من بلاد سبأ الآتي ذكرها، وذلك ما أشار به العالم الألماني «ميخابلس» المتوفى سنة ١٧٩١ على ملك الدانيمارك أن يرسل بعثة إلى بلاد اليمن ففعل سنة ١٧٥٦ وأرسلها، فعرفت بعض النقوش، وقال: إن اليهود والعرب لا يقدرون على قراءتها، وأول من فكر في ذلك الألمان فالإنكليز فالفرنساويون ومنهم العلامة «أرنوكان» في اليمن سنة ١٨٤٣، وعاد ومعه ٥٦ نقشاً نقلها عن آثار صنعاء والخربة ومأرب وحرم بلقيس، وأيضاً أحضر خريطة سد مأرب، وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السدّ، فلهذا ذكر الله هنا ما يلج في الأرض وما يخرج منها لعلمه بما سيحصل في بلاد الإسلام، وأن الأمة الإسلامية سيتولاها الانحطاط وتصبح غبية جاهلة ويأتي الفرنجة يبحثون عن أسرارها وأهلها نائمون عابثون جاهلون جامدون كما حصل في هذه القرون، إذ يكون تفسير هذه السورة ومعجزاتها وسدّ مأرب المذكور فيها والجنتان كل ذلك مطمور مخزون في الأرض، ومن المسلمين من يقرأ القرآن وهو جاهل كالحمار يحمل أسفاراً، والفرنجة يأتون فيقرؤون ويتعلمون تاريخ أسلافنا ويرون أنهم كانت لهم مدنية عظيمة، ويرون أبناءهم التابعين لأعظم نبيّ أصبحوا جاهلين بكل شيء، بتاريخ أسلافهم، بمعاني كتابهم، علم الله ذلك كله قبل وقوعه فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ مشيراً إلى ما سيأتي في هذه السورة، يقول الله: إنهم ما أولجوا آثارهم في الأرض إلا بعلمي، ولا أخرجها الفرنجة إلا بعلمي، لأني لا أفعل إلا الحكمة، انظروا الفحم كيف خزنته في الأرض قبل أبيكم آدم وأخرجته لكم الآن. هكذا خزنت عجائب سبأ ونقوشهم وأمرت أهل أوروبا فاستخرجوه، ووضعت هذه الآية في أول هذه السورة لأنبه المسلمين أن يستيقظوا فيتعلموا علوم الأمم ويبحثوا على ما خبأته في الأرض، إني خبأت في الأرض عجائب طبيعية وصناعية، فلئن لم يتفطن لها المسلمون ويستخرجوها فوعزتي وجلالي لأخرجنهنّ منها ولأملكنها لغيرهم، إني لا أعطي النعمة إلا لمن يستحقها، فإن نام المسلمون فلأمنعن عنهم نسيم الحياة وأسلط عليهم الأمم، أنا كنزت هذه الكنوز كما كنزت لليتيمين في المدينة كنزاً ولما بلغا أشدهما أخرجته لهما، هكذا المسلمون كانوا أيتاماً جهالاً فإذا بلغوا الرشد في هذا الزمان سلمتهم الأمانة المخزونة في الأرض حتى يعرفوا مجد القدماء ويستفيدوا من علومهم ويزيدوا عليها، وتكون لهم مدنية أرقى من مدنية أولئك الأقوام، وإلا أسكنت الأرض غيرهم ويكونون خيراً منهم، إني عدل رؤوف حكيم عليم، ما خلقت خلقي عبثاً، أنا الحكم العدل لا أحيد ولا أميل وأعطي النعمة لمن يفهمها وأطرد عنها من لا يعقلها.

يقول مؤلف الكتاب: إن هذا التفسير وأمثاله جعل تنبيهاً للمسلمين حتى يفطنوا وهو أشبه بمنبه عام، فعلى كل ذكي أن يسير على هذا المنوال ويوقظ الأمة، فإن كل من قرأ هذا القول مسؤول عن أمته فليتواصوا بالحق وليتواصوا بالصبر، وإني لعلى رجاء عظيم أن يهدي الله بهذا التفسير أمماً ويحيي قلوباً ويشرح صدوراً ويسعد دولاً، إنه هو الغني الحميد. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والمطر والأنوار والصواعق، وبالجملة أكثر ما جاء في علم الآثار العلوية من علوم الفلسفة الطبيعية وعددها ثمانية مذكورة في كتاب الفلسفة الذي جعلته مختصراً

للناشئين ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة والطيارات والمناطيد الجوية ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ للمفرطين في شكر نعمه مع كثرتها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ إنكاراً لها واستبطاء واستهزاء ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ ردّ لكلامهم ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ لا يفوت علمه شيء من الخفيات ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الذرة أصغر نملة، والكتاب المبين: اللوح المحفوظ، وقد تقدم تفصيل الكلام على هذه المعاني في أول «آل عمران» وفي سورة «يونس» وغيرها فارجع إليها.

وقوله: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: لا تعب فيه ولا منّ عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالإبطال وتزهيد الناس فيها ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ مسابقين كي يفوتونا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ ﴾ سيئ العذاب ﴿ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: ويعلم أولو العلم من مسلمي أهل الكتاب ﴿ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ القرآن ﴿ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ بالرفع والنصب ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ وهو دين الله ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ يحدثكم بأعجب الأعاجيب ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إنكم تنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزيق وتفريق بحيث تصير تراباً ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أي: عن الحق في الدنيا ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم لآيات الله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما ودلائلهما ﴿ لَأَيَةً ﴾ لدلالة ﴿ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه مطيع، إذ المنيب هو الذي ينظر لآيات الله ويعرف أنه قادر على البعث ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ وقلنا ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ من التأويب، أي: رجعي معه التسبيح إما بخلق صوت مثل صوته، وإما بأنها تحمله على التسبيح إذا تأمل عجائبها، فهي له مذكرات كما يذكر المسبح مسبحاً آخر، وقوله: ﴿ وَٱلطَّيْرَ ﴾ معطوف على محل الجبال، وكان الأصل ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ تأويب الجبال والطير فبدل به هذا النظم لفخامته ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ وجعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء ﴿ أَنِ ﴾ بمعنى أي ﴿ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ أي: دروعاً كوامل واسعات تسحب في الأرض ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ ضيق في نسيج الدروع، أو اجعل النسج على القصد وقدر الحاجة ﴿ وَٱعْمَلُواْ ﴾ يا داود وآل داود ﴿ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وبالعشي كذلك ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ النحاس المذاب إسالة من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عيناً ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ «من يعمل» معطوف على «الريح»، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ حال متقدمة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ بأمره ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ

عَنْ أَمْرِنَا ﴾ ومن يعدل منهم عما أمرناه من طاعة سليمان ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ عذاب الآخرة ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بذلك لأنه يحارب عنها ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وصوراً أو تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدون على عادتهم. يقال: إنه كان له أسدان في أسفل كرسيه ونسران فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ قصاع ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ كالحياض الكبار، جمع جابية من الجباية، وهذه من الصفات الغالبة كالدابة ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ثابتات على أثافيها لا تحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمهن وكان يصعد إليها بالسلالم، وقلنا: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ﴾ يا ﴿ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أي: اعملوا بطاعة الله شكراً على نعمه، والمراد بآل داود إما هو وحده أو هو وسليمان وأهل بيته وليس يهمنا تحقيقه ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ أي: قليل العامل بطاعتي شكراً لنعمتي، ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي: على سليمان ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ﴾ ما دل الجن أو آله ﴿ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: الأرضة، أضيفت إلى فعلها، والأرض بسكون الراء أو فتحها، يقال: أرضت الأرضة الخشبة أرضاً فأرضت أرضاً، فالفعل الأول كضرب والثاني كفرح، ﴿ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ عصاه، تقول: نسأت البعير إذا طردته وهي يطرد بها ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ وقع سليمان ﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾ علمت الجن كلهم علماً بيناً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ﴿ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ ﴾ بعد موت سليمان ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي: لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا بعد موته حولاً في تسخيره. روي أن داود أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات داود قبل تمامه، فوصى به إلى سليمان فاستعمل الجنّ، فلم يتم ودنا أجله فأعلم به فأراد أن يعمي عليهم موته ليتموه، فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس فيه باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها، فبقي كذلك حتى أكلتها الأرضة فخرّ، ثم بحثوا عنه فوجدوا بحسب مقادير أكل الأرضة أنه قد مات منذ سنة وكان عمره ٥٣ سنة، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

هذا ما جاء في كتب المفسرين رحمهم الله وسيأتي في الفصل الثالث مقصود هذه القصة وأنها من المعجزات النبوية، لأن هذا المقصود هو نفسه الذي شرحته الأرواح في الوقت الحاضر وهو عجيب وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ لأولاد سبأ من نسل قحطان ﴿ فِى مَسْكَنِهِمْ ﴾ أو مساكنهم قراءتان، أي: في مواضع سكناهم وهي اليمن ويقال لها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة فراسخ ﴿ ءَايَةٌ ﴾ علامة دالة على وجود الصانع المختار، والآية المذكورة ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جماعتان من البساتين ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ جماعة من يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة منها في تقاربها وتضايقها كأنها جنة واحدة، أو لكل رجل بستانان بستان عن يمين مسكنه وبستان عن شماله، وقد أظهر الكشف الحديث الآتي الرأي الأول، فقال لهم الله على ألسنة أنبيائهم: هذه البلدة التي فيها رزقكم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ وربكم الذي رزقكم ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ لمن شكره.

قال ابن عباس : وكانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، يقال : إنها كانت أخصب البلاد، وأما طيبها فليس بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وسترى تحقيق أهم هذه الأمور، ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ عن الشكر ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ أي : السد وهو جمع عرمة، وهي الحجارة المركومة، كالخزان في وادي النيل عند أسوان يحجز الماء، وكان ذلك بين زمن عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا السدّ له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع أمام ذلك، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذي يليه ثم من الأسفل ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ ﴾ المذكورتين ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ سميتا جنتين للمشاكلة ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ الأكل : الثمر، والخمط : كل نبت أخذ طعماً من المرارة وشجر الأراك وكل شجر ذي شوك ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ هو العبل وهو أكبر من الطرفاء وأعظم منه ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ وهو شجر معروف ينتفع بورقه في الغسل وثمره النبق وهما معطوفان على أكل لا على خمطه، ألا ترى أن الطرفاء لا ثمر لها فلا تكون في حيز المأكول، وفي « أكل خمط » قراءتان : الإضافة والتنوين، وعلى الثاني يكون بدلاً أو عطف بيان ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ أي بكفرهم ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ وفي قراءة « وهل يجازي »، ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ بالتوسعة على أهلها وهي قرى الشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ متواصلة يظهر بعضها لبعض أو راكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ بحيث يقيل الغادي في قرية ويبيت الرائح في قرية إلى أن يبلغ الشام، وقيل لهم بلسان الحال : ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ﴾ متى شئتم من ليل أو نهار ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ أي : إنهم بطروا النعمة وملوا العافية كبني إسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيه على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد، فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث الناس بها تعجباً وضرب مثل، فيقولون : فرقوا أيادي سبأ، أي : كما تفرق أبناء سبأ في البلاد، كما سيأتي تفصيله، ﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ وفرقناهم غاية التفريق ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ عن المعاصي ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعم ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ بالتشديد، أي : حقق ظنه أو وجده صادقاً، وبالتخفيف أي : صدق في ظنه ﴿ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ على المتبعين ﴿ مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ أي : ليتميز المؤمن من الشاك ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ محافظ رقيب.

واعلم أن هذه الآيات من قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ جيء بها كما هي عادة القرآن بعد ذكر القصص لاستنتاج العلم من أحوال الأمم لأن المراد تعليم المسلمين لا مجرّد القصص وسردها. يقول الله : إن إبليس لا سلطان له على قلوب الناس، وإني أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة والوباء على البلاد التي تستحقه لتعفن جوها، فلست أفعل إلا لحكمة، فمن سمع وسوسة الموسوس فهو المذنب وحده، فإذا حلّ الوباء بأرض مات من لا قدرة له على الحياة لاستعداده

للموت، وبقي من له استعداد للحياة، هكذا في الوسوسة يفرق الله بها بين الثابت العقيدة ومتزلزلها، وهكذا جميع حوادث الدنيا من اللذات والتمكن منها والحوادث المؤلمة وحلولها ليثبت القادر ويسقط الضعيف، وهكذا الأمم الأوروبية جعلها الله محكاً لأهل الشرق، فمن صادمهم وصبر على مكاوحتهم فاز بالاستقلال، ومن جزع منهم وخاف وهلع وخضع أصبح أسيراً لهم وأذاقوه سوء النكال. هذا ما تفيده الآية إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ الخ، ثم قال تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أي: زعمتموهم آلهة ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع. ثم أفاد عجز الآلهة فقال: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني من خير وشر ونفع وضر ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي: للآلهة ﴿ فِيهِمَا ﴾ في السماوات والأرض ﴿ مِن شِرْكٍ ﴾ من شركة ﴿وَمَا لَهُ﴾ لله ﴿مِنْهُم﴾ من الآلهة ﴿ مِّن ظَهِيرٍ﴾ معين يعينه على تدبير أمرهما، ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ ﴾ أي: لا تنفعهم شفاعتهم أيضاً عنده تعالى، فلا شفاعة عند الله ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي: إلا لمن أذن الله له أن يشفع، والله لا يأذن أحداً أن يشفع لهؤلاء الكافرين فيخرون صعقين عند الموت ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ﴾ كشف وجلى ﴿ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الخوف والفزع ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا لإقامة الحق ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: قال المشركون الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذو العلو والكبرياء وللآية وجه آخر في التفسير وهو أن الله تعالى لما قال: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ذكر حالاً من أحوال الذين يؤذن لهم بالشفاعة وهم الملائكة لا الأصنام، لأن الملائكة وسائط الوحي، وقد تقدم في سورة « البقرة » أن التعليم بذر الشفاعة، فقال: إن الملائكة ينتظرون الإذن خائفين فزعين حتى إذا فرع عن قلوبهم بالإذن قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا: قال الحق وهو الإذن بها لمن ارتضى وهم المستعدون لها، وهذا المعنى فصله حديث الترمذي: «إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجرّ السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول الحق، فيقولون الحق».

واعلم أن حال العلماء والحكماء في الأرض فيها بعض الشبه بذلك. ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند الوحي كان كأنه مغشيّ عليه ويتنابه العرق، ثم ينكشف عنه ذلك فينطق بما أوحي به إليه. ألا ترى أن الإنسان لا يعرف علماً إلا إذا صرف كل قواه العقلية إلى الفكر وحصر كل همه في الفهم حتى يعقل ما هو بصدده. إنّ هذا الذي ذكر في الآية والحديث يشير إلى أن العلوم والحكمة من عالم مغاير لعالمنا فلا ينال ملك ولا نبيّ ولا عالم شيئاً منه إلا بأن تكون كل قواه محصورة في العالم الروحي، وأقلّ الناس في ذلك العلماء وأعظم منهم الحكماء وأرقى منهم الأنبياء والملائكة، فاستغراق هاتين الطائفتين أشد، والله أعلم.

الكلام في محاجة الكافرين والمعاندين والمترفين والمرؤوسين وما هو من هذا النحو

لما تقدم قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الخ أتى هنا بتقريره، فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ فلا جواب سواه ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي:

ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال، وذلك على طريق الإلزام والإنصاف في الحجاج، إذ يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب، فكذبهم من غير تصريح بالتكذيب، ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا أدخل في الإنصاف إذ أسند الإجرام لأنفسهم والعمل للمخاطبين ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ الحاكم الفيصل ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقضي به ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ لأرى بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة، استفسر عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم في تبكيتهم ﴿ كَلَّا ۚ ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة، أي: ارتدعوا، ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة، فأما من ألحقوهم به فلا قبول للعلم عندهم ولا للقدرة، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلا إرسالة عامة لهم فهي كفتهم أي منعتهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلا حال كونك جامعاً لهم في الإبلاغ والتاء للمبالغة ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ أي: وعد يوم ﴿ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إذا فاجأكم، وهو جواب معطوف على التهديد مطابق لما قصدوه من التعنت والإنكار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب، وذلك أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عنه صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا وقالوا ذلك، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في موضع المحاسبة ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ يقول الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ للرؤساء ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ فأنتم الذين منعتمونا عن الإيمان ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أجاب المتبوعون في الكفر ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ ﴾ منعناكم ﴿ عَنِ ٱلْهُدَىٰ ﴾ عن الإيمان ﴿ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ بترك الإيمان ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي مكركم بنا في الليل والنهار، أي لم يكن إجرامنا الذي صدّنا بل مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً حتى غيرتم علينا رأينا ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ﴾ وذلك أن القادة يقولون للأتباع: إن ديننا الحق وإن محمداً كذاب ساحر، فإذن طاعة الكفار بعضهم لبعض تكون سبباً لعداوتهم في الآخرة كما هو مشاهد في قطاع الطرق والفسقة إذا وقعوا في أيدي الحكام والقضاة فإنهم يتعادون، ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي: وأضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ ﴾ أي: في أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا يفعل بهم ذلك إلا جزاء على أعمالهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المتنعمين المنغمسين في الشهوات هم الذين يحملهم التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا على النفور من الكمال والحكمة والعلم والإيمان، لأن الضدين

لا يجتمعان فمن هو منغمس في الشهوات واللذات كيف يخلص عقله للكمال، ثم أخذوا يربطون الكمال النفسي بالكمال المادي، ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ ولم يكن ذلك إلا لرضاء الله علينا، ولو كان ديننا باطلاً ما منحنا هذه النعم، فنحن مكرمون ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ ﴾ رداً لزعمهم ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسع ويضيق امتحاناً وابتلاء فلا علاقة للكمال الروحي بالكمال الجسمي، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك فيخلطون في أحكامهم ويعلقون أحد الأمرين على الآخر، ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾ أي: بالتي تقربكم عندنا تقريباً ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي: إيمانه وعمله يقربه مني فالأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴾ أي: أن يجازوا الضعف إلى عشر إلى سبعمائة فأكثر ﴿ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ من المكاره ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالرد والطعن فيها ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ هذا في الإنسان الواحد في وقتين مختلفين وما تقدم في شخصين مختلفين ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ عوضاً إما عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ولا رزق من غيره إلا أن يكون واسطة في ذلك، فالرازق حقيقة هو الله ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ المستكبرين والمستضعفين ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم من توقع شفاعتهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي: الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أي: الشياطين إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم أو يعبدونهم هم أنفسهم، إذ يفهمونهم أنهم هم الملائكة تضليلاً فيستغيثون بهم في قضاء حوائجهم كما هو مشهور عند أرباب العزائم والسحرة، فأما نحن فإننا ندعو الناس إلى الخير والفضل، فجواهر نفوسنا ونتائجها مخالفات لجواهر الجن ونتائجها ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ أي: مصدقون للشياطين إما باستحضارهم بطرق التحضير، وإما بالوسوسة ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ بالشفاعة والعذاب، إي: إنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر، لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بوضع العبادة في غير موضعها ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ أي قرئ القرآن عليهم ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا ﴾ أي: القرآن ﴿ إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إظهار في موضع الإضمار للإنكار عليهم، أي: قالوا ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ للقرآن أو لأمر النبوة ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله ﴿ إِنْ هَٰذَا ﴾ أي: الحق ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: بين ظاهر فكل عاقل يتأمله يسميه سحراً ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ تدلهم على صحة الإشراك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إلى الشرك وينذرهم على تركه فمن أين هذه الشبهة.

ثم أخذ يهددهم فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم، فليحذر هؤلاء مثلهم، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه قوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي هو القيام والانتصاب في الأمر والنهوض بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصاً ثم تتفكروا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم اثنين اثنين أو فرادى، فأما الاثنان فيعرض كل واحد منهما رأيه على الآخر، ما الفرد فيفكر في نفسه أيضاً بعدل ومنصفة: هل رأينا في هذا الرجل جنوناً. وهذا قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي فتتفكروا هل بصاحبكم من جنون أو ما بصاحبكم من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدامه لأنه مبعوث قبيل الساعة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيّ شيء سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ وهذا وما قبله يرجعان إلى أن دعوى النبوة بلا حقيقة لها إما أن يكون لجنون أو لتوقع نفع دنيوي، فأما الجنون فلينظر فيه بالفكر مثنى وفرادى، وأما النفع الدنيوي وهو الأجر فهو منتف أيضاً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول بعد نفي كل من الجنون وتوقع الأجر في الدنيا قل لهم إن ربي يأتي بالوحي من السماء فيقذفه إلى الأنبياء ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ خفيات الأمور ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن والإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدي شيئاً أو تعيده ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فوبال ضلالي عليها ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإن الاهتداء بهدايته ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ عند الحوادث العظام من هلاك في الدنيا كما حصل في حرب بدر وغيرها، أو عند الموت أو يوم البعث لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى القليب هناك ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد حين عاينوا العذاب عند اليأس ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريباً منهم في الدنيا فضيعوه، فإذا سألوا الرد إلى الدنيا يقال: وأنى لهم الرد إلى الدنيا؟ ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل ذلك أوان التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ من جانب بعيد عن الصدق والحق والصواب، كقولهم: هو شاعر وساحر الخ، فهذا منهم تكلم بالغيب والذي لم يشاهدوه فهو من جهة بعيدة عن حاله الشريفة صلى الله عليه وسلم، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار بعد ما فاتت فرصته في الحياة الدنيا، وهم كافرون وقاذفون بالقول بلا روية ولا فكر في أمر النبوة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والتهمة، وهو وصف للمشكك وصف به الشك مبالغة. انتهى الفصل الأول وهو تفسير ألفاظ السورة كلها.

الفصل الثاني

نذكر في هذا الفصل ما كنت كتبته ملخصاً لتفسير هذه السورة منذ أكثر من عشر سنين ليجتمع المعنى بسهولة عند الأذكياء.

اعلم أن هذه السورة تشتمل على ستة مقاصد:

المقصد الأول: إثبات الوحدانية.

المقصد الثاني: إثبات علم الله.

المقصد الثالث: إثبات يوم البعث بما يشاهد من العجائب.

المقصد الرابع: آراء العلماء في القرآن وآراء الجهلاء.

المقصد الخامس: ذكر أمتين عظيمتين غنيتين إحداهما أطغاها الغنى فكفرت وهي سبأ، وأخرى شكرت وهم آل داود وسليمان، وجوزي كل بما فعل.

المقصد السادس: تعليم الناس الاستقلال في الرأي ونبذ الأوهام حتى لا تخدعهم صورة ممثلة ولا رئيس ضليل ولا يغرهم مال ولا يطغيهم ترف ولا يعبدون ملكاً ولا جناً، ولكن يكونون أحراراً خالصين مخلصين فينالون السعادة في الدنيا والآخرة كداود وسليمان عليهما السلام وكالنبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر في سورة «الأحزاب».

المقصد الأول والثاني والثالث

من أول السورة إلى قوله: ﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

ابتدأ السورة بحمد الله عز وجل وبيان اختصاصه بملك العالم العلوي والسفلي، وليس في الآخرة من نعمة إلا من فيض فضله وتمام نعمته، فهو المحمود في الدارين المشكور على النعمتين، توطئة لما سيذكر في السورة من ملك داود وسليمان إذ عرفا لله حق النعمة واعترفا أنها من الله وشكرا عليها، وإلماعاً إلى سبأ بكفرهم بالنعمة وإعراضهم عن الحمد وتقطيعهم الأرحام وتمزيقهم شمل الأمة جزاء وفاقاً بما عملوا، ومزقوا كل ممزق لما أعرضوا، وإيذاناً بأن من خدعوا بالأصنام أو اغتروا بالرؤساء الذين استكبروا أو عبدوا الملائكة أو قالوا للضعفاء: نحن أكثر أموالاً وأولاداً؛ فإن أولئك غافلون وجزاؤهم المقت والغضب والارتطام في أوحال الشبهات والغرق في غمرة الجهل واستعباد الرؤساء لهم وتعذيبهم لما غفلوا عن مسبب النعمة ومسديها.

ثم أفاد أنه يعلم أجزاء المادة وإن دقت وصغرت، وصفاتها من حركة وسكون وولوج وخروج ونزول وصعود ويعلم ما فوق ذلك من ملك.

كيف لا ونحن نشاهد عجائب الكيمياء فنعجب كيف وزن الذرات وزناً بديعاً، حتى إنك لترى الأوكسجين والأدروجين في الماء مثلاً لا تزيد ذرة منهما أو من أحدهما عما رسم لها في تركيب الماء، وتلك الذرات دقيقة لا ترى بالمنظار المعظم.

وهكذا العناصر الداخلة في تركيب الأشجار والزروع، فلقد وضح أن تألف منها النبات بمقدار معلوم، فترى الجير مثلاً في القطن والقمح وله مقام معلوم في كليهما لا يتعداه، وهذا هو السر المصون العجيب المعبر عنه بقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾[سبأ: ٣].

فإن ذرات الكيمياء أصغر من ذرات الهباء صغراً لا حد له، ولا جرم أن الذي يعلم دقائق الأشياء كما نشاهده لا يغفل عن أفعال العباد. فإن وزن الذرات في تركيب النبات فما أحراه أن يزن أفعال العباد ليوم الميعاد، فذكرنا الله بقوله: ﴿ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[سبأ:٣]، وهذا قسم للتأكيد على نهج البلاغة، ثم أتبعه بالبرهان العلمي والدليل الطبيعي والكيماوي للحكماء على سبيل الارتقاء، فقال: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾[سبأ:٣] الخ. فتعجب وتأمل وادرس حتى تفهم السر المصون وذلك قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ:٢] إلى قوله: ﴿ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾[سبأ:٥].

المقصد الرابع

إن عقلاء الأمم وعلماء الديانات يرون أن هذا القرآن يوافق ما أوتوا وأنه هدى، وأما الجهال فإنهم تائهون في أودية الضلال لا حجة لهم إلا الاستبعاد، ولا دليل لهم إلا الاستهزاء والإيذاء بما يهرفون من جنة يدّعونها وكذبة يفترونها. ذلك لقصر نظرهم عما أبدع في الأرض والسماء، وما وزن في المركبات من الذرات، مما لا يفهمه إلا علماء دارسون لهذا النظام. فما أحرى السماء أن تنزل عليهم كسفاً، وما أجدر الأرض أن تخسف بهم خسفاً، فإنهم يعيشون عليها وهم لا يعقلون ويأكلون خيرها وهم لا يدرسون، قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦] إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[سبأ:٩].

المقصد الخامس

فيه غرضان: الأول: من أوتي مالاً وعلماً وحكمة فعرف وشكر وآمن بالبعث وهدى الناس. والثاني: من أوتوا النعمة ففرحوا وأعجبوا واستكبروا وطغوا فهلكوا، هما أمتان ذكرهما الله عز وجل كانتا في جزيرة العرب، فبنو إسرائيل بالشام ومنهم داود وسليمان عليهما السلام، وسبأ كانوا في اليمن وما أنسب ذكرها بسورة «الأحزاب» وما أعجب قصص القرآن، ألم تر كيف أنعم على النبي بنعمة النصر والفتح والهدى؟ وهل أنسب لذلك من أمر داود وسليمان عليهما السلام ولبلاد سبأ ببلاد الشام علاقة متينة قوية.

ألم تر إلى قصة بلقيس وسليمان عليه السلام أيام شباب الدولة الإسرائيلية، فإن بني إسرائيل كان لهم أدوار ثلاثة: الدور الأول: ذلهم في مصر نحو أربعمائة سنة وعشرات. الثاني: ملكهم تحت حكم الشيوخ السبعين نحواً من ذلك بالشام. الدور الثالث: دور الملك والعظمة وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام، وذلك أيام بلقيس. ولذلك الإشارة بقصة طالوت وجالوت وداود في «البقرة»، وقصة بلقيس في «النمل».

وأما قصص فرعون معهم فما أوضح ما ذكر في أول «الشعراء» في ذلك. ولقد كانت دولة الحميريين والتبابعة قوية ذات مجد وسلطان وعظمة، فما أشبهها بدولة بني إسرائيل في زمن سليمان وداود. ولكل من الدولتين قدم راسخة في صناعة التماثيل وبناء المحاريب والأبهة والجلال والعظمة. ولقد أصبح القطران في حوزة الأمم الإسلامية الآن، فاليمن معروفة أخبارها مشهورة آثارها خاوية من الصناعة فارغة من العلم إلا قليلاً وكذلك أرض الشام. ملك الله المسلمين القطرين منذ أيام العصر الأول وقص عليهم قصص الأمم التي سكنتهما، والأجيال التي قطنتهما، والملوك التي دبرتهما،

ليذكر المسلمون وليعتبروا وليعلموا أن التقاطع سفير العذاب ونذير الخراب وأن هذه البلاد سيملكونها. فإياكم أن تكونوا كسبأ إذ أغدقنا عليهم النعم وملكناهم اليمن وجعلنا بلادهم من الماء والخصب كأنهما جنتان، بحيث يراها الذاهب إليها جنتين عن يمينه وشماله أو لكل مسكن جنتان هو قائم بينهما على النظام الأوروبي العصري الذي حرم منه المثرون عندنا وتمتع به صغار العملة هناك. وهل كان ذلك النظام البديع إلا بإتقان علم الزراعة والإبداع في فن الصناعة ودرس علم الصحة، وكيف تنظم المساكن وكيف تحاط بالبساتين إلا بالهندسة المدروسة وتقويم الصحة. وكيف بني السد المسمى بالعرم أو السكر أو النجف أو المسناة ليحجز الماء إلا بإتقان فن الهندسة والبناء وعلم الري ونظام الجسور. وهل تلك الطبقات الثلاث في المسناة أو العرم التي تنزل الماء بقدر معلوم فالمنفذ الأعلى يليه الأوسط فالأسفل إلا بحكمة وعلم. وهل تستطيع الأمم الوحشية ذلك؟ كلا.

لقد كان العمران متواصلاً ماراً في تلك الصحارى المقفرة الآن. والآثار الدارسة حتى يصل بلاد الشام التي بارك الله لأهلها من بني إسرائيل وغيرهم. ألا تتعجب كيف دمر ملكهم، وهل ينزل البلاء ويستعصي الداء ويعوز الدواء إلا إذا جهلوا ما به الحياة وانصرفوا عن الحكمة الموروثة وتقاطعوا وتميزوا طرائق، وتباينوا خزائق، فجهلوا الهندسة وتركوها، وأغفلوا الصناعة ونبذوها، وضلوا عن الزراعة فلم يتعهدوها، وأعرضوا عن علوم الري فلم يدرسوها، وانصرفوا عن نعم الله فلم يشكروها واتبعوا ما يقول الجاهلون ويبتدعه لهم الدجالون، فيقولون: سيفتح العرم فأرة فاربطوا هرة تحفظه وترعاه كما فعل المصريون أيام قنبيز إذ أحجموا عن ضرب الفارسيين خوف الهرر أن تصاب. ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، فلما أن أهملوا سدهم، وتركوا أرضهم، سال الوادي بالماء وبدلوا بالجنتين ما لا ينفع الإنسان من أثل لا ثمر له وشجر مر الثمر ونبق قليل. وتباعدت أسفارهم وتناءت ديارهم وخربت القرى المتواصلة المنظمة في طريقهم إلى الشام، فأصبحوا مثلاً في الغابرين، فقيل: تفرقوا أيدي سبأ. أبناء سبأ عشرة تشاءم منهم أربعة: لخم وجذام وغسان وعاملة. وتيامن ستة: الأسديون والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار. ولما تفرقوا لحقت غسان بالشام والأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، ومر الأوس والخزرج إلى يثرب ولحق آل خزيمة بالعراق.

موازنة ملك سليمان بملك سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان

فوازن رعاك الله هذا الملك العظيم بملك بني إسرائيل وكيف زال الأول بسيل العرم بعد الأبهة والجلال والعز والمنعة والشرف والفضل العظيم، وكيف عظم بنو إسرائيل فبنى داود وسليمان عليهما السلام بيت المقدس إذ رفع على أعمدة بلورية وبنى بالرخام الأصفر والأبيض والأخضر، وسقف بأنواع الجواهر وفضض سقفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بأنواع الفيروز وسخر العملة فبنوا المحاريب وصنعوا التماثيل لكل صنف من الحيوان الممثل للقوة، كالأسد والصقر أمام كرسيه وفوق رأسه، واللطيف الشكل كالغزال وغيره. ألم تر كيف زال هذا الملك إذ طغوا وبغوا وسلط عليهم بختنصر من أرض بابل فأخذهم ووضعهم بأرض فارس وما والاها، كما في أول سورة «الإسراء». إن ذلك لعبرة للمسلمين كما في قصص هود وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين. فمساكن هؤلاء جميعاً إسلامية اليوم. وقد أعطاها الله المسلمين فنمت وعفوا أيام شباب دينهم فلما

أدبروا وأعرضوا أصبحت البلاد عرضة للدمار آيلة للخراب إن لم يقم فيها مصلحون ويسعدها المرشدون، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى ﴾[سبأ: ١٠] إلى قوله: ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[سبأ: ١٩].

المقصد السادس
الاستقلال والحرية في الآراء

خراب الأمم وذهاب الدول وخراب بلدانها لا يدعو إليه إلا الجهل ولا يحدثه إلا ترك العلم باتباع أخس الآراء وتصديق الترهات، كما يحدث في بلادنا من أكاذيب الجهلاء وأضاليل بعض السفهاء من المعلمين الغاوين، وكما حدث في سبأ من نبذ علوم أسلافهم واتباعهم أهواءهم وربط الهرر بجانب سدهم كأنهن مهندسات ومنظمات، ويتبع الجهل خلة الظلم والتقاطع والتدابر، وذلك هو المعبر عنه في القرآن بالكفران، وشعب الأوهام كثيرة وأوديتها شاسعة وخروق فجاجها واسعة ولكن ترجع إلى ثلاثة أصول: ضعف في بصيرة. اغترار برياسة. وضلال يبطر الغني. فأما ضعف البصيرة فذلك ما ذكره الله عقب قصص سبأ من الأصنام المنصوبة والأشباح الخالية من الأرواح وكيف صور الوهم للناس عبادتها وكيف يعدونها شفعاء، ومن يشفع إلا بعض المصطفين الأخيار فيخرجون فزعين ويغشى عليهم صعقين، فإذا زال الفزع تساءلوا فيما بينهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: إنه قال الحق. وهذه الأصنام لا حياة لها فضلاً عن الشفاعة، وليس عباد الملائكة بأحسن حالاً من عباد الأصنام فكلهم مخلوق وكلهم مربوب، بل يقف الملائكة يوم القيامة ويتبرؤون ممن يعبدون ويقولون: إن عبدوا إلا الأوهام وما اتبعوا إلا الجان لضعف بصائرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾[سبأ: ٢٠] إلى قوله: ﴿ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[سبأ: ٤٢].

الاغترار بالرؤساء

وأما الاغترار بالرؤساء، والخضوع للكبراء، فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى وداهية الشرق. وداعية اتساع الخرق، وغرور الجهال. وضياع الأموال ودمار البلدان، ولقد قطع الله الحجة وأعذر. وقرر الذنب على المرؤوسين كالرؤساء والمحكومين كالحاكمين. وتأمل كيف يقول الضعفاء للمتكبرين: أنتم أضللتمونا فهل تنفعوننا؟ فقال المستكبرون: كلا فإنكم مجرمون، ولم تفكرون أفلا تعقلون؟ فقال الضعفاء: كم من حيلة نصبتموها ومكيدة دبرتموها بإذاعة الأخبار ونشر الآثار بالليل والنهار. فقال الله: لكل ضعف من العذاب، ذلك كما نشاهده اليوم في الأمم التي ذهب مجدها وغاب سعدها وحضر جهدها، إذ يقولون: على الرؤساء تبعتها ونحن لا مال بأيدينا ولا سلاح ولا جند، فقطع الله الحجة وأوضح المحجة وأناط بكل عمله وأوجب عليهم أن ينظروا مفكرين ولا يغتروا بالمتكبرين، فكم يسمع المرء جعجعة ولا يرى طحناً، فالصعلوك كالملك في الإسلام على كل التفكير ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]، ومصداق ذلك ما تراه الآن في بلاد الإسلام من قولهم: ظلم الحكم فباد الأنام، ونقول: كلنا والله مسؤولون وعلينا أن نفكر للمجموع وإلا حقت كلمة العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾[سبأ: ٣١] إلى قوله: ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[سبأ: ٣٣].

الضلال بالغنى

وأما الضلال بالغنى والبطر بالمال فما أشبهه إلا بعبادة الأصنام، ولن يجادل الأنبياء ويقاوم الرسل والمصلحين إلا الأغنياء لئلا تفوت رياستهم ويعلوهم غيرهم، ذلك شأن الإنسان في كل زمان إلا أن عابد الصنم متبع خياله وخباله، والمغتر بالمال أعظم شهوته وخضع للذات كالعجماوات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾[سبأ: ٣٤]، إلى قوله: ﴿ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ: ٣٧]، فالمال كالصحة والسلطان والولد وسائر النعم لا دلالة لوجودها على الشرف ولا لعدمها على الضعة، فهي تكون للبار كما تكون للفاجر فليست تقرب بعيداً ولا تبعد قريباً، ولا ترفع وضيعاً ولا تضع رفيعاً لذاتها، ولكن هذه الأعراض أشبه بالسيف، ينفع إن أمسكه العاقل الشجاع ويضر إن تناوله المجنون.

هذه أهم مقاصد السورة الشريفة وما عدا ذلك فتثبيت لحجة أو تأييد لحكمة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٢٤] إلى قوله: ﴿ وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[سبأ: ٣٠].

هذا وقبل أن ندخل في مباحث الفصل الثالث لا بد أن نوضح المقام في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢] إلى آخره وهو ما يأتي.

جوهرتان

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الخ.

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

كتب في ليلة الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد على أنك أسعدتني بالحكمة وحبوتني العلم، إنك أنت الحكيم الخبير، فهاأنا ذا الآن أصبحت على يقين أن من عبادك في أرضنا أناساً أشهدتهم هذه الأرض وهذه السماوات في حياتهم الدنيا فراديس وجنات النعيم، إن هذه العوالم في ظواهرها تمثل الشر، ففيها الموت والحياة والمرض والظلم والقسوة والفجور والفسوق والخسران لحب والغرام والندامة والحروب والمدافع والبارود والديناميت والإهلاك والتدمير، فهذه تشبه أن تكون ركناً من أركان جهنم. اللهم إنك أنت حكيم، هذا قصرك المشيد أرض وسماء ومشاهد بينهما تمثل فيها الفظائع والآلام والأرزاق والحياة والسرور والغرور، ولكنك أنت مع هذا كله جعلت نفس هذه المشاهد روضة من رياض الجنة للحكماء والمفكرين، أفليس من العجب أن تكون مبادئ النار والجحيم هي بعينها فراديس الجنان؟ كلا بل هي مشاهد الحق ومظاهر الجلال والجمال ومبادئ مشاهدة الحق تبارك وتعالى. في الأرض أقوام معذبون بهذه الحياة وإن كانوا لا يعلمون أنهم معذبون، مسخرون وإن كانوا لا يعلمون، أشقياء وإن كانوا لا يفقهون، وهؤلاء هم أكثر هذا النوع الإنساني، هم في داخل أنفسهم في شقاء آلام الأمراض والعواطف والغم ومواجع الأعداء والحساد والحكام والوحوش والحشرات ورذائل الأصدقاء والأقارب والحزن

على مصائبهم الحالة بهم والنكتة المتعدية منهم، الحق أن الناس جميعاً في الأرض مسوقون بعصا من حديد، هم مسوقون كما تساق الأنعام، فتربية الولد وكسب العيش وتناول الطعام كلها ببواعث وزواجر يحس بها الناس وما هي إلا عصي من حديد تسوقهم وهم مرغمون.

اللهم إن هذا حال أكثر نوع الإنسان، ولكن النادر منهم ينظرون هذه المشاهد وهم يسمعون كلاماً ليس بحرف ولا صوت، بل يقرؤونه في نفس المشاهد ويفقهونه، والناس من أمرهم متعجبون هازئون، وهم في أنفسهم للناس راحمون، العالم يرحم الجاهل، والجهال هم أكثر نوع الإنسان، فهذه الجموع تستمد من الحكماء والحكماء هم الراحمون، لأن الآباء يشفقون على الأبناء، فالحكيم أب لأمته لأنه أقرب إلى نبيها، فإذا استمد منه الناس فهو بهم رحيم، فماذا يسمع حكماء الأمة من خطاب الله الذي ليس بحرف ولا صوت؟ يسمعونه يقول: أي عبادي أنا رحمن رحيم، رحمتي سبقت غضبي، ألم تسمعوا أني ابتدئ كل سورة باسمي الرحمن الرحيم، أنا لم أنزل مضار في الأرض إلا لسعادة ونعمة، وغاية الأمر أن أكثر الناس لا يعلمون، هذا العالم الأرضي عالم يسير إلى الكمال ولا كمال إلا بالعلم، ولا يتم علم إلا بمقدمتين: مقدمة المحبوب ومقدمة المكروه، فكما أن المناطقة منكم يقولون: لا نتيجة إلا بمقدمتين، هكذا حكمتي قضت أن لا علم لكم إلا بسابقة مقدمتين، ولكن المقدمتان عندي هما: المحبوب والمكروه، أنتم يا أهل الأرض عبيدي وأنا أرحمكم أكثر من رحمة أبويكم آلاف آلاف المرات. ولن تستطيعوا أن تعقلوا هذه الرحمات إلا بدراسة جميع العلوم ودون ذلك خرط القتاد. فهاكم أمثلة مما تشاهدون:

المثال الأول: حب الصور الجميلة طلباً للنسل، أنتم جميعاً تحبون الحكمة والأشكال الجميلة، فأول ما يصادفكم في حياتكم حب الوجوه الجميلة فيرى الرجل أو المرأة أن سعادة كل منهما في الاقتران بالآخر والاجتماع به وغير ذلك، لأن صورة خاصة مقبولة في نظره ولا معنى لقبولها إلا بأن يكون الخدان والعينان والأنف والفم على مناسبة مقبولة عند هذا المحب.

** إن الطيور على أشكالها تقع **

فهذا التناسب هو الذي يولع به الذكور والإناث فتكون الذرية. إذن الحكمة والنظام وحسن الإبداع هنا جعلت للشهوة البهيمية وبقاء الذرية، وكان المقصد في ذلك كله هو إتقان تلك الصورة في نظر ذلك العاشق.

المثال الثاني: حب الأعمال الصالحة. فإذا جاوز الناس الدرجة الأولى وهي الخضوع للشهوة البهيمية التي تنتج بقاء الذرية اعتلوا إلى درجة أرقى وهي مزاولة الحكمة العملية، فهناك يكون التعاون في الأعمال المنزلية والقيام بما يوجبه الدين والعرف والعادة من المحافظة مادياً وأدبياً على إراحة أهل المنزل من الزوجين والصغار، ويلي ذلك نظام القرية ونظام سياسة الجمعية الإنسانية كلها بالنظام العام، ولا تمام لذلك إلا بالصناعات والأعمال العظيمة، فهذا تمرين لكم أيها الناس على أن تكونوا خلفائي في أرضي.

المثال الثالث: في الشوق إلى فهم الصناعات الإنسانية المتقنة وهو أعلى مما قبله، إن نفوسكم تشرئب للحكمة العلمية، لأن الحكمة العملية بالسياسة المنزلية والأخلاق الإنسانية والنظم السياسة

العامة مقدمات ومدريات لعقولكم حتى تشتاق إلى أن ترقى إلى فهم حكمتي في خلقي، ولكن حكمتي فوق حكمة المهندسين ومهرة الصناع في أرضكم، فأول ما يصادف العقول الشريفة من الشوق العلمي أن تهرع إلى مشاهدات الصنائع الغريبة المتقنة إتقاناً أتم فوق ما تصنعون لغرابتها بالنسبة لما نقص من صناعاتكم، إن أجسامكم هي الحاملات لأرواحكم وأنواع النبات والحيوان كل هذه متقنات الصنع حولكم، وهذه الشمس وهذه النجوم كلهن باهرات الصنع، ولكن لما كانت نفوسكم أرضية ـ وقد عجزت عن أن تعقل جمال تركيب النبات وإن كانت من علمائه، وبهجة تركيب أصغر الحشرات وإن كانت من دارسيه، ودقة صنع أجسامكم وإن كانت هي الحاملة له ـ أخذت تسعى إلى صنعة الإنسان لأنها إليه أقرب، وعقولكم إلى حكمة أمثالكم أميل، ألم تروا كيف أقبل علماء أمريكا وأوروبا من كل حدب ينسلون على البلاد المصرية لما فتح الباب المختوم بختم الملك «توت عنخ أمون» يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣، وشاع الخبر في الكرة الأرضية أن الغرفة الثالثة قد وجد فيها صندوق بديع داخله جثة الملك المذكور وجواهره الثمينة، وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالأحجار الكريمة، ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريباً، وبعد ذلك وجدت الغرفة الرابعة وهي مملوءة بأثاث من أفخر المفاخر مرتبة ترتيباً حسناً يفوق منظرها في بهائها وعظمتها ما رأوه في الغرفتين الخارجيتين.

وحضر لمشاهدة ذلك بعض ملوك أوروبا كملك البلجيك والملكة لمشاهدة صنعة المخلوق، لأن صناعها عقولهم أقرب إلى عقول أهل الأرض، وأخذت الوفود تترى على مصر وهي عشرات الألوف بل أخذ الناس في دور الصناعات بأوروبا وأمريكا يقلدون الصناعات التي ظهرت في القطر المصري، ويطلبون نماذج للأزياء المصرية الأثرية كالملابس وأثاث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها، وهم يصرفون الألوف ومئات الألوف من الجنيهات، وابتدأت النساء الأمريكيات والأوروبيات يلبسن ملابس كالتي ظهرت في عهد «توت عنخ أمون»، فإنه في صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ ظهر في شارع «ففث افنيو» وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسرن معاً وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثياباً مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمات، واحتذين أحذية على شكل «الصندل»، فكن بثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع ومثلهن في إنجلترا.

وأخذ الناس في أوروبا وأمريكا يقرؤون تاريخ قدماء المصريين. فلقد هالهم تلك الصناعات العظيمة من:

(١) سرير بديع لذلك الملك من الذهب المطروق.

(٢) وآنية من المرمر منحوتة من قطعة واحدة للروائح العطرية لذلك الملك.

(٣) وآنية أخرى من المرمر أيضاً.

(٤) ونوع من الحلي الذي يزين الصدور من الذهب الخالص، هيئته تشبه هيئة السفينة.

(٥) وتمثالين داخل الغرفة الخارجية يحرسان باب الغرفة الثالثة المختومة التي بها جثة الملك.

(٦) وصندوق لملابسه وعليه صورتان تمثلان شكل أبي الهول، يطأ أعداء الملك تحت قدميه وعليه نقوش غاية في الإبداع والدقة تفوق سائر ما في المدفن من الإتقان والدقة والجمال.

(٧) وكرسي «عرش الملك» وهو مصنوع من الأبنوس والعاج ومحلى بنقوش جميلة قوائمه على شكل أسد من الذهب.

(٨) ومرآة من الفضة منقوش عليها اسم الملك.

(٩) ولوحة قد كتب عليها تاريخ انتصارات القائد «هوس» النائب عن ملك مصر.

(١٠) وصورة الملك وهو يتلقى أخبار انتصارات القائد المذكور.

(١١) وصور الهدايا والأسرى من بلاد الحبشة.

(١٢) وحذاء الملك المصنوع من الذهب وهو مزين بشكل زهرة «اللوتس» الجميلة.

(١٣) وبرنس من نسيج كتان مصر المتين مع ملابسه، وقفاز كتاني النسج وهو أول قفاز مصري قديم كشف، صنع منذ ٣٠٠٠ سنة.

هذا نموذج من مصنوعات العباد وهي التي يفرح بها الناس ويرغمون على السفر وترك الأهل والوطن وصرف الدرهم والدينار، كل هذا لحب الصنعة والحكمة الإنسانية التي هي أقل إتقاناً وبهجة من الحكمة في السماوات والأرض. ذلك لأن عقل الإنسان إلى عقل الإنسان أقرب، ولفهم صناعته أسرع مع أنه هو نفسه في جسم أبدع صنعاً وأتقن وضعاً وأبدع حكمة وأبهج نقوشاً وأتم نظاماً من ملابس وصنادل وعروش وتماثيل «توت عنخ أمون» ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾[الأعراف: ١٧٩]، إذن هؤلاء العلماء السائحون من أقطار العالم لم يتعجبوا إلا مما يناسب عقول الإنسان من صناعاته لا من صناعات الحق جل وعلا، فإن تمثالاً يعقل ويبصر وينطق ويسمع أتم وأكمل من تمثال جاهل أعمى أخرس أصم، فهذا التمثال الأتم وهو الإنسان لا يفرح بجسمه ولا بما فيه من النقوش ولا بما في الحشرات والحيوانات والنباتات حوله لأنه متقلب فيها صباحاً ومساء، فسقط وقعها من قلبه وهرع إلى مشاهدة ما لم يره من قبل ففرح به لغرابته، لأنه مما يناسب عقله من حيث إنه منتهى ما يصل إليه الإنسان.

المثال الرابع: هو أعلى من سابقه. هنالك أقوام في هذا النوع الإنساني وهم أعلى ممن تقدمهم لهم إدراك أتم وعقول أكمل، فهؤلاء يقولون: هذه الدرجات الثلاث اثنتان منها إنسانية وواحد منها حيواني إنساني وهو الأول، ولكنا نحن نريد مثلاً أعلى وهو مثل الملائكة، فليكن نظرنا نظراً أكمل لنوع هذا الإنسان فنكون آباء للدرجات الثلاث، فهؤلاء يلدون ويعيشون في المنازل والمدن ويدرسون الصناعات ويدركون الجمال، وكل منهم في أثناء بحثه يعتريه النحس والسعد والفرح والحزن. ففي المنازل وفي المدن وفي الأسفار لمشاهدة الآثار أفراح وأتراح، فقد يعيش العاشقان في هناء وقد يفترقان فيموت أحدهما كمداً، وقد يعتري الإنسان الدهش من هذه المصنوعات المباحات في دين قدماء المصريين المحرم بعضها على الرجال في دين الإسلام، فيغره جمالها فيقلدها فيبيع الطارف والتليد من مقتنياته ويصبح خاوي الوفاض بادي الأنفاض، لا يملك شروى نقير ولا يكون في العير ولا النفير، قد مسه الضر وملكه الفقر، إذن هذه الدرجات الثلاث أبناؤنا، فلنبحث نحن عن حكمة هذا الوجود، ولن تظهر حكمته إلا في دراسة السماوات والأرضين، فننظر حولنا في الحشرات والدواب والنبات، وفوقنا في السماوات والأرضين.

هل هذه الآلام، وهذه اللذات التي تعترينا لها نتائج صادقة؟ أم هي مصادفات كالتي رأيناها في الأمثلة الثلاث، فهؤلاء يحسون بخطاب نفسي بلا حرف ولا صوت وكأن الله يقول لهم: أي عبادي هاأنا ذا أخاطبكم وقد تأهلتم للفهم عني وبذذتم السابقين من بني آدم أرباب الأمثلة الثلاثة، انظروا، ألم تعلموا أن اللذات والآلام مقدمات للعلوم، فلو كانت اللذات وحدها والآلام وحدها لم تقم للعلم قائمة، وهل يمشي الإنسان على رجل واحدة. أم تخلق له يد واحد أم عين واحدة وأذن واحدة وطاقة أنف واحدة؟ فكل واحد من هذين الزوجين مكمل للآخر، فهكذا هنا الآلام واللذات زوجان يكفلان القيام بتعليمكم وإرشادكم، ولكن ليس كل إنسان أهلاً للفهم عني. كلا. وإنّما الذين يعقلون هم الذين ارتقوا عن الطوائف الثلاث السابقين، وهذه الطائفة الرابعة لا أجشمها مشاقّ السفر ولا يعوزها انتعال الحجر ولا توسد المدر ولا بذل البدر، وإن كان شعارها «لكل مبتدأ خبر» و«لكل نبأ مستقر»، بل هؤلاء ينظرون في منازلهم وفي قراهم فيجدون أنواع الحيوان كالحشرات وهي تطوف عليهم صباحاً ومساء فماذا يرون؟ يرون مثلاً أن هذه الحشرات ونحوها ما هي إلا أساتذة ومعلمون يطوفون على الناس، ويقولون: أيها الناس نحن فريقان فريق يؤذيكم كالجراد والزنابير، وفريق يغذيكم ويشفيكم وينفعكم كالنحل، فأكثر بني آدم ينظرون للناموس والجراد نظر الخوف من نقص الأنفس والأموال، وينظرون للنحل ودود القز نظر الرجاء أن يشتاروا العسل وينسجوا الحرير، وهذه هي المرتبة الدنيا الحيوانية، ولكن حكماءكم أيها الناس وهم في ذروة المراتب يتشبهون بالملائكة في مباحثهم، فهؤلاء يقولون: عجباً عجباً، نظام النحل كنظام الزنابير كنظام الجراد كنظام الأرضة التي سترى رسمها قريباً، فملكة النحل وملكة الأرضة هاهما تان ذا تراهما مرسومتين أمامك وحولهما جنودهما وخدمهما وحشمهما. وهذا نظام عجيب. وإحدى الملكتين مؤذية والأخرى نافعة لنا، فإذا لم يعقل الإنسان النافع ولم يفكر عند أكل العسل في حسن نظامه ودقة صنعه ليدرس الوجود فعسى أن يفكر إذا لدغه زنبور فينظر في قرصه ويفكر في مدينته ونظامها، وإذ ذاك يفهم: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، فهاهنا زوجان: مؤذ ونافع، وأحدهما ضد الآخر كالليل والنهار، ولولا الليل لم نعرف قيمة النهار ولولا النهار لم نعرف قيمة الليل، فبفهم الضدين يدرك الإنسان الفرق بينهما، وهناك تكون السوانح العقلية وإدراك العجائب الحكمية.

فإذا شاهد أمثال النحل والنمل والأرضة والجراد وعرف نظامها ألفاها كلها على قاعدة واحدة وإن اختلفت فروعها، وإذن يفهم معنى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ١]، لأن هذه الجملة تقتضي الاختصاص بالخالق، لأن تقديم الخبر يفيد ذلك، ولكن تقديم الخبر يفيد إفادة لفظية. أما هنا فإن قارئ هذه النظامات يقول: إن القاعدة واحدة لا فرق بين ما يضرنا وما ينفعنا. كلها ممالك مؤسسات على نظام واحد. فملكة النحل وملكة النمل وملكة الأرضة كلهن ذوات أوامر لا تردّ، وما نظامها إلا كنظام أجسامنا، وإن كنا إلى فهم هذه الحشرات أقرب منا إلى فهم أجسامنا، وكأن البوابين والضباط والجنود والمراضع في جنود ملكات النمل أشبه بما فينا من قلب وكبد وطحال ومعدة وأمعاء وأعضاء حركة وأعضاء حس الخ، كل له عمل يخصه.

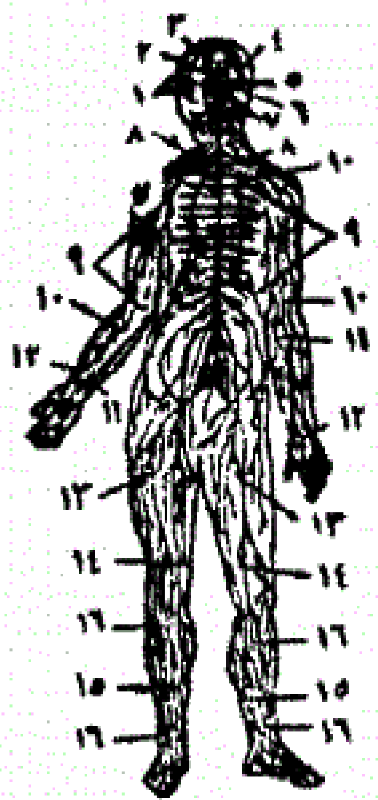
ولما كان هذا المقام يستلزم إعادة رسم صور تقدمت في هذا التفسير، وهي صورة ملكة النحل وصورة ملكة الأرضة وصورة جسم الإنسان، رأينا أن نرسمها إتماماً للفائدة. انظر شكل ٢ و٣ و٤.



(شكل ٢ ـ ملكة النحل) (شكل ٣ ـ الأرضة المالكة وأتباعها)

رسمها العلامة الألماني «أزريك» كما لَمَحها

الكتلة البيضاء الضخمة هي الملكة وإلى جانبها الملك. ومن حولها العمال يقبلونها ويلحسونها فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند فمها ويبقى في الطرف الآخر من وكل إليهم التقاط البيض. وبين العمال جند من البوليس صغير الحجم وفي الصف الأول في شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراستها ضد هجمات عدو مفاجئ.



(شكل ٤ ـ جسم الإنسان)

ثم يرفع هؤلاء طرفهم إلى السماء بعد أن يعرفوا أن العالم السفلي على وتيرة واحدة فماذا يرون؟ يرون شمساً يحيط بها نبتون وأورانوس وزحل والمشتري والمريخ والأرض والزهرة وعطارد وأكثر هذه حولها أقمار. كل هذه دائرات حول الشمس، فيدهش هذا الفريق إذ يرى أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة الأرضة كلهن سواء في النظام، وهن متشابهات تمام المشابهة للشمس مع سياراتها وأقمارها، وهكذا مع «النيازك» التي لا حصر لعدها وبعضها صغير جداً كالبلاطة في منازلنا وبعضها أكبر وأكبر وهي التي نراها في الليالي المظلمات تنزل كسهام مضيئة نسميها «شهب» جمع شهاب، وهكذا ذوات الأذناب كلهن دائرات حول الشمس كما تدور الشهب «النيازك»، وكما تدور السيارات. وهنالك يرون أن الشهب والسيارات إن هي إلا كأعضاء الجسم الإنساني أو كأفراد من ممالك النحل وممالك النمل. لنا نحن بني آدم أوامر نلقيها على أعضائنا، وأعضاؤنا تمثل تلك الأوامر، والموصل لتلك الأوامر من عقولنا إلى أعضائنا هي الأعصاب فهن قائمات مقام البريد البرقي «التلغراف»، وسرعة الفكر في العصب ميل في الثانية.

وبعض العلماء يقول: إن القوة الحاكمة تشعر باللمس على الوجه وتجيب عليه بتحريك اليد في سبع ثانية من الزمان، وتشعر بالمسموعات وتجيب عليها في سدس ثانية. وبالمرئيات وتجيب عليها في

خمس ثانية. فبالامتحان ظهر أن الملموسات أسرع حركة من المسموعات، وهذه أسرع من المرئيات. ولقد حار الناس فلم يعرفوا كم من الزمن يمر حتى تصدر القوة الحاكمة حكمها. وقد عرف هذا أحد العلماء بآلات دقيقة جداً، فقال: إن حركة الفكر تستغرق في الإحساس والحكم ثم الإجابة خمساً وسبعين جزءاً من ١٠٠٠ جزء من الثانية الواحدة وتستغرق الإرادة في إصدار حكمها ٤٠ جزءاً من ذلك، ولقد جربوا ذلك في رجل كهل، والشاب أسرع في ذلك من الكهول.

إذن في الإنسان قوة حاكمة، وأوامر تلقى، وأعضاء تأتمر، وهذه الأعضاء كثيرة جداً كأنها دولة أو كأنها مملكة النحل أو مملكة النمل أو مملكة الجراد أو الأرضة. فهناك تشابه وتماثل بين أعضائنا مع نفوسنا وبين ممالك النحل والنمل والشمس مع سياراتها وتوابع سياراتها. أفليس هناك اتصال ما بين الشمس وما حولها من السيارات والنيازك وذوات الأذناب كالاتصال المتقدم بين النفس وأعضائها وبين ملكة النحل مثلاً وأفراد مملكتها، إذ هناك صلة وثيقة بين الملكة والأفراد لا علم لنا بها. ولنا الحق أن نتصور الصلة بين الشمس وسياراتها الخ كالصلة التي بين نفوسنا وأعضائنا، ويكون عالم الأثير قائماً مقام أعصابنا. ذلك العالم الذي يقرب من العالم الخيالي أو الروحي الذي قد ثبت أنه وإن يكن غير مادي فيه ثقل لا يحسب بجانبه الحديد ولا الذهب شيئاً مذكوراً فهو أمتن من كل مادة، ولولا هذا لم يتحمل قوة الجاذبية التي تقوم به بين الكواكب.

تبين بهذا أن ما في السماوات وما في الأرض من الممالك على وتيرة واحدة. فإذا رأينا ممالك الحشرات لها نظام سياسي عجيب: ملكة آمرة ورعية مطيعة. وإذا رأينا أعضاءنا هكذا مع نفوسنا؛ وإذا رأينا السيارات وما معها هكذا مع الشمس؛ فلنفهم إذن الآية هنا، فإن اختصاص الملك بالله المفهوم من تقدم الخبر يعرفه العقلاء بالبحث. فإنك ترى الخبير بفن الشعر أو الموسيقى أو النقش أو التصوير أو علم النبات أو صناعة النجارة أو الحدادة إذا رأى نموذجاً منها عرف أن هذه من صنع فلان.

فترى من يسمع شعر شاعر أو نثر ناثر وهو من علماء أدب اللغة يحكم حالاً حكماً لا شك فيه أن هذا من شعر العصر الأول أو الخامس وهو من قول فلان، كما أخبرني مرة الأستاذ «ادوارد براول» العالم الإنجليزي المستشرق المدرس في كلية «كمبردج» إذ قال: لما أرسلت الحكومة الإنجليزية ثياب رؤساء العشائر المقتولين أيام حرب السودان وكانوا نحو ثمانين أسيراً أخذت أقرأ خطوطهم ونماذج إنشائهم فوجدت منهم من نزحوا إلى السودان في العصر الأموي ومنهم من نزحوا في العصر العباسي، واستدللت على ذلك بمشابهة الخطوط والإنشاء للإنشاء.

هذا ما قاله، وهكذا كل أصحاب صناعة يدركون لأول وهلة متى رأوا أي نموذج في أي عصر هو ولأي أمة وهكذا، إن من ينظر إلى نظام الدجاجة وأفراخها والمرأة وأولادها والحكومة وأفراد شعبها وملكة النحل ونظام أفرادها والشمس وما حولها يجزم بأن الصانع لم يتغير، لأن الطراز واحد لم يتغير وأسلوب الصنعة هو هو بعينه، وإلا فبالله أي فرق بين هذه الممالك كلها. فبهذا يعرف الحكماء اختصاص ما في السماوات والأرض به، وإذا عرفوا ذلك الاختصاص بهذا البرهان العقلي العملي انشرحت نفوسهم وفرحوا بالصانع بعد فهم صنعته واشتاقوا إليه وأحبوه، إذ لا حب إلا بعد المعرفة كما أن أهل أمريكا وأوروبا منذ يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى الآن يفدون زرافات ووحداناً على

بلادنا المصرية، إذ عرفوا قيمة الحكمة التي كشفت في المصنوعات الأثرية، فهؤلاء يفارقون الأهل والوطن ويصرفون المال ويتجشمون المشاق غراماً بالجمال ولا جمال إلا تبع الحكمة، أي: النظام المتقن في الصنعة. إذن هذا النوع الإنساني متى عرف الجمال والنظام والحكمة سارع ليرى ذلك، ويشاهد ذلك الحكيم كما يشاهد أولئك الزائرون تلك الصناعات ويشاهدون من عملت في زمانه وهو الملك «توت عنخ أمون» ويكتفون بمشاهدة جثته الهامدة وإن لم يروه هو، لأنه هو وعلماءه وصناعه ليسوا هذه الأجسام بل هم أرواح كانت في هذه الأجسام، فهؤلاء العلماء اكتفوا بما أمكن لهم وهو مشاهدة الجسم وإن خرجت الروح، فهذا مثال ضربه الله مثلاً للناس في الأرض فهو يقول: يا أهل الشرق ويا أهل الغرب إن نظامي جميل في الأرض وفي السماء، ومتى فهمتموه فهماً يؤدي إلى شوقكم لي كما اشتاق علماء الأمم عندكم إلى مشاهدة آثاركم والذين عملت في زمانهم، فإن ذلك يحملكم على حب والشوق إلى مشاهدتي، فالمعرفة تبعث الشوق والشوق يبعث على السعي للمشاهدة، وهناك لا تكرهون الموت في حينه. وهذا هو معنى الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

أقول: وليس معنى هذا أن السبيل لحب لقاء الله وعدم كراهة الموت محصور فيما قلناه. كلا. بل هذه إحدى السبل التي نحن بصددها، وهذا الحب الذي كانت المعرفة بسببه هو الحامل للحامد على حمده، فإن متقن الصنعة محبوب والحب يوجب انقياد الأعضاء للعمل وانطلاق اللسان بالثناء. هذا هو السر في قوله بعد ذلك: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [سبأ: ١]، وإنما خص الحمد لله بالآخرة لأن النفس تكون مجردة عن الجسم فيكون إدراكها أتم لتعقل الحقائق فتزيد حباً. أما في الدنيا فهي تحمد الخالق والمخلوق وتشاهد أعمال الناس وتمدحهم. ولما كان ذلك كله راجعاً للحكمة ختم الآية بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١]، فالحكمة بها النظام وبالنظام والإتقان كان الحب، وبالحب انطلق اللسان بالحمد. هذا هو تفسير الآية بالعلوم المعروفة اليوم.

فلما اطلع بعض العلماء على ذلك وهو من قراء هذا التفسير قال لي: لقد أحسنت في شرح نظام هذه الكائنات العلوية والسفلية وفي ترتيب الحمد على معرفتها، ثم تبيان أن الحكمة هي الأصل الذي بني عليه هذا النظام، ولكن العقل لا يكاد يفقه المناسبة بين مملكة النحل مثلاً والمجموعة الشمسية فهي عظيمة المقدار جداً، حتى إن الشهب وذوات الأذناب الجاذبات حولها لا تكاد تحصى.

يقول علماء العصر الحاضر: إنها كعدد السمك في الماء. ثم إن المجرة التي منها مجموعتنا الشمسية قد علم أن فيها ٢٢٤ ألف ألف نجم، وكل نجمة منها شمس كشمسنا ولها مجموعة شمسية أكبر أو أقل من مجموعتنا الشمسية. فهذه كلها تكون مجرة واحدة وشمسنا منها، وفوق ذلك المجرة لها أخوات كثيرات كلهن مجرات مثلها فيهن شموس تعد بمئات الملايين، وفوق ذلك أيضاً قد كشف الناس اليوم مجرات أخرى تسمى بالسدم جمع سديم ووجدوها أنواعاً: فمنها السدم اللولبية، ومنها السدم الحلقية، ومنها السدم المستديرة، ومنها التي هي غير منتظمة. وإذا كانت هذه السدم مجرات كمجراتنا المحتوية على شموس تعد بمئات الملايين كشمسنا التي لها مجموعة لا حصر لعددها؛ وإذا كان الذي عرف الآن من السدم اللولبية وحدها بالمنظار المعظم ١٢٠ ألف؛ وأوصلها الأستاذ «بيرن»

إلى خمسمائة ألف، ومن رأيه أنه قد يرى منها أكثر من مليـون سـديم إذا زادت آلات التصوير إتقاناً، فإذا كان هذا المقدار في السدم اللولبية وقدرنا السدم الأخرى بهذا المقدار كانت مجاميع المجرات اللولبية أربعة ملايين مجرة غير المجرات المعروفة، وكل مجرة من تلك المجرات لها أبعاد ولا يكاد يصدقها العقل، مثلاً مجراتنا التي منها شمسنا تمتد إلى نحو مائتي ألف سنة نورية من جهة، ومن جهة أخرى أقل من ذلك، فكيف بباقي المجرات وكيف عظمت سعتها، فهل بعد ذلك تقاس هذه بمملكة النحل أو بجسم الإنسان؟.

فقلت له: إن ما هنالك من هذه العوالم السماوية يرجع كله إلى ما يشبه جسم الإنسان. فالمجموعات الشمسية التي تعد بآلاف الآلاف في كل مجرة من المجرات التي تعد بآلاف الآلاف أيضاً أشبه بجسم إنسان واحد أو بمملكة من ممالك النحل، وكل كوكب سيار في مجموعة شمسية أشبه بعضو من أعضاء الإنسان، وسكان الكواكب أشبه بما في جسم الإنسان من الحويصلات الحية التي كل حويصلة منها لها حياة مستقلة، ومن لطف الله أنه جعل النظام واحداً متشابهاً لتسهل دراسته، ومتى درس الإنسان جسمه فكأنه درس العوالم كلها وعرف نفسه، ومتى عرف نفسه عرف ربه فاشتاق إليه. ومن عاش في الدنيا وهو غافل لم يعشق الحكيم المدبر للعوالم ومات فإنه يسكن في عوالم على مقدار درجته، ولا يلاقي ربه إلا من أحبه ولم يحبه إلا الدارس لصنعه وغيرهم يتسكعون في عوالم لا تؤهل للقائه إلا قليلاً على مقدار ما اكتسبوه من الحب.

إن الحياة لا سعادة فيها إلا بالحب، ولا حب إلا بالعلم، ولا علم إلا بالبحث في نظام الأرض والسماوات المدبرات بتدبير الحكيم الخبير. انتهت الجوهرة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

جمال هذا الموضوع

كتب قبيل فجر يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠

يا الله. ما أجمل ما صنعت! وما أبدع ما أتقنت! بهرتنا بجلائل أعمالك. وسحرت عقولنا في دقائق وضعك. وغشيت على هذا الجمال بحجاب من حوادث الأيام ودخان الآلام والمصائب. ولولا ما نصاب به من فواجع الأيام رحمة منك وفضلاً لتفطرت قلوبنا وتمزقت أجسامنا واحترقت بإشراق أنوارك الجميلة. هذه هي الشمس وهذه سياراتها.

فهذا عطارد الجاثم حول الشمس تجذبه إليها وتعطف عليه حتى لا يتبدد في أطراف هذا الجو الواسع ولا يتيه في فسيحات المجاهل. هاهو ذا يجري حولها جرياً حثيثاً فلا يختل نظامه. جرياً متواصلاً جذبته إليها جذباً رفيقاً بحيث لا يلتصق بها، لئلا يهلك سكانه من شدة حرها ولا يظلم وجهه من شدة بعد ضوئها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، بحيث كانت سنته مقدرة بمدة ٨٧, ٩٦٩ يوماً.

فهذه الأيام وأجزاؤها هي المقدرات بمدة الدورة الكاملة حول الشمس منذ خلقت السماوات العلا إلى الآن وإلى الأبد. وهذه الزهرة سنتها الكاملة ٢٢٤, ٧٠١ يوماً، والأرض سنتها الكاملة ٣٦٥, ٢٥٦ يوماً، والمريخ ٦٨٦, ٩٨٠، والمشتري ٤٣٣٢, ٥٨٥، وزحل ١٠٧٥٩، وأورانوس ٣٠٦٨٦, ٨٢١، ونبتون ٦٠١٢٦, ٧٢٠.

هذه هي المدد التي تسير فيها هذه السيارات حول الشمس وهي لها جاذبة، إنهن لمطيعات صادقات في مواعيدهن، وإن أمهن الشمس لحبها لهن المفرط ورأفتها تجذبهن جذباً لطيفاً لئلا يتفرقن ويتبددن في باحات الفراغ الواسع كما تفعل البطة والنملة بأبنائهما ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، والله إن رأفتك يا الله بهذه المخلوقات وحكمتك لا حد لهما. فهذا حساب سير السيارات لو اختل ثانية واحدة لأضر ضرراً بليغاً فهذه الأرض الجارية حول الشمس لو أنها اختل نظام سيرها وقد علق عليه جري قطراتنا براً وسفننا بحراً لأورث ذلك خللاً في أعمالنا، فجرى القطر في غير حينه، وفتحت الميناء بحراً في غير وقتها فتحطمت السفن بحراً وهشمت وطاحت العربات والركاب براً ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: ٥٤].

ويعجبني يا حكيم يا رحيم يا بديع دقة صنعك، وبهجة الجمال، وعجائب الإتقان، وبدائع التصوير في النملة والأرضة المرسومتين هنا وفي جسم الإنسان، فهاهو ذا النخاع الشوكي هو ومنبعه الرئيسي وهو المخ في الدماغ قد جعلتها أساً لهذا الجسم الحي، بحيث تكون الأعضاء المفصلة حولهما العاملات بما يصل لهما من أوامرهما جاثمات حولهما جثوم الأرضات والنحلات والنملات والسيارات حول ملكات الأرضات والنحلات والنملات والشمس. إنّما مثل السيارات مع شمسها كمثل الأعضاء مع الجسم في الحيوان والإنسان، ومثل النحل والنمل ونحوها مع ملكاتها، ألا وإن عنايتك بالضعفاء يا الله لقوية متينة، إذ كيف تخلق للنملة في العين الواحدة من عينيها المركبتين الموضوعتين في مقدم الرأس ٢٠٠ عين كما تقدم في «رسالة عين النملة» في سورة «النمل»، وتخلق للذبابة الواحدة ٤٠٠٠ عين بسيطة في عينيها المركبتين؟.

إن حكمتك ورحمتك لا نهاية لهما فيكون حبنا لك لا نهاية له، ولكن رحمتك الواسعة وإتقانك البديع وحبك لخلقك قد عمت الوجود كله ومنها نوع الإنسان، فسترت عن عقله هذا الجمال بأنواع المصائب والحوادث والأمراض والموت والحياة والفقر والغنى والعز والذل فغشي على عقله فلم يدرك، فأخذ يتلمسه من المعلمين ومن الكتب كما نفعل الآن في هذا التفسير، ولو أن هذه الرحمات ظهرت للناس فوعتها عقولهم لتمزقت الأحشاء من إدراك ذلك الجمال فتقطعت القلوب، ولكن الرحمة عامة والحكمة شاملة باهرة وأكثر الناس لا يعلمون، ومن الغرابة بمكان ما نراه من الإتقان في جماعات الحيوان المجتمعات اللاتي تكون أمة واحدة، وجماعات الكواكب اللواتي تكون في مجموعة واحدة، فإن النحل إذا اجتمعت في بيت واحد وحملت الملكة من ذكر من غير مملكتها ألفينا النحل الذي في مملكتها قام قومة واحدة وانقض على ذكران تلك المملكة فأهلكها لأنها لا عمل لها، فلا هي تجمع العسل ولا هي تفيد في أن تكون سبباً في حمل الملكة، هكذا نرى جموع الأرضة الآتي الكلام عليها في هذه السورة والمتقدم بعضه في سورة «النحل» أيضاً، فإن المملكة لها جنود يحمونها، وهؤلاء الجنود لهم عدد مخصوص، فإذا زاد المقدار رأينا الجماعات اللاتي تقدم لجميع المملكة الطعام تمتنع عن تقديم الطعام لما زاد عن العدد المحدد حتى يموت. هذا في عالم الأرض. أما في عالم السماء فإننا نرى نفس الإتقان في تقابل الأرض والشمس والقمر. ذلك أننا نرى القمر الذي يدور ٢٧ يوماً و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية ونصف ثانية، وذلك في دورته النجمية أي التي تمضي بين رجوعين

متتالين للقمر إلى نجمة واحدة، بحيث إننا إذا لاحظناه يوماً وقت الغروب في دقيقة معينة موجوداً بجانب نجمة خاصة من النجوم الثوابت فإننا بعد مضي ٢٨ يوماً و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية ونصف ثانية نراه موجوداً في ذلك المكان عينه بجانب تلك النجمة. فهذا القمر المنتظم السير البديع الصنع والنظام إذا قابل الأرض والشمس فيما يظهر للرائي في نقطة واحدة فإنه يحصل هناك خسوف تارة وكسوف تارة أخرى، فإن كان القمر بين الأرض والشمس حصل كسوف، وإن كانت الأرض بين القمر والشمس حصل خسوف، والمهم في هذا المقام أن تقول: إن الخسوف والكسوف في مدة ١٨ سنة و١١ يوماً يكون مجموع مرات الكسوف ٤١، ومجموع مرات الخسوف ٢٩، والمجموع ٧٠ ما بين كسوف وخسوف، وهذه المدد لن تغير ولم تتغير، فهذا هو الإبداع في الحساب، فحساب الحشرات على وجه الأرض لن يعطله حساب الكواكب في السماء، فلم تعطل يا الله أعمال النحل أي إنك لا تمنع إلهامك لها أن تقتل الذكور لأنها لا عمل لها متى حملت الملكة ولا أعمال الأرضة، فلم تمنع إلهامك لحاملات الطعام منها أن تقتل ما زاد من الجنود بحرمان الزائدات طعامهن، فإلهامك للطائفتين ولغيرهما مستمر منظم كنظام الخسوف والكسوف في العوالم العلوية بحيث لا تختل أوقات الخسوف بوقوع الأرض بين القمر والشمس، ولا أوقات الكسوف بوقوع القمر بين الأرض والشمس بل النظام هناك لا يختل، والنظام في أصغر الحيوان لا يزول، فأنت تحسب الدورات الفلكية بالثانية ونصف الثانية ولا تغيره، وهكذا تفعل في الحشرات فتحسب لها حسابها وتلهمها.

هذا هو الذي نفهم به معنى قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١-٢]. فهذه هي الحكمة، وهذا هو العلم. وهذه هي الرحمة، وهذا هو الغفران، فأيّ حكمة بعد هذه الحكمة في الإتقان والخبرة في الحساب. وأي رحمة ورأفة بهذه المخلوقات أعظم من هذه! ثم إذا كان هذا الإنسان يعيش في الأرض وأكثره جاهل هذا النظام البديع وهو غافل عنه بل أكثره كافر أي غير شاكر، لأن الشكر مبدؤه العلم بالنظام، وأكثر الناس لا يعلمون هذا النظام البديع، فلولا تجاوزه عن غباوته التي هي مقتضى جبلته الأرضية الطينية لمحاه من الأرض ومنعه الوجود فيها غباوته ولكنه غفور ستر ذلك الذنب الطبيعي وعفا عنه، وأحيا الإنسان في الأرض لأنه يعلم أن له مستقبلاً في عوالم أخرى، وهناك يفهم هذا الجمال من استعد له.

تذكرة: إن هذا الإبداع نراه ولا يزول وهو محيط بنا، ونجد أنفسنا في هذه الأرض مغمورين في أنواع الحروب الدولية والمطامع الشخصية والأحقاد القلبية والأمراض الجسمية، فنكون مبعدين عن السعادة في الدنيا، ولكن متى لمحنا الجمال من خلال تلك السحب القائمة نسينا مصائبنا وأدركنا جمالاً في ضوء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم، وهناك ننسى مصائبنا الوقتية ونفرح بهذا النعيم وهو العلم والحكمة والإتقان الذي نراه دائماً لا يتغير، ونرى قلوبنا به فرحة، هنالك نسعد في نفس الحياة الدنيا ونرى أنفسنا أشبه بالمراهقين الذين لم يبلغوا السن، وقد فرحوا بأنهم قريباً سيبلغون السن القانونية والرشد وتسلم لهم أموالهم. هذا ما خطر لي في تفسير هذه الآية، والحمد لله رب العالمين.

تم الكلام على الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

اعلم أن هذه الآية لم تكن في أول هذه السورة وفي أول سورة « الحديد » إلا لحكمة، فهذا كلام الله وهو موزون كما وزن كل نبات وكل حيوان وكل كوكب، يقول الله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢]، وقد علم سبحانه ما يلج في الأرض من الآثار التي تركها الأولون، كما ستعرف شرحه في قصة سبأ وترى ما فعله علماء أوروبا في بلاد اليمن، وأنهم استخرجوا منها صوراً وعرفوا بها علوماً، فهذا بعض ما ولج في الأرض قديماً وخرج منها حديثاً، وهكذا يقول الله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾[سبأ: ١٣]، والتماثيل قد تكون من المعادن، فهذه مما يخرج من الأرض وهكذا في سورة « الحديد » ذكر الله الحديد وابتدأ السورة بما يفيد هذا المعنى، وإذا عرفت هذا السر العجيب فاسمع الآن لما في هذه الدنيا من العجائب المناسبة هذه الآية.

تفصيل الكلام على الأرض

لأجعل الكلام في مقامين:

المقام الأول: وصف نفس الأرض.

المقام الثاني: ما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم وما أشبه ذلك.

المقام الأول: وصف الأرض

لقد جاء الحمد في أول « الفاتحة » و« الأنعام » و« الكهف » وهذه السورة، أوليس من العجب أن يكون مقروناً بالتربية للعالمين تارة، وبذكر الأنوار والظلمات تارة أخرى، وبنزول القرآن آونة، وبظهور نتائج الأرض والسماوات في حال أخرى؟.

فقال صاحبي: هذا كلام غامض. فقلت: اعلم أن الحمد متى ذكر في أول سور القرآن تجد ذكر العوالم بعده، فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الآية: ٢] في « الفاتحة » ابتدئ بذكر الله في البسملة وأنه موصوف بالرحمة، وأن الرحمة تستوجب الثناء بالجميل وأنه مربّ للعالم كله، فهاهنا ذكر مبدأ الوجود وصفته وتربيته وكل ما رباه، وفي « الأنعام » ذكر الثلاثة الأول وأبان كيفية التربية بجعل الظلمات والنور، وبعبارة أخرى دوران الأفلاك؛ فدوران الأفلاك سبب في التربية المذكورة في أول « الفاتحة »، فهاهنا إيضاح للتربية، وفي « الكهف » نجد الحمد على العلم الذي رمز له بالقرآن.

إذن هنا نور ظاهر لتربية الأجسام ونور باطن لتربية العقول، الأول في « الأنعام » والثاني في « الكهف »، فلم يبق إلا نتائج تلك التربية الجسمية والعقلية للعوالم، وهذا هو قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[سبأ: ٢]، ولا شك أن ما يلج في الأرض وما يخرج منها لا تختص بالأجسام ولا بالعقول بل هو عام. فنور الكواكب ونور العلم يصلان للأجسام كما في سورة « الأنعام »، وللعقول كما في سورة « الكهف ». ومن الأرض يخرج الزرع ونحوه وهو جسمي، وترفع الأعمال وهي عقلية.

وملخص هذا كله أن هذه السور الأربعة جاء فيها مرتباً ترتيباً جعلنا نعتقد أنه يفتح لنا باباً لدراسة تواريخ العلوم.

فإذا رأينا الله أول ما يبدأ يذكر لنا أوائل الموجودات ثم توابعها وهو مرتب لها. فلنقل: هـذا هـو آخر طرز في نظام التعليم، وهو أن العلم الذي يدرس كالفقه والنحو والأصول والتفسير ولا يدرس الناس تاريخه إجمالاً، ولا يعرفون سلسلة التأليف في ذلك العلم يكون طلابه فاقدي القرائح كاسدي الأفهام. ألا ترى أن الفلسفة اليونانية المنتشرة في بلاد الإسلام قديماً قد أحدثت آراء وشبهاً وبدعاً وكل ذلك للجهل بتاريخها، فلقد ذكرت لك فيما مضى أن الأوروبيين لما ترجموا فلسفة اليونان رأوا طيماوس يحكم وسقراط يجزم بأن العالم حادث كما هو الرأي الحديث في أوروبا، مع أن من قرأ الفلسفة القديمة المنقولة عن اليونان لا يجد فيها غير القدم مذهباً، وهذا من الجهل بتاريخ الفلسفة ومن عدم الاطلاع على جميع آراء الفلاسفة هناك. وقد قام كتاب «كشف الظنون» للكاتب القدير «ملا جلبي» بما ينفع في هذا الصدد.

إذا صح هذا أفلا يجب عليّ أن أقدم للأذكياء صورة الأرض وما قاله العلماء فيها حتى لا تكون آراؤهم جامدة جمود من قرؤوا العلوم ولم يدرسوا تاريخها.

لقد أطلعني أحد الفضلاء على موضوع بديع في وصف الأرض والأقوال التي قيلت في هيئتها منذ القدم أدرج في «مجلة الجديد»، فأحببت أن أذكره هنا ليكون ذلك تاريخاً لمعرفة هيئة الأرض ولنقف على ما يقوله الناس فيها، فلطالما خطر لي خواطر فكنت أقول: يا ليت شعري، ما فائدة باطن الأرض إذا لم تكن فيه نفوس حية؟ فوجدت هذه الهواجس والخواطر والظنون هجست لقوم في أمريكا كما ستراه وهذا هو الموضوع:

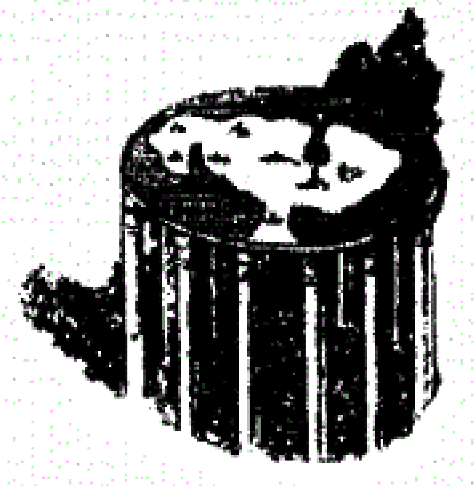
في زوايا التاريخ
ليست الأرض كروية

كان أول تصور للإنسان في شكل الأرض أنها بساط عظيم هائل لا نهاية لعمقه، يعتمد عليه قبو السماء كالسقف المرفوع، ولما تقدم في الملاحة وقطع البخار الواسعة أخذ يتصور أن الأرض سابحة في أوقيانوس من الماء لا نهاية له، كما في (شكل ٥)، وكان ذلك خطوة لتصور أن الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة كما في (شكل ٦).

(شكل ٥)



(شكل ٦)



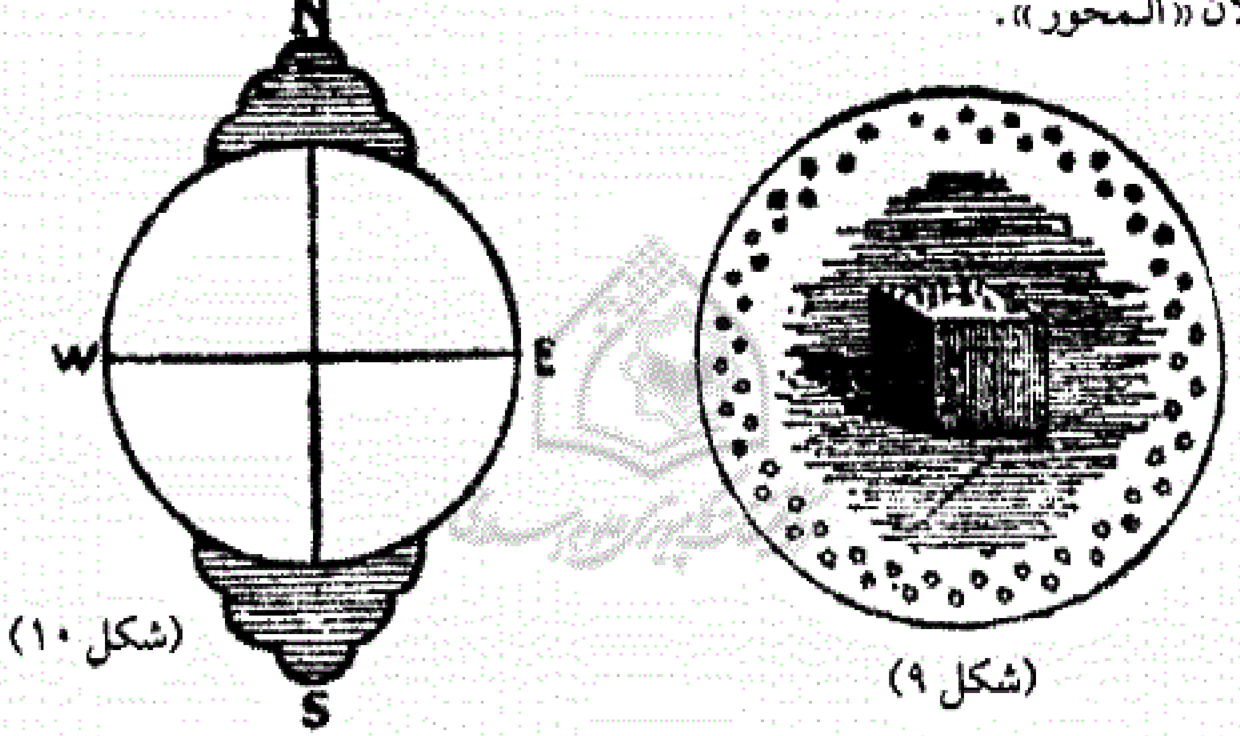
(شكل ٧)

وساد كذلك اعتقاد قديم بأن الأرض بساط مستدير يقوم على اثني عشر عموداً كما في (شكل ٧)، ولكن على أي شيء تقوم هذه العمد؟ فيجيب قساوسة أوروبا في القرون الوسطى بأنها تقوم على الضحايا البريئة من أهل الفضيلة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكت الأرض وذهبت هباء في الفضاء.


(شكل ٨)

وقد كان «أناكسيماندر» الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد يرى أن الأرض كالأسطوانة كما في (شكل ٨)، وإن قطرها يساوي ثلاثة أمثال ارتفاعها، وأنها سابحة في مركز القبو السماوي. وأنه لم يسكن منها إلا وجهها الأعلى. وتوجد أوروبا في النصف الشمالي وليبيا أو أفريقيا وآسيا في النصف الجنوبي.

ثم جاء من بعده بقليل الفيلسوف أفلاطون وقال: إن الأرض مكعبة. انظر شكل ٩، لأنه كان يعتقد أن المكعب أكمل الأشكال الهندسية، فيجب أن يكون موطناً لأفضل الكائنات وهو الإنسان. وأنه قبل أن يقول علماء الغرب بكروية الأرض سبقهم إلى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيلوا أن الأرض كروية وتنتهي شمالاً وجنوباً بجبال عظيمة الارتفاع كما في شكل ١٠، ونرى كذلك في هذا الشكل إدراكهم لعمود عظيم تعتمد عليه الأرض وهو الذي تطور فيما بعد إلى ما يسمى الآن «المحور».

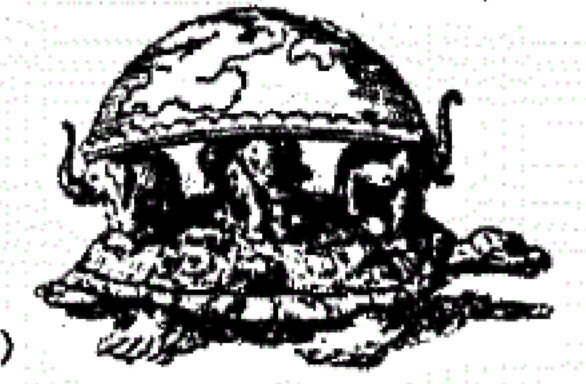


(شكل ١٠) (شكل ٩)

وذهبوا إلى أن جبال النصف الشمالي تخرج من أوقيانوس عظيم وترتفع حتى تبلغ مقر الآلهة في السماء، بينما تتدلى جبال النصف الجنوبي حتى تبلغ الجحيم ومقر الشياطين. ونجد مثل هذه النظرية في علم الفلك في الهند مع اختلاف في المسميات، حيث يذكر أن جبل العالم يرتفع في القطب الشمالي للأرض ليصل ما بينها وبين السماء، وهو مثل محور تدور حوله الأجرام السماوية. انظر شكل ١١.

ووجدت أيضاً نظرية في بلاد الهند والكلدان تقول: إن الأرض مثل محارة كبيرة مستديرة. انظر شكل ١٢. تقوم على أربعة أفيال، ويرمزون لذلك بالعناصر الأربعة أو الرياح. وتقوم الفيلة على ظهر سلحفاة كبيرة. ويرمزون بها للقوة والبقاء والصبر والجلد والخلود.

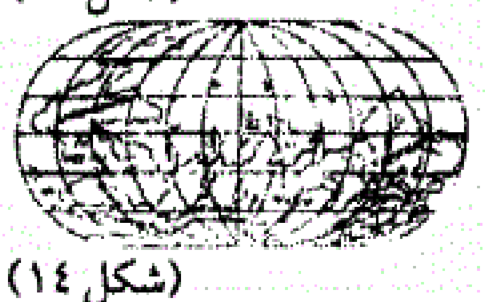

(شكل ١١)


(شكل ١٢)


(شكل ١٣)

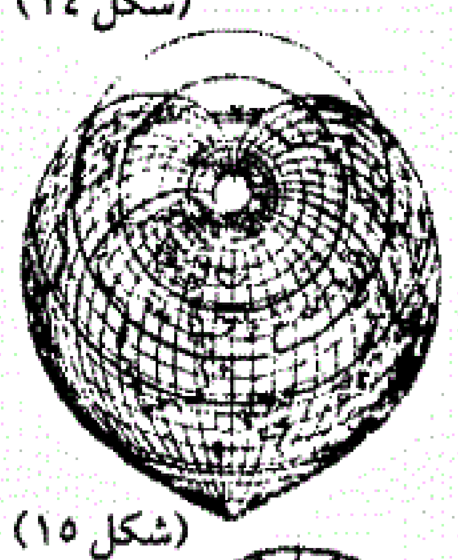
وانتقل إلى الغرب منذ ١٥٠٠ سنة نظرية تقول: إن الأرض بيضاوية وأنها سابحة في الأثير. انظر شكل ١٣.

وقال الإدريسي وهو أحد الجغرافيين من العرب في القرن الحادي عشر للميلاد: إن نصف هذه الأرض البيضاوية مغمور في الماء. وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول، وكان «بطليموس» في القرن الثاني للميلاد وهو من أشهر الفلكيين يرى أن الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كحبة القوطة. انظر شكل ١٤.


(شكل ١٤)

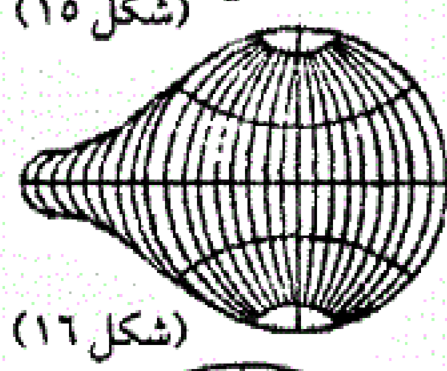
وجاء «أبيانوس» في سنة ١٥٢٠ ميلادية فقال: إنها تشبه القلب. انظر شكل ١٥.

وصادفت نظريته ميلاً في قلوب قساوسة الدين في أوروبا، فأيدوه قائلين: إنها قلب الله. وإن هذه الكرة القلبية تشبه أرض المكتشف العظيم «كولمبوس» حيث تصورها مثل الكمثرى، فالنصف الكروي هو الشرقي والنصف المستطيل هو الغربي، والتمدد الذي أوجده فيه هو «العلم الجديد» الذي اكتشفه.

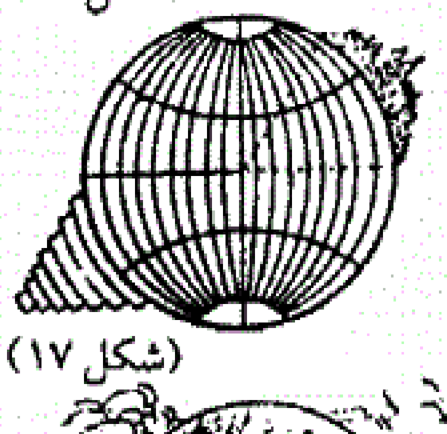

(شكل ١٥)

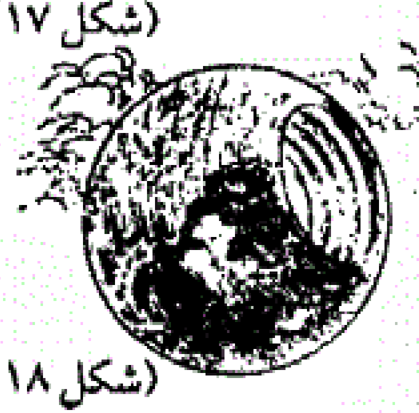
وأما «دانت» فقد تصورها قبل ذلك بقرن في مثل هذا الشكل جاعلاً هذا التمدد لحجمه الذي صوره فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة. انظر شكل ١٦.

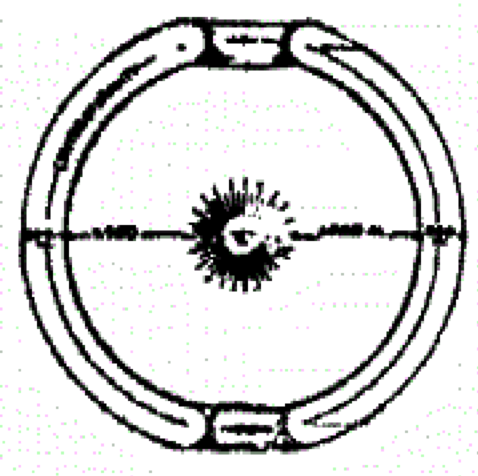
بينما جعل «أورشليم» أو «ريون» في الجهة المقابلة ليحفظ التوازن.


(شكل ١٦)

وظهر في سنة ١٨١٩ في «سنت لويز» بالولايات المتحدة القبطان «جون كليفز سيمس» بنظرية عجيبة تعرف باسمه أو بنظرية الكرات المتداخلة، وهي أن الأرض أو أي كوكب يتكون من عدة من الكرات المتلابسة والمشتركة في مركز واحد كما في شكل ١٧، وشكل ١٨. وبين كل كرة والتي تليها فاصل مملوء بالهواء، وعند القطبين فتحة كبيرة في جميع هذه الكرات. ويرى أن الأرض تتركب من خمس طبقات أو كرات متداخلة، وأن فيها فتحتين كبيرتين عند القطبين يبلغ قطر الشمالية أربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة آلاف ميل. وأن سطحي كل كرة أو طبقة مسكونان، فتوجد سكان في الأرض على السطوح المحدودبة والسطوح المقعرة. وطلب إلى المجلس النيابي بالولايات المتحدة أن يجهزه بسفينتين ليسافر إلى أحد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هنالك ليدخل إلى سكان السطح المقعر الذي نعيش فوقه.


(شكل ١٧)


(شكل ١٨)


(شكل ١٩)


(شكل ٢٠)

وطبع المارشال « جاردنر » في سنة ١٩١٣م في الولايات المتحدة كتاباً عنوانه « سياحة إلى داخل الأرض » ، ذهب فيه إلى أن الأرض مجوفة ويبلغ سمك طبقتها التي نعيش عليها ثمانمائة ميل ، وأنها مفتوحة عند القطبين . ويوجد في داخلها شمس ، انظر شكل ١٩ ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفاً وأربعمائة ميل .

وقال « موريه » في كتابه « علم الفلك اليوم » : إن الأرض على شكل هرم . انظر شكل ٢٠ ، وهو يرى أن نظريته تبين اختلاف أنصاف أقطارها وتحل كثيراً من النقط المعضلة في هذا الصدد التي لا يمكن أن تفسرها أية نظرية أخرى .

وهذه النظرية التي نشرها « تيوفيل موريه » العالم الطبيعي الفرنسي إن هي إلا شرح وتأييد لنظرية « لوثيان درين » العالم الإنكليزي التي كانت مثاراً لجدال كبير في سنة ١٩٧٥م ، وهو يذهب إلى أن الأرض هرمية الشكل وأن البحار تشغل بطوناً في سطوحه الأربعة ، بينما أركان هذا الهرم عبارة عن القارات الخمس ، وقد بعث « موريه » هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها في ذاك العهد ليحللها العلماء من جديد في نور ما استكشف من العلم الحديث . والجدال قائم الآن في كل مكان على قدم وساق . ويقال : إنها أحسن نظرية في بيان حقيقة شكل الأرض . وأن ما لا شك فيه أن نظريات كروية الأرض لا يؤيدها أحد اليوم من علماء الجيولوجيا والفلك . انتهى المقام الأول في وصف الأرض .

المقام الثاني

فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم

اعلم أن علماء الاقتصاد استقصوا مباحث المعادن وتربة الأرض ، فلأذكر خلاصة ما يقولون في هذا المقام إيقاظاً للمسلمين وتعليماً للجاهلين .

اللهم إنا نحمدك حمداً يوافي نعمك ، أنت الذي علمت وألهمت ، وأنت الذي جعلت الأمم كلها يخدم بعضها بعضاً ، وكل يساعد كلًّا وإن كانوا لا يقصدون ، فهانحن أولاء ننتفع بعلم الأمم ، فالعالم كله مرتبط بعضه ببعض بطريق الجاذبية التي بين الكواكب والسيارات ، وهكذا الناس مرتبطون بالمصالح والعلوم شاؤوا أم أبوا ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾[فصلت : ١١] ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[الرعد : ١٥] .

التربة

إن التربة قد تكون سوداء وهي التي جلبها « الغرين » أي ما يسمى في مصر بالطمي ، وقد تكون نباتية ، وقد تكون بركانية كأراضي الدلتا . فالسودان هي التي تجلبها الأنهار كنهر النيل بمصر ، وهذه لا تحتاج إلى سقي كثير ، والرملية تحتاج إلى سقي كثير ، ويزرع في الأولى أمثال الأرز والقصب وفي الثانية الشعير والفول السوداني والبطيخ .

ومن أحسن الأراضي السوداء الهندية في مقاطعة بنجاب فقد زرعت آلاف السنين بغير سماد .
وأما التربة الثانية فهي التي امتزجت تربتها بما تحلل من النباتات قديماً فصار ذلك غذاء للمزارع التي تزرع فيها .

قالوا : ومن أحسن أنواع التربة الخصبة في العالم التربة البركانية ، وتقع عادة في جوار البراكين الحية أو الخامدة وتتكون من بعض المصهورات أو الرماد الذي ينبعث من جوف البركان فتحمله الريح وتنشره على مسافات واسعة حول البركان فيكسبها الخصوبة الكثيرة . ومن أمثلة ذلك الأراضي البركانية القديمة الواسعة في مقاطعات الولايات المتحدة و« شنجتون » و« أريغون » . انتهى .

أقول : فإذا كان أحسن أنواع التربة هي التربة البركانية . فهنا ظهر بعض معنى قول الله تعالى هنا : ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ : ٢] ، فهو الذي قدر الزلازل والبراكين ليستخرج لأهل الأرض تربة أصلح وأنفع من التربة التي يعيشون بها . إذن المصائب التي يأتي بها البركان والزلزال أقل جداً من المنافع . هذا معنى قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾[سبأ : ٢] الخ . وقد آن أن أبين لك الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة من كتاب « الجغرافيا الرشيدة » لمحمد حمدي بك ، فقد جاء فيه ما يأتي :

الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة

الاهتزازات في القشرة الأرضية كثيرة حتى يكاد منها نحو ٣٠٠٠٠ هزة في السنة ، ولكن هذه الاهتزازات التافهة لا يلتفت إليها ، ولا يكاد يدونها السيسموغراف الذي يقضي الشهور الطويلة أبيض الصحيفة لا يحيد فيها عن الخط المستقيم ، ثم تأتي المفاجأة الهائلة فيهيج القلم ويرتجف على الورقة ارتجاف الطائر الحائر حتى ينقضي المقدور وينتهي المسطور . ويظهر أنه على قدر مدة السكون تكون شدة الزلزال المقبل ، إذ أن أشد الزلازل خطورة كانت تعقب أطول الفترات سكوناً .

التغيرات المترتبة على الزلازل العنيفة

إن حركات القشرة الأرضية الهادئة المستمرة أبعد مدى في تغيير معالم وجه الأرض من التغييرات الفجائية التي تحدثها الزلازل ، وأهم ما ينشأ عن الزلازل ارتفاع أراض كانت واطئة فجأة ، وانخفاض أراض أخرى وتغير مجاري المياه تبعاً لذلك ، وتحطيم القشرة الأرضية وتمزيقها بالشقوق والفتوق الطويلة العريضة في أقرب وقت .

غير أن الزلازل وإن كانت بمفاجآتها وأهوالها تلفت النظر إليها وإلى آثارها هي من الحوادث الصغيرة في تاريخ القشرة الأرضية ، وليست شيئاً بجانب بنيان الجبال وتغيير صورة وجه الأرض شيئاً بهدوء واستمرار . وسرعان ما تتسلط عوامل التعرية على ما تخلفه الزلازل من الآثار فتمحوها وتصيرها كأنها لم تكن .

نشأة البركان

قد علمت أن جوف الأرض مكون من مواد شديدة الحرارة جداً درجة بيوستها محفوظة بضغط القشرة الأرضية عليها . وفي أثناء تقلص الأرض والتواء قشرتها يحدث أحياناً أن يخفّ الضغط فجأة على تلك المواد فتنصهر لوقتها وتتحول ، ويهيئ وجود فتق أو شق بعيد الغور فرصة لخروج المواد المنصهرة الجائشة ، فينشأ عن ذلك البركان . وهو جبل مخروطي الشكل ، في قلبه قصبة مجوفة ، على

رأسها فوهة وعائية الشكل تخرج منها الأبخرة والصخور والمنصهرات . ويشيد البركان من الأنقاض التي تخرج من فوهته سواء أسالت على جوانبه أو تساقطت من الجو بعد الارتفاع مخروطاً بركانياً .

الحمم البركانية

تسمى الصخور المنصهرة التي تخرج من فوهة البركان حمماً . وقد تبرد أحياناً فتكون سداداً يسد القصبة فتخرج الحمم من الشقوق النافذة إلى أحد جوانب البركان وتعمل لها فوهة صغيرة يشيد حولها مخروط صغير على جانب المخروط البركاني . وتسيل الحمم على جانب البركان في كل ناحية فتشيد فيه وتزيد في بنيانه . وعندما تبرد الحمم تتشقق كما تتشقق الأرض الشراقي فتكون منها أشكال منتظمة كما ترى في أعمدة البازلت . ويحدث أن يتحات المخروط البركاني تاركاً سداد القصبة وحشو الفوهة فتبقى صخرة منعزلة .

الثوران البركاني

يخرج من فوهة البركان سحب من بخار الماء المتولد من المياه التي تتسرب إلى جوف الأرض وتختلط بالصخور المنصهرة ، فيطرد البخار الصخور المتخلفة في قصبة البركان بعد أن يمزقها كل ممزق ، ثم تخرج سحائب من التراب البركاني الذي يجعل الجو مظلماً وينتشر في الآفاق إلى مسافات هائلة ، وتخرج من بعده الحمم والمواد المنصهرة ، فتسيل على الجوانب . ولذلك تجد المخروط البركاني مشيداً من طبقات من الحمم ، وأخرى من الرماد البركاني الذي تنزل به الأمطار الموحلة على البركان . وكلما تكرر ثوران البركان تكرر تكوين الطبقات وتشييد الجبل . ومن أعظم الثورات البركانية ثوران بركان كركتوا في سنة ١٨٨٣ . وجزيرة كركتوا هذه في أرخبيل الملايويين سومطرة وجاوة . تكرر فيها حدوث الزلزال ، وفي صباح ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٣ بدأ الثوران البركاني العظيم ، فسمعت أصوات فرقعة الغازات في جنوب أستراليا ، وخسف ثلثا الجزيرة فحل محل الجبال العالية بحر عمقه ألف قدم . وهاجت الأمواج الهائلة فطغت على سواحل الجزائر القريبة . وهلك ٣٦٠٠٠ نسمة وخربت نحو ٣٠٠ قرية ، وصار الجو مظلماً كالليل في الجهات المجاورة من كثرة التراب البركاني الذي كان يرتفع إلى علو ٢٠ ميلاً في الفوهة . وقد انتشر هذا التراب في أجزاء العالم فجعل للشفق منظراً شديد الاحمرار حتى في غرب أوروبا . وقد علمت أن في قرار المحيطات طينة حمراء مشتملة على بقايا الحيوانات البحرية ، فهذه الطينة مكونة في الغالب من الرماد البركاني . انتهى ما أردته في هذا المقام من كتاب « الجغرافيا الرشيدة » .

فانظر وتعجب . إن علم الله بما في السماوات والأرض لا يحتاج إلى بيان ، فكل متدين يعلم ذلك ولكن الله كرره في القرآن كثيراً في كل مناسبة ، وهو إذا علم كل شيء فهو يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها الخ ، ولكن لما قرأنا علوم أهل زماننا وجدنا أن ذلك التخصيص بالنص لحكم ظهر بعضها وسيظهر باقيها . علم الله أن المسلمين سيقرؤون القرآن وينامون عن العمل ويتركون الأرض لغيرهم ؛ فقال لهم : أيها المسلمون ، أنا أعلم ما يلج في الأرض وما يخرج من الأرض ولولا نفعه لكم ما أخرجته منها . هذه البراكين مهلكة ولكنها نعمة ، لأن وجه الأرض كلما ضعفت الزراعة فيه فلم تأت بالغرض المطلوب ؛ سلطت عوامل سرية على تربة قوية فأظهرت المكنون في باطن الأرض فظهر

على وجهها بالبركان، ثم أمرت الرياح فجرت به وفرشته وفرقته على الجهات المجاورة. إذن هذا الخروج بعلم وحكمة وتقدير. هكذا الفحم والبترول والحديد ونحوها.

الفحم

خزن الله الفحم في الأرض أجيالاً وأجيالاً. وما الفحم إلا موادّ نباتية احتجبت في طبقات الأرض عن الهواء دهوراً طويلة، فجرت عليها سلسلة من التغيرات الكيماوية أدت إلى فقد مقدار عظيم من الأيدروجين والأكسوجين وبقاء مقدار من الكربون. والكربون يكون في الخشب المعتاد بمقدار نصف ما يكون في الفحم العادي، ولقد يكون منه في الفحم بنسبة ٨٥ أو ٨٨ في المائة.

هذا كلام علماء الاقتصاد، ومعنى هذه العبارة أن الخشب يحتوي على ماء «الأكسوجين والأدروجين» المتقدم ذكره، ويحتوي على مادة فحمية وهي الكربون، فبقاء المواد النباتية مئات القرون تحت الأرض يذهب منها أكثر الماء ونحو نصف المادة الكربونية «الفحم الخالص»، والباقي من ذلك كثير في الفحم، وقالوا: من أنواع الفحم:

(١) انثراسيت، وهو لماع صعب الإشعال لا تتسخ منه اليد، لهبه قليل أو عديم اللهب، شديد الحرارة عند الاشتعال.

(٢) الفحم البخاري وهو قليل الدخان كثير الحرارة يحفظ للأساطيل.

(٣) فحم الغاز.

(٤) فحم الكوك، نافع في المعامل والسكك الحديدية والبواخر، وفي التنانير لاستخلاص المعادن وصهرها ومعامل الغاز.

(٥) الفحم على وجه العموم هو المادة الأولية لمئات من الصناعات مثل الكوك المتقدم، ومنه القار الفحمي، ومنه زيت القار وهو وقود جيد، ويعمل من الأول مستخرجات تستعمل في الصباغة وعمل النفتالين والتطهير، ومنه البترول وغاز النشادر، وتصنع منه الأسمدة، ويستخرج من الفحم أيضاً بعض الكيمياويات الداخلة في صناعة الطب مثل «السكرين» وهي العطريات والمفرقعات، وهلم جراً.

فاعجب أيها الذكي لفحم أسود اللون منبوذ يكون وقوداً وسماداً وعطراً وأداة حربية تهد الحصون وتخرب البلدان وصباغة للثياب وتطهيراً ودواء، فلئن داوى المريض فقد نما به الزرع، وإن صبغ الثوب فقد أهلك المدن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج: ٦٣].

فهاك أربع صور للفحم: انظر (شكل ٢١) و(الأشكال ٢٢، ٢٣، ٢٤ في الصفحة التالية).



(شكل ٢١)

منظر رسم هندسي للفحم منظور من معدنه أثناء العمل

ج
ب
أ

(شكل ٢٢ ـ رسم هندسي بديع)

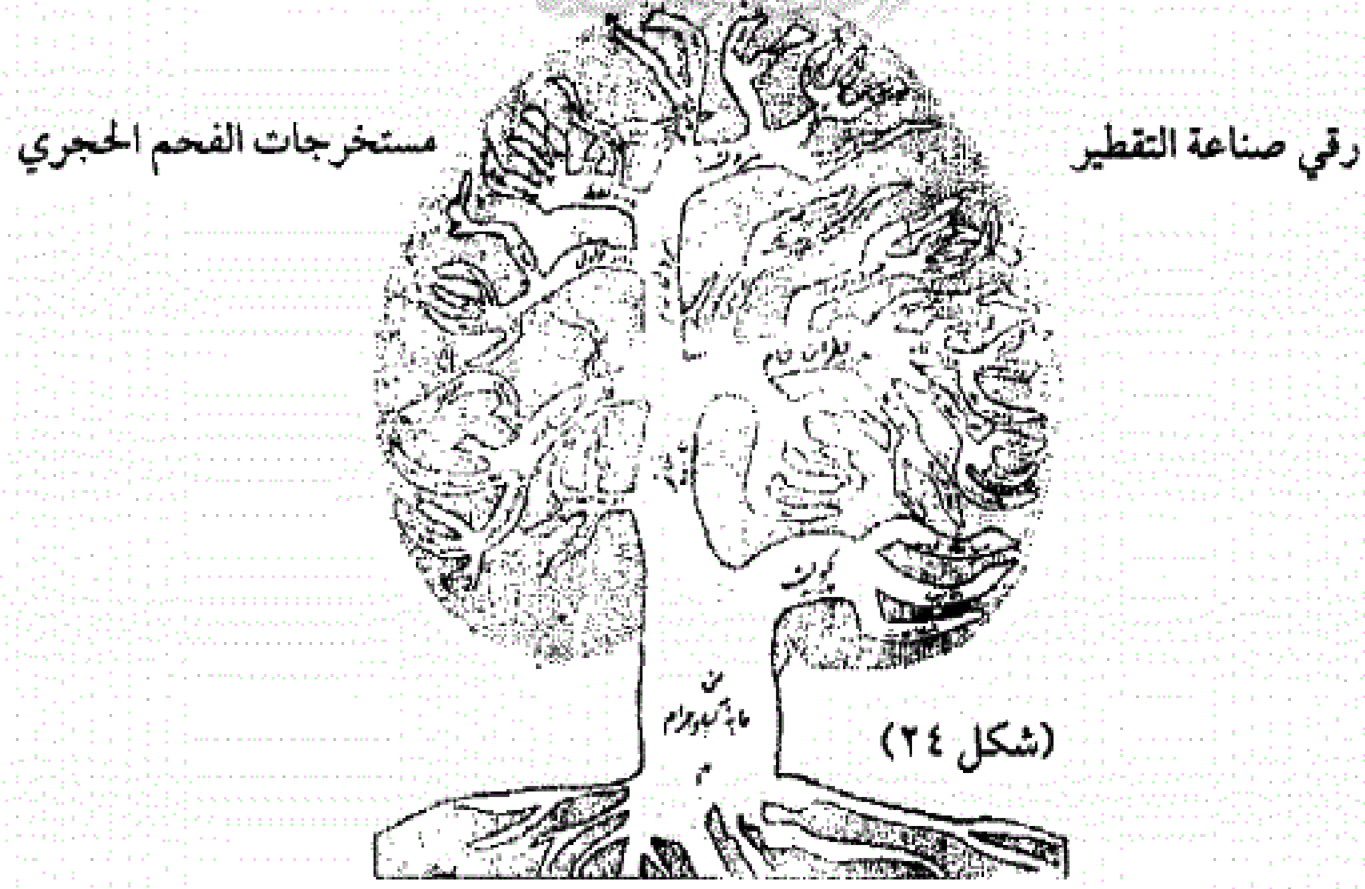
(أ) هذا هو الجزء الذي تحت الطين مع الجذور الممتدة فيه.

(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة.

(ج) سقف الفحم مختلطاً بالرمل وبنوع من لوح.



(شكل ٢٣ ـ رسم الأعشاب في مدة الفحم الحجري)



(شكل ٢٤)

هذا هو الفحم الذي خزنه الله في الأرض وأبقاه مئات الألوف من السنين ثم أبرزه اليوم للناس بعد ما أنضجه وجعله مدار رقي الأمم في الزراعة والصناعة والعلم والحكمة، ألا ترى أن العقول تزداد بصيرة بمزاولة هذه العجائب، أبرزه للناس فعرفوه بعقولهم واستخرجوه من الأرض.

ولما علم أن المسلمين سينامون طويلاً كما نام الذين من قبلهم من الأمم قال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٢]، كالأشجار والنباتات في قديم الزمان، ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢] فهي قد استخرجت اليوم وانتفع بها الناس لا المسلمين، فهو يقول: إنها بعلمي دفنت في الأرض بالزلازل والحوادث الكثيرة، وبعلمي تستخرج الآن، فعلمي متعلق بها في الحالين، وهي التي خزنت فيها ضوء الشمس الذي أشرق عليها أيام نموها، ثم أنا الآن أظهره لكم لتجنوا ثمره وتعرفوا خبره ومثل الفحم البترول.

زيت البترول

أنواعه ومستخرجاته ومنافعه،أشهر جهات العالم به

القوقاز.الولايات المتحدة.وغيرهما

مصر وزيت البترول فيها

سبحانك يا الله أدهشنا صنعك، وبهرنا وضعك. جعلت في الأرض ماء، سلكته ينابيع فيها ومنها الينابيع الحارة التي رسمت في سورة «الكهف» في أولها عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الكهف: ٧].

فهناك من زينة الأرض قد رسم نوعان من العيون الحارة المرتفع ماؤها عن الأرض: نوع ينبع وسط الثلج. ونوع ينبع وسط الحجارة الصفراء.

وهكذا نراك جعلت في الأرض أيضاً المعادن والفحم المتقدم ذكره. وهكذا نراك أجريت منها سائلاً ننتفع به في أعمالنا. فلم يقتصر عملك على الفحم الذي هو جامد بل خلقت لنا جسماً سائلاً وخزنته في الأرض. أليس هذا من العجب! تخلق الزيت في الزيتون وفي السمسم وفي بزرة القطن وفي غيرهما وتجعله نافعاً لنا مضيئاً لمنازلنا، وهكذا شحم الحيوان. كل ذلك فوق الأرض مشاكلة لما أبدعته من الأنوار التي أرسلتها من علياء سماواتك.

يا الله. سماوات مشرقات بكواكبها، وحيوان فيه دهن يعطينا نوراً مشرقاً بدهنه ونبات كذلك، وفحم في باطن الأرض ثم ما نحن فيه وهو البترول، نعم لا عجب في ذلك، لماذا؟ لأنك نور السماوات والأرض، وهكذا أنرت بصائرنا بالعلم وبالحواس وبالعقل، نورك في كل مكان، وجمالك في كل مكان هذا البترول نراه يفيض على سطح الأرض كما نرى الماء ينبع من بعض العيون. وما هذا البترول النابع الظاهر على وجه الأرض، ولا هذا الماء النابع، إلا درس لنا. تقول لنا. أيها الناس، إن في الأرض الماء فاطلبوه بجدكم ولا تتكلوا على ما ظهر منه، وهو هذا النابع.

سبحانك اللهم. أنت فعلت هذا وفعلت نظيره إرسال الأنبياء. أرسلت أنبياء وأعطيتهم العلم وحياً، وكأنك تخاطبنا قائلاً: أيها النوام، ويحكم، هاهو ذا علمي فاض على بعض عبادي كما يفيض الماء من باطن الأرض بلا عمل. ومعنى هذا أن عندي علوماً وقد أظهرت بعضها فالتمسوا علومي بجدكم كما التمستم الماء من باطن الأرض بعملكم وقد رأيتم ماء نابعاً منها.

وهاهو ذا البترول فاض على سطح الأرض أظهرت بعضه بهذا الفيضان، لماذا؟ لأريكم أن عندي منه كثيراً فالتمسوه. نعم التمس الناس البترول من باطن الأرض فخرج:

(١) زيت طبيعي أسود قاتم ثقيل فأجروا عليه عمليات كثيرة وصفوه بها، فخرج منه أنواع وأصناف تختلف وزناً وسيلاناً وغيرهما من الخواص، وباختلاف الخواص تختلف الأعمال والمنافع والأسماء. فمنها:

(٢) صنف خفيف يسمى «كيروسين» وهذا مستعمل للإضاءة.

(٣) وصنف آخر ثقيل يستعمل للوقود.

(٤) وصنف آخر يستعمل للصقل أثقل منهما. وتسمى الزيوت المستخرجة من الولايات المتحدة باسم:

(٥) زيوت البرافين.

(٦) ومن عجب أن هذا الاسم لا يطلق في إنكلترا إلا على نوع الزيوت التي يستخرجونها بالتقطير.

وبينما أنا أكتب هذا إذ حضر بعض الأصدقاء فقال: كيف يكون التقطير هنا؟ أيقطر من نبات؟ قلت: كلا. قال: أيقطر من باطن الأرض؟ قلت: كلا. قال: إذن مم يقطر؟ قلت: يقطر من صخور، قال: وكيف ذلك؟ قلت: قد كشفه رجل إنجليزي يسمى المستر «جمس بانج» عثر عليه وهو يبحث عن الزيت الطبيعي المتقدم. ذلك أنه رأى ذلك الزيت يسيل من سقف أحد المناجم بمقاطعة «دربشير» بإنجلترا فلاحت له فكرة أن يستخرج هذا من الفحم الخالص، فاستقطره فنجح وأحرز رخصة بمزاولة هذا العمل سنة ١٨٥٠، فاستخرج زيت البرافين المذكور، ثم استخرج مادة البرافين المشهورة. ثم إن هذه الصخور الفحمية تكون بإنجلترا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا والهند وأستراليا، وزيتها كما عرفت يشبه البترول ويستعمل مثل استعماله. وليست طريقة استحضاره بالآلات الماصة كما في الزيت الآخر. كلا. بل الطريقة هنا أنهم يصهرون الصخور في أوعية حتى يتبخر زيتها فستقبلونه ويكثفونه فيكون زيتاً خالصاً. ومن العجب أن زيوت البترول والبرافين أصبحت ذات شهرة واسعة بل إنها أغنت عن الزيت النباتي والحيواني. لماذا؟ لأن الله نور السماوات والأرض ولأنه واسع عليم ولأنه لطيف لما يشاء. هو الذي خزن ذلك في الأرض ووضعه على نمطين: نمط هو سائل وهو البترول. ونمط هو جامد وهو زيت البرافين. فيستنبط الناس الأول من الأرض، ويستنبطون الثاني من الحجارة والنتيجة واحدة.

وقد أصبحت تلك الزيوت المستنبطة من الأرض أو من حجارة الفحم تغني عن زيت الزيتون الذي كانت تفخر به إيطاليا ومعظم ممالك البحر الأبيض الشهيرة من قديم لكثرة أشجاره فيها، فترى الناس يختارون زيت البترول للصقل لأنه يبقى مدة طويلة بلا تجمد أو لزوجة، كما يحصل للزيوت النباتية والحيوانية، فإنها بهذا السبب تلتصق بالمواد التي يراد صقلها ولا يتم الانتفاع بها الآن على الوجه الأكمل الأحسن، إلا إذا مزجت بمقدار من زيت البترول. إذن الله يقول لنا: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢]، والإخراج يكون بالآلات الماصة وقد يكون بالاستقطار من الأحجار، فهو يعلم أن مثل هذا النوع المستنبط يساعد في الأحوال العملية كالصقل المذكور، إذ الزيت الذي خلقته على ظهر الأرض فيه نقص فاحتاج إلى الكمال، فأخرجت لكم زيت البترول من باطن

الأرض لأدلكم على ما وراء ذلك، وكذلك أنزل قطرات من الفحم الحجري ليدلكم على ما فيه، وأنتم لا تستكملون ذلك بعملكم. إذن هذه مخازن الله خزنها في أرضه وصخوره ودلنا عليها وعلم منفعتها، ثم قال للمسلمين استخرجوها كما استخرجتها الأمم قبلكم، لأن هذا من فروض الكفايات وفروض الكفايات لها مقام عال في الإسلام، وأيضاً أنا سخرت لكم ما في السماوات والأرض وهذا مما في الأرض أفلا تشكرون نعمتي أيها المسلمون؟ وشكر النعمة بفهمها أولاً وقبولها ثانياً، أما الفهم فهاهو ذا، وأما القبول فبالعمل، وبالعمل قد استخرج الناس من زيت البترول ما يأتي:

(٧) زيت الفازولين: وهو زيت خفيف جداً يتولد منه غاز سريع الاحتراق يسمونه «بترول» فقط وهو المستعمل في تسيير السيارات وما شاكلها.

(٨) والبنزين يحتاج إليه كثيراً في صناعة المطاط و«الفوطايرشا» لما فيه من خاصة إذابتهما.

(٩) والفازولين ويستعمل دهاناً ومنافعه شتى في الشؤون الطبية.

(١٠) والريغولين وهو أكثر زيوت البترول تطايراً، ويستعمل أحياناً في الطب للتخدير المحلي الذي يحدث في العضو من البرودة الشديدة التي تعقب تطايره.

(١١) والنفتالين «النفط» وغير ذلك من المواد النافعة.

ثم إن أشهر جهات العالم في استخراج زيت البترول إنّما هي بلاد القوقاز لدى شطوط البحر الأسود وعلى جوانب بلاد القوقاز على حدود فارس عند مرو، وأشهر مراكزه موردان: المورد الأول: على جانب القوقاز الجنوبي وميناؤه «باطوم» على البحر الأسود. المورد الثاني: على بحر قزوين وميناؤه «باكو»، وآبار هذه الجهة معروفة من قديم الزمان وكان الفرس يزورونها ليعبدوا النار في غازاتها الملتهبة المندلعة من جوف الأرض، ولقد تقدم في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[الآية: ١١٤] الكلام على اندلاع النار في تلك الأقطار فارجع إليه، واقرأ صور ذلك هناك واعجب من حكم تجلت في هذه الدنيا. ثم إن هذا المورد لم ينفع الناس منفعة تامة إلا حين خرج من قبضة الفرس إلى الروس في أوائل القرن التاسع عشر، وليس في الأرض مكان فيه من كثرة الزيت ما في هذه الأمكنة إذ يتدفق الزيت على جوانب الآبار من غير حاجة إلى استنباطه بالآلات، وتنبط البئر في اليوم الواحد مليون غالون، وقد يتدفق الزيت بشدة فينتزع الأجهزة المركبة على فوهات الآبار ويقذف بها في الجو مسافات.

ويلي هذه الجهات في استخراجه الولايات المتحدة، وفيها الآن ٢٠,٠٠٠ بئر، وفيها نحو ٤٠,٠٠٠ برميل من الأنابيب لنقل الزيت إلى المصافي في بلاد مركزية. ومن هذه يوزع في طول البلاد وعرضها أو ينقل إلى الموانئ للتصدير، ثم إن صناعة الحديد والصلب والزجاج وغيرها تقوم بجوار تلك الينابيع.

هذه أشهر البلاد التي يستخرج منها الزيت، ومن البلاد التي يستخرج منها الزيت المذكور مصر ولكنه قليل، ففيها شركة زيت إنجليزية مصرية جنوب السويس عند البحر الأحمر، وانتظم العمل بها سنة ١٩١١ وتحت إمرتها آبار «جمسة» وآبار «هرغادة». ويستخرجون منه بترول السيارات وبترول الإضاءة ووسائل الحريق وزيوت الصقل وغير ذلك. اهـ.

عبــرة

اعلم أيها الذكي أن بلاد المسلمين قد خزن الله فيها للناس خيرات . فهل الله عز وجل يمنع النعم عن خلقه لأن المسلمين يجهلونها؟ ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف : ١٠٠] حكيم الصنع جزيل الإحسان . هذه دولة الروسيا لما ملكت منابع البترول استخرجته ، ولما كانت ملك بلاد الفرس كانت محجوبة عن الأمم .

أيها المسلمون ، اعلموا أن الأرض خلق الله وأننا عبيد الله ، والله عز وجل الذي خلقنا وخلق الأمم حولنا لا يمكن أن يرضى بتعطيل منافع ملكه لأجل جهل بعض عباده ، فهل يظن المسلمون أنهم إذا عطلوا نعم الله يرضى هو بذلك؟ كلا ، بل هو ينزع الأرض منهم ويعطيها لغيرهم . وهل خلق الفحم وزيت البترول مثلاً وهكذا المعادن؟ هل هذه كلها خلقها الله ليحجبها عن الناس؟ كلا . فالله خلق المنافع وبثها في الأرض ومتى خلق من يستحقها لا يمنعها عنه كما لم يمنع الذكور عن زواج الإناث لما في ذلك من المنافع ، فإذا جهل المسلمون منافع أرضهم سلط غيرهم عليها فأخذوها وانتفعوا بها ، وهو القائل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان : ٣٨] .

لو خلق الله هذه المنافع ثم هو يمنعها إلى الأبد لكان ذلك عبثاً والله يجل عن العبث وهو الحكيم ، هو الذي يقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ : ٢] أي : ويعلم من يمنع منافعها فيذله ومن يستخرجها فيساعده لأنه حكيم عليم ، والحكيم لا يخلق إلا لحكمة ، ولا يعطي النعمة إلا لمن يستحقها ، فليعلم المسلمون مركزهم من الإنسانية حتى ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران : ١١٠] انتهى .

جمال العلم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

جاء في كتاب « الجغرافيا الرشيدة » تحت العنوان التالي ما نصه :

الينابيع المحجرة

كثيراً ما يجري الماء مذاباً فيه الجير فيكسو كل ما يصادفه من الأشياء بطبقة قد تغير الآثار الحلية فتجعلها متحجرة ، ولا شك في أن الغابة المتحجرة في هليوبوليس تكونت بتأثير ينابيع حارة مذاب فيها الرمل .

الصخور الرسوبية الكيميائية

فالجبس الذي رأيته في الأعمدة من الصخور الرسوبية المتكونة بتأثير كيميائي ناتج من ذوبان الصخور الجيرية . ومثله صخور الملح .

وفي فكلكزة بالقرب من كراكو في تشيكوسلوفاكيا أعظم مناجم الملح في العالم ، فهناك مدينة بتمامها منحوتة تحت الأرض في صخور الملح .

أنواع الصخور الرسوبية

فمن أنواع الصخور الرسوبية الطين والحجر الرملي وهما من الرواسب العادية ، والجير والمرجان من البقايا الحيوانية ، والفحم من البقايا النباتية ، والجبس والملح من الصخور التي تكونت بعوامل كيميائية .

الصخور الرسوبية المتحولة

وقد يطرأ على بعض صنوف هذه الصخور تحوّل بسبب الضغط أو الحرارة أو حركات القشرة الأرضية، فيتغير شكل الصخر ومميزاته ويزداد صلابة ولمعاناً، فمثلاً الاردواز أصله الطين، والرخام أصله الطباشير.

الصخور غير الرسوبية والصخور النارية

هناك نوعاً آخر من الصخور مختلفاً عن كل ما وصفنا لك إلى الآن. هذا حجر الجرانيت الذي سمعت عنه كثيراً في الآثار المصرية كالمسلات والتماثيل. خذ قطعة منه وافحصها تجد أنه ليست له حبات مستديرة، بل يتكون من ثلاثة أنواع من الصخور البلورية المختلفة الشكل، فمنها: الفلسيار بلون اللحم الأحمر. والميكا ذات اللون الأسود اللامع المفضض، والكوارتز الذي تكونت منه حبات الرمل. وليس لوضع أجزائه أي نظام، وليس له طبقات ولا فيه حزوز بل هو من صنع الطبيعة ذاتها. وبريق أجزائه يدلك في الحال على تكونه بالحرارة، فهذا الصخر ناري من الصخور الأصلية التي تكونت منها قشرة الأرض قبل الصخور الرسوبية. والصخور الرسوبية كلها مشتقة في الأصل من هذه الصخور النارية. وهناك نوعاً آخر من الصخور النارية وهو الطفح الذي يخرج من البراكين وترى فيه فقاقيع غازية ويسمى صخراً بركانياً، تمييزاً له عن مثل الجرانيت الذي تكون بهدوء تحت سطح الأرض. وهذا جدول يلخص لك تقسيم الصخور على أكمل وجه:

الصخور

(أ) متحولة. (ب) ومائية. (جـ) ونارية

(أ) الصخور المتحولة: (١) مائية الأصل كالاردواز من الطين. (٢) ونارية الأصل كالنيس من الجرانيت.

(ب) الصخور المائية: (١) تكون عضوية كالجير والفحم. (٢) وكيميائية كالملح والجير، هكذا الأصل. (٣) ورسوبية كالطين والحجر الرملي.

(جـ) الصخور النارية: (١) البركانية كالبازلت. (٢) والباطنية كالجرانيت. اهـ.

نموذج التمارين التي اعتاد المدرسون أن يسألوا التلاميذ فيها

(١) صف مجموعة عن الحفريات التي تجدها في جبال المقطم. ما الذي تستنبطه من وجود هذه الأصداف عالية في الجبال؟.

(٢) أغلب الآثار المصرية مطمورة بالطين إلى علو أربعة أمتار، فإذا كان عمر الآثار أربعة آلاف سنة، فما سمك طبقة الغرين التي ترسب على أرض مصر سنوياً من الفيضان؟.

(٣) من أي أنواع الصخور البازلت والرخام؟ علل وجود الرخام في جهة أبي زعبل تحت طبقات البازلت.

(٤) في شرق هليوبوليس غابة متحجرة. ماذا تظن السبب في وجودها؟.

(٥) بجوار ساحل البحر الأبيض المتوسط في مصر ملاحات عظيمة. وضح كيف يحصلون على الملح منها وبأي كيفية تكونت صخور الملك العظيمة في فكلكزة؟.

(٦) ما الذي تعرفه عن أصل الفحم الحجري . وماذا في هيئة الفحم يؤيد نظريتك؟ .

(٧) ما الأدلة على حرارة جوف الأرض ، وماذا تعتقده بشأن أصل هذه الحرارة؟ .

(٨) أي أنواع البحار يلائم النمو المرجاني ، كيف تعلل وجود الجزائر والحواجز المرجانية في البحار العميقة؟ .

(٩) ما سبب تكوين المغارات في الصخور الجيرية ، أي نوع من أشكال التضاريس يخلف المغارة الطويلة إذا سقط سقفها على أرضها؟ .

(١٠) كيف تكونت عمد الجبس في المغارات الجيرية؟ .

(١١) اذكر أمثلة من الصخور النارية الباطنية والبركانية والمتحولة .

حركات القشرة الأرضية

الزلازل والبراكين والنافورات

قد اتضح لك أن الصخور الرسوبية تكونت في قرار الماء ، وأن وجودها فوق ظهر الأرض مثير للعجب ومشوّق لمعرفة السبب ، وبالأخص لوجود هذه الصخور في أغلب بقاع اليابس . فالسبب لا يمكن أن يكون إلا أحد أمرين : فإما أن ماء المحيط كان في العصور الخالية فوق جميع اليابس ، وإما أن قشرة الأرض هي التي تتلوّى وتنثني في مختلف الاتجاهات . وسنبين لك حالاً أن السبب الأخير هو الصحيح .

السواحل الطالعة والسواحل النازلة

للمحيط الأطلسي ساحلان : ساحل شرقي وهو المجاور لأوروبا وأفريقية ، وساحل غربي وهو المجاور لأمريكا ، فإذا زرت الأقاليم الشرقية في الولايات المتحدة تجد السهل المجاور للمحيط الأطلسي مكوناً من الصخور الرسوبية الحديثة العهد ، حتى إذا وصلت إلى شرق جبال الليجني وجدتها محززة بحزوز أفقية متوازية تشبه الحزوز التي تعملها الأمواج في صخور الشواطئ البحرية في أيامنا هذه ، وتجد في الجبال كهوفاً ومغارات لا يشبهها إلا الكهوف والمغارات التي تنحتها أمواج البحار . ولا يغيب عنك وجود الحفريات من أشكال القواقع والأصداف والسمك التي تعيش في المحيط الأطلسي حتى الآن . فلا يمكن أن يبقى في نفسك أي شك في أن هذا السهل الساحلي قد برز من أعماق البحر . فهل انحسر عنه الماء ، إذا كان ذلك كذلك فينبغي أن يكون الماء قد انحسر أيضاً عن شواطئ أوروبا الغربية فتزداد علواً عن سطح الماء ، ويكون انحسار الماء عن السواحل عاماً مآله انتهاء الماء من هذه الدنيا . ولكن هذا غير صحيح ، والواقع يكذبه ، لأن سواحل أوروبا الغربية آخذة في الهبوط التدريجي تحت سطح الماء ، فقد كان للرومان مبان في غرب إيرلندة ، وكانت هذه المباني مشرفة على ساحل المحيط الأطلسي ولم يكن الماء يطغى عليها طبعاً ، وقد أصبحت الآن غائرة تحت مستوى ماء المحيط ، فلا تظهر إلا وقت جزر البحر ، وتغمرها المياه وقت المد .

فيتبين لك من ذلك أن البحر لا ينقص ماؤه وأن قشرة الأرض هي التي تلتوي وتنثني ، وليس ذلك في جهات قليلة من وجه الأرض بل هي حركات آثارها ظاهرة في كل موضع على اليابس وتحت الماء .

الجبال الحديثة والجبال القديمة

تأمل في خريطة الدنيا تر أعظم سلاسل الجبال الحالية موجودة في اتجاهات معينة، فهي في الغالب على حافة المحيطات الكبرى، أو عند مجمع القارات، كما هو الحال في حوض البحر الأبيض المتوسط. وفي هذا الوضع المنتظم دلالة على العوامل التي أوجدتها. فالقشرة الأرضية تلتوي وتنثني فيظهر أثر هذا الالتواء في أضعف جهاتها. فأعظم جبال الدنيا مثل روكي وأنده والألب وهمالايا من الجبال الحديثة التي برزت من قرار البحر في أزمنة قريبة. والأزمنة الجيولوجية لا تقاس بالسنين ولا بالقرون، ولكنها أحقاب طويلة يكلّ عن إدراكها الحاسب.

عامل الوجود وعامل الفناء وعملية التوازن

لا يمكن أن تبرز الجبال والسهول من البحر فتزيد مسطح اليابس وحجمه بلا مقابل، فإن من المسلم به في كل معاملة الموازنة بين الوارد والمنصرف، وإلا انتهى الأمر بإفلاس أحد الطرفين المتعاملين فما الذي يكسبه البحر عوض ما يخرج منه من الأراضي الجديدة والجبال الحديثة؟ إن الذي يستفيده في مقابل ذلك ما تجلبه له الأنهار، يساعدها في ذلك عوامل الفناء الأخرى المعروفة بعوامل التعرية التي تتسلط على الجبال من وقت ظهورها بمعاول الفناء فتحتّها وتجرفها ولا يهدأ لها بال حتى تكشطها من على وجه الأرض وتبعث بأنقاضها مع الماء الجاري إلى المحيط، تدفع بذلك ثمن الأراضي الجديدة التي تبرز منه.

أسباب حركات القشرة الأرضية

(١) علمت أن الأرض تدور على محورها باستمرار، وهذا الدوران من شأنه أن يغير شكل الأرض كما تتغير أوضاع حبوب القمح وقت هز الكيلة، وأن هذا الدوران هو الذي أعطى الأرض شكلها الخاص بها، والذي جعل القطر الاستوائي أطول من المحور، ففي القديم الغابر لما كانت الأرض كلها سائلة أو لينة كان هذا التغير سهلاً ولكنه قد صعب الآن بعد أن جمدت الأرض وتصلبت قشرتها فلا يتم بدون طي الصخور المرنة وكسر الصخور الشديدة الصلابة.

(٢) كانت الأرض قبل أن تفقد شيئاً من حرارتها أعظم حجماً، وكلما نقصت الحرارة يتقلص قلب الأرض فتضطر صخور القشرة أن تنثني وتتكسر لكي تنطبق عليه كما تنثني ملابس الرجل البدين إذا هزل جسمه بسبب المرض، ويدفعها لذلك أمران: الأول: جذب مركز الأرض لها من تحت. والثاني: ضغط الطبقات الهوائية عليها من فوق.

(٣) إن متوسط الثقل النوعي لصخور الكرة الأرضية أكثر من خمسة أضعاف الثقل النوعي للماء، على حين أن الثقل النوعي لصخور القشرة لا يزيد على الضعفين إلا قليلاً، ومعنى ذلك أن الصخور الخفيفة هي الموجودة على وجه الأرض، في حين أن الصخور الثقيلة موجودة في قلبها، وذلك بديهي، إذ أن الخفيف من طبعه أن يطفو فوق الثقيل، وقد حصل هذا الترتيب أيام كانت الأرض في حالة سائلة.

والصخور مرتبة على وجه الأرض بشكل يحفظ التوازن، بمعنى أن الصخور التي في قرار المحيط ثقيلة النوع وصخور الجبال المجاورة له خفيفة، وبذلك أمكن قيام الأخيرة محمولة بضغط

الأولى ، لكن عوامل التعرية التي أشرنا إليها آنفاً دائبة في إفناء الجبال والأنهار تحمل الأنقاض إلى البحر أول فأول ، فيزيد الضغط في قرار البحر ويخف على جبال اليابس باستمرار ، ويختل التوازن لولا حركات القشرة الأرضية التي تعيده إلى حاله كلما تزعزع .

نتائج حركات القشرة الأرضية

ينتج من حركات القشرة الأرضية بنيان السلاسل الجبلية الحديثة وطغيان البحر التدريجي على جهات بارزة ، كما ينتج منها كسر الصخور الصلبة وتشققها وانزلاق بعضها على بعض ، فتنشأ عنها تضاريس جديدة وتتغير اتجاهات المياه الجارية ، وقد تنشأ كسور متقاربة فيترتب عليها وجود أخاديد غائرة أو هضبات مدفوعة .

بنيان الجبال

قد رأيت أن أهم السلاسل الجبلية في الدنيا واقعة في اتجاهات معلومة فهي من جبال الطي . ومن جبال الطي أيضاً سلاسل أصغر منها في القارات . فإذا فحصت طبقات تلك الجبال رأيتها منحنية تدل على التواء . ثم تنشأ ثلاث طبقات من الصخور الرسوبية مرتكزة على طبقة من الصخور النارية في وضعها الطبيعي قبل الالتواء ، ومفهوم طبعاً أن الصخور العليا هي الحديثة وأن التي تحتها هي القديمة . فالطبقة الثالثة أحدث من الطبقة الثانية ، وهذه أحدث من الطبقة الأولى ، والطبقة التي تحت الجميع من الصخور النارية الأصلية . ولكن عوامل التعرية لا تلبث أن تعبث بهذه الجبال فتكشط سطحها وتحتّها وتجرف منها .

فإذا رغبت في ارتقاء الجبل تصادف أولاً الطبقة الثالثة ثم الطبقة الثانية ثم الطبقة الأولى ، حتى إذا ارتقيت إلى أعلى الجبل وصلت إلى الصخور القديمة النارية . ومن ذلك تعرف كيف أن الصخور التي كانت بعيدة عن وجه الأرض قد ارتفعت بحركات القشرة الأرضية ثم انكشف عنها غطاؤها بفعل التعرية فأصبحت ظاهرة قريبة للإنسان لينتفع بها في أغراضه .

كسر الصخور الصلبة

يصادف المعدّنون أحياناً وهم يتعقبون عرقاً من فلزات المعادن أو طبقة من طبقات الفحم عيباً في الطبقات ، أي : كسراً ، إذ ينتهي العرق أو الطبقة فجأة فيوجد بدلها صخور أخرى كان ينبغي وجودها فوق العرق أو تحته .

الأخاديد الغائرة

في الصخور التي تصاب بعيوب متعددة قد يحصل أن تنزلق قطعة من القشرة الأرضية فتهبط إلى عمق كبير وينشأ عن ذلك أخدود غائر . وفي شمال أفريقيا أخدودان غائران يقع البحر الأحمر بأكمله ضمن واحد منهما .

الهضبات المرفوعة

وقد يحدث أن تغور الأرض من جوانب جزء من القشرة الأرضية وتنزلق عليه نازلة على حين أنها تدفعه صاعداً فيظل قائماً بنفسه على شكل هضبة مدفوعة ، وهضبة « مزينة » المتكون منها أرض إسبانيا والبرتغال من هذا الطراز .

الجبال المختلفة

والهضبة إذا شققتها الأنهار والوديان يتخلف منها سلاسل جبلية تفصل أحواض الأنهار، فهذه السلاسل الجبلية متخلفة من صخور الهضبة، وسلاسل جبال شبه جزيرة إيبريا من هذا الطراز.

الزلازل

قلما يمر العام من غير أن نسمع بوقوع زلزال في جهة من جهات الدنيا، فمرة نسمع عنه في غرب أمريكا أو جزائر الهند الشرقية، ومرة نسمع عنه في اليابان أو في إيطاليا، ولا يمر خبر الزلزال بهدوء كباقي الأخبار لما يقترن به من الخسائر الفادحة والأهوال الكبار وهلاك الأنفس والأموال، وقد وقع الزلزال في ليلة ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٦ م شعر به أهل القطر المصري في الساعة التاسعة والدقيقة ٤٨ مساء، ومكث نحو ٤ دقائق، هلعت له قلوب الأهالي وحدثت بعض إصابات من سقوط المنازل القديمة، ووردت التلغرافات في الأيام التالية منبئة عن مركز الزلزلة الكبرى في بحر الأرخبيل، وهي التي انتشرت هزاتها إلى مصر.

وكان من الآثار الهامة لذلك الزلزال انفجار ينبوع كبريتي جديد في مدينة حلوان على بعد ٩ أمتار من الينبوع القديم.

ومن الزلازل التاريخية العظيمة ما يأتي بيانه:

(١) زلزال «سان فرنسيسكو» في سنة ١٩٠٦م: وفيه وقعت من هول الرجفة الأولى العمارات والمنازل، فأصبحت بعد النضارة والعمران خرائب وأطلالاً، وما زالت روادف هذه الرجفة تهز القشرة الأرضية طول ذلك اليوم العصيب حتى بلغت أدوار الارتجاف اثنين وثلاثين دوراً. وهاجت أمواج البحر ثم فغرت الأرض فاها لتبلع آثار العمران، واشتعلت النيران في الحطام وهلكت ألف نفس بشرية وبات مائتا ألف بلا مأوى.

(٢) زلزال «لشبونة» في سنة ١٧٥٥: وفيه نشأت أمواج عالية طفت على الشاطئ من ارتفاع عشرين قدماً، فطاحت بالسفن الراسية في الميناء إلى جهات داخلية بعيدة وبعثرتها كما يبذر الزراع الحبّ على الأرض، وأهلكت ستين ألف نسمة غرقاً.

(٣) زلزال «مسينا» في سنة ١٩٠٨م: وفيه تخربت المدينتان «مسينا» و«رجيو» والقرى المجاورة لهما، وهلك ثمانون ألف نسمة.

(٤) زلزال «اليابان» في سنة ١٩٢٣م: وفيه تخربت المدن الكبرى وقامت الحرائق في «يوكوهاما» و«طوكيو» فأكلت المؤن والأقوات وبات الناس بلا مأوى ولا طعام، وهلك فيه مائتا ألف نسمة. وتبارت الدول العظمى في مواساة «اليابان» فأرسلت إليها الهدايا من الأقوات والملابس.

انتهى ما أردته من الكتاب المذكور والله أعلم.

جمال هذا المبحث العام

في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

لأختم هذا المقال بالكلام على الفحم المخزون في القطب الشمالي، وعلى الكهرباء المخزون الآن في شمالي ألمانيا فأقول:

سبحانك اللهم، أنت أدرت الأرض وجعلت لها قوانين، وحكمت على خط الاستواء قديماً أن يصير قطباً كما حكمت على القطب أن يصير خط استواء. إن جميع أهل الأرض الآن يعلمون أن القطبين لا يصلحان لظهور النبات، ولكن العلم والكشف أثبتا أن القطبين قد خبئ الفحم في باطنهما، ولكن كيف خبئ ذلك الفحم؟ ولا وسيلة لظهور الفحم إلا بالشجر، ولا ظهور للشجر إلا بحرارة الشمس الكثيرة، والقطبان لا حرارة فيهما بل الثلج هو الذي يغطي تلك الأقطار، فلئن تحلى خط الاستواء بالأشجار والمزارع النضرة لتحلين القطبان بالثلج، تشعّ حوله الأنوار البديعة المتقدم ذكرها ورسمها في أول سورة «الكهف»، أتاك ما شاع وذاع من أن باطن الأرض عند القطبين مملوء فحماً، أفلا تعجب من ذلك وكيف خزنه الله قبل مئات الألوف من السنين؟ ثم هو الآن قد أخذ يدل الناس عليه ويلهمهم إلهاماً، يقول لهم: أيها الناس إن في القطبين فحماً فهلا ذهبتم إلى القطب الشمالي وانتفعتم به، وهلا جعلتم لكم هناك محطة للطيارات والبالونات في القطب الشمالي تكون ملتقى الخطوط الهوائية بين أفريقيا وآسيا وأوروبا، وإذا كنت في شك من ذلك فاسمع ما كتبه بعضهم ناقلاً عن المجلات الإفرنجية وهذا نصه:

حلم علمي
القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية

القطب الشمالي هو قمة الأرض، وكان يجب أن يكون ملتقى المواصلات لولا أنه لا يصلح للملاحة أو للسكك الحديدية فإنه مغمور بالثلج الذي لا يذوب طول السنة، وقد خطر ببال أحد المهندسين أن يجعل القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية بين القارات الثلاث أفريقيا وأوروبا وآسيا، وبذلك تختصر المسافة اختصاراً كبيراً، فالذي يريد الذهاب إلى اليابان يحتاج الآن إلى أن يقطع نحو نصف الأرض حتى يبلغها، ولكنه إذا ركب طيارة وصعد إلى القطب الشمالي وانحدر منه إلى اليابان قصرت مسافة السفر، وفي القطب الشمالي مناجم كبيرة للفحم يمكن منها استنباط الكهربائية للتدفئة والإضاءة فينار القطب وتبنى فيه العنابر الكبيرة لإيواء الطيارات وتزويدها بالبنزين وتشيد الفنادق الكبيرة للمسافرين، وهناك يلتقي المسافرون فيبدلون طياراتهم ويذهب كل منهم في طريقه، فهل يحقق العلم هذا الحلم؟ ولطالما حقق ما هو أشد منه غرابة. انتهى

هذا بعض سر قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢]، فهاهو ذا الفحم قد أدخله الله في الأرض، وهاهو ذا يخرجه منها وينتفع الناس به.

ومن عجائب المخزون في الأرض: الكهرباء، الكهرمان. لقد كنت أيام الصبا أرى الناس يدخنون في الأعواد بحيث يضعون ورق التبغ في حق صغير متصل بعود مجوف ينتهي بفم من «الكهرمان»، وهذا الفم هو الذي يمتصون به الدخان المستمد من ذلك التبغ المحترق في ذلك الحق الصغير، فكنت أتأمله فلا أعرف من أين جاء هذا الكهرمان، ولا كنت أدري أن الله خزنه في الأرض قديماً كما خزن الفحم في الأقطاب الشمالية.

أفلا يجب علي أن أحمد الله على العلم بذلك؟ فهاك ما رأيته من المقالات العلمية تحت العنوان التالي:

الكهرباء، الكهرمان

الكهرباء هو ما يسميه العامة عندنا بالكهرمان، وهو ذلك الحجر الأصفر اللامع الذي يصنع منه خرز المسابح ويتزين به النساء. وقد كان الإغريق يعرفون الكهرباء، وكانوا يعرفون منه أيضاً الكهربائية، وهي تلك القوة الخفية التي نستعملها الآن في دفع الترام والتلغراف والتليفون، ولم يكن الإغريق يعرفون كيف ينتفعون بالكهربائية كما ننتفع، ولكنهم كانوا يعرفونها وقد أطلقوا عليها هذا الاسم، لأن من خواص حجر الكهرباء إذا حكّ به شيء أن يجذب إليه الأجسام الصغيرة، فالقارئ يرى الآن أن هنالك فرقاً بين الكهرباء الذي يصنع من الخرز وبين الكهربائية، إذ هي القوة الخفية التي يسير بها الترام، ولكن يوجد لسوء الحظ من يخلط اللفظتين.

وقد قلنا: إن الكهرباء حجر، ولكن الحقيقة أنه صمغ. أو نقول بعبارة أدق: إنه لثي، واللثي هو ما ينزل من الشجر إذا جرحت قشرته، كالمادة اللبنية التي تخرج من شجرة «الجميز» عندما نقطع إحدى أوراقها، ولكن هناك أشجار الآن يستخرج منها الكهرباء، وإنّما الكهرباء يوجد الآن مدفوناً في الرمال تحت طبقات الأرض، فقد عاشت منذ آلاف السنين أشجار ثم طمرتها الرمال فصارت فحماً.

وهناك أشجار أخرى أيضاً كانت تنز الكهرباء فيقع منها طرياً ثم يجف، وبعضه كانت تطمره الرمال، وبعضه لا يزال قريباً من سطح الأرض كثيراً ما تكتسحه الأمطار وتخرجه إلى السطح، أما أشجار الكهرباء فقد انقرضت من العالم كما انقرضت من قبلها بآلاف القرون الأشجار التي استحالت إلى فحم، ومعظم بل كل ما يوجد تقريباً من الكهرباء الآن يرسل من شمال ألمانيا على شواطئ بحر البلطيق، ففي كل عام يصدر من هذه الشواطئ إلى أسواق العالم نحو مائتي ألف رطل، وقد كان المصريون والإغريق والفينيقيون يستوردون الكهرباء من شمال ألمانيا، وكانت طرق الكهرباء معروفة في أوروبا محروسة من القبائل. وكان القدماء يغالون به، حتى قال «بليني» الكاتب الروماني الذي عاش في القرن الأول للميلاد: إن تمثالاً صغيراً من الكهرباء يزيد ثمنه على ثمن عبد ضخم قوي. وكان شعراء الإغريق يستسلمون للخيال في كلامهم عن الكهرباء. ومن أجمل ما قاله بعضهم عنه: إنه الدموع المتجمدة للطيور. وقد بلغ من شغف الإمبراطور الروماني «نيرون» بالكهرباء أنه أرسل بعثة إلى شاطئ بحر البلطيق فجلبت معها ١٣٠٠٠ رطل من الكهرباء. انتهى

وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني.

الفصل الثالث
في مبحثين عظيمين

الأول: مبحث الجن وهل يعلمون الغيب؟.

المبحث الثاني: في سيل العرم وسبأ. وما جاء في العلم الحديث مصداقاً لهذا كله.

المبحث الأول: في مقامين

المقام الأول: في قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ١٤] الخ.

المقام الثاني: في المبحث الأول في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

المقام الأول: في قوله تعالى:

﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾

الكلام على الأرضة

اعلم أن هذه الآية قد أعطتنا ثلاث فوائد: الأولى: أنها أبانت أن الجن لا يعلمون الغيب. الفائدة الثانية: أن أهل الأرض خاضعون للنواميس سواء أكانوا أنبياء أم غيرهم. الفائدة الثالثة: أن من أصغر الحشرات ما له سلطان في هذه الأرض عظيم. يقول الله تعالى: ﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾[الزخرف: ١٣]، فنحن لولا تدبير الله لا نطيق أن نركب الدواب بل لا نطيق هذه الحشرات التي أكلت عصا نبي عظيم من الأنبياء، فإذا كانت هذه الحشرة هذا شأنها فذلك فتح باب لمعرفتها لنحترس منها.

اللهم إن القصص في القرآن لم يكن إلا لتعليمنا لا غير، وإلا فماذا يفهم الناس في قصة بلقيس إذ تقول لقومها: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[النمل: ٣٢]، وفي قصة فرعون إذ يقول له الملأ من قومه في موسى وأخيه هارون حين استشارهم في أمرهما: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الأعراف: ١١١].

أقول: فهل يفهم الناس من ذلك إلا الإشارة إلى الحكومة الشورية وأن الأمة لها القول الفصل. وما الملوك إذا كانوا فيها إلا منفذين، كما يقول: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]، فهكذا هنا يقول: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾[سبأ: ١٤] الخ، ونقول أيضاً فلما خر تبينا أيضاً أن للأرضة سراً عجيباً فلا بد من البحث عن أمرها واستقصاء خبرها، فأكل الأرضة لعصا سليمان أفهم الجن أنهم لا يعلمون الغيب فيقللوا من كبريائهم ويرجعوا عن غيهم ويتنزلوا عن عتوهم ويخلعوا عنهم لباس الكبرياء والعظمة والتباهي والافتخار، هكذا يعرفنا أن للأرضة عملاً منكراً إن لم نحترس منه خررنا صعقين في هذه الحياة الدنيا بتدميرها وإهلاكها وأيضاً هي من آيات الله تعالى وعجائب صنعه، فوجب إذن البحث في أمرها واستقصاء سرها على قدر الإمكان، وقد تقدم الكلام عليها في سورة «النحل» ورسمت الملكة من هذه الحشرة والملك بجانبها وحولهما جنود المملكة والضباط والعساكر. وتقدم أيضاً رسمها هنا، وكذا ملكة النحل شكل ٢ و ٣ وهي مأخوذة من كتاب «مملكة الظلام» أو «حياة الأرضة» تأليف «مترلنك» تعريب الدكتور «نقولا فياض»، وهاك شذرات من الكتاب لنقف على سر ما أشار له القرآن في هذه الآيات قال:

الأرضة أو النمل الأعمى

الأرضة[1] أو النمل الأعمى، ويقال له الأبيض وما هو بالأبيض، يرجع تاريخه إلى مائة مليون سنة قبل الإنسان على زعم علماء الحشرات والجيولوجيا أي طبقات الأرض. غير أنه من الصعب تحقيق هذا الزعم والإتيان بأدلة ناصعة على صحته. على كل حال هذه الحضارة التي تعد أرقى من حضارة النمل والنحل هي بلا ريب قديمة العهد جداً، أي أتى عليها بضعة ملايين من السنين.

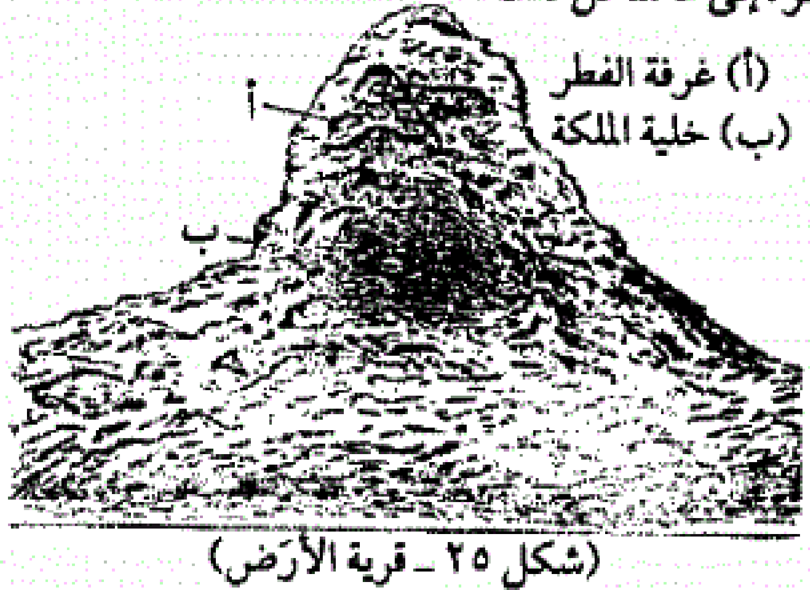
(١) الأرضة دودة بيضاء تبني على نفسها بيتاً مستطيلاً ولها مشفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة، جمعها أرض وهي ترجمة كلمة «ترميت» بالفرنسية لا كلمة «ميت» أي السوسة أو العثة التي تلحس الصوف والثياب.

ولو تقصينا المكتوب عنها لما وجدناه شيئاً بالنسبة إلى ما قيل وكتب عن النحلة والنملة، مع أنك لا ترى على هذه البسيطة كائناً أقرب إلينا وأبعد عنا في آن واحد من هذه الحشرات التي تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنساني يؤاخينا في آلامنا وشقائنا، وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحملون شكلاً جديداً للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور إلى خلق مثال خاص للأجيال الآتية في نظامها وأحكامها، فما عليهم إلا أن يقتربوا من هذه المملكة الهائلة فيجدوا من الغرابة مثل ما في أحلامهم وأغرب مما نتصوره في عطارد والمريخ والزهرة.

يقال إنه يوجد على الأرض ألف وخمسمائة نوع من الأرَض، والمشهور منها لا يتجاوز الأربعين، وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة به، فمنه البناء الذي يقيم هضباً فوق الأرض، ومنه ما يعيش مكشوفاً ويجتاز السباسب في خطوط طويلة بين صفين من الجنود تحتمي بها العمال، ومنه ما تسلح الطبيعة جنوده بما يشبه المحقنة، ومنه ما يفتك بالأشجار الحية ويبقيها وجنده كالكواسر أو الضواري على جانب عظيم من القساوة، ومنه ما تشبه مشافره[1] قرون التيس فتتمدد كالزنبرك وتقذف به إلى مسافة عشرين سنتيمتراً إلى آخر ما هنالك.

ثم قال بعد كلام طويل ما نصه: بعض هذه الحشرات يعيش في جذوع الأشجار التي يحتفرها ويمد فيها مسالك وأسراباً تذهب كل مذهب، وتخترقها من كل ناحية حتى الجذور، وبعضها يبني عشه في الأغصان ويوطده حتى يقوى على مقاومة الأعصار، وحتى يمتنع على الإنسان الاستيلاء عليه فيضطر إلى نشره بالمنشار، إلا أن الغالب فيه أن يتخذ مسكنه تحت الأرض، وبناء هذا المسكن من أغرب ما عرف، وهو يتغير حسب البلدان والسلائل والأحوال الموضعية والأدوات التي يتاح للحشرة استعمالها بما ركب في طبيعة الأرضة التوسع في الاستنباط والقدرة على ملائمة الأحوال والاصطباغ بصبغة البيئة التي توجد فيها، وأهم هذه المساكن يعزى إلى الأرضة الأوسترالية، فيكون تارة شبه نبكة تعلو عن الأرض نحو ٤ أمتار ومحيط قاعدتها ٣٠ قدماً كأنها قالب ضخم من السكر، وطوراً كآكام من الوحل أو صلصال في حال الغليان هبت عليه ريح الجليد فجمدته فجأة، وحيناً كرهط من الخلايا التي يخزن فيها النحل الحوشي عسله وقد كبرت مائة ألف مرة، وآونة كطبقات من الفطر أو الإسفنج أو كأكداس من التبن الذي طال عليه سقوط المطر، إلى ما شاكل ذلك.

وأعظم هذه البنى التي لا تراها إلا في أوستراليا تختص به الأرضة المغناطيسية، وقد سميت كذلك نسبة إلى الإبرة المغناطيسية، فإن ما تبنيه يتجه أبداً من الشمال إلى الجنوب فيتسع في أوله ويضيق في الآخر. وقد تعدد الافتراض في تعليل هذا الاتجاه دون الوصول إلى حل صحيح شاف. انظر شكل ٢٥.



(شكل ٢٥ ـ قرية الأرَض)

(١) المشافر جمع مشفر: وهي من البعير كالشفة من الإنسان وقد تستعمل للناس فاستعملناها هنا على المجاز وترجمنا بها كلمة «منديبول» ويمكن أن تسمى أيضاً الأحناك.

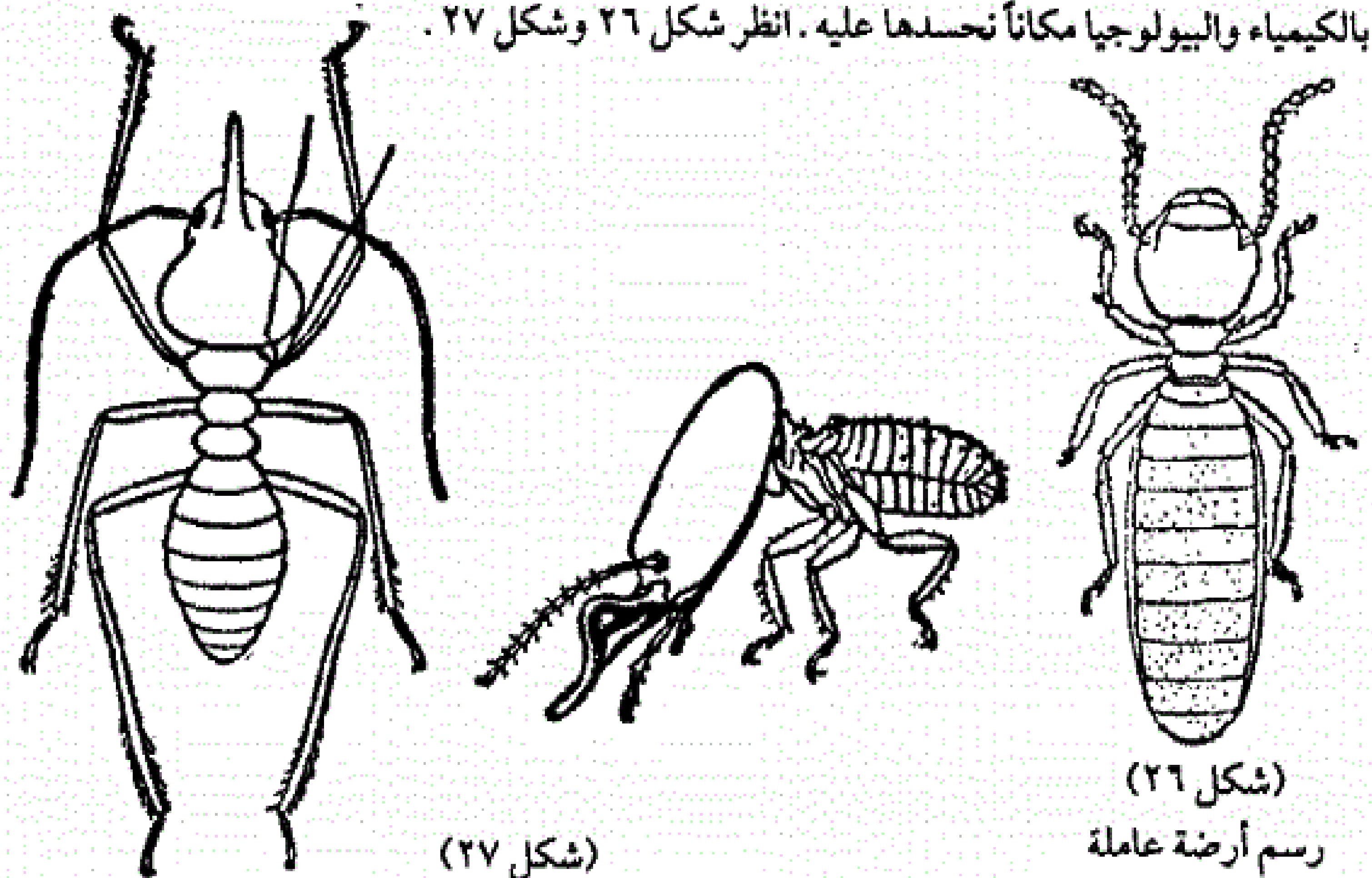
وأعظم ما شوهد من هذه المساكن هو في أفريقيا الوسطى ولا سيما في كونغو البلجيك حيث يبلغ العلو من ستة إلى ثمانية أمتار. وفي « مونبونو » قبر أقيم على أحد هذه البيوت كأنه على رابية فيشرف على ما حوله من الجهات، وفي أحد الشوارع الكبيرة في مدينة اليزابث من أعمال « كاتانجا » العليا قرية عالية شطرها الشارع إلى شطرين. وقد اضطر عمال سكة حديد سكانيا أن ينسفوا بالديناميت بعضاً من هذه الأبنية فكانت أنقاضها تجاوز في ارتفاعها مدخنة القطار. ومن هذه المساكن التي خربت ما صار أشبه بالبيوت ذات الطبقتين ولا يتعذر على الإنسان أن يقعد فيها. وقد بلغ من متانة هذه البنايات أن سقوط الأشجار الكبيرة وهو أمر كثير الوقوع في تلك النواحي لا يقلقها ولا يضعف من جانبها، وإن قطيع الغنم يتسلقها ليرعى العشب النامي فوقها دون أن يؤثر فيها. ونمو العشب فوقها راجع إلى خصائص الطين الداخل في تركيبها، فهو يخزن الرطوبة فضلاً عن أنه كثير الخصب زكي المنبت، لأنه مكون منْ براز الحشرة وفضلاتها، وقد ينمو مع العشب الشجر. والغريب أن الأرضة التي تهدم كل شيء في طريقها تحترم هذا الشجر كأنه مقدس.

وبعض أنواع الأرضة يستعمل قسماً من الطبقات العليا في الوكر لزرع واستنبات الفطر الخصوصي الذي يقوم مقام الطفيليات، وسيأتي الكلام عنها في الفصل التالي، وله وظيفتها من تحويل الخشب القديم أو العشب اليابس إلى كتلة صالحة للهضم والتمثيل. وبعض الأنواع الأخرى تقيم مقابر حقيقية في أعلى العمارة، ووجود هذه المقابر يدعو إلى العجب لما نعلمه من أن الأرض يأكل موتاه ويتغذى بها، إلا إذا افترضنا أنه في أيام الوباء أو طارئ آخر قد يقصر عن مجاراة الموت لأكل كل ما يعده له من الرمم، فيجمعها ويكدسها لحين الحاجة على سطح المنزل، حتى إذا جففتها الشمس أحالها إلى مسحوق وجعلها مؤونة يتغذى بها شباب القرية. ومن هذه الأنواع من يذهب إلى أبعد من ذلك فيتخذ مؤونة حية. وذلك أن القوة الخفية تدبر أمور هذه المملكة قد ترى لسبب لا نعلمه أن عدد الرعية قد جاوز الحد المطلوب فتفرز الزائد منها في غرف خصوصية بعد أن تقطع قوائمها حتى لا تهزل بالحركة، ثم تؤكل بالتدريج تبعاً لحاجة المجتمع. وهذا النوع له عناية خاصة بالنظام الصحي، فإن فضلات الدودة وبرازها يجمع في موضع على حدة ويترك إلى أن ينشف ويقسو ويصير ألذ طعماً. هذا هو نظام الوكر كما يبدو لعين الباحث، على أنه قابل للتغيير، لأنك لا تجد في الكائنات حيواناً مثل هذا يكره التقليد ويعرف أن يكون كالإنسان في لينه وخضوعه للأحوال ومجاراته لها، وسيتاح لنا غير مرة في غرض هذا الحديث أن نتحقق ذلك.

ثم قال: وهذا النفق العظيم الممتد تحت الأرض والمرتفع فوقها يتشعب منه أسراب لا نهاية لها تنتهي إلى حيث الأشجار والأدغال والعشب ومنازل الناس، فتجد الدودة ما تحتاج إليه من الخلاووز وهي المادة الحويصلية الجامدة التي تتركب منها خلايا النبات وأليافها. وعلى هذا الوجه تغزو أحياء بأسرها كما ترى في أوستراليا وبعض أنحاء جزيرة سيلان فتمد مسالكها إلى كل صوب، وتجعل تلك الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان. وقد تملأ البلد من جانب إلى جانب كما في الترنسفال وناتال حيث بلغ عدد القرى نحواً من ١٦ في مسافة لا تزيد على ١٣٥ متراً، وفي كاتاشكا العالية نعثر في كل هكتار من الأرض على قرية يبلغ علوها ستة أمتار. والأرضة بخلاف النملة التي تعيش على سطح

الأرض وهي حرة طليقة لا تغادر ظلمات قبورها الرطبة الحارة، ولا تسير إلا في الخفاء فتعيش وتموت دون أن ترى ضوء النهار فهي دودة الظلام الأبدي، وإذ مست الحاجة أن تجتاز للتموين حواجز لا قدرة لها على خرقها فإنها تقوم بتعبئة الجنود والمهندسين، وهؤلاء يبنون ممراً متيناً مركباً من بقايا الخشب المضوغة ومن البراز، ويجعلونه على شكل الأنبوبة، ولا يدعون فرصة تفوت دون الاستفادة منها اقتصاداً في الوقت والعمل والنفقات، فإذا أصابوا شقوقاً فيها فائدة أصلحوها وملسوها وجمعوا بينها. وإذا فتحوا ممرهم على جدار جعلوا شكله كنصف أنبوبة بالاستفادة من الجدار أو على زاوية مؤلفة من جدارين اكتفوا بغموها فخف عليهم ثلثا العمل. وهذا الممر الذي يفتح فيكون على مقياس الحشرة بالضبط يتسع من حين إلى حين ليتسنى لحاملي المؤونة إذا ما تلاقوا أن يفسحوا المجال بعضهم لبعض بدون عائق، وإذا كانت الحركة شديدة والازدحام عظيماً فإن الممر يكون أوسع ويجعل منه مدب أيضاً للذهاب والإياب.

وليسمح لنا القارئ قبل الخروج من هذا النفق أن نلفت نظره إلى خاصة من أغرب وأخفى ما في هذا العالم الكثير الغرائب والأسرار، فقد أشرنا فيما سبق إلى الرطوبة التي لا تتغير في الوكر على الرغم من جفاف الهواء والأرض المحروقة، وعلى الرغم من حرارة الصيف الطويل في تلك الأقاليم التي تغيض فيها الينابيع ويؤكل الزرع وينشف كل ذو حياة حتى جذور الأشجار الكبيرة، والحق أن بقاء هذه الرطوبة في الأحوال التي ذكرناها لمما يدهش له العقل ويقف دونه الفكر وقد أسقط في يديه حيرة وذهولاً، حتى إن لونستون العالم الرحالة تساءل: هل هناك طرق مجهولة تتمكن بها الأرضة من أخذ أوكسجين الهواء وجمعه إلى الهيدروجين الموجود في غذائها النباتي ليتكون بهما الماء الذي تحتاج إليه؟ ذلك افتراض لم يثبته العلم بعد، ولكنه غير بعيد الإمكان وسنرى فيما يلي أن للأرضة من العلم بالكيمياء والبيولوجيا مكاناً نحسدها عليه. انظر شكل ٢٦ وشكل ٢٧.



(شكل ٢٦)
رسم أرضة عاملة

(شكل ٢٧)
جنديان من الأرض. فوق: جندي يقاتل بكفيه. تحت: جندي يقاتل بمحقنته

ثم قال: النملة عدو الأرضة الألد، وهي عداوة قديمة يرجع عهدها إلى ثلاثة ملايين سنة ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية، إلا إذا صح الرأي القائل: إن ما امتازت به من نقب الأرض وحفر الأنفاق هو ابن الحاجة والضرورة دفاعاً عن نفسها وهرباً من النملة. ومن الأرض ما لا يعرف البناء فيجعل سكنه في الأشجار، وهو من النوع البسيط في تركيبه وارتقائه، ولا فرق في وظائفه أو تمييز بين أعماله فيكتفي بسد الثغرة ببقايا الخشب والطين، على أن منه ما خلق لنفسه جنداً خاصاً، وهذا الجند يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين، وترود النملة قرية الأرض دائرة حولها ليل نهار باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها، ولهذا كانت الحيطة لها بالغة أقصى المستطاع، وكانت مراقبة الشقوق شديدة، ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء، فإن هذه المنازل تحتاج إلى الهواء المتجدد، وقد لذلك هندسة ونظام ليس من أقيم ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن.

وإذا أتيح للعدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فإن أول ما يرى هو رأس أحد الجنود المدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفريه إنذاراً وتنبيهاً فيسرع الحرس ثم الفرقة بأسرها وتسد بجماجمها الفتحة وهي تحرك في الهواء أحناكها الهائلة كأنها أدغال من الشوك، أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية حتى تصيب العدو فتعض عليه عضاً شديداً ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه.

وجنود الأرض تبقى بعد تقهقر العدو حيناً أمام الثغرة ثم تعود إلى قشلاقاتها، وترجع العمال الهاربة طبقاً لناموس توزيع العلم الذي يضع البطولة في جانب والخدمة في جانب، شارعة في ترميم ما تخرب بسرعة هائلة مقدماً كل منها كتلة برازه، وقد حسب أن ساعة من هذا العمل السريع تكفي لسد ثلمة بحجم الكف فتأمل. وقد روى سافاج أنه دمر منزلاً للأرض في المساء ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلح وتم ترميمه وعلا بطبقة جديدة من الطين، ولا عجب فإن السرعة في مسألة حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كثار وخاتمة ذلك الاستعمار.

إن هناك قوة خفية تخضع لها جمهورية الأرض، فإذا ازداد عددها مثلاً عن الطبيعي وهو خمس عدد سكان القرية، فإن تلك القوة المحجوبة التي لا تجهل قواعد الحساب على ما يظهر تتكفل حالاً بإزالة العدد الزائد وإرجاع النسبة إلى ما كانت عليه من قبل، ولا تحتاج في ذلك إلى مذبحة كما يجري في ذكور النحل، فإن مائة عامل لا تقوى على جندي واحد من هذه الضواري التي لا تنال إلا من القسم الخلفي الضعيف، بل تفعل ما هو أبسط وأسهل، وذلك بامتناع العمال من إطعام الجنود فتهلك هذه جوعاً.

أما الطريقة التي يتم بها تعداد الجنود المحكوم عليها بالموت وفرزها ووضعها في مكان منفرد فلا تزال غامضة كالكثير من أمور هذه الأحياء العجيبة. وقبل أن نختم هذا الفصل عن جندية مملكة الظلام نذكر للقارئ بعض حالات لها غريبة من الاستعداد أو الميل الموسيقي، فهناك أصوات خاصة تكون تارة إنذاراً وطوراً استنجاداً أو تحيياً أو غير ذلك، وكلها ذات إيقاع موزون تجيب عليه جماعة الأرض بزجل خاص، مما حمل بعض العلماء على القول بأنها تتخاطب لا بالقرون فقط نظير النمل بل بلغة نطق خاصة.

وبديه أن مثل هذا النظام الواسع الدقيق وما فيه من توازن في القوى وتضامن في الأعمال لا يمكن أن يكون بغير تفاهم بين أبنائه، وحسبنا دليلاً على وجود هذا التفاهم انتشار المستعمرة الواحدة في جذوع كثيرة قد تكون متباعدة بعضها عن بعض ولكنها ملتفة حول عرش واحد، أي ليس لها إلا زوج ملكي، فإذا زالت في أحد الجذوع فرقة الاحتياطي التي يحفظها الأرض للتعويض من الملكة في حال الموت أو العجز تسرع سكان الجذع المجاور إلى إعداد فرقة جديدة بدلاً منها. وسنعود إلى الكلام عن هذا الإبدال أو التغيير الذي هو من أغرب وأبدع أشكال السياسة الأرضية.

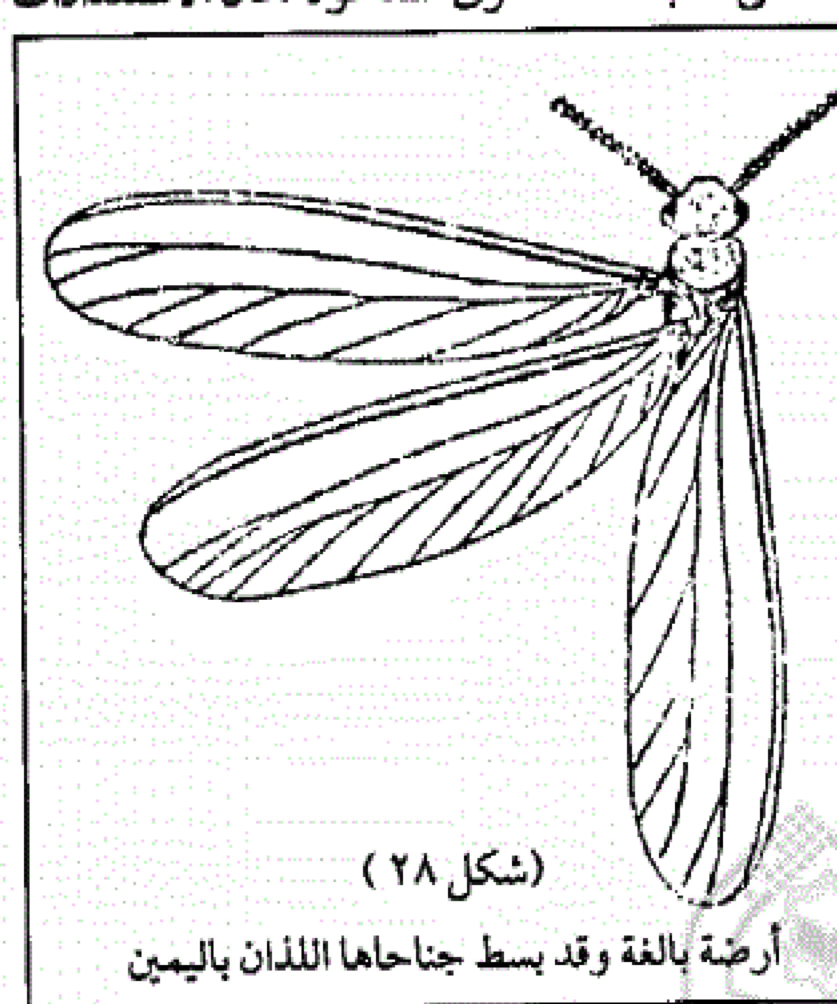
وليست هذه الأصوات من غيهبة أو صفير وإنذار وإيقاع ينم على إحساس موسيقي كل ما عند الأرضة. فإن لها أيضاً حركات موزونة يشترك بها الجمهور ما خلا المولود الجديد كأنها صادرة عن جوقة رقص وأنغام، مما وقف عنده العلماء موقف الدهش والعجز، وهي نوع من الرقص الاختلاجي تثبت فيه القدم ويتهادى الجسم متمايلاً من الوراء إلى الأمام وعلى الجانبين، ويدوم هذا الاختلاج ساعات مع فترات من الراحة قصيرة. وأكثر ما يكون قبيل طيران العرس كأنه حفلة صلاة أو تقديس تفتح الباب لأعظم ضحية تقوم بها الأمة. ومن السهل مرأى هذه الحركات إذا خضخضت أو أثرت فجأة أنابيب الزجاج التي تحبس فيها الأرض في المختبرات، على أن ذلك شاق صعب لندورة بقائها طويلاً في الأنابيب، فإنها تخرق الصمامة من فلين أو معدن وتصل كأحسن الكميين إلى خرط الزجاج.

الملك والملكة في حجرة مستطيلة الشكل ملساء الأرض منخفضة السقف منيعة الجوانب يعيش هذا الزوج الحزين المنقول إليه حفظ النوع دون أن يستطيع من موضعه حراكاً، أما الملك فهو ملك بالاسم لأنه زوج الملكة، ضعيف حقير صغير جبان خجول لا ينفك مختبئاً تحت بطن زوجه. وأما الملكة فهي من أغرب ما يرى في هذا العالم الكثير الغرائب، لأنه لها بطناً ضخماً هائلاً منتفخاً بما فيه من البيض يكاد يتفزر لفرط تمدده، وقد يبلغ طولها به نحو ١٠٠ مليمتر حالة كون العامل لا يتجاوز ٧ مليمترات طولاً، وهي عاجزة عن الحركة لأنها لا تملك غير قوادم صغيرة في صدر غارق في الدهن، ومتوسط ما تضعه من البيض هو واحدة في الثانية، أي ٨٦ ألفاً في اليوم، وثلاثين مليوناً في العام. ولا ينقطع وضعها ليل نهار مدة الأربع أو الخمس السنوات من حياتها كما دل الاختبار والمشاهدة.

فصل

إذا ولى الخريف ودنا موعد المطر دقت ساعة الحرية فإذا بالقلعة الحصينة المحكمة السدود المنفصلة عن العالم الخارجي كل الانفصال والتي لا منافذ لها إلا ما كان تحت الأرض أو ما هو لتجديد الهواء قد أصابها نوع من الجنون، فانفتحت في جوانبها فجأة نخاريب لا تحصى، ومن وراء هذه النخاريب وقفت الجنود تحمي برؤوسها الدخول والخروج، هذه النخاريب تتصل بأسراب وأنفاق قد ازدحمت فيها المجنحات وهي تنتظر بفروغ صبر إفلاتها من الأسر. حتى إذا صدرت الإشارة الخفية وأمرت القوة الحاكمة المجهولة انسحبت الجنود من مواقفها فانكشفت الثغور وشق للعرائس طريق الفضاء. وحينذاك يبدو للعين مشهد يفوق مشهد النحل روعة وجمالاً، فإن البناية العظيمة، نبكة كانت أو هرماً أو قلعة تصير كالمرجل الغالي يكاد ينفجر، ومن شقوقها العديدة يرتفع ضباب كثيف مؤلف من ملايين الأجنحة الشفافة المضطربة في الهواء ساعية وراء الحب سعياً يساوره الريب وتصفعه

الخيبة . منظر جميل غير أنه قصير العمر ككل ما هو حلم أو دخان ، فلا يلبث الضباب أن يهبط بأجمعه إلى الأرض جاعلاً لها غطاء من تلك الأشلاء وهكذا ينتهي العيد وقد نكث الحب بعهوده وحل الموت محله ، ولا يكاد يسدل الستار على هذا المشهد حتى تعقبه مأساة أخرى أشد هولاً ، فان الاستعدادات السابقة وإلهام السليقة الذي لا يخدع يدعوان كل مشتاق إلى تلك المأدبة السنوية التي تقيمها عرائس الأرض فتحتشد العصافير والحيات والهررة والكلاب وسائر الحشرات ولا سيما النمل ، وتهجم على هذه الفرائس المحرومة من الدفاع والتي تغطي أحيانا ألوفاً من الأمتار ، وتبتدئ المجزرة الهائلة كل على قدر جشعه وشهوته ، بل ربما أفرط بعضها في الأكل كالعصافير فخرجت من الوليمة وهي لا تستطيع إقفال مناقرها ، والإنسان نفسه يشترك في اقتسام الغنيمة فيجمع بالمجرفة ويأكله



(شكل ٢٨)
أرضة بالغة وقد بسط جناحاها اللذان باليمين

بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة جافا . وبعد الطيران وخروج آخر مجنح من القرية تقفل هذه بأمر القوة المحجوبة المدبرة وتسد النخاريب في وجه الخارجين كأنما حكم عليهم بالنفي المؤبد . انظر شكل ٢٨ .

تخريب الأرض

إن قرى الأرض بانتشارها وتعددها وشرعها القاسية البالغة منتهى النظام ويحيويتها وتناسلها الهائل قد تكون خطراً عظيماً على البشر ، وربما غطت وجه البسيطة لولا معاندة الأقدار لها وجعلها سريعة العطب وشديدة التأثر من البرد ، فهي لا تحتمل من الحرارة إلا ما كان تحت درجة ٣٦ سنتغراد وفوق ٢٠ ، وهذا ما جعل بقية المناطق في مأمن منها ، على أنها حيث أقامت كانت عاملاً للهدم والتخريب . وما أقلت الأرض في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دائمة مع الإنسان فتأكل بيوته من أساساتها وتفني ما عنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب ونعال ونبات ، ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الخفاء فنعده من خوارق الوجود ، وإنك لتجد أشجاراً كبيرة سليمة في الظاهر ، فلا تكاد تمد إليها يدك حتى تنهار لتأكلها من الباطن .

تلك هي عادة أعمال الأرضة في التخريب المنزلي وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها ، ففي عام ١٨٤٠ أسرت إحدى السفن المعدة لتجارة الرقيق فأدخلت إلى عاصمة سنت إلن « جامستون » نوعاً من الأرض البرازيلي الصغير ذي الجنود المسلحة بالمحاقن ، فهدم قسماً من المدينة وفعل بها فعل الزلازل .

وعام ١٨٧٩ نشب الأرض بسفينة حربية أسبانية في ميناء « فرول » فلم يبق ولم يذر . وزعم الجنرال لكرك أن جزر الأنتيل الفرنسوية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الإنجليز ، لأن الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل وتركت المدافع والذخيرة في حالة لا تصلح للعمل ، ويطول بنا الشرح لو أردنا أن نعدد الجرائم التي يرتكبها هذا العدو الشديد الحول على ضعفه ، وقد سبق فقلنا : إنه غلب الإنسان على أمره في بعض نواحي أوستراليا وجزيرة سيلان فأمسك عن الزراعة ، وفي جزيرة فورموزا أرضة تخرط حتى الهاون وتدك الجدران إذا لم تمسك بالطين إمساكاً شديداً .

وقال أيضاً : لو أعطي للنحل أن يتصور الجحيم لما كان في نظره أشد هولاً من هذا لأنه يجوز لنا أن نعتقد أن النحلة لا تشعر بنفاسة حياتها ولا تعدم لذة الحبور عندما ترتوي من ندي الفجر وتعود ثملة من الزهر فتستقبل بإكرام في قصرها العسلي العاطر . أما الأرضة اللاصقة بالتراب تدب دبيباً في ظلمة خبائها القذر فمن أين لها الراحة أو السرور؟ وأية مكافأة تنتظرها أو ابتسامة تنسيها عملها الشاق؟ وهل عاشت هذه الأحقاب الطوال فقط لتبقى كما هي أو بالأحرى كي لا تموت فتتكاثر بدون لذة وتخلد بلا أمل؟ صورة من أحقر صور الوجود وأشقاها . من يدري الأسرار الروحانية أو الحيوية أو الأثيرية أو الكهربائية التي تختبئ في هذه القرى ولا يصل إلى حل طلاسمها؟ والحق يقال : إن الإنسان كلما تقدم في إدراكه أدرك أنه من أجهل المخلوقات وأضيقها علماً .

إن المبادئ التي تديرها هي أسمى وأمتن نظاماً من أحسن اجتماع بشري ، ولا يمكن التلاعب بالألفاظ للقول بأن حركات الأرض ليست حرة وأنه لا يستطيع الخروج على نظامه الأعمى ، فإن العامل الذي يرفض العمل أو الجندي الذي يهرب من القتال يجازى بالطرد ، أو على الأظهر يقتل ويؤكل ، أفليست هذه الحرية نظير حريتنا؟ .

ثم هل كان الذكاء البشري القالب الوحيد الذي تفرغ فيه قوى الوجود الروحية والعقلية؟ وهل كانت أعظم وأغرب وأعمل وأدق هذه القوى لا تظهر فينا إلا بواسطة الذكاء الذي نعتبره تاج الأرض والعلم . إن أهم شيء في حياتنا أي سرها العميق هو غريب عن الذكاء معاد له ، وما الذكاء إلا اسم نعطيه لإحدى القوى الروحانية التي لا نفقهها . وفي المعنى :

إنّما نحن في اختلاف عقول ... مثلما نحن في اختلاف وجوه

فربما كان للذكاء كما للحياة صور متعددة ، وليس لنا ما يدل على أفضلية بعضها على بعض وما الإنسان إلا فقاعة عدم يريد أن يقيس بها العالم . وبعد هذا كل فإننا لا ندرك كل ما اخترع الأرض لأنه بقطع النظر عما ذكرنا من عمرانه ونظامه في الاقتصاد والاجتماع وتوزيع العمل والتموين والكيمياء والصناعة وتوليد الماء وتحويل الصور والأشكال ؛ فإن هناك أشياء لم يمط عنها اللثام .

لقد تقدمنا الأرض في هذا الوجود بملايين من السنين فليس ببعيد أن يكون اعترضه في طريقه من العقبات ما سيعترضنا يوماً فنحتاج مثله إلى تذليله ، كذلك أن تكون تقلبات الجو والإقليم في الأعصار الجيولوجية أيام كان يقطن شمال أوروبا كما دلت آثاره المكتشفة في إنكلترا وألمانيا وسويسرا قد اضطرته إلى المعيشة تحت الأرض فأفضى به ذلك إلى تضاؤل بصره وكفه عند السواد الأعظم منه . من يدري إذا كانت هذه الرزايا لا تنتظرنا في المستقبل البعيد عندما يجبرنا البرد على الالتجاء إلى

الكهوف والغيران في بطن الأرض، أو إذا كنا نقوى عليها مثله. ثم إننا نجهل طريقة المعاملة عند هذه الحشرات ولا نعرف كم اقتضى لها من الوقت والتجربة قبل الوصول إلى هضم السيللوز. أما تحولها العجيب الذي نستطيع به أن نخلق هذا الشكل أو ذاك فهو فضلاً عن غموضه يعد خطوة واسعة في طريق الابتكار والإبداع لم يتسن بعد للإنسان أن يخطوها. ألا ترى أننا لا نستطيع تحديد الجنس وتكوين الجنين كما نشأ، بل نجهل حتى ساعة الولادة أكان ذكراً أو أنثى. فلو كان لنا علم الأرضة لاستطعنا أن نوجد عند الحاجة والضرورة أبطالاً وعمالاً ومفكرين لا يكون من عندنا اليوم من أهل البطولة والعمل والتفكير بالقياس إليهم شيئاً مذكوراً. ما الذي يمنعنا من الوصول يوماً إلى تضخيم الدماغ آلتنا الوحيدة للدفاع في هذا العالم كما وصل الأرض إلى تضخيم مشافر جنوده ومبيض ملكاته؟ وهل يتمثل للخاطر ما يستطاع عمله يومئذ؟ فإن رجلاً يبلغ من الذكاء أضعاف أضعاف ما بلغه « نيوتن » و« باسكال » مثلاً فهو يقطع من مسافة العلم في ساعات ما نحتاج نحن إلى عصور لاجتيازه، ولعله يصل إلى كشف الحجاب عن أسرار هذا الكون فنفهم لماذا كل هذا الشقاء الذي يحيط بنا وهذه الآلام اللازمة لبلوغ الموت.

هذا الإنسان الجديد قد يصل إلى اكتشاف حياة أخرى، تلك الحياة التي يجذبنا سرابها منذ القدم وقد وعدت بها كل الأديان دون أن تؤيد بالبرهان وجودها. ومهما يكن دماغنا اليوم ضئيلاً فإنا نشعر أحياناً أننا على ضفة هاوية العلم بعيدة الغور، وأن دفعة صغيرة قد تكفي لتلقينا في عبابها، ولعل هذا التضخم الدماغي يكون خشبة الخلاص في الأعصار الجليدية التي تتهدد البشر، على أنه يحق لنا أن نفترض أن هذا الإنسان وجد في سالف الأدهار وأنه كان أوفر ذكاء من إنسان اليوم بما لا يقدر، غير أننا نبحث عنه فلا نجد له أثراً.

لنعد إلى الأرضة من يجسر على القول أن الخاصة التي تتكلم عنها لم تنلها إياها الطبيعة؟ فالطبيعة هي الهادي الوحيد لكل مخلوق، قال « أرنست كاب »: كل مخترعاتنا وأدواتنا هي تقليد لعمل الطبيعة من غير أن نشعر، فمضخاتنا منقولة عن مضخة القلب. وآلة التصوير هي غرفة العين المظلمة، والتلغراف هو جهازنا العصبي، والأشعة المجهولة رؤية الأجسام من خلال الحجب كقراءة الكتاب دون أن يفض عنه الغلاف، واللاسلكي مناجاة الأرواح بواسطة تموجات غير منظورة، وفي تحريك الأجسام بدون أن تمس ـ وهذا غير محقق ـ دلالة على ما يمكن عمله من تغيير شرائع الجاذبية والثقل والانتصار عليها.

ثم قال: يجوز لنا أن ننسب غريزة الحشرات ولا سيما النمل والأرض والنحل إلى الروح المشتركة الخالدة، فقد قلت فيما مر: إن هذه الشعوب هي كذات واحدة أو كائن حي مستقبل، أعضاؤه مؤلفة من خلايا كثيرة متفرقة في الظاهر مجتمعة في الواقع حول الشرعة المركزية، وهذا الخلود المشترك هو السبب الذي من أجله يموت المئات والألوف من الأرض دون أن يؤثر في الذات أو الجسم الواحد المستقل، لأن غيرها يقوم مقامها؛ كما أن اندثار ألوف الخلايا فينا لا يغير حالة ما نعبر عنه بكلمة « أنا » ولهذا تظل الأرضة عائشة كما هي منذ القدم دون أن يضيع لها اختبار أو ينفصل لها وجود، ولا تتشتت تذكاراتها لأن هناك ذاكرة واحدة للجميع.

وهذا ما يفسر لك كيف أن ملكات النحل لا تنفك تبيض منذ ملايين من السنين، ومن دون أن تزور زهرة أو تجمع لقاحاً أو تمتص عسلاً تستطيع أن تخرج عاملات تعرف ما جهلته أمهاتها كل هذه العصور، وللدقيقة الأولى من طيرانها تفهم كل أسرار الطريق وجمع العسل وتربية العذارى وكيمياء القفير، تعرف ذلك لأن الجسم الذي هي إحدى خلياته يعرف ذلك، فتراها منبثة في الفضاء وهي متفرقة الشمل في الظاهر ولكنها مربوطة بالوحدة المركزية، فهي كخلايا جسمنا تعوم في سائل إلا أن هذا السائل أوسع مدى من سائل الجسم البشري وأكثر ليونة وخفة وروحانية.

هل يمثل الأرض لنا نموذجاً للنظام الاجتماعي الآتي؟ من يدري ما يخبئه لنا الغيب مما لا يمر له خيال في تصويراتنا فقد يكفي أحياناً شيء لا يذكر ليقلب نظام الأدب ومقدرات الشعوب، إن غاية ما نصبو إليه اليوم هو حياة جمال ورخاء وسلام ويمن، وقد أتى على الإنسان ساعات من الدهر قارب بها هذه الغاية في أثينا أو الهند أو بعض أدوار المسيحية، فمن يؤكد لنا اليوم إذا كانت الإنسانية تتمشى حقيقة في هذه الطريق لا في الطريق المعاكسة لها.

إن ما لا ريب فيه أن السعادة الكاملة لا نجدها إلا في حياة روحية بحتة، فهل هذه الحياة ممكنة؟ نظرياً نعم، أما عملاً فمن المستحيل ذلك، لأننا لا نرى من حولنا إلا المادة وبسوى المادة لا نشعر. ودماغنا نفسه مادة، فكيف نرجو أن نفهم به غير المادة، كلما جرب الواحد منا أن يفلت من قيود هذه المادة أصابه الدواخ وهبط إلى الحضيض. إن المادة عدو الإنسان الوحيد، وقد اتفقت الأديان على ذلك سواء سمي هذا العدو شراً أم خطيئة، ولهذا كانت حالة الشر محزنة على الأرض لأنه لا سبيل إلى الخلاص من المادة، وكيف الخلاص وكل ما في العالم هو منها، والقوة نفسها والحياة إن هما إلا صورة من صور المادة وشكل من أشكالها، بل الجسم الجامد الذي لا حراك به أو المادة الضخمة الميتة فيها حياة أكثر روحانية من أفكارنا، تلك الحياة الهائلة الخالدة، حياة الكهارب التي لا تتعب متحركة كالسيارات حول نواتها المركزية، كيفما أجلنا الفكر نرى شيئاً، وهذا الشيء هو غير العدم. فإما أن يصير «أنا» عظيماً إلى حد أن ينسى معه ذلك الحيوان الصغير الذي كان يقال له الإنسان، أو يبقى حقيراً خاملاً على مدى العصور، وهي لعنة لا يوازيها أكبر عذاب من جحيم المسيحيين. على كل حال يقول «أبكتت» الفيلسوف: لا ينبغي أن نحاول تغيير طبيعة الأشياء فليس هذا بمستطاع ولا بمجد، ولكن على قبولنا بها لنتعلم أن نطبق تصرفاتنا على نواميسها، عشرون قرناً مرت على الإنسان منذ رنت في أذنه هذه الكلمات ولم تصل به بعد إلى نتيجة ترضيه. انتهى. يقول المؤلف عمل الطبيعة يريد عمل خالق الطبيعة. اهـ.

خطاب للمسلمين

أيها المسلمون: هذا اخترته من كتاب «مملكة الظلام» أو «حياة الأرضة» الذي عربه الدكتور «نقولا فياض». نعم أنا أفضت في الكلام على الأرضة ومعيشتها وسياستها ونظامها، وإنما حركني لذلك قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾[سبأ: ١٤]. يا سبحان الله، ما لنا وللأرضة، وما لنا ولمنسأة سليمان، وما لنا ولأكل الأرضة لها، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة؟ عجيب والله هذا القرآن، عجيب والله أن تكون هذه الكلمات

باعثة لي على تعقب أحوال الأرضة، فماذا عرفنا منها؟ عرفنا أن لله جنوداً وجنوداً، وتلك الجنود لها ملوك ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة، وعرفنا أن في أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علماً عسى أن يرتقي به الإنسان في مستقبل الزمان، ولقد ظنوا أن هذه الحشرة الحقيرة قدرت أن تستخرج الماء من المواد التي حولها، يا الله أنا أتوجه إليك وأسألك أن تبعث في نفوس قراء هذا التفسير حباً للعمل وحباً للعلم والحكمة، حتى يكون للمسلمين نظام مع الأمم حولهم، به يعيشون في حبور وحياة منتظمة، فأنت الولي الحميد.

أيها المسلمون: إن الناس تمنوا الطيران فطاروا، وهاهم أولاء يتمنون عقولاً أرقى من هذه العقول ويسعون لكسبها، فسيروا مع الناس بل أنتم أولى، فإن إشارات القرآن تبعث المسلم على العمل. أوَلا ترون أيها المسلمون الصادقون كيف كان سليمان في هذه السورة هو سليمان في سورة «النمل»؟ ويا عجباً يا الله وألف عجب! اللهم إنك أنت المعلم، أنت الملهم أنت الحكيم، كيف كان سليمان في سورة «النمل» يبتسم ضاحكاً من النملة، ونفس سليمان في هذه السورة تدل على موته دابة الأرض.

يا عجباً! كأن الله يقول لكم: أيها المسلمون، إن بين النملة والأرضة علاقة فلتدرسوها، فعلاقتها في القرآن قصة سليمان، وعلاقتها في العلم اشتراكهما في المدنية والسياسة، وأن بينهما عداوة فالدرس الدرس.

الله أكبر. قصة سليمان في هذه السورة وفي سورة «النمل» يفهمها العامة والخاصة، شارحة للصدور، وهي باب لدراسة النمل ولدراسة الأرضة. فلئن عجب العامة الخاصة من قصة سليمان مع النمل وقصته مع الأرضة فوالله ليكونن عجبهم أكثر وأكثر حين يدرسون العجائب التي أبدعها الله فيهما، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. انتهى المقام الأول في المبحث الأول.

المقام الثاني في المبحث الأول في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾

اعلم أن طائفة من الناس يقرؤون عزائم ودعوات كفرية أو دينية أو غيرها، ويزعمون أنها تقضي حاجاتهم بها، وينادون أسماء شيطانية ويبتهلون إليها، وهذا في الحقيقة نوع من العبادة، وما الفرق بينهما وبين الأصنام؟ فالأصنام شفعاء وهؤلاء شفعاء. فليحذر المسلمون من هذا، إن الإيمان بالله يعلي الهمم ويرفع النفوس إلى المستوى الرفيع الشريف كما كان الصحابة رضوان الله عليهم. فعلوّ الهمة هو الذي يرفع الإنسان عن العوالم كلها إلى بارئها، فينال ما يريد إذا كان ذا عزيمة صادقة. ثم إن الذين يحضرون الأرواح في هذا العصر يعلقون آمالاً عليها في أمورهم الدنيوية أو في معرفة الغيب، وهذا كله خروج عن القضايا الدينية ثم لا يفيد فاعله ويكون ذلك أشبه بالعبادة ويحجب الإنسان عن ربه. ومن ذلك ما تقدم في هذا التفسير من الأوفاق التي كان يستعملها قدماء المصريين كالمثلث والمربع والمخمس إلى المتسع للكواكب السبعة. والمسلمون اليوم هكذا يستعملها بعضهم وهو لا يدري أنها كالشرك بالله تعالى. ولأورد لك أسئلة من كتاب «الأرواح» ألقاها العلماء على الأرواح

في أوروبا لما استحضروها . وهاك بيانها :

(س) هل من أسئلة تكرهها الأرواح الناقصة؟ .

(ج) لا تكره إلا الأسئلة التي تزيح النقاب عن جهلها وخداعها .

(س) ما قولك فيمن يتخذون المخابرة الروحانية باباً للهو والهزل أو لاستنباء أمور تهمّ صوالحهم الزمنية؟ .

(ج) هؤلاء تسر بهم جداً الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخداعهم .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل؟ .

(ج) كلا ، إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

(س) ما هي أخص دلائل النبوآت الكاذبة؟ .

(ج) هي التي لا تأتي بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص .

(س) لماذا تكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لا تعين زمن حدوثه؟ .

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة ، إن الروح يستشعر أحياناً وقوع أمر إنّما زمن وقوعه يكون في الغالب متعلقاً بحوادث لم تتم بعد ولا يعلمها إلا الله ، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقيقة وتحدد الأيام والساعات من دون التفات إلى صحة النبوءة وعدمها ، ومن الواجب هاهنا أن أكرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتكم وترقيكم الروحي لا العرافة وفتح الفأل ، فمن أحب هذا تألفه الأرواح الماكرة ويصبح ألعوبة بين يديها . انتهى المقصود من كتاب الأرواح .

وهذا يكفيك من ذلك ، فإن الأسئلة توضح الآية هنا إيضاحاً كافياً ، إن هذا من أعظم معجزات القرآن ، كيف لا ونحن نجد أن أوروبا التي لم تسمع أن في القرآن هذه القصة لعدم إيمانها به وتكون نتيجة حديثها مع الأرواح أن الجن لا تعرف خبر الغيب ، ولا معنى للجن إلا النفوس الناقصة ، كما لا معنى للملائكة إلا الأرواح الكاملة وكل منهما درجات ، إن هذا معجزة وأي معجزة ، إن المسلم يمر على مثل هذا مراً ويكتفي بالإيمان ، أما اليوم فإنه يرى اليقين في العلم ، فإن كذبت أيها الفطن الفرنجة فدونك العلم فاستعمل الطرق التي أوضحتها في كتابي « الأرواح » ، واجعل نصب عينيك الحقائق لا الأمور الدنيوية ، وهناك تعرف بنفسك لا بأوروبا لكن مع الصبر والجد ، وإن أردت إلا الزيادة فعليك بكتاب « الأرواح » ، وإن شككت فاستقل بالعلم . واعلم أن الله جعل هذا الزمن هو الزمان الذي فيه يظهر سر القرآن ، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل : ٩٣] .

فالمسلمون إن لم يدرسوا فليرحلوا من العالم ويأتي الله بأمم أخرى لهذا الدين أرقى من هذه الأمم النائمة ، فأما الكسل والتكذيب والاستهزاء فليس يجدي في زمن العرفان والعلم والحكمة والارتقاء . وبهذا تمّ الكلام على المبحث الأول بمقاميه معاً .

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾

تذكرة في ليلة الخميس ١٣ يناير سنة ١٩٣٠

في هذا اليوم حضر عندي رجل عظيم ذكي عالم وقال لي : ألم تطلع على « مجلة الدنيا المصورة » في هذا الأسبوع ، فقلت : ماذا فيها؟ فقال : إن فيها أمراً عجباً ، وقص عليّ ما يأتي :

يد خفية تكتب من وراء المجهول

يعمر البرلمان المصري عاماً واحداً، وتعقد المعاهدة في خلال ستة أشهر

بين المنجمين وقراء الطوالع الذين هبطوا مصر رجل هندي له طريقة مدهشة في الإجابة عن المستقبل يحار العقل في تعليلها، وهل هي سحر ساحر عليم، أم شعوذة مشعوذ ماهر في خداع العقول والأبصار، ونحن نسرد فيما يلي بعض أعمال هذا الرجل الخارقة للعادة كما شاهدها مندوبنا ونترك للقارئ تعليلها.

في شقة بسيطة الرياش يقيم رجل هندي لا ينبئك مظهره عن خبره، وكانت زياراتي لهذا الرجل حافلة بالمدهشات، ولو أني حاولت أن أدرك خفي أمره وأستطلع وسيلته التي يتوسل بها لتأدية أعماله فلم أوفق في محاولتي مع يقيني بأن الأمر مهارة خارقة لا علاقة لها بالأرواح. لا ترى في شقته مظاهر التأثير والروعة التي تصحب عادة منازل المنجمين وعلماء الروحانيات، بل هي ذات فراش بسيط أشبه بمكتب وكيل أعمال أو محام مبتدئ، ورأيته فتى صغر السن هادئ النظرات حليق الوجه يتحدث في ابتسامة صغيرة وبسيطة. سألني بالإنجليزية: أتريد أن تعرف شيئاً عن مستقبلك؟ أجبته: نعم. ودخلت حجرة مكتبه وليس فيها إلا مكتب واحد عليه أوراق متناثرة وأقلام ودفاتر عادية وقد طليت الحجرة باللون الأسود، ولما رآني أنظر لهذا الطلاء الأسود القاتم مستغرباً، قال لي في هدوء: إنني أهيئ الحجرة لاستحضار الأرواح فإنها لا تظهر إلا في الظلام. وسألته: وفي أي ثوب تظهر الرواح؟ فأجاب: تظهر متشكلة بشكلها الأرضي فتراها كما عهدتها على سطح الأرض في الجسم نفسه والملابس نفسها، ثم طلب مني أن أكتب أربعة أسئلة على أربع ورقات صغيرة عما أود معرفته من شؤون المستقبل، وتناولت ورقة صغيرة قطعتها على أربع أقسام، وبينما أنا أقطعها بتأنّ وبطء استأذن مني ليغيب دقيقتين وترك الحجرة وانصرف، ومضيت أنظر حولي فلم أجد في الحجرة ما يريب وتناولت قلمي فكتبت على كل ورقة سؤالاً ثم طويت الورق وأودعته يدي، وعاد الرجل بعد قليل وجلس إلى مكتبه وسألني: هل كتبت الأسئلة؟ فأجبته: نعم. وجلس يسطر جداول ورموزاً والورق في يدي اليسرى مطوي طيات عديدة وقد أطبقت كفي عليه، ثم طلب مني أن أكتب فكتبت بيدي اليمنى على ورق أمامي، وأغمض عينيه ثم أملاني السؤال الأول فالثاني فالثالث فالرابع كلمة كلمة وما زالت الأوراق مطوية في يدي، وكان يملي عليّ الكلمات وكأن نظره المغمض يخترق كفي ويخترق الأوراق المطوية ويتلو ما فيها. وكان بين الأسئلة سؤال كتبت فيه كلمة ومحوتها وكتبت كلمة محلها، فلما أملاني هذا السؤال ذكر الكلمة الأولى ثم طلب مني أن أمحوها بالقلم وأكتب بدلها الكلمة الثانية. كتبت الأسئلة وأنا أبتسم وأغالب دهشتي، ثم ناولني القلم من يده وطلب مني أن أضعه فوق الورق في كفي فوضعته، ثم استعاده مني وقال لي: افتح الورقات فإن الأجوبة مكتوبة فيه. ففتحت الورق فرأيت في أسفل كل سؤال الجواب عليه مكتوباً بالقلم الرصاص، وكانت الأوراق لم تخرج من كفي وهي مطوية فيه طياً محكماً. وكانت حقاً مفاجأة لطيفة مدهشة. وقلت له: لنتحدث كما يتحدث الأصدقاء، ما سر هذه المقدرة العجيبة؟ أجابني بهدوء: سرها بسيط فإني متصل بالأرواح أسخرها لخدمتي وأستطلع أنباءها، فهي توحي إليّ ما يخفى أمره على الناس. ولكني لم أشاركه القول بأن هذا

السر أمر بسيط، وإنّما أعدت سؤالي: ومن أين لك هذه المقدرة؟ وصمت طويلاً وكأنّما يستعيد ذكريات قديمة، ثم قال: سأحدثك بما لم أحدث به أحداً. كنت وأنا في التاسعة عشرة من عمري طالباً في «لاهور» ببلاد البنجاب في الهند، وكنت أقيم وحدي في شقة استأجرتها فأقضي نهاري في الجامعة وليلي في منزلي أراجع دروسي. وفي هذه الأيام تعارفت بفتاة هندية حسناء كانت طفلة صغيرة، ولكنها جمعت كل معاني الأنوثة الفاتنة وأسرار الجمال الآخذ. همت بحبها وطغى غرامها على كل حواسي حتى أصبحت ولا تشغلني إلا فكرة واحدة مستولية على كل مشاعري ومالئة كل رأسي وهي هذه الفتاة. ولكن الحجاب القاسي كان يحرمني من لقائها ورؤيتها. وكانت تمرّ بي الأيام دون أن أراها فأذوب وجداً وتضطرب أفكاري وتختل أعصابي. وفي ذات ليلة جلست في منزلي وحيداً وأنا أفكر فيها بكل قواي، أفكر فيها وأرغب في رؤيتها وأحصر كل أفكاري وحواسي في هذه الرغبة القوية، وخيّل لي أن كل قوى العالم اجتمعت في ذهني، ثم تمركزت فيّ هذه الرغبة القوية، وإذ ذاك خيّل إليّ أن قوة تفكيري وشدّة الرغبة الصادرة من روحي تخترق الحوائط والجدران والحوائل وتصل إلى هذه الفتاة في خدرها وتستدعيها، وأنها تجيء ملبية دعوتي الحارّة، وأنها تقترب من منزلي، وأنها تسير تحت نوافذي، وأطللت من النافذة فرأيتها تسير في الطريق وهي تنظر إلى نوافذ حجرتي. وحدث ذلك مراراً فكنت كلما فكرت فيها رأيتها أمامي. ولا ريب أن في تلك إحدى معجزات الغرام والرغبة القوية. ولكني لم أهنأ بحبيبتي فقد اختطفها الموت وهي في زهرة صباها، وحزنت عليها حزناً شديداً فهجرت الجامعة والدروس وأهملت نفسي ورحت كالمجنون لا أريد من حياتي إلا أن أراها بعد موتها. وكنت أعلم أن بين جبال الهند وغاباتها يعيش جماعة الفقراء والدراويش الذين يقال عنهم: إنهم من طائفة قضت أيامها في التنسك والعبادة حتى أزيلت عنها الحجب واتصلت بعوالم الأرواح وتجردت من شوائب المادة الدنيوية، فبلغت نفوسها درجة فائقة من القداسة. ودعاني شغفي بحبيبتي الميتة وجنوني ورغبتي في رؤيتها إلى الهيام في الغابات والجبال وإلى غشيان مجامع الدراويش الفقراء في العراء، أملاً بأن أستطيع أن أرى روح حبيبتي، وأخذت عهداً على بعض شيوخهم، وكان لا بد لي من قضاء مدة التجربة بينهم. ولا أزال أذكر تلك الليالي الطويلة والمحن التي قاسيتها فيها حيث كنا نجلس حلقة كبيرة في وسط الغابة تحت ضوء النجوم نتلو آيات معينة من القرآن الكريم ونكرر تلاوتها آلافاً وآلافاً من المرات حتى تتجرد أرواحنا عن أجسامنا ونسبح في عالم كله هدوء وسكينة، وكنت أرى بعض وحوش الغابة تتسلل نحونا، فهذا فهد ضارٍ يقف عن بعد يحملق إلينا وكأن عينيه شعلتان تتقدان في ظلام الليل، وهذا أفعوان ضخم يزحف بين الحشائش ويدور حولنا، وكان الفزع يتولاني في أول الأمر، ولكني أرى الدراويش في ذكرهم وتلاوتهم لا يشعرون بتلك الضواري ولا يقيمون لها وزناً، فأجمع قواي وأشد عليّ قلبي وأستمر في القراءة والذكر. وفي صباح اليوم التالي أسأل أحد رفاقي عن هذه الكواسر، فيجيبني: إنها الأرواح مشكلة في أشكال مخيفة تحاول قطع قراءتنا حتى لا نتسلط عليها، وتسعى لإيقاع الرعب في قلوبنا ولهزيمتنا قبل أن نهزمها، وقضيت أربعين يوماً على هذه الحالة وأنا لا أتناول طعاماً ولا أرتدي ثياباً ولا أقطع وقتي إلا بالتلاوة والذكر، وفي ختام اليوم الأربعين شعرت بأني بلغت ما بلغ أساتذتي الدراويش وأنني أصبحت سيداً على الأرواح أناديها فتلبي ندائي.

وسألته : ومن كانت أول روح استحضرتها؟ قال بهدوء : روح حبيبتي طبعاً وقد لبت ندائي وحادثتها وحادثتني .

ومما يذكر عن نبوآت رجل الأسرار واسمه الحقيقي «مير عبد الحميد» أن أحد النواب الوفديين ذهب إليه ليسأله في أمور سياسية وكتب الأسئلة وطواها وكان بينها هذان السؤالان :

(١) كم يعمر البرلمان؟ .

(٢) هل تعقد بين مصر وإنجلترا معاهدة في بحر ستة أشهر قادمة؟ .

فكان الجواب على السؤال الأول : يعمر سنة واحدة . والجواب على السؤال الثاني : نعم . ولم يجد النائب في هذين الجوابين ما يشفي غليله فإن حل البرلمان لا يمكن أن يحدث إذا أبرمت المعاهدة .

وسأل سؤالاً ثانياً : إذا كان البرلمان سوف يعمر عاماً واحداً فما هو نظام الحكم الذي يتلوه؟ وكان الجواب : يكون الحكم في يد حزب الأغلبية ويبقى في يده طويلاً . وكأن هذا الجواب يدل على أن الحكومة الوفدية سوف تحل البرلمان بعد سنة واحدة ثم تعود الانتخابات فيخرج حزب الأغلبية وهو الوفد فائزاً ويتولى الحكم مدة طويلة ، والله أعلم . اهـ .

فلما قال صاحبي ذلك وقد قرأه في المجلة بنصه ، قلت له : وهل لهذا علاقة بالتفسير . قال : نعم ، أذكرك بما تقدم في سورة « النور » ، ألم تذكر هناك الأسئلة التي وجهها الناس إلى الشيخ أحمد ابن المبارك تلميذ الشيخ الدباغ في أمر السحاب والمطر والبرق والجبال التي في السماء ، ولما رأى الشيخ ابن المبارك أن علماء الإسلام قبله لم يعرفوا أغلب تلك العجائب هرع إلى الشيخ الدباغ فأجابه وشرح مسائل لم يظهرها إلا العلم الحديث ، فكان ذلك معجزة ، إذ ظهر أن في الجو جبالاً من ثلج ينزل منها برد وقد رسمتها أنت هناك ، وأنت قلت : إن طبيعة دين الإسلام أن يسأل الناس علماء عن كل شيء لأن القرآن يذكر أموراً كثيرة ، فإذا قال الله لنا : إن الجنّ لا يعلمون الغيب ، فما بالنا نرى رجلاً هندياً في هذه القصة يخبرنا نحن المصريين بأن المعاهدة ستكون بعد ستة أشهر ، وأن البرلمان يغير ببرلمان آخر بعد سنة ، وكيف قدرت روحه أن تحضر محبوبته إلى منزله من وراء الجدران والحيطان ، وكيف يخاطبها بعد الموت . وإذا لم يكن تفسير القرآن هو الذي يوضح ذلك فمن أين نعرفه؟ ثم هذا الفتى الهندي يتمتع الآن بهذه المزية ، فهل من المصلحة أن نسعى لنظيرها؟ لأن الناس جميعاً عندهم استعداد لأمثال هذا وإن كانوا فيها مختلفين ، فقلت له : إن قولك يتضمن ما يأتي :

(١) كيف قويت روح الهندي على أن ينظر الفتاة من وراء حجاب؟ .

(٢) كيف قدر أن يحادث الأرواح؟ .

(٣) كيف يعلم الغيب؟ والله يقول : إن الجن لا يعلمون الغيب ، وهو يقول : إن الأرواح تعلمه ذلك الغيب؟ .

(١) أما قوته على رؤية الفتاة من وراء حجاب فذلك يرجع إلى قوة في نفوس جميع الناس وهذه القوة لا تتجلى إلا نادراً جداً ، لأن قوانا في الأرض موزعة على أعمالنا ، ألا ترى أن أرواحنا موزعة قواها على الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة وعلى ما فينا من قوى شهوية وقوى غضبية وعواطف وعادات وأحوال لا حصر لها ، وكل هذه مفرعات عن النفوس ، فإذا حصر

المرء فكره في أمر ما نال منه على مقدار ما قسم له، وهذا الفتى حصر فكره في الفتاة، وجميع السحرة في العالم من هذا الباب دخلوا، فنفوسهم حصروها في أمور خاصة بطريق خاص بهم تلقوه عن غيرهم وقد قللوا الشهوات فأثر على مقدار عزيمتهم، وهذا الفتى ما حصر فكره إلا الحب الذي استحوذ على جميع قواه، فصار هذا الجسم وحواسه الظاهرة والباطنة كأنها ملغاة لا عمل لها، وهذا تقدم تقريره في موطن من هذا التفسير.

(٢) وأما محادثته للأرواح فهو مفرع على ما قبله، وقد تقدم تقريره في هذا التفسير كثيراً، وهو مشروح شرحاً تاماً في كتابي «الأرواح» الذي ألفته لذلك. إن النفس متى انصرفت عن أحوال هذا العالم اطلعت على عوالم أخرى.

(٣) وأما جواب السؤال الثالث وهو المذكور سابقاً، وهو أن الأرواح لا تعلم الغيب سواء أكانت في أجسامها أم كانت مجردة منها بعد الموت، وهذا الفتى الهندي إما أن يكون إخباره بالغيب في أمر البرلمان من قوّة نفسية فيه، وإما أن يكون بإخبار الأرواح، وكلاهما ينبغي البحث فيه.

نحن الآن لا نعلم هل يصدق ذلك التنبؤ أم يكذب؟ ولم تمض الستة الأشهر ولم تمض السنة حتى نحكم بصدقه أو كذبه، والذي ثبت في علم الأرواح أنها لا تقدر أن تعرف الأحوال المهمة في الأرض، وإذا أخبرت وقع الصدق والكذب فيها إلا إذا كانت أرواحاً عالياً تسخر بأمر لغرض شريف فهذه يباح لها ذلك الإخبار، فأما الأرواح الصغيرة فإنها طائشة تخبر بما لا حظ له من الصدق استهزاء بالسائل لأنها تحب الهزء والسخرية.

هذا، ثم إن منزلة هذا الفتى الهندي في النوع الإنساني وأمثاله من أولئك المتبتلين ليست هي المنزلة السامية. نحن خلقنا هنا في الأرض ولنا أعضاء وقوى وعقول فلا بد أن نعطيها حقها من العمل وحولنا عوالم أرضية وسماوية فلا بد أن نعطيها حقها من الدرس، وحولنا نوع الإنسان فلا بد من أن نكون نافعين له بقدر طاقتنا، أما تعطيل قوانا واتكالنا على الأرواح فهذا نقص فينا، كما هو مفسر في كتاب «الأرواح»، وليس للإخبار بالغيب في عالمنا مزية شريفة إذا صدق، ولذلك قلّ الصدق في الإخبار بالغيب، لأن الإنسان إذا علم المستقبل أهمل الحاضر فنام وكسل، وهذه هي سنة العوالم الأرضية، الأرواح الصغيرة تخبر صدقاً وكذباً، والأرواح العالية لا تخبر إلا بالأمور العالية للمنافع العامة وذلك قليل ونادر، إن عالمنا يضرّ به العلم بالمستقبل فالجهل به هو السنة الصالحة في أرضنا، وهذا الفتى الهندي هو وأمثاله اليوم لا يفيدون الإنسانية أموراً عملية. نعم ربما كانت حياتهم مذكرة للناس بعوالم الأرواح، فهم من هذه الوجهة قد أدوا خدمة وإن لم يقصدوها، ولكن العرافة والإخبار بالغيب أكثرها كذب لا يصح التعويل عليه، ولو صح ذلك لكان وبالاً على الناس إذ يعلمهم الكسل والاتكال على المستقبل، ومن عجب أن يقول: إن الأرواح تظهر للنساك في أشكال مخيفة خشية التسلط عليها لهذه العبادات. وهذا دلالة على أنها أرواح من عوالم منحطة ليست راقية، فإذا سخرت لهؤلاء النساك فهي أشبه بالاستعمار في الأرض. فالأمم التي عندها أسلحة تغزو التي لا أسلحة لها وهؤلاء ضعاف. إذن ظهورهم وإخافتهم لهؤلاء النساك وقت القراءة أشبه بمحاربة لإحباط أعمالهم فإذا تغلب النساك على تلك الأرواح استخدموها. إذن هذه الأرواح صغيرة ضعيفة يسخرها كل من

قدر عليها، وهذه هي الأرواح التي تكذب تارة وتصدق تارة أخرى، وإخبارها بالغيب مشكوك فيه لأنها محجوبة عن المستقبل، إذ العلم بالمستقبل لا يعطى إلا لأرواح عالية إلى حد مخصوص ليساعدها فيما تزاوله من إصلاح العوالم الأرضية. هذا ما يعطيه علم الأرواح. فأما هذه الموهبة التي أعطيها الشاب الهندي فليست مزية شريفة في الإنسانية.

وإذا قرأت ما تقدم في سورة «الحج» في صحيفة ٦٥ وما بعدها من الجزء الحادي عشر واطلعت على كلام الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص والشيخ الشعراني وجدت هذا المقام موضحاً كل الإيضاح، وأن أهل الصلاح الذين اطلعوا على الأمور الغائبة ليس لهم حظ في الآخرة لأنها شهوة نفسية، وربما يموت الصالح مفلساً لأنه أخذ حظه في الدنيا. ولذلك ترى الشيخ الخواص يقول: إياك أن تقبل الفتوح والاطلاع على المغيبات بل استعذ بالله من ذلك. وترى الشيخ الدباغ فسر لنا آيات وأحاديث بما لم يقله غيره من العلم والحكمة العالية، وهو هو نفسه يقول: إن الذين يعبدون الله ويقصدون بالعبادة هذه الأمور يصبحون أخسّ نوع الإنسان.

فاقرأ هذا المقام هناك وفي سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الآية: ٥١]، وفي موضع آخر قبله في نفس السورة. وإذا كان العباد والصالحون إذا قرؤوا القرآن وعبدوا الله لهذه المقاصد مذمومين، فما بالك بهذا الفتى الذي قصد من التجرد أن يخاطب محبوبته.

ثم إن القرآن لم ينزل لمثل هذا. كلا ثم كلا. على أن حصر النفس وإحضار الأرواح لا يتوقف على القرآن ولا على كتاب سماوي، بل حصر النفس يحصل بأمور كثيرة، ومنها اتصاله بذلك الشيخ ومنها تلك العزائم التي تشتمل على ألفاظ لا يفهمها القارئ وهو مشغول بقراءتها، فليس المقصود من قراءة القرآن أمثال هذا، بل هو نزل لتهذيب النفوس وإصلاح الأمم لا إخراجنا من الجسمية إلى حال الروحية مرة واحدة. هذا ما أعلم في هذا المقام، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب نصف الليل ويوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٠م.

فلما أتممت هذا المقال جاء إليّ أحد الإخوان وقال: انظر!! انظر إلى ما جاء في مجلة «الدنيا المصوّرة» بتاريخ يوم الأحد ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠م، وقرأ ما نصه:

قوة الإرادة تنتج أعمالاً خارقة

كيف يسلط المشعوذون قوى إرادتهم فيأتون بالغرائب والمدهشات

ذلك أن في الإنسان من القوى المعنوية المجهولة ما لم يستطع العلم بعد الوقوف على سرها أو كشف حقائقها، ففي الناس من سمعنا عنهم أن نافورة من المياه المتدفقة تخرج من بين أصابعهم ساعات وأياماً بلا انقطاع، إلى أن يبلغ حجمها أضعاف حجم الجسم الذي تخرج منه لو فرضنا أنه استحال كله ماء. ومنهم من يضع نفسه في صندوق محكم الغلق ويبقى فيه مسدود الأنف والمنافس عدة أيام وليال، ثم يخرج منه كأن لم يكن في الأمر شيء، ومنذ آلاف السنين عرفت قوة الإدارة واستعملت ولكن في دوائر محدودة وبين أفراد قلائل جداً، على النحو الذي يمارسه فقراء الهنود إذ ينامون على المسامير والحراب دون أن يشعروا بألم، ويمزقون جلودهم بالمدي والأسنة دون توجع أو أنين.

عملية جراحية بدون مخدر

ويقول علماء هذا العصر: إن كل إنسان يملك هذه القوى التي نرى أنها خارقة، وكل ما يعوزه هو تنميتها وتدريبها. فقد حدث أخيراً في أحد المستشفيات أن مريضاً رفض أن يتعاطى مخدراً قبل إجراء عملية جراحية خطيرة، وطلب إلى الطبيب أن يقوم بعمله رأساً، بعد أن تمكن بقوة إرادته من أن ينام نوماً لم يشعر في غضونه بمبضع الجراح، وقد فحص الأطباء بعض ذوي قوّة الإرادة فقرروا أنهم استطاعوا أن يزيدوا عدد النبض العادي أو يقللوه كما يريدون، بل تمكن بعضهم من أن يوقف دقات القلب زمناً ما.

طهرابك في لندن

لقد كان الناس يعدون فقراء الهنود إلى عهد قريب دجاجلة يغشون ويخدعون ويكذبون فيما يظهرونه من الخوارق، ولكن العلم الحديث يعترف بأنهم ليسوا كذلك، إنّما هم قوم ذوو قوة إرادة نافذة وسيطرة عقلية على الجسم جميعه. ولعل القراء يذكرون ما عرضه «طهرا بك» في مصر من مدة قريبة، وقد عرض هذا الرجل كثيراً من أعماله الخارقة في لندن فلم ير الأطباء أن فيها شبهة الكذب والخديعة. ذلك أنه دعا أربعين طبيباً إنجليزياً وأجلسهم معه على المسرح الذي كان يشتغل فيه، ثم غرز سكيناً حادة في أجزاء من جسمه كان يسيل الدم منها وينحبس تبعاً لإرادته. ثم استلقى أمام الأطباء على لوحة من المسامير المدببة، وأوقف رجلاً ضخماً على صدره دون أن يشعر بأي ألم، ولما نزل الرجل جيء بحجر كبير وضع مكانه ووقف رجلان يتناوبان ضرب هذا الحجر بفأس حتى تكسر على صدر «طهرا بك» الذي قام بعد ذلك سليماً معافى. وقد فحص الأطباء ظهره فوجدوا به آثار دخول المسامير فيه، ولكنهم لم يروا أثراً لقطرة دم مهراقة.

وقد ظهر في برلين في العام الماضي رجل قام بأمثال هذه الأعمال جميعاً، وزاد عليها أنه كان يظهر للجمهور صليباً دامياً على أديم ظهره، ثم يخفيه ويعود إلى إظهاره حسب إرادته. وقد قال هذا الرجل إنه رسم بموسى حلاقة صليباً على ظهره بحيث لا يمكن أن تراه العين. فحينما كان يريد إظهاره للناس يتسلط بقوّة إرادته على الدورة الدموية فتدفع الدم إلى خطوط ذلك الصليب، فيظهر للناس دامياً رهيباً، ثم يأمر الدورة الدموية بقوّة إرادته فتمتص الدم من الصليب فتنمحي آثاره.

يشنق نائم

وقد أمكن تعليل مكان عدم الشعور بالألم باستعمال قوّة السيطرة العقلية على الجسم، بما رآه في التنويم المغناطيسي حيث لا يشعر المنوّم بأي ألم تحدثه به، أو توجع لما يصاب به أثناء نومه.

وأغرب من هذا ما حدث في مدينة شيكاجو، إذ شنق شاب اسمه «هارفي شيرش» وهو نائم، فقد حوكم هذا الشاب من أجل حادثتي قتل فظيعتين ثبتت إدانته فيهما، وقضي عليه بالإعدام شنقاً.

وقد غلب الخوف والفزع ذلك السفاح، فعمد إلى السيطرة على نفسه ببطء إلى أن غدا لا يشعر بشيء مطلقاً مما حوله، ولبث نائماً في سبات عميق عدة أيام قبل تنفيذ الحكم، وأخفقت كافة المحاولات لإيقاظه، وحمل يوم التنفيذ غائب الوعي إلى المشنقة حيث شنق وهو في غيبوبة وعدم شعور تامين.

وهذا مما يعزز صدق الأفعال التي يقوم بها فقراء الهنود وغيرهم، إذ أن السيطرة على الجسم بقوة الإرادة، وتركيز القوى المعنوية الخفية ضد الشعور بالألم، كل هذا يزعزع اعتقادنا بأن هناك قوة غير طبيعية، وخوارق شاذة ليس في مقدور البشر حل مبهماتها.

تخونه إرادته

وقد فحصت لجنة طبية في بومباي «الهند» فقير استطاع أن يوقف النبض في أحد ذراعيه دون الآخر، ويمكن من أن يوقف دقات قلبه لمدة ستة ثوان حينما أمر قلبه بذلك. وقد استطاع أيضاً أن يوقف حركة التنفس بضع دقائق وبقي بعد ذلك حياً. على أن قوة الإرادة التي تمهد لهؤلاء الناس التغلب على هذه الأشياء الخطيرة قد تخونهم في أحرج المواقف فلا يكون نصيبهم منها أقل من الموت، كما حدث للفقير «بلاكمان»، فقد مارس هذا الرجل لعبة المكوث مدفوناً تحت الرمل في أحد المسارح دون تنفس بضع ساعات، وأجرى هذه اللعبة عشرات ومئات المرات كان يقوم بعدها دون أن يصاب بشيء. ولكن حدث مرة وهي الأخيرة أن أخرجوه بعد المدة المقررة وقد فارق الحياة. فقد خانت الرجل قوة إرادته في أرهب موقف وأخطر ساعة.

الموت والحياة بالإرادة

ومن الممكن أن تتأثر الحياة والموت بالإرادة، ويعزز هذا القول ما رواه أخيراً الماجور «سميث حكمدار» بوليس مستعمرة الساحل الذهبي في أفريقيا، ذلك أن أحد كبار الوطنيين المتعلمين، تأثر من مشادة وشجار حدثا بينه وبين أحد مواطنيه، فأعمل إرادته في نفسه ومات في اليوم التالي دون أن يكتشف الأطباء أي سبب لوفاته أو أي أثر لمرض فيه. انتهى.

فقلت له: إنك لن تفعل شيئاً. ما هو إلا تكرار لما كتبناه هنا، وهو ملخص ما كتبناه في نفس هذا الموضوع في سورة «الإسراء»، وشرحنا نفس هذا الشرح في «طهرابك» المذكور وفي الرجل الألماني.

فقال: حقاً أنت قلت نفس هذه المعاني. فقلت: فاحمد الله على العلم والحكمة. اللهم إنا نحمدك على الحكمة والعلم وإنارة أمم الإسلام في هذا الزمان.

المبحث الثاني: من الفصل الثالث
في سبأ وسيل العرم وعجائب العلم والكشف الحديث

قد ذكرت لك في أول السورة أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبأ: ٢]، واختصاص ذلك بهذه السورة، إيذان بما حدث في هذا العصر من العلم والحكمة وظهور آثار عربية في البلاد السبئية، فبعلمه نزلت في أرض سبأ وخبئت في أرضها، وبعلمه سبحانه استخرجت من أرضها وأظهرت النقوش في أحجارها.

سبحانك ربنا، قد كنت كتبت الفصل الثاني من تفسير هذه السورة منذ سنين وهو موجز السورة، ولم أكن إذ ذاك لأطلع على ما عرفه الأوروبيون عن بلاد سبأ فكان القول إجمالياً والعلم استنتاجياً. ثم إن العوائق وقفت في طريق إتمام التفسير ونشره نحو عشر سنين، فاطلعت في أثنائها على الكشف الحديث المصدق للقرآن العجيب البيان. فلما أن أذن الله بالتفسير الآن أخذت أكتب ما رأيته وألخص ما علمته.

علم الله بخزائن الأقدمين من أممنا العربية وطمرها في الأرض أجيالاً وأجيالاً فعاملنا معاملة الأيتام مات عائلهم، والجهال غاب سائسهم، وكنز اليتيم لا يسلم له إلاّ عند بلوغه. لقد مضى على المسلمين زمن كانوا فيه غير راشدين بعد الخلفاء الراشدين بأجيال، فعميت عليهم آثار آبائهم وناموا في كهفهم لا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً بل ستمائة سنين وازدادوا ثمانية عشر.

نام المسلمون واستيقظ الغربيون وأخذوا يحلون الرموز ويكشفون الكنوز وقرؤوا التوراة، قرؤوا فيها آثار اليمن فهاموا بالآثار، والمسلمون قرؤوها في سبأ فلم يلقوا لها بالاً، فهم كالغلامين في المدينة والكنز تحت الحائط، فأمر الخضر عليه السلام أن يظهر الكنز وهو مال مخزون وعلم منقوش، هكذا المسلمون اليوم يتامى وقد خزن في بقاعهم العلم والمال فلم يسلمه الله لهم، ولكنه اليوم أراد سبحانه أن يسلم إليهم الأمانة فأرسل أولاً علماء الفرنجة فجاسوا خلال البلاد اليمنية واطلعوا على الخزائن المخفية والنقوش الحميرية والكتابة المسمارية، فرجعوا لبلادهم ناشرين ولصور أعمال أجدادنا مظهرين، وهاهو ذا سبحانه أراد ولا رادّ لقضاء أن يظهر القرآن بالمظهر العلمي للعالم الإسلامي، ويعلم أبناء المسلمين أن كتابنا الكريم يحضنا على بحث أعمال الأقدمين، وأن من لم يشكر النعمة بتقبلها وحفظها يسلبها الله منه، بل أقول فوق ذلك إن ذكر هذا المقال في التفسير الآن من علامات إقبال الدهر على أمة الإسلام، سيقرأ هذا الشبان المسلمون والشيوخ الشرقيون فتحدثهم نفوسهم أن يرجعوا مجدهم ويحفظوا كنزهم ويدرسوا ما كمن في أرضهم، سيكون ذلك في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي اليمن. وسيتولى الحث على هذا علماء الدين، كيف لا. ألم تسمّ السورة باسم «سبأ». ألم يذكر الله قصتها هنا، نعم فبعلم الله وضعت الكنوز ورسمت النقوش، وبعلم الله أخرجت وستخرج، وبالوحي على رسول الله أنزل القرآن وفيه هذا السر المصون، وبعلم الله جاء أمثال هذا التفسير، فليبشر المسلمون بإقبال الأيام وظهور الحكمة والعلم في الإسلام.

فلأشرع في المقصود في هذا المقال ولأجعله ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: في الكاشفين لآثار سبأ.

المقصد الثاني: في الكلام على مدينة مأرب.

المقصد الثالث: في الكلام على سد العرم.

المقصد الأول: في الكاشفين لآثار سبأ

قد ذكرت لك في أول السورة أن أول من خطر له ذلك العالم الألماني «ميخايلس»، وهو عالم بالفلسفة واللاهوت ومات سنة ١٧٩١م، وكان يميل إلى نبذ التقليد ويحب أهل النظر، وهو المقترح على ملك الدنيمارك إرسال البعثة إلى اليمن سنة ١٧٥٦ ليحقق ما في التوراة من المسائل المتعلقة بجغرافية الشرق وعادات الشرقيين.

يا عجباً، انظر كيف ألهم الله الأمم أن تحفظ التوراة التي هي مجموع حوادث وقصص، وكم فيها من خلط، ولكن الله لا يبقي شيئاً إلا لحكمة. فانظر كيف كانت التوراة سبباً في حب هذا العالم لكشف آثار اليمن. انظر كيف أحب القوم دينهم ولو دخل قصصه التحريف. ومن حب الدين والمطالعة أحب كشف بلاد آبائنا. فماذا يقول المسلم بعد هذا؟ المسلم الذي يقرأ سورة «سبأ» والعربي

المسلم ربما كان من نسل سبأ. بل العرب في مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا والحجاز يمتون بالنسب والجوار واللغة إلى سبأ، إذ الجميع عرب فهذه الأمم كلها لم تفكر في آياتها ولا في بلادها ولا في آثار دينها. يجيء «ميخايلس» فيقول لـ «فريدريك الخامس» ملك الدنيمارك: شكل لجنة وابحث عن آثار سبأ. فأجابه الملك وأرسل خمسة علماء رئيسهم عالم اسمه «كارستن نيبوهر»: لماذا؟ لتحقيق ما في التوراة عن اليمن. فماذا تم لهذه اللجنة؟ سافرت في سنة ١٧٦١ إلى الأستانة ومرت بمصر ووصلت اليمن سنة ١٧٦٢م. فماذا حصل؟ ماتوا بالتدريج من المشاق والعطب إلا الرئيس فرجع وألف كتاباً ونشر في أوروبا، وقال: إنه عثر على مدينة «ظفار» و«حدافة» وفيهما نقوش يجهل اليهود والعرب حلها. ثم سافر «زتسن» الألماني إلى اليمن سنة ١٨١٠ فعثر في «ظفار» على ثلاثة نقوش، وفي «مخا» على خمسة، وهو في كل ذلك معرض للموت من عرب اليمن. ثم سافر ضابط إنجليزي اسمه «ولستد» سنة ١٨٣٨م فعثر على نقوش حميرية في قلعة يقال لها «حصن غراب»، ووجد هو ومن معه نقوشاً من نفس مدينة مأرب التي كان فيها السد المشهور. ثم ذهب العالم «أرنو» الفرنسي سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه ٥٦ نقشاً كما تقدم من صنعاء والخريبة ومأرب وحرم بلقيس، وكان «أرنو» هذا صيدلياً لإمام صنعاء، فأشار عليه أحد أصحابه أن يحتال للوقوف على آثار مأرب التي يتحدث الناس عنها في أوروبا، والمسلمون لا يعلمون عنها شيئاً مع أنهم في أرضها، فاحتال بحيلة، وذلك أنه أظهر الفقر والمسكنة للبدو واصطحب مع قافلة، فقاسى في تلك الرحلة العذاب والشدائد من الخوف والتعب، وذلك أنه مع غناه وثروته الطائلة قد تواضع لهؤلاء وهم يجهلون أمره فكانوا يكلفونه ما لا يطيق من الأعمال والمشاق، ولم يتركوا له فرصة ينسخ فيها النقوش أو يطبعها فكان يفعل ذلك سراً تحت خطر القتل، حتى أصيب برمد فعاد إلى صنعاء أعمى فأرسل ما كان نسخه إلى صديقه «فرسنل» قنصل فرنسا بجده الذي أشار عليه بذلك، وقد نشرت أخبار تلك الرحلة بالمجلة الآسيوية. وفي بعض الأجزاء خريطة سد مأرب، وهو أول من تمكن من مشاهدة تلك الآثار، وقد حل العلماء نقوش «انو» سنة ١٨٤٥م.

ثم شكلت جمعية الآثار السامية واهتم بذلك ناظر المعارف بباريس، فأرسل المستشرق «هاليفي» سنة ١٨٦٩ مهتدياً بمن قبله، فرجع ومعه ٦٨٠ نقشاً وهو في ذلك خائف وجل من العرب، وكان يتظاهر وهو ينقل النقش بأنه راقد أو بأنه يصلي صلاة الإسلام. كل ذلك خوفاً أن يقتله العرب، واطلع «هاليفي» على بلاد الجوف مع أن علماء الجغرافيا يجهلونها وأهل صنعاء لا يعرفونها مع قربها منهم، ثم اطلع على بلاد «معين» عاصمة دولة المعنيين ولم يأت ذكرها إلا في كتب اليونانيين.

ثم سافر العالم الألماني «ادوفارد غلارز» ونقل ألف نقش من مأرب وغيرها، وفي بعضها تاريخ سد مأرب وإصلاحه. ثم سافر إلى اليمن غير هؤلاء علماء فماتوا من فرنسا والنمسا، وبالجملة فإن في متاحف أوروبا الآن عدداً كبيراً من آثار اليمن، منها ما هو منقوش على البرونز والألواح والأحجار تزيد على ألفين، قد نشر منها كثير في المجلات الألمانية والفرنسية والإنجليزية.

هذه صورة ما كشفه الأوروبيون من آثار اليمن ذكرتها ليفطن المسلمون، وليقوم فيهم النخوة والحمية، وليكونوا أمة عالية الشأن، وليغاروا على مجدهم ودينهم. انتهى المقصد الأول.

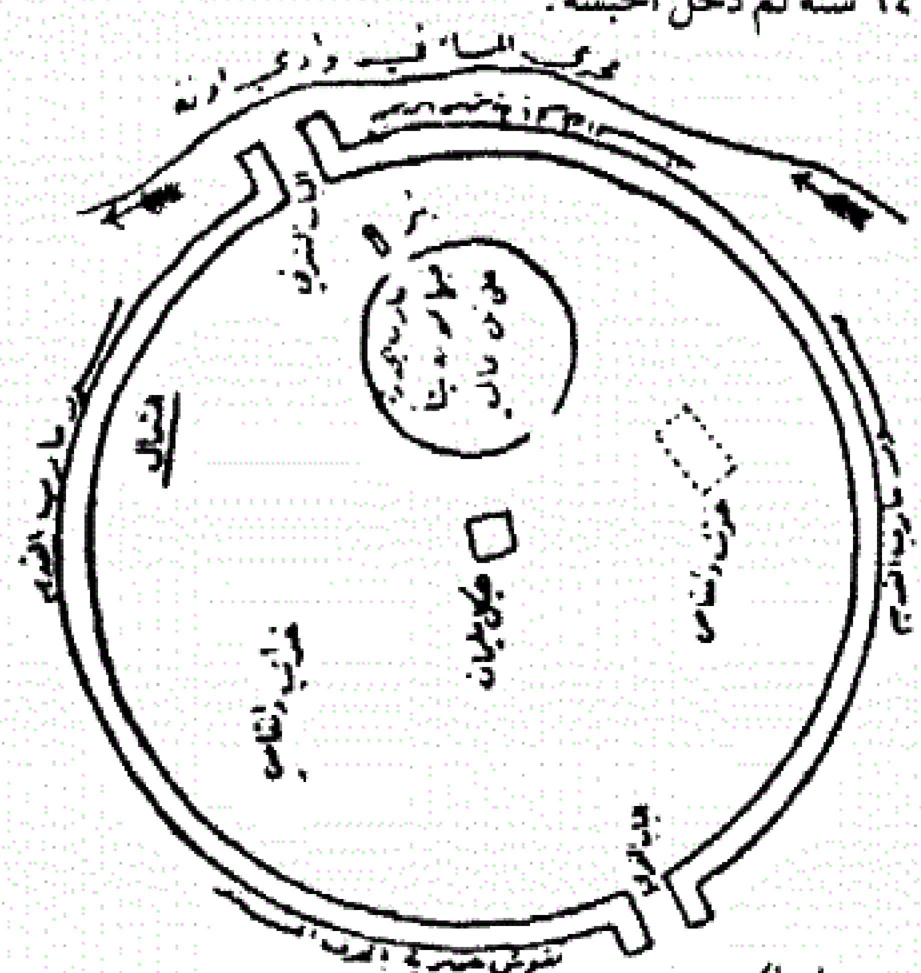
المقصد الثاني: في الكلام على مدينة مأرب

اعلم أن اليعقوبي في القرن الثالث الهجري ذكر مخاليف اليمن التي كانت في عصره، وجاء الهمداني في كتابه « وصف جزيرة العرب » ففصل تلك المخاليف وقراها وأوديتها وجبالها، وهذا الكتاب أوثق مصادر الكتب العربية وأوفاها، ولعلك تريد فهم المخاليف فأقول لك:

إن الخلاف وجمعه مخاليف أشبه بما يقال له مديرية بالقطر المصري، كالكورة عند قدمائنا أو الرستاق، ويحكمه ملك صغير يسمى قيل جمعه أقيال. والمخلاف يشتمل على محافد جمع محفد أشبه بالمركز في بلادنا المصرية، فكل مخلاف مقسم إلى تلك المحافد، والمحفد الواحد عبارة عن قصور والقصر الواحد كالقلعة أو الحصن، ويعرف صاحب المحفد بلفظها « ذو »، فيقال: ذو عمدان وذو معين، وهؤلاء الحكام يسمون الأذواء أو الذوين كاللوردات في أوروبا، وقد يتغلب رجل منهم فيسمي نفسه ملكاً عليهم ويتوارث الملك بنوه، والذي عرف الآن ثلاثة: الدولة المعينية والسبئية والحميرية وهي الدول الكبرى، أما الدولة المعنية فلا شأن لنا فيها.

وأما دولة سبأ فهي الدولة التي نحن بصددها الآن، واعلم أن التاريخ الذي وصل لنا عن تلك الدول غير موثوق به وهو مبعثر وغير منظم. وإنّما يقال: إن قحطان أبو اليمن كلها وقد أتى من جهة بابل وتعلم اللغة العربية من العرب البائدة. ولعل القحطانيين لما جاؤوا من بلاد ما بين النهرين وهم لم تدنسهم المدنية والترف اختلطوا بالعرب البائدة وتعلموا منهم على طول القرون والسنين ثم عدوا عرباً. وقد ثبت الآن أن أهل سبأ أنشؤوا دولة عظيمة وبلغ عدد ملوكها الذين قرؤوهم على آثار مأرب ومرواح وغيرهما بضعة وثلاثين ملكاً. وقد حقق بعض العلماء أن دولة سبأ تبتدئ سنة ٨٥٠ ق. م وتنتهي سنة ١١٥ ق. م، ثم ظهرت دولة حمير، أما دولة حمير فقد كانت من سنة ١١٥ ق. م إلى سنة ٥٢٥ ب. م، وآخرها ذو نواس وحكمها ٦٤ سنة ثم دخل الحبشة.

ودولة سبأ التي كلامنا فيها كانت عاصمتها لما اتسع ملكهم «مأرب» التي كشفت حديثاً بعد نقلها من «مرواح» وقد وجد في نقشها رسم ملك اسمه « يثعمر »، وهاك رسم خريطة مدينة مأرب. انظر شكل ٢٩.



(شكل ٢٩ ـ رسم خريطة مدينة مأرب بعد خرابها)

هذه خريطة مدينة مأرب القديمة وتسمى عاصمة سبأ، وقد عرفت أن لها بابين: أحدهما شرقي والثاني غربي. قال الشاعر:

ومـأرب قـد نطقـت بالـــر خام وفي سقفها الذهب الأحمر

وهناك أشعار كثيرة قيلت فيها أعرضنا عن ذكرها، وهناك على مسافة نصف ساعة من مأرب نحو الشرق الشمالي أنقاض بناء عظيم يقال له «حرم بلقيس» وهو غير قصر بلقيس.

هذه مسألة «الفيل والعميان» تمثل لنا اختلاف العقول وأحوال الأمم والحكماء، وأذكر لك نبأهم في هذا المقام فأقول:

هاأنت ذا رأيت خريطة مدينة مأرب عاصمة سبأ التي ذكرها الله في القرآن. ثم انظر في كتب التاريخ العربية هل تجد لدولة سبأ ذكراً؟ هل هناك دولة اسمها سبأ؟ كلا. انظر كيف يقولون: إن عرب اليمن ينسبون إلى يعرب بن قحطان. ويعرفون بالعرب المتعربة، لأنهم تعربوا أي اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهي البائدة، ويقولون: إن بني قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والملك والقحطانيون كانوا لا يعرفون الملك والترف ثم كثروا وزاحموا العرب العاربة فأبادوهم وأنشؤوا الدولة القحطانية على أنقاض البائدة، ويقولون: إن أول ملوكهم يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد في اليمن والعمالقة في الحجاز، وولى إخوته على جميع أعماله، فولى جرهماً على الحجاز وعاد بن قحطان على الشحر وحضرموت بن قحطان على عمان. انظر ابن خلدون. وبعده ابنه يشجب بن يعرب ثم عبد شمس وهو سبأ لأنه كان كثير السبي، وهو الذي بنى السد المشهور في أرض مأرب وخلف سبأ المذكور أولاداً منهم حمير وكهلان، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير، ودولة حمير طبقتان: السلوك والتبابعة. وملوك حمير آخرهم «الحارث الرائش» وهو أول التبابعة، ويقول بعضهم: إن بين حمير والحارث الرائش ١٥٠ أباً، وفي القصيدة الحميرية عددهم جميعاً ١٦ فقط، وجعلها أبو الفداء ١١، وابن خلدون ٨، والمسعودي ٥.

وأما التبابعة عند مؤرخي العرب قدمائنا فأولهم «الحارث الرائش» وآخرهم «ذو جدن» وعددهم ٢٦ تبعاً حكموا ١٧٠٠ سنة.

وهناك خلط وخبط في هذه السنين والأعداد كما قاله نفس المؤرخين، ولعلك تقول: ما لنا ولهذا التحقيق والتدقيق؟ وما لتفسير القرآن وأمثال هذه الجداول؟ أقول: على رسلك، فكر في أسماء الدول، رأيت هناك دولة تسمى دولة سبأ، كلا. وإنما هي دولة حمير الذي أبوه سبأ، ودولة حمير بعد قرون انقلبت إلى التبابعة، فالمدة كلها تقرب من أربعة آلاف سنة ما بين حميريين وتبابعة، والتبع هو الملك الذي تبعه ملوك كالإمبراطور الآن، وليس هناك في تاريخ أسلافنا دولة سبأ التبعة، انظر كيف ذكر القرآن سبأ ولم يذكر حمير؟ خالف القرآن قول المؤرخين، خالفهم كل المخالفة وجاءنا بدولة سبأ إظهاراً للحقيقة، ولقد ظهرت الآن وتبين أن دولة سبأ هي التي أغارت على أمة يقال لها «معين» لم تذكر في التاريخ، وهذه الدولة عمرت طويلاً كما رأيت، وانتقلت العاصمة من مأرب إلى ريدان وهي ظفار بتغلب الحميريين على الملك، من هنا تبين لك أن القرآن يوافق الكشف الحديث، وقد كان ذلك مجهولاً ١٣ قرناً وظهر الآن فهو من المعجزات للقرآن. انتهى المقصد الثاني.

المقصد الثالث: في الكلام على سد العرم

قد عرفت مدينة مأرب وأنها كانت عاصمة دولة عظيمة وهي دولة سبأ، وترى في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال متشعبة من جبل السراة تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالي، وبين هذه الجبال متسع عظيم يتجه إلى واد كبير يقال له «الميزاب الشرقي»، فإذا أمطرت السماء على تلك الأقطار انتهت أخيراً إلى وادي «أدنه» وهو يعلو ١١٠٠ متراً عن سطح البحر فتسير فيه المياه إلى مكان قبيل مأرب بثلاث ساعات، وهو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق: أحدهما الأيمن والآخر الأيسر كما عبر القرآن، وأخذها عنه المرحوم «جورجي زيدان»، والمسافة ٦٠٠ خطوة بينهما، والسيل يجري بينها من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في واد هو وادي «أدنه».

ولما كان هذا الماء يجري من الجنوب إلى الشمال بلا فائدة فكر السبئيون في ذلك فبنوا سد العرم في المضيق بين جبلي «بلق»، وبين المضيق والمدينة ٣٠٠ ميل مربع، فأصبحت جنات بسبب هذا السد، وهذا السد طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً. وثلثه الغربي وهو الأيمن لا يزال باقياً للآن معجزة للقرآن. انظره في الخريطة. والثلثان الباقيان فاض الماء منهما وعجزوا عن ترميمهما، وترى النقط في الخريطة لحديهما. وما مثل العرم إلا كمثل الخزانات التي تصنع اليوم في مكوار على النيل الأزرق وجبل الأولياء على النيل الأبيض وخزان أسوان، فيعلو الماء فيسقي الأرض. وإذا ترك ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجري الماء بين الجبلين هناك ويذهب في الشمال والرمال بلا فائدة.

هذا، وقد عثر الباحثون على نقشين: أحدهما على الصدف الأيمن، وهو أن «يثعمر بيين بن سمعهلي ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرة رحب لتسهيل الري. والنقش الثاني على الصدف وهو أن سمعهلي ينوف بن ذمر علي مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الري. فأحدهما ابن الآخر وكانا في القرن الثامن قبل الميلاد وهكذا بتوالي ملوك سبأ تم بناؤه. ولما أعياهم حفظ السد تفرقوا في البلاد كما ذكره القرآن.

قال الأصفهاني: إن السد تهدم قبل الإسلام بأربعمائة سنة. وقال ياقوت: إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد، أي: قبيل الإسلام، ويؤخذ من كلام ابن خلدون أنه تهدم في القرن الخامس للميلاد ولا طائل في هذا النقل إلا معرفة ما قاله المؤرخون.

الهمداني وسد مأرب

إن وصف الهمداني لسد مأرب مطابق للكشف الحديث وربما كان يقرأ المسند. قد ذكر الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾[سبأ: ١٥] إلى قوله: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ: ١٥].

قال: إن سبأ كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان أي لا زرع فيهما، وإنّما عفتا لما اندحق السد فارتفع عن أيدي السيول. وذكر أنه وجد جذع نخلة أسود فقال من معه له: إنه بقي من مزارع الجنتين.

فأما هو فقال: لا أظن ذلك، قال: ورأيت مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع قائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس. ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه الماء قائماً بحاله

على أوثق ما يكون ولا يتغير إلا أن شاء الله . قال : وقد بقي من العرم شيء مما يلي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله ١٥ ذراعاً .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[سبأ:١٦] ، قيل : الخمط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر المعروف وهو العلب وبها من الأراك ما ليس ببلد . ومن الحمام المطوق في الأراك ما يجلّ عن الصفة . وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان . والوادي اسمه « أذنة » ، وفي هذا السد يقول الأعشى :

كفى ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب قفى عليها العرم
رخام بناه له حمير إذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروي الحروث وأعنابهم على ساعة ماؤهم ينقستم
فعاشوا بذلك في غبطة فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها بيهماء فيها سراب يطم

وكان العرم مسنداً إلى حائط ما بين عضاد بالمذخر بمعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الأساس بالقطر . انتهى كلام الهمداني .

وظل الناس مع ذلك في شك من أمر هذا السد ، حتى تمكن المستشرق الفرنساوي « أرنو » من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت في المجلة الآسيوية الفرنساوية سنة ١٨٧٤ ، وزار مأرب بعده « هاليفي » و« غلازر » ووافقاه في قوله وصادق على وصفه وهو يطابق ما قاله الهمداني من أكثر الوجوه ، وعثروا في أثناء ذلك على نقوش كتابية في خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره ، وأكثرهم اشتغالاً في هذا السبيل « غلازر » ، وبين الأساطير التي وقف عليها اثنتان جاء فيهما خبر ترميم السد في زمن الأحباش بالقرن السادس للميلاد ، فيدل ذلك على أنه ظل قائماً إلى قرب ظهور الإسلام ، ولعل السبب في نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه ، فكانوا يعدون كل تصدع تهدماً وكل ترميم بناء .

وبعد ما قدمناه من أقوال المؤرخين والنقابين بشأنه يحسن بنا الإتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ، ويوضح ذلك شكل ٣٠ وشكل ٣١ الآتيان في صحيفة ١٩٩ .

أصل وضع سد مأرب

في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير تمتد مئات من الأميال نحو الشرق الشمالي ، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقي ، وهو أعظم أودية الشرق تمييزاً له عن ميزاب مور أعظم أودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرقي كثيرة تتجه في مصابها ومنحدراتها نحو الشرق الشمالي . وأشهر جبالها ومواضعها في ناحية رداع العرش وردمان وقرن والجبال المشرفة على سويقي وفي ناحية ذمار بلد عنس جميعاً ، وهو مخلاف واسع وبه بينون وهكر وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا

وجبل أسبيل ورجمة وجبال بني وابش من مراد وغيرها ، ومخلاف ذي جرة وجهران وهرال ومساقط بلد خولان من جنوبية وما تيامن من القحف .

فشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهي أخيراً إلى وادي أذنة وهو يعلو نحو ١١٠٠ متر عن سطح البحر ، فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق ، عبرنا عن أحدهما بالأيمن وعن الآخر بالأيسر ، والمسافة بينهما ستمائة خطوة أو ذراع ، ويسميها الهمداني مأزمي مأرب ، يجري السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في واد هو وادي أذنة .

واليمن مثل سائر البلاد العرب ليس فيها أنهر ، وإنما يستقي أهلها من السيول التي تجتمع من مياه المطر . فإذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس فيذهب معظمها ضياعاً في الرمال . فإذا انقضى فصل المطر ظمئ القوم وجفت أغراسهم فكانوا إما في غريق أو في حريق ، قلما ينتفعون حتى في أيام السيل من استثمار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد يفيض السيل حتى يسطو على المدن والقرى فينالهم من أذاه أكثر ما ينالون من نفعه ، فساقتهم الحاجة إلى استنباط الحيلة في اختزان الماء ورفعه إلى سفوح الجبال وتوزيعه على قدر الحاجة . فاختار السبئيون المضيق بين جبلي بلق ، وبنوا في عرضه سوراً عظيماً عرف بسد مأرب أو سد العرم الذي نحن في صدده لري ما يجاور مدينتهم مأرب من السهول أو سفوح الجبال .

والجبلان المذكوران بعد أن يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادي بينهما ، وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقي مدينة مأرب أو سبأ في الجانب الغربي أو الأيسر من وادي أذنة . فإذا جرى السيل حاذى بابها الشرقي . راجع الخريطة شكل ٣١ . وبين المضيق والمدينة متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضاً وبساتين على سفحي الجبلين ، وهي المعبر عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى .

رسمه وكيف ينصرف الماء منه

والسد المشار إليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه في عرض الوادي على نحو ١٥٠ ذراعاً أو خطوة نحو الشمال الشرقي من المضيق وسموه « العرم » ، وهو سد أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً ، لا يزال نحو ثلثه الغربي أو الأيمن باقياً إلى الآن كما ترى في الخريطة شكل ٣١ « ج د ف هـ » ، وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول أنقاضهما . وقد نقطنا حديهما بالخارطة ليظهر امتداد السد على طوله كما كان في أصله بعرض الوادي ، ويظهر مما شاهدوه في جزئه الباقي أنه مبني بالتراب والحجارة ، ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه ، ولو قطعت ذلك الحائط أو السور قطعاً عرضياً لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة .

١٥٠ ذراعاً

فالعرم في طريق السيل كالجبل المستعرض، ويصده عن الجري فتجتمع وترتفع مثل ارتفاعها في خزان أسوان بأعالي النيل. ينتهي العرم في طرفيه بمصارف للماء يختلف شكلها وأسلوبها عن مصارف خزان أسوان. وذلك أن الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى إحدى الجنتين اليمنى أو اليسرى.

فأنشؤوا عند قاعد الجبل الأيمن الشرقي الجنوبي، وهو جبل بلق الأيمن بناءين بشكل المخروط المقطوع «١ و ٢»، علو كل منهما بضعة عشر ذراعاً سموهما الصدفين، أحدهما (١) قائم على الجبل نفسه، والآخر (٢) إلى يساره، وبينهما فرجة عرضها خمس أقدام. وقاعدة الأيمن منهما تعلو قاعدة الأيسر ثلاث أقدام. انظر رسمهما في طرف الخريطة إلى اليسار. والأيسر مبني من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعاً ينتهي في العرم نفسه ويندغم فيه، وعلو الجدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم.

وفي جانب كل من الصدفين المذكورين عند وجهيهما المتقابلين ميزاب يقابل ميزاباً في الصدف الآخر، والميزابان مدرجان أي في قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم الدرجة فوق الأخرى. ونظراً لشكل الصدفين المخروطي ولما يقتضيه شكل الميزاب السلمي أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة، وقد مثلنا الميزاب في الخارطة بشكل «ع غ» كأنك تنظر إليه بجانب الصدف.

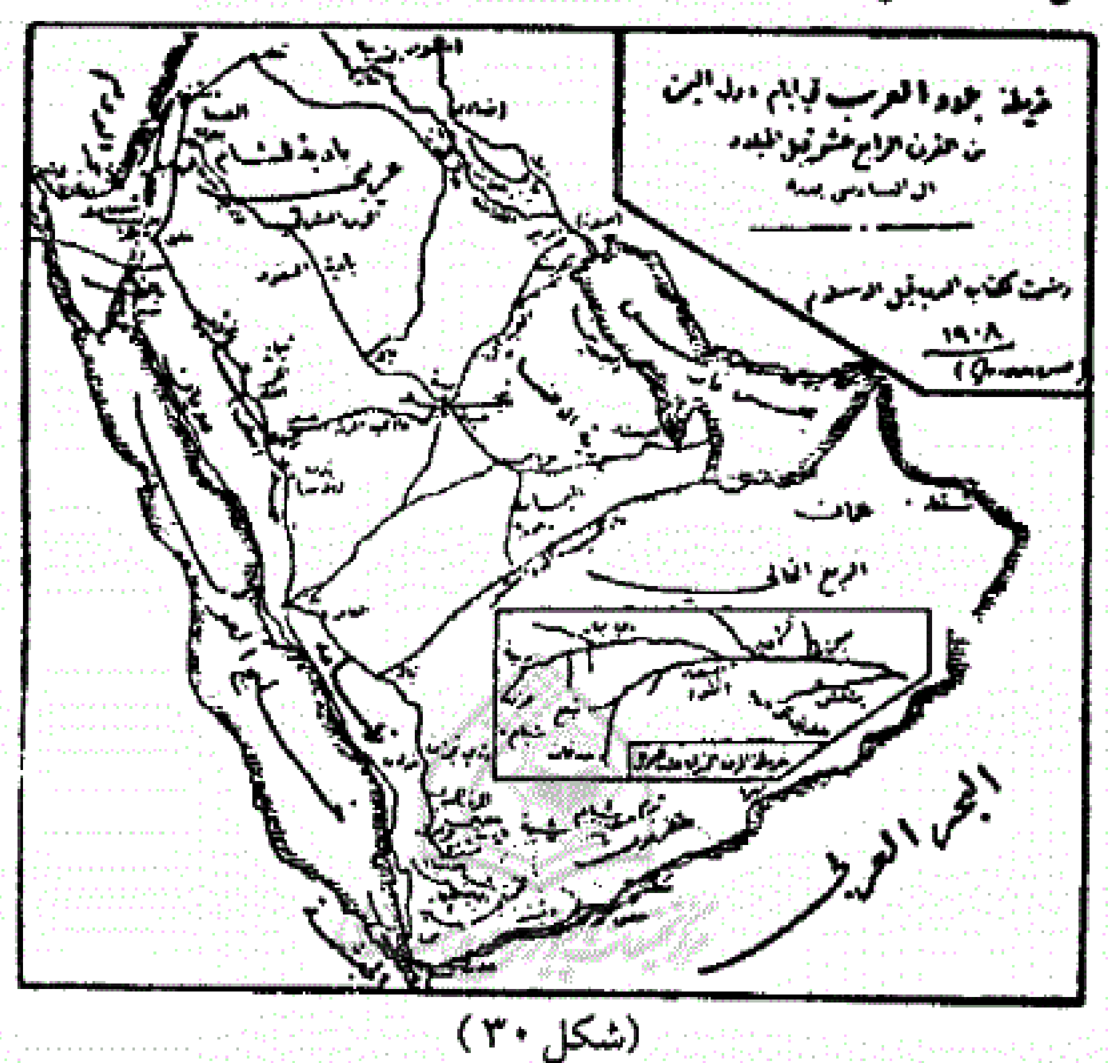
ويظهر من وضع المخروطين أو الصدفين على هذه الصورة أن أصحاب ذلك السد كانوا يستخدمون المسافة بينهما مصرفاً يسيل منه إلى سفح جبل بلق الأيمن فيسقي الجنة اليمنى. وإنهم كانوا يقفلون المصرف بعوارض ضخمة من الخشب أو الحديد تنزل في الميزابين عرضاً، كل عارضة في درجة فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعاً فوقها عارضة أطول منها فأطول إلى العليا وهي أطولها جميعاً. والظاهر أن تلك العوارض كانت مصنوعة على شكل تتراكب فيه أو تتداخل حتى يتألف منها باب متين يسد المصرف سداً محكماً يمنع الماء من الانصراف إلا عند الحاجة. فإذ بلغ الماء في علوه إلى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا فيجري الماء على ذلك العلو إلى سفح الجبل في أقنية معدة لذلك ونقر أو أحواض لخزن الماء أو توزيعها في سفح ذلك الجبل، فلا يزال الماء ينصرف حتى يهبط سطحه إلى مساواة العارضة الثانية فيقف، فمتى أرادوا رياً آخر نزعوا عارضة أخرى، وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة.

وفي الطرف الأيسر من العرم وهو الغربي الذي ينتهي بالجنة اليسرى بناء كالحائط «س ط م» دعوناه السد الأيسر، عرضه عند قاعدته ١٥ ذراعاً وطوله نحو ٢٠٠ ذراع، وبجانبه من اليمين مخروطان أو صدفان أيمنان (٣ و ٤) أحدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينه وبين السد الأيسر، فيتكون من ذلك مصرفان (٦ و ٧) مثل المصرف الأيمن لكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة لصرف الماء إلى الجنة اليسرى، وينتهي العرم من حده الغربي بحائط منجلي الشكل (د ف) مبني بحجارة منحوتة صلبة، لعله الذي يسميه الهمداني «العضاد».

فكان السيل إذا جرى في وادي أذنة حتى تجاوز المضيق بين جبلي بلق صده العرم عن الجري فيتعالى ويتحول جانب منه نحو اليسار إلى السد الأيسر. فإذا أرادوا ري الجنة اليمنى رفعوا من العوارض بين الصدفين الأيمنين على قدر الحاجة.

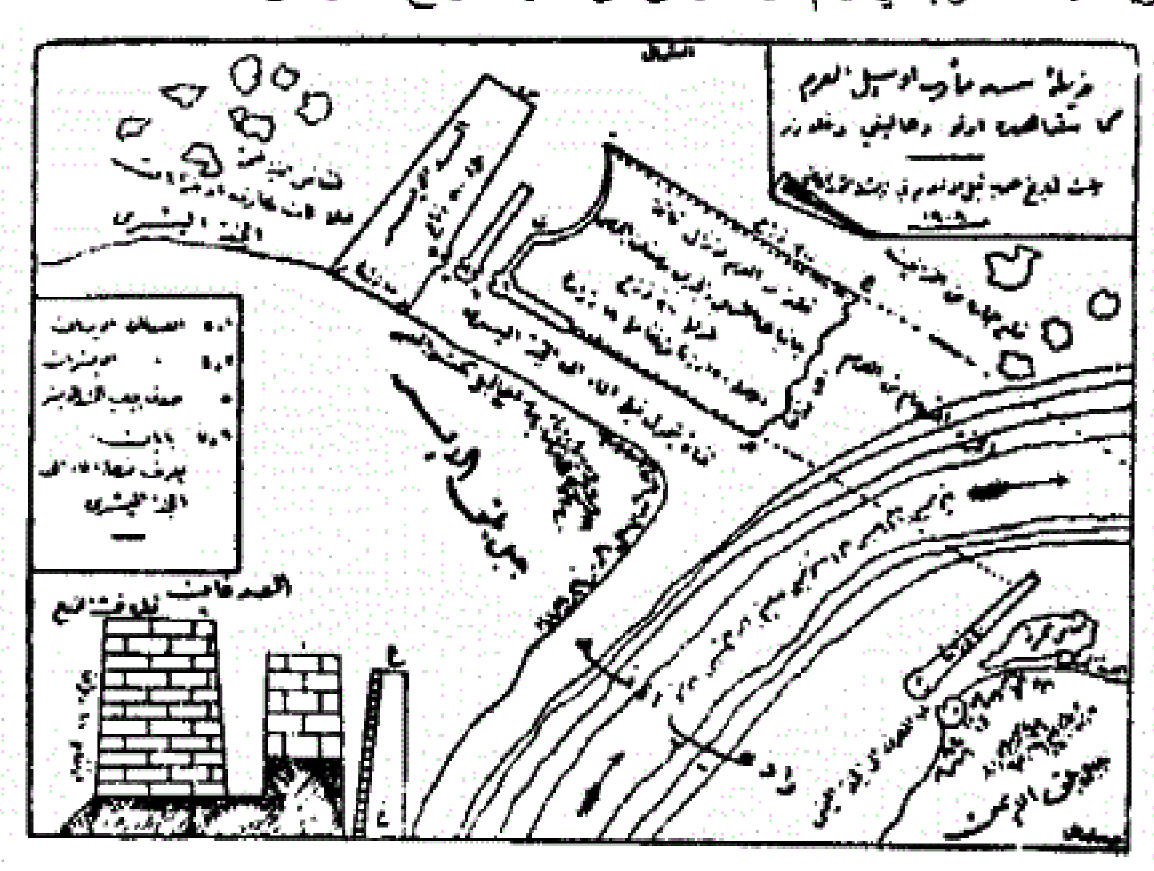
وإذا أرادوا ري الجنة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين (٧ و ٨) بنفس الطريقة، فيجري الماء في أقنية وأحواض في سفح الجبل الأيسر حتى يأتي مأرب لأنها واقعة إلى اليسار كما تقدم.

وسترى في هذه الصحيفة رسم خريطة بلاد العرب في أيام دولة اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده، وسترى أيضاً في الصفيحة المذكورة رسم خريطة سد مأرب أو سيل العرم. انظر شكل ٣٠ وشكل ٣١.



(شكل ٣٠)

رسم خريطة بلاد العرب في أيام دول اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده



(شكل ٣١)

هاأنت ذا أيها الذكي اطلعت على سد مأرب وهو سد العرم، وعرفت مدينة مأرب، وعرفت أن دولة سبأ لم تكن معروفة في تاريخ أسلافنا، فانظر كيف جاء الكشف الحديث كما في القرآن، وانظر في كتب التفسير التي وصلت إلينا كالزمخشري والرازي والبيضاوي وأمثالها التي ألفها الفحول من العلماء. كيف مروا عليها رحمهم الله ولم يذكروا غير تفسير يرجع أكثره إلى لفظ القرآن.

أفلا ترى أننا جئنا في عصر نسميه بحق عصر القرآن، هذا العصر الذي يظهر فيه بأجلى بيان هذا السد كما رأيت، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وانظر كيف يقول علماء التاريخ: إن اليونان لم يعرفوا اسم حمير قبل السنة العشرين قبل الميلاد ولم يكونوا يعرفون إلا سبأ لشهرتهم. وانظر كيف كان أسلافنا لا يعرفون إلا الحميريين والتابعة وجاء القرآن بما هو حق في التاريخ.

عجائب القرآن في العصر العشرين

يقص الله علينا قصص طوفان نوح، ويقص علينا قصص سد العرم، ويقول: إن سبأ أعرضوا، وتارة يقول: كفروا، فبماذا جازاهم؟ جازاهم بخراب الديار، لماذا هذا الجزاء؟ لتفريطهم في السد.

سبحانك اللهم أنت الرب المحمود، فماذا هذا في دين الإسلام؟ هذا هو المسمى فرض كفاية، وما هو فرض الكفاية؟ هو أن يقوم في الأمة أناس لكل عمل من أعمال الحياة فيحسنونه وإلا عوقب الجميع، ويقول إمام الحرمين: فرض الكفاية أفضل من فرض العين. وأي منفعة للأمم أكثر من الماء والأنهار.

فانظر ماذا كتبت بعض مجلات مصر لما طغى النيل سنة طبع هذه السورة، إذ ذكرت أن نهر المسيسبي كاد يهلك الأمة فاجتمعوا لدرء خطره، أليس هذا هو الذي أنذره نوح قومه. وهذا هو الذي أهلك سبأ؟ إذن القرآن يجعل إهمال الدولة تارة كفراً وتارة إعراضاً ويجازي بالهلاك. والمراد بالكفر كفر النعمة وجزاؤه في الدنيا الهلاك وفي الآخرة العذاب. إذن في القرآن أسرار تظهر اليوم بالعلم، فانظر المقال التالي وهاك نصه:

عبرة لمصر والمصريين

كارثة فيضان نهر المسيسبي، بمناسبة ارتفاع مياه النيل في نحو سنة ١٩٢٩

مضت أسابيع والأنباء تترى بارتفاع مياه النيل ارتفاعاً لم تألفه مصر من قبل، وقد بات يهدد المدائن والقرى والأرواح والأملاك. ولقد اتخذت الحكومة لهذا الأمر الخطير أهبته بقدر ما تستطيع حكومة أن تفعل، وإنا لنسر إذ نراها تعمد إلى بعث قانون «العونة» لحراسة الجسور وإلى إنشاء خط دفاع ثان يقي البلاد غوائل الفيضان، ولكنا إلى جانب ذلك نحزن إذ نرى الأهالي يتبرمون بهذين الاحتياطين، ويرون في الأول تسخيراً للناس فيما لا يليق بكرامتهم أن يسخروا فيه، ويرون في الثاني تبديداً لأموال طائلة في سبيل اتقاء خطر مزعوم، ولا شك أن أولئك المتبرمين لا يدركون ما قد يصيبهم من الرزايا في أموالهم وأرواحهم لو فاض النيل وتقطعت جسوره وتدفقت مياهه تغمر الأرض وتكتسح الزرع والضرع ولا تبقي ولا تذر. ويجهلون أن جسور النيل الرخوة قد تكون أوهى جسور الأنهر الكبيرة في العالم، وأن أراضي مصر سهل إذا جرى فيه الفيض لا يجد جبلاً يصده أو تلًا يحمي

وراءه قرية أو مدينة، والواقع أنه أصبح من أوجب الأمور على الحكومة أن تنظم من الآن طرق وقاية البلاد بتدعيم الجسور تدعيماً يضمن دفع ذلك الخطر، كما أصبح من أوجب الأمور على سكان وادي النيل أن يلبوا الحكومة متى دعتهم ليعاونوها بكافة ما يستطيعون لتقوية الشاطئين. ولكي يدرك الناس أهمية ما ندعو الحكومة وندعوهم إليه نصف لهم كيف حلت بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عامين تلك الكارثة الهائلة التي ترتبت على فيضان نهر المسيسبي، حتى إذا ما أدركوا مدى الأخطار التي تنجم من إهمال الجسور هرعوا إلى القيام بما تمليه عليهم تلك الأخطار من الاحتياطات.

نهر المسيسبي أكبر أنهار الدنيا طولاً وعرضاً، يبلغ طوله خمسة آلاف كيلو متر. ويبلغ عرضه من ألف إلى ألف وخمسمائة متر، ولكنه يتسع في بعض الأماكن حتى يبلغ خمسة وثلاثين كيلو متراً، وتسير مياهه سيراً وئيداً من الشمال إلى الجنوب فتشطر الولايات المتحدة شطرين متساويين وتقطع الموجة المسالمة بين المنبع والمصب في ستة أسابيع، وتتجمع هذه الكميات الهائلة من المياه عند المصب الضيق الذي لا يتجاوز عرضه سبعمائة وخمسين متراً، ثم تنصب في خليج المكسيك بمعدل ثمانين ألف متر مكعب في الثانية الواحدة، أما الخطر الذي يهدد الولايات المتحدة كل عام فناشئ عن غزارة مياه النهر واتساع مساحة حوضه مع ضيق مصبه ضيقاً يجعل تلك الكميات العظيمة من الماء تتجمع بوفرة مخيفة عند هذا المصب، فتصب ما وراءها فترتفع المياه وتفيض على الجانبين أحياناً، وأحياناً لا تقوى الجسور على تحمل ضغطها فتتقطع، وعندئذ تتدفق المياه بقوة تجرف كل ما تصادفه في طريقها.

ولقد حدث في عام ١٩١٣ أن فاض المسيسبي فبلغت الخسائر في مقاطعة «الأوهيو» وحدها أربعة وعشرين مليوناً من الجنيهات، وهلك من الأنفس البشرية خمسمائة، وهذه الكارثة مع فداحتها لا تعد شيئا يذكر إذا قيست إلى الكارثة التي حلت بأمريكا عام ١٩٢٧ م والتي نحن بصددها في هذا المقال:

لاحظ السكان في ربيع سنة ١٩٢٧م أن الأمطار تهطل بغزارة لم يروا مثلها من قبل، وأن الثلوج تنهار من أعالي الجبال وتذوب بسرعة غير مألوفة، ثم تهوي إلى نهر المسيسبي فتزيد مياهه ارتفاعاً، ولاحظوا أيضاً أن فروع النهر قد علت مياهها بنسبة لم يعهدوا لها مثيلاً، ولكنهم ظلوا رغم هذه العلامات الخطرة آمنين مطمئنين معتمدين على متانة الجسور وقوتها. والحقيقة أن جسور المسيسبي من أضخم وأقوى المشروعات التي حققتها يد الإنسان في العصور الحديثة، فهي تمتد على طول النهر وترتفع إلى عشرة أمتار فوق سطح الماء في الأوقات العادية، وتتسع حتى يبلغ عرضها خمسين متراً. ويسهر على رعايتها ومراقبتها بضعة آلاف من العمال. وقد نصبت بين كل مسافة وأخرى آلات التلغراف والتليفون، وأقيمت محطة رئيسية تتصل بجميع المحطات الأخرى في وقت واحد لتنبهها إلى الخطر في الوقت المناسب. ولا يمر أسبوع إلا ويطوف المهندسون يرتادون الجسور لفحصها، وقد خصصت الحكومة عدة ملايين من الجنيهات تقتطعها كل عام من ميزانيتها كحساب تلك الجسور.

ظل السكان آمنين مدة أربعة وعشرين عاماً حتى كانت سنة ١٩٢٧ فخاب اعتمادهم على قوة منشآتهم، وأيقنوا أن قوة الطبيعة أكبر من أن تغالبها قوة الإنسان، ففي السادس عشر من شهر إبريل نقل البرق إلى واشنطون أن النهر قد خرج من مجراه، فظن أولو الأمر أن الخطب يسير وأملوا أن

يتداركوه، ولكن الفيضان كان يزداد من ساعة إلى أخرى حتى أضحت الوسائل المقامة لصيانة الجسور عديمة الجدوى لا تفيد، وتحول الفيضان إلى كارثة لم يسمع بمثلها بنو الإنسان. لم يمض يومان حتى غمرت المياه سبع ولايات وحتى بانت مساحات كبيرة من الميسوري والاركنساس وكنتوكي وتنيسي ولويزيانا وتكساس تحت الماء، ثم انحدرت مياه النهر على الأراضي الزراعية فغطتها وكونت فوقها طبقة مائية ذات ارتفاع يبلغ ثمانية أمتار. وقد انجلى السكان عن ثلاثين مدينة وتركوا مئات من القرى نهباً للماء الذي ظل يرتفع ويغذي فروع النهر حتى انهارت جسورها هي الأخرى، وعند ذلك جلّ الخطب وعظم المصاب. انظر شكل ٣٢ وشكل ٣٣.



(شكل ٣٢ ـ مياه نهر المسيسبي ترتفع على الجانبين بالقرب من نيوأوليانز وقد ارتفعت على المنازل وأغرقت القرى)



(شكل ٣٣ ـ نسف أحد جوانب المسيسبي حتى تتدفق المياه من الفتحة التي يحدثها النسف إلى سهل مجاور للنهر فيخف الضغط عن نيوأورليانز وتنجو من الغرق)

وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تتعاون في التخريب والتدمير، فقامت زوابع وهبت عواصف قطعت أسلاك التليفون والتلغراف وعطلت وسائل المواصلات بين الولايات المنكوبة وجاراتها، فقضت على كل محاولة للإنقاذ، أفرغت الحكومة قصارى جهدها لحصر الكارثة وتخفيف آثارها فسيرت القطارات السريعة تحمل فيالق كاملة من الجيش تحفظ النظام بين المنكوبين وتعاون السكان والعمال فيما يحتاجون إلى المعاونة فيه، وسيرت أسراب الطيارات تحمل الأطباء والعقاقير والمؤن لإسعاف الضحايا والمصابين. ولكن الحالة تفاقمت باطراد ارتفاع الماء حتى أبلغ المهندسون حكومتهم أنها إذا لم تبذل أكبر الجهود وأضخم النفقات لتحاصر الفيضان فستبلغ الخسائر في الأرواح والأموال مبلغاً لا تحصيه الأرقام.

وقد كان ما خاف المهندسون أن يكون، وبلغ الفيضان أشده، وتدفقت سيول النهر تكتسح في طريقها المدائن والقرى والكباري والعمائر والجسور، حتى بات أكثر من مائتي ألف نفس من سكان مناطق المسيسبي بلا مأوى ولا مأكل، وطفت الجثث البشرية تغطي سطح الماء.

رأت الحكومة الأمريكية نفسها عندئذ عاجزة عن مقاومة هذه الكارثة إذا هي اقتصرت على ما لديها من الوسائل، فأصدر الرئيس «كوليدج» نداء ناشد فيه الشعب الأمريكي أن يهب بأسره ليشترك في عملة الإنقاذ، فتقاطر المهندسون والبناؤون والعمال والأطباء والممرضون من كل صوب وأقبلوا جميعاً يلبون نداء الحكومة ويسعفون إخوانهم المنكوبين، وأشرف رئيس الجمهورية ووزراؤها على إجراءات المقاومة والإعانة، وظن الناس أن هذا الجهد العظيم لا محالة منتج خير النتائج، ولكن ما الذي تستطيعه حيل الإنسان إذا تألبت عليه عناصر الطبيعة العمياء؟.

أخذت الأمطار تهطل طوفاناً في المناطق الشمالية فتزيد مياه النهر ارتفاعاً، والريح الصرصر العاتية تهب بعنف فتعدم كل وسائل المواصلات بين المناطق المنكوبة وسائر بلاد الدولة، فاشتدت وطأة الفيضان على الأرض، واشتدت أيضاً وطأة المجاعة على الناس، وارتدت أسراب الطيارات على أعقابها بما حملت من أقوات وملابس وعقاقير وهي لا تقوى على مقاومة العواصف والأعاصير الهوجاء، وهكذا بقيت مئات الألوف من الناس لا يجدون كهفاً يلجؤون إليه ولا لقمة يتبلغون بها، وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تمعن في التنكيل بهم، فأرسلت عليهم موجة من البرد أودت بحياة الكثيرين. ولقد كان السكان يفرّون أمام الماء والماء يتعقبهم، حتى التجأ ستة آلاف شخص إلى لسان من الأرض ظنوه يعصمهم من الطوفان الذي يطلبهم، ولكن سرعان ما أحاط بهم الماء وكاد يتلعهم لولا أن تداركتهم همة الحكومة بفيلقين من الجيش أنقذاهم من بين براثن الموت، ولكي يدرك القارئ ضخامة الوسائل التي عمد إليها الشعب لمعاونة الحكومة نقول: إن جمعية الصليب الأحمر وحدها استخدمت أربعين ألف سيارة وخمسين ألف سفينة ما بين تجارية وذات شراع، وإن الأهالي قدموا للحكومة كل ما يملكون من سيارات وعربات وخيول وزوارق وسفن حتى أصحاب اليخوت الجميلة لم يضنوا بها ووضعوها تحت تصرف المنقذين، ولقد كان المنقذون يخاطرون بأرواحهم كلما زجوا بأنفسهم في المناطق المغمورة بالمياه، حتى إن سفينة كبيرة غرقت بربانها وبحارتها وهي تحاول إنزال كمية من الأسمنت لمحاصرة الفيضان، وإلى هنا قدرت الخسائر المادية بمائتي مليون من الجنيهات، ولو وقف

الخطب عند هذا الحد لهان، ولكن ما وافى اليوم السابع والعشرون من شهر إبريل حتى بدأ الفيضان يهدد المدن الكبرى، فانتقل رئيس الجمهورية ووزراؤه إلى مكان الفاجعة وهناك ألفوا مدينة أركنساس غارقة لا يبدو منها غير سطوح المنازل والقباب، ألفوا المياه تنذر مدينة « نيوأورليانس » بنفس هذا المصير، عندئذ استولى الذعر على النفوس ووجدت الحكومة نفسها بين أمرين: إما أن تترك المدينة العظيمة فريسة لطغيان النهر، وإما أن تحول جريان السيل إلى الأراضي الزراعية فتضحي بثروة لا تحصى وبمحاصيل إذا ضاعت آذنت البلاد بنقص في الأقوات لا يقدر، وكان الفيضان يقترب والآزفة تأزف، وقد عجز مائة وخمسون ألف عامل عن تحويل مجرى الماء، وبدأت المنازل تتهدم مئات مئات، وارتفع الماء فوق سطح الأرض خمسة أمتار، ورفرف الموت بجناحيه على « نيوأورليانس » الزاهرة الغنية بما تحويه من الثروات وكنوز الفنون، عندئذ لم تتردد الحكومة في اختيار أخف المصيبتين، فأصدرت الأوامر بنسف الجسور بالديناميت حتى تتدفق منها المياه إلى المزارع والحقول، ولكن الحكومة إذ أصدرت تلك الأوامر لم تفكر فيما ستلقاه من مقاومة أصحاب هذه المزارع والحقول.

فما اتصل بالزارعين والملاك نبأ اعتزام الحكومة نسف الجسور في سبيل المحافظة على مدينة لا زرع لهم فيها ولا ضرع حتى هبّوا صفوفاً مسلحة ينذرون حكومتهم بالحرب إذا هي لم تعدل عن عزمها الخطير. ولكن الحكومة بادرت فاتخذت لهذا الطارئ الجديد عدته، فأرسلت الجنرال « باركر » على رأس جيش كبير، وأعلنت الأحكام العرفية ونصبت قائد جيشها حاكماً بأمره يحكم بما يقتضيه الموقف من الحزم والصرامة، وصرحت أنها ستحل النظام محل الفوضى مهما كلفها الأمر وأمهلت الثوار نصف يوم ليلقوا السلاح. ولكن ذهبت كل هذه الإجراءات سدى، وهبّ المزارعون يدافعون عن أموالهم، فنشبت بين الفريقين معارك حامية استعمل فيها الفلاحون القنابل والمترليوزات وانتهى الأمر بانتصار جيش الحكومة، ونسفت الجسور في ثمانية وأربعين مكاناً وعلى طول بضعة كيلو مترات وقد استخدم في هذه العملية وحدها عشرة آلاف من العمال. وهكذا استطاع أولو الأمر أن ينقذوا مدينة « نيوأورليانس » بتضحية مائة وخمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع من الأرض ملأى بالمحاصيل والخيرات، وبحرمان خمسمائة ألف من الأقوات والأرزاق، وبمحو عشرات من المدن ومئات من القرى من فوق سطح المعمورة، وبتحويل هذه المساحات الشاسعة العامرة الآهلة إلى بحر ما كان نوح ليجرأ أن يجري عليه بسفينته. وهاقد مرت على الفاجعة سنتان وقد أقلعت السماء وبلعت الأرض ماءها، وعاد الناس يستوون على هذه الأرض التي كانت بالأمس غمراً فغدت قفراً، يحاولون أن يصلحوا ما أفسد الدهر، ولكن كم يمضي من السنين حتى تسترد هذه الخرائب عزها البائد وزهوها الزائل؟ وكم تنفق أمريكا من المال لتحيي بيد الإنسان ما أودت به عناصر الطبيعة العمياء؟. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة والله أعلم.

فلما اطلع على ذلك صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير، قال: لقد جعلت طوفان أمريكا كطوفان سد العرم، وأبنت أن أهل أمريكا قوم ذوو جد ونشاط، وأن الحكومة قوية ومتينة، وأن حكومة سبأ كانت ضعيفة جاهلة فتهدم سدها. وإني والله لفي عجب أن تكون الحكومات الإسلامية في بلاد اليمن وغير اليمن لم تفكر كما فكر أهل سبأ، فضلاً عن أن تكون كأهل أمريكا.

فهل لك أن تفيض القول في أمر سد العرم فتبين لي أمرين : الأول : هل هناك أسداد غير سد العرم ببلاد اليمن؟ الثاني : من هذا الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم؟ .

إذا ذكرت لي ذلك فإنك تكون خدمت أمم العرب المسلمين إذ يعلمون أن الكافرين قبلهم كانوا أعمر لبلاد الله منهم ، فيفكرون إذن ويجتهدون في ذلك . فقلت : أما الأسداد فاسمع ما قاله مؤلف كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » ، وهاك :

الأســـداد

ومن أدلة العمارة في بلاد اليمن الأسداد ، وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الأودية لحجز السيول ورفع المياه لري الأراضي المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، وإنّما عمد العرب إلى بناء الأسداد لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في إحياء زراعتها ، فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ، فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات ، وذكر الهمداني في يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سداً ، وإلى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالإضافة إلى بلده ، فمن كبار هذه الأسداد : قصعان وريوان ، وهو سد قتاب وشحران وطمحان ، وسد عباد وسد لحج وهو سد « عرايس » ، وسد سحر وسد ذي شهال وسد ذي رعين وسد نقاطة عند قرية ذي ربيع ، وسد نضار وهران وسد الشعبابي وسد المليكي وسد النواسي وسد المهباد وباقيها لطاف .

وأشهر أسداد اليمن : العرم ، وهو سد مأرب الشهير الذي تقدم الكلام عليه . وسد الخانق بصعدة بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن في القرن السادس للميلاد ومظهره في الحنفرين من رحبان . وقد خرّبه إبراهيم بن موسى العلوي بعد هدم صعدة ، وسد ريعان لابن ذي مأذن وسد سيان . وأسداد بلاد عنس منها : سد خيرة وسد بيت كلاب في ظاهر همدان وآخر في ظاهر دعان ، وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها ، ولم يقتصر بناء العرب للأسداد على ما بنوه في جزيرة العرب . ففي مكران وبلوتشستان في عدوة خليج فارس الشرقية آثار أسداد كثيرة لا يعرف عنها أهل تلك الناحية شيئاً ، فلعل بعض العرب نزحوا إلى تلك البقاع قديماً وابتنوا فيها تلك الأسداد .

وأما الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم فاسمع ما جاء في الكتاب المذكور وهاك نصه : وقد عثر النقابون في أنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه ، أهمها نقشان : أحدهما على الصدف الأيمن الملاصق للجنة اليمنى ، تفسيره : إن يثعمر بين بن سمهعلي ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الري . والآخر على الصدف الآخر تفسيره : إن سمهعلي ينوف بن ذمر علي مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الري . وسمهعلي هذا هو والد يثعمر المذكور ، وكل منهما بنى صدفاً أو حائطاً وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد . فهما مؤسسانه ولم يتمكنا من إتمامه فأتمه خلفاؤهما ، وبنى كل منهم جزءاً نقش اسمه عليه . فعلى المخروط أو الصدف في اليسار نقش قرؤوا منه : كرب أيل بين بن يثعمر مكرب سبأ بنى . وعلى جزء آخر من السد اسم : ذمر على ذرح ملك سبأ . وفي محل آخر اسم : يدع ايل وتار . وعلى السد الأيسر مما يلي

الجنة اليسرى عدة نقوش بمثل هذا المعنى، مما يدل على أن هذا السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد، تلك هي العادة في تشييد الأبنية الكبيرة بكل زمان.

أما تهدمه، فالعرب يقولون: إنه حدث فجأة فتفرقت قبائل الأزد وغيرها في جزيرة العرب بسبب ذلك. ويؤخذ من مجمل أقوالهم أن ذلك وقع حوالي تاريخ الميلاد، أي: نحو ظهور دولة حمير «ملوك سبأ وريدان» وانتقال عاصمة السبائيين إلى ظفار. فالظاهر أن السد تصدع حينئذ للمرة الأولى فرمموه وظلوا خائفين منه، فتحولت عنايتهم إلى تعمير ظفار، وقل تمسكهم بالبقاء في مأرب فصاروا ينزحون بطوناً وأفخاذاً لأسباب مختلفة، ومنها القحط وغيره، وأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه إلى قبيل الإسلام فتهدم وأهملوه.

ووفق «غلازر» في أثناء زيارته أنقاض ذلك السد إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن في حوزة الأحباش، أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩م والآخر سنة ٥٦٥م وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة لما فيهما من الإشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية، أحدهما كتبه أبرهة الحبشي وهذه خلاصة: بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس إن أبرهة عزيز الأحباش الأكسوميين ملك أراحميس زيبمان ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في نجد وتهامة؛ قد نقش هذا الأثر تذكاراً لتغلبه على يزيد بن كبشة عامله الذي كان قد ولاه كندة وديء، وعيّنه قائداً ومعه أقيال سبأ الصحاريين، وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون أقيال معدي كرب بن السميفع وهفان وإخوته أبناء الأسلم فأنفذ الملك إليه الجراح ذازنبور فقتله يزيد وهدم قصر كدار وحشد من أطاعه من كندة وحريب وحضرموت، وفرّ هجان الذماري إلى عبران. وبلغ الملك الاستصراخ فنهض بجنده الأحباش والحميريين ألوفاً في شهر ذو القياظ ٦٥٧ من تاريخ اليمن، فنزل أودية سبأ. فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدي القواد. وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو. وبعث إلى القبائل بإنقاذ الحجارة للأساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب لترميم السد في مأرب، فتوجه أولاً إلى مأرب صلى في كنيستها ثم عمد إلى الترميم فنبشوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه، وعلم وهو في ذلك أن القبائل تضايقت من العمل، ورأى إعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم أحباشهم وحميريهم وأذن بانصرافهم. ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفاً مع الأقيال الآتي ذكرهم: اكسوم ذو معاهر ابن الملك ومرجزف ذو ذرناح وعادل ذو فائش وأذواء شولمان وشعبان ورعين وهمذان والكلاع الخ. وجاء إليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة، وآخرون جاؤوا بعون الرحمن يخطبون مودته في أواخر شهر داوان، وبعثوا إليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً. ثم ذكر ما أنفق فيه من الحجارة والأطعمة للعملة والحيوانات للعمل، واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و١١ شهراً، وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨.

وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد، لأنهم كانوا يبدؤون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد، ولغلازر كلام في هذا الشأن سنأتي عليه في الكلام عن التوقيت عند العرب، ونكتفي

هنا بالإشارة إلى تاريخ الفتح من نقش حصن غراب . فقد رأيت أنه سنة ٦٤٠ حميرية أو حبشية ، والمعول عليه أنه كان سنة ٢٢٥ ميلادية والفرق بينهما ١١٥ سنة . انتهى من كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام .

تذكرة

أما آن للمسلمين أن يستيقظوا . إيه يا أمة الإسلام . إيه يا أمة الإسلام . أهكذا يكون المسلمون . هاأنتم أولاء رأيتم أعمال الأمم الغابرة والدول الفائقة ، وشاهدتم سد العرم صنع الجاهلية الأولى ، صنع أهل سبأ قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، هل بهذا أمر القرآن ؛ أيجعل في دين المروءة والنجدة والشرف أن يكون الجاهليون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ، هل لهذا جاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ ألم يجئ نبينا رحمة للعالمين؟ وكيف يحفظ الجاهلية الماء بين البلقين ويسقون به الأرض والجنتان هناك عن يمين وشمال قائمتان ثم يجيء الإسلام فلا يساوي أهله في العمران الجاهلية مع أنهم كانوا الأولى بحفظ نعم الله ، هم الأولى بشكر النعمة ، وشكرها بحفظها والقيام بها ، لا لا ، إن أمة الإسلام ستأخذ دورها عن قريب ، أمة الإسلام النائمة قد انقضى دورها . وستأتي أمة الإسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله فلا تضيع الماء يذهب في الرمال .

أيها المسلمون ، إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم لم تقف رسالته عند هذا الحدّ . كلا . إن لرسالته شأناً بعد أيامنا هذه ، ومن دلائلها ما ترونه في هذا التفسير من عجائب القرآن ، وإنه يعلم المسلم شكر النعم وحفظها .

يا ليت شعري ، لم ذكرت سورة سبأ ، ألقصة تذكر؟ كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن كأنه يقول للمسلمين : هاكم اقرؤوا كتابيه ، انظروا في علوم آبائكم ، هل تقومون بالأمر ، هل تحفظون النعمة ، هل تقومون بالشكر ، هل تبحثون عن نعمي فوق الأرض وفي باطنها؟ إن لم تفعلوا بعد هذا كله فهاهم أولاء الفرنجة أحاطوا بكم من كل جانب ، فإن لم تقوموا من غفلتكم وتعمموا التعليم لآخذنّ منكم أرضكم وأسلمها لهم كما فعلت مع بني إسرائيل ؛ إذ سلطت عليهم بختنصر فأخذهم إلى فارس ودولة الرومان فأسروهم في بلاد الروم .

أتظنون يا أهل اليمن أني سلمت لكم الأرض لتمنعوا نعمي فيها عن عبادي؟ انظروا حولكم في شمسي وقمري وكواكبي وهوائي ومائي . ألم أجعل العوالم كلها متجاذبة بحيث تجري الأرض حول الشمس؟ وهكذا كواكب أخرى وهكذا العوالم تتجاذب ، فهكذا فليكن نوع الإنسان . لتكن كل أمة مستخرجة من أرضها كنوزها وزراعة أرضها ليعيشوا بذلك وليرسلوا ما فضل بالتجارة لغيرهم وهكذا غيرهم يفعلون ، فإن غفلت أمة عما لديها أوعزت إلى غيرهم فسلطتهم عليهم لأني عدل ولأني رحيم ، ومن رحمتي أن الناس يخدم بعضهم بعضاً ، وهذا المطر النازل في بلادكم إذا لم تحفظوه فقد ضيعتم نعمتي فأعاقبكم على ذلك الضياع .

هذا ، وإن آية سد العرم تدل على أن الأمة كلها معذبة إذا فرطت فيما لديها من النعم . والآية الآتية وهي : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[سبا : ٣١] الخ مثلها في أن الرؤساء لا ينفعون المرؤوسين إذا تركوا مواهبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فقصة سبأ وآيات التقليد متقاربتان من حيث إن كلًّا

منهما منذر بالوبال والهلاك لمن تواكلوا. هذا ما أفهمه من ذكر هذه السورة التي ظهر أثرها في هذا الزمان، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة والدين، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة يتيمة في آية:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

بيان خطر التقليد والاغترار به

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة، وأسألك جبر الخلل واجتناب الزلل وإجادة الدليل وفهم التأويل وصدق القول وحسن العمل.

اللهم إني أرى اليوم في بلاد الإسلام حالاً أحسن، ورجالاً أكمل، وعقولاً أبهى وأبهر، نام المسلمون قروناً وقروناً بعد الصدر الأول والقرون الثلاثة الأولى خير القرون، ثم جاء هذا الزمان الذي اشتدت فيه الإحن وكثرت المحن وظهر الخطر والخطل وزالت الخلافة اللفظية من البلاد التركية وقد أنامت الأمم العربية نحو أربعة قرون، فلم تقم لهم فيها قائمة ولا سمعت لهم فيها كلمة، ولكن هاأنا ذا الآن في هذا اليوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ أسمع أن بلاد العراق رفعت الصوت جهاراً نهاراً إلى الأمم الغربية قائلة: أيتها الأمم اسمعي.

إياكم أن تهينوا إخواني في فلسطين وتقدموا عليهم اليهود الذين وعدتموهم بالوطن القومي، وهاهم سكان شرق الأردن وبلاد سوريا وجميع المسلمون في الشرق والغرب يطلبون بلسان واحد إزاحة الكابوس والظلم عن أهل فلسطين. سبحانك اللهم وبحمدك، أنت الذي أخذت تغير حال المسلمين من ضعف إلى قوة ومن ذلة إلى عز ومن جهل إلى علم، أليس هذا مصداق قولك في التنزيل: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[القصص: ٥] وقولك: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]. إن هذا زمانه وهذه أيامه، وكما تجلت أنوارك في قلوب الأمم الإسلامية برباطة الجأش وقوى البأس وعزة النجدة وعلوّ الشمم ورقي الهمم، هكذا أخذت التآليف تتغير أساليبها وتتجدد أصولها وتختط خططاً جديدة وأحوالاً سديدة وأقوالاً مفيدة، وانتشرت الصحافة وقامت الخطابة وظهرت بوادر جيل جديد، وقد تقدمه أمثال هذا التفسير ليكون فيه لقطة عجلان وبقظة وسنان وبهجة ندمان وحديث خلان، ومجالسة علماء وأنس وحكماء، وسمر فضلاء وهدى وبشرى للمؤمنين، ولقد بسطت لي فيه القول وشرحت لي الصدر ويسرت لي الأمر، لأن الأمم الإسلامية اليوم أجدر بالفهم وأقبل للعلم وأحق بالإقبال، فأسألك اللهم أن أكون لك من الشاكرين.

أما بعد: فإني أريد إفاضة القول في التقليد، ذلك الذي خيم على عقول كثير من الأمم الإسلامية في الأحقاب الغابرة والأيام الخالية وأضل سعيهم وأحبط كثيراً من أعمالهم. كانت الأمم الإسلامية في القرون الأولى طفلاً ترعرع وتغذى بألبان النبوة المحمدية، إذ القرن في حياة الأمم سنة واحدة في حياة الفرد. وعلى هذا الحساب صارت هذه الأمة الآن في سن الرابعة عشرة كما أشرت إليه في السور السابقة، فهي كإنسان مراهق شارف البلوغ، ومتى بلغ بالسن أو بالقوة أخذ يظهر على الأمم الأخرى.

كان المسلمون في القرنين الأولين يتغذون بلبن النبوة فرضعوا أفاويق أيام الصحابة والتابعين فنفعوا عباد الله من بلاد الصين إلى جنوب بلاد فرنسا، فدانت لهم أمم من آسيا وأوروبا وأفريقيا. ذلك أنهم كانوا محمديين. ثم لما كان الفطام بعد الحولين ــ هما قرنان ــ تحولت الحال شيئاً فشيئاً وخمدت جذوة الحماسة وأخذوا يفكرون بأنفسهم فعل الصبي بعد سني الرضاع يلتمس الطعام بنفسه. هنالك يحضر له المؤدبون والمعلمون والمربون، وفي هذه الأجيال التي اعتبرناها سنين لم تكن هذه الأمم إلا عالة على الملوك والعلماء ورجال الدين وشيوخ الطرق. فهم كانوا كأيتام إن أحسن الوصي القيام عليهم استقاموا وإن أساء التصرف ولم يقم بالأمانة ناموا، فقامت دول فارسية وأخرى تركية وثالثة إمارات عربية. ولا زالوا يتدهورون المرة بعد المرة. ولقد مضى في هذا التفسير نبأ من بعض أماراتهم وممالكهم، وكيف اختلت الحكومات وبارت النظم وضاعت الأمم. لماذا هذا؟ لأنهم كانوا بعد سني الفطام قبل سني المراهقة والبلوغ. ولا جرم أن الطفل في تلك الأيام يعلله المربون بالآمال ويوارون عنه الحقائق ويخيلون له مستقبلاً سعيداً وعمراً مديداً ويعطونه الحلوى والمضرب والكرة ويقولون له أقوالاً لذيذة ويغرونه بكل ما لذ وطاب، فيستنيم لأقوال المربين وتستهويه أكاذيب المواعيد وتخدعه خرافات الأسانيد، وهذه السن خليقة بذلك. لذلك كثرت الفرق وتباينت الطرق وظهرت الخوارج، وادعى المهدوية كل من أحسّ من نفسه بقوة اللسن وسعة العقل ورجاحة الفطن. ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » عرف تلك الأضاليل، أو قرأ ما تقدم في سورة « الشعراء » من أكاذيب الدجالين في الإسلام واستوائهم على عرش الإمارة، عرف كيف تخدع كواذب الأقاويل واحتيال المحتالين. ذلك كله أن الأمة كانت لا هي في سن الرضاعة من أفاويق النبوة المحمدية، ولا هي بلغت السن التي تؤهلها لتسلم زمام أمرها والقيام بشؤونها، فلا محيص لها من التقليد ولا مفر لها من اتباع من تتوسم فيه مخايل النجابة، فتسلم زمامها أقوام منهم الصادقون ومنهم الخادعون، وكل يعاملهم معاملة ذلك الطفل الصغير. لذلك كثرت فيها الخرافات وشاعت الضلالات واتكلوا على الشيوخ فعطلت العقول وسادت النقول، فجاء جيلنا الذي نحن فيه، فماذا أقول؟ أقول: أحدثكم أيها المسلمون بحديث أحد المهديين في الإسلام أجعله مثلاً من أمثال أسلافنا السابقين، أريد بذلك استنارة الشبيبة الإسلامية، ومتى عرفت الشر أقلعت عنه أو الخير اجتلبته، فأقول:

لقد كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قد استوثق له الأمر في الأندلس بعد القبض على أبي القاسم ابن عباد المعتمد على الله بعد أن تولى الملك ٢٠ سنة وذلك سنة ٤٨٤ هجرية. ولقد قام بالأمر خير قيام إذ آثر الجهاد والغزو، وقمع ملوك الروم، والحرص على المصلحة في جزيرة الأندلس، إلى أن توفي سنة ٤٩٣، وقام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحابه المرابطين، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد. وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم، حتى كان إلى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك المتغلبين. وأخذ يكرم الفقهاء والعلماء ولا يفعل أمراً إلا بمشاورتهم، ولكنه تمادى في الغفلة، واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكير كثيرة. وأخذ أكابر المرابطين يدّعي كل منهم صريحاً أنه أحق بالإمارة منه، واستولى النساء على الأحوال،

وصارت كل امرأة من أكابر « لمتونة » تحمي شريراً وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور وأمير المؤمنين يزداد غفلة، واكتفى بإمرة المسلمين وبصيام النهار وقيام الليل. فماذا فعل الله للمسلمين إذ ذاك؟ قوم لا قوام لأمرهم إلا بالأمراء، فإن صلحوا صلحت الأمة وإن فسدوا فسدت. فهم على حسب من يديرهم.

ألم أقل لك أيها الذكي: إنهم فطموا من الرضاعة أولاً، فهم الآن في السنة الخامسة وهي سن الطفولة وهذه سن الغفلة واليتم، ولم يصلوا لسن الرشد. لما طغى أمراء الأندلس وشربوا الخمر وأولعوا باللهو والزهو أرسل الله لهم يوسف بن تاشفين فأدخل ملكهم تحت إمرته، ولما قام ابنه أضاع الأمة من طريق الاشتغال بالعبادة كما أضاعها أولئك من طريق الفسوق والخمور والجهالة. هنالك قيض الله لهم رجلاً آخر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فبينما عمال الأمير علي بن يوسف بن تاشفين يعثون في الأرض فساداً ويهتكون أعراض الرعية علناً بلا احتشام جهاراً بعد الخمسمائة إذ ألهم الله رجلاً يقال له « محمد بن تومرت » ينتسب إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من أهل « سوس » من قبيلة تسمى « هزغة » من أقوام شرفاء، هناك أحب العلم فرحل إلى المشرق سنة ٥٠١هـ، أي: في السنة التي ابتدأ فيها فساد الدولة، وانتهى إلى بغداد، أي: كما ينتهي المسلمون اليوم إلى أوروبا، ولقي أبا بكر الشاشي فدرس عليه الفقه والأصول وسمع الحديث على أكابر الشيوخ، ويقال: إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده، وذكر له ما فعله أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس، فقال الغزالي: ليذهبن عن قريب ملكه. وأشار إلى أن ذلك يتم على يد حاضر بالمجلس، أي: ابن تومرت، وهذه الحكاية سواء صحت أم لم تصح لا حرج في روايتها، ويقال: إن هذه الإشارة قوت طمعه في ذلك فرجع إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب. وبينما محمد بن تومرت كذلك إذا رجل آخر هناك يسمى عبد المؤمن يعلم الصبيان في موضع اسمه « فنزارة » من بلاد « متيجة »، واتفق أنه رأى في النوم كأنه يأكل مع أمير المسلمين « علي بن يوسف بن تاشفين » في صحفة واحدة ثم زاد أكله على أكل أمير المؤمنين ثم زاد فيه الشره فاختطف الصحفة وانفرد بها وحده، وفسرها له المفسر بأن هذه تكون لرجل غيرك يكون أهلاً لأن يشارك في الملك ثم ينفرد به. فهذه الأحاديث والرؤى قد أعدت الرجلين لعمل عظيم فتلاقيا، فيقال: إن محمد ابن تومرت عرف عبد المؤمن بعلامات رسمها في نفسه وعرفها من كتب المتقدمين.

وقد كان عبد المؤمن عند المقابلة متوجهاً إلى المشرق في طلب العلم فاستصحبه محمد بن تومرت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقاما بمدينة « ملالة » أشهراً، ورحلا ورحل معهما رجل آخر اسمه عبد الواحد، وقد كان محمد بن تومرت شديد الصمت كثير الانقباض لا ينطق إلا في مجلس العلم. وحل مع صاحبيه في « تلمسان » وقضى بها مدة ثم توجه إلى « فاس » فأظهر عقيدة الأشعرية في التوحيد، وأخذ يعظ الناس فاجتمع الفقهاء عليه فوجدوه رجلاً قويّ العارضة، فأشاروا على الوالي بإخراجه لئلا يفسد عقائد العوام فأخرجه. وإنّما فعلوا ذلك لأنهم كانوا جميعاً صائمين عن جميع العلوم ما عدا الفقه، فتوجه إلى مراكش وكتب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. ولما دخل عليه أحضر له الفقهاء فناظروه فغلبهم، ومنهم رجل يقال له « مالك بن وهيب »،

له معرفة بعلوم كثيرة حتى الفلسفة، فأشار على الملك بقتله لأنه فصيح حسن العبارة وهو مفسد لا تؤمن غائلته، فلم يقتله الملك خوفاً من الله، فقال له: اسجنه حتى يموت. فقال الملك: لا ذنب له. هنالك نفاه عن أمر مراكش وهناك كانت الطامة الكبرى، فتوجه إلى «سوس» فشرع في تدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخذ يذكر المهدي ويسوق إليه ـ كما فعل المهدي السوداني محمد أحمد في زماننا سواء بسواء ـ فكلاهما ابتدأ أمره بالتشويق للمهدي من غير أن يذكر نفسه وجعل له أنصاراً يستميلون له رؤساء القبائل. هنالك تقرر في نفوسهم فضل المهدي ونسبه ونعته، فلما تم ذلك قال: أنا محمد بن عبد الله، ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرح بأنه معصوم وأنه المهدي المنتظر. فلما استقر لهم ذلك بايعوه على أنه المهدي، وألف لهم كتباً في العلم وعلمهم فكان يبطن التشيع. وأول درجة من أصحابه كانوا عشرة، وهم المهاجرون الأولون سماهم الجماعة وهم أول من صدقوه، والطبقة الثانية سماهم الخمسين. ثم قال لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة. ويقال: إنه كان يخبر ببعض الحوادث فتقع. وكان يقول: لو شئت لعدّدت خلفاءكم خليفة خليفة. ولقد جاء هذا القول في نظر رجل من أهل الجزائر من مدينة من أعمال «بجاية» وقد وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو «بتينملل»، فقام على قبر محمد بن تومرت بمحضر من أتباعه الموحدين وأنشد قصيدة بليغة، وهاك نصها:

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عرباً من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وأنه ... علاماته خمس تبين لمهتدي
زمان اسم والمكان ونسبة ... وفعل له في عصمة وتأبد
ويلبث سبعاً أو فتسعاً يعيشها ... كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا ... فذلكم المهدي بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفة الهدى ... فأكرم بهم إخوان ذي الصدق أحمد
هي الثلة المذكور في الذكر أمرها ... وطائفة المهدي بالحق تهتدي
ويقدمها المنصور والناصر الذي ... له النصر حزب إذ يروح ويغتدي
هو المنتقى من قيس عيلان مفخراً ... ومن مرة أهل الجلال الموطد
خليفة مهدي الإله وسيفه ... ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد

ويقطـع أيـام الجبـابرة التـي | أبـادت مـن الإسـلام كـل مشيـد
فيغـزون أعـراب الجزيـرة عنـوة | ويغـزون منـها فارسـاً وكـأن قـد
ويفتتحـون الـروم فتـح غنيمـة | ويقتسـمون المـال بـالترس عـن يـد
ويغـدون للدجـال يغزونـه ضحـى | يذيقونـه حـدّ الحسـام المهنـد
ويقتلـه في بـاب لـدّ وتنجلـي | شكـوك أمـالت قلـب مـن يوحـد
ويـنزل عيسـى فيـهم وأميرهم | إمـام فيدعوهـم لمحـراب مسـجد
يصلـي بـهم ذاك الأمـير صلاتـهم | بتقديم عيسى المصطفى عـن تعمـد
فيمسـح بـالكفين منـه وجوهـهم | ويخـبرهم حقـاً بعـز مجـدد
ومـا أن يـزال الأمـر فيـه وفيـهم | إلـى آخـر الدهـر الطويـل المسـرمد
فـأبلغ أمـير المؤمنيـن تحيـة | علـى النـأي منـي والـوداد المؤكـد
عليـه سـلام الله مـا ذرّ شـارق | ومـا صـدر الـوارد عـن ورد مـورد

فهذه حال «محمد بن تومرت» الذي هو المهدي المنتظر، وأصبح القوم مفتونين به، حتى لو قال لرجل: اقتل أباك أو أخاك لقتله.

وكان إظهاره المهدوية سنة ٥١٥ هـ، وفي سنة ٥١٧ هـ جهّز جيشاً عظيماً من المصامدة جلّهم من أهل «تينملل» ومعهم قوم من أهل «سوس»، وأمرهم بحرب المرابطين وأن يدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع المهدي المعصوم، فإن أجابوا فهم إخوانكم وإلا فقاتلوهم، وأمر عليهم عبد المؤمن وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم، وقاتلوا المرابطين قريباً من مراكش بموضع يسمى «البحيرة»، وأمير المرابطين الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فدعا الموحدون المرابطين لما التقى الجيشان إلى ما أمروا به فردوا عليهم أسوأ رد، وهكذا كتب عبد المؤمن إلى علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه رداً يحذره فيه من سفك الدماء. ولما التقى الجمعان قتل من المصامدة خلق كثير، وانهزم الجيش ولكن نجا عبد المؤمن. ولما رجعوا إلى ابن تومرت هوّن عليهم أمر الهزيمة وبشرهم بالشهادة والجنة، ومن ذلك الوقت أخذ المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش وهو يزداد تقى وصلاحاً وتشدداً في دينه وإقامة للحدود كلها، حتى مات سنة ٥٣٤، وقام بالأمر بعده عبد المؤمن فبايعه المصامدة، ولد بضيعة من بلاد تلمسان، وقد ولد سنة ٤٨٧ وتوفي سنة ٥٥٨، وقد ملك بلاد المغرب وأكثر بلاد الأندلس. وقد خلفه في الملك ابنه أبو يعقوب يوسف ومات سنة ٥٨٠ هـ. وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ الذي أهان الفيلسوف ابن رشد وحبسه ثم عفا عنه، ولم تقم للحكمة بعد ذلك قائمة في الإسلام. وبعده ابنه محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين، وتوفي سنة ٦١٠، وتولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد. هذا ملخص كتاب تاريخ الأندلس المسمى بـ«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» تأليف الشيخ محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي.

أقول: إن هذا العالم كان في زمان تلك الدولة، فلم تطل مدته إلى انقضائها حتى يعرف ما آل إليه أمر هذه الدولة، وأيضاً أنه كان تحت حكم ملوكها فلم تكن له الحرية التامة في إبانة الحقائق

الناصعة عن المهدي ابن تومرت . ووظيفة هذا التفسير امتحان الحوادث العامة وعرض نتائج الامتحان على أمم الإسلام بعدنا ، أما مجرد سرد التاريخ فقيمته زهيدة ضئيلة ، ونحن الآن في تفسير آيات قرآنية تنبذ التقليد ، وهذا التاريخ الذي سردته هنا مسوق لتبيان أن الوقوف على التقليد بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير هو الشؤم الأكبر والخطب الجلل والموت الزؤام .

فلأذكر إذن في هذا الصدد ما عثرت عليه في الكتب الأخرى وما ذكره أيضاً العالم الفرنسي « سديو » ليحق الحق ويبطل الباطل . وإذن يفرح المؤمنون والعلماء المخلصون والأمم المحمديون بنصر الله بالهداية العلمية ، والله هو الولي الحميد .

جاء في كتاب « خلاصة تاريخ العرب » للعلامة سديو ما ملخصه : إن العرب بأسبانيا انشقوا على المرابطين أيام علي بن يوسف الذي ظهر عجزه كما تقدم القول عنه ، وأنه كان مشغولاً بالصلاة والصيام واكلاً أمر الرعية للنساء مع إكرامه للعلماء . وقد كان هؤلاء العرب لا يفكرون إلا في محاربة أمرائهم المرابطين ولم يعرفوا كيف يتحدون ويتخذون لهم مركزاً عاماً حربياً لصد النصارى المحيطين بهم من سائر الجهات .

وغاية الأمر أن الفرص قد سنحت لأناس منهم استقلوا بالإمارة من سنة ١١٤٤ في مرسية ووالنسة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة وغيرها ، فادعى كل هذا المنصب بلا حق وانفصل عن الآخر ، فذهب المرابطون من أسبانيا سنة ١١٤٦ ، وغاية الأمر أن عبد الله ابن غانية بقي تحت يده جيش ضعيف وقد اضطر إلى مساعدة النصارى له فساعدوه حتى أخذ قرطبة وأشبيلية ، حتى إذا ما جاء جيش عبد المؤمن فقتل ابن غانية وذهب أمر المرابطين . ثم إن الأميرين يوسف ويعقوب المتقدم ذكرهما أبليا بلاء حسناً في منع غارات النصارى عن مدن الإسلام ، ثم بعد ذلك أغاروا على من جاورهم من النصارى وهنالك تجدد الرونق والعز في بلاد الأندلس . وقد زاد ذلّ النصارى وعز المسلمين بما فعله الأمير يعقوب حتى مات وخلفه ابنه محمد الناصر سنة ١١٩٩م .

هذا ، وقد هزمه النصارى في واقعة « طولوسة » سنة ١٢١٦م ، وهنالك ضعف أمر الموحدين فانقطعوا عن محاربة النصارى ، ولما مات الأمير محمد خلفه أبو يعقوب وقد عصته الأقاليم بالمغرب وأسبانيا لأنه غير كفء .

ثم إن أرباب المشورتين الذين أنشأهم المهدي كما تقدم ـ وهم العشرة الذين سماهم المهاجرين الأولين والخمسين الذين سماهم الجماعة ـ كانوا متشوقين إلى الاختصاص بالحكم لما رأوا فساد الأمر في البلاد فهددهم المأمون ، وقد قام بشد أزره حزب ذو قوة وبطش وجعلوه أميراً عليهم ، فنصب أرباب المشورة المذكورون يحيى بن ناصر فتغلب عليه وعليهم المأمون ، وعلق رؤوس هؤلاء الشيوخ على أسوار مراكش ، وألغى المشورتين ونسخ سياسة المهدي ، ومنع ذكره في الخطب ، وعامل أهل المغرب بقسوة لم يقدروا بعدها على العصيان سنة ١٢٢٨ .

ثم إن محمد بن هود من ذرية قدماء ملوك سرقسطة أوقع البغضاء بين مغاربة أسبانيا ومغاربة أفريقيا ، وأخذ منهم جيشاً جراراً هزم به المأمون سنة ١٢٢٩ قرب مدينة « طاريغة » ، وألزم المأمون الإقامة بمراكش .

هنالك اضمحلت دولة الموحدين شيئاً فشيئاً، فإنهم لما انتزعت منهم الأندلس أخذت بلاد المغرب تنسلخ منهم شيئاً فشيئاً، فقد عصى الموحدين في أيام خلفاء المأمون والي تونس سنة ١٢٤٢م وعائلته هم بنو حفص.

وفي سنة ١٢٤٨ أسس بنو زيان في تلمسان والجزائر سلطنتهم الممتدة إلى نواحي فاس، وكذلك بنو مرين في جهات كثيرة، ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾[الروم: ٤].

هذا ملخص ما جاء في كتاب «سديو»، وأزيد عليه ما قرأته سابقاً في المطولات من أخبار ابن تومرت، ثم أتبعه بالنتائج العلمية التي هي المقصودة بالذات في تفسير هذه الآيات فأقول:

إن محمد بن تومرت كما قلت جعله الله لهذه الأمم أشبه بمربي الأطفال، ولقد جاء في كلام علماء الفقه أن الكذب جائز في سياسة الأطفال، وقد قلنا: إن الأمم الإسلامية في القرون الأولى كانت في أيام الرضاعة فكل قرن سنة واحدة في عمر الأمة. ولما كان الفطام أخذ الناس ينظرون شؤونهم بأنفسهم، ولكنهم لقلة العلم سخر الله لهم أناساً يفعلون معهم فعل المربي مع الطفل. فماذا فعل محمد بن تومرت؟ لزم الخلوة كما تقدم. وإني أقول: أنا معتقد في الرجل حسن مقصده وأنه يريد للمسلمين في تلك الأصقاع خيراً، ولقد رأى أن يسوسهم بالدعوة المشهورة وهي المهدوية. فماذا يفعل؟ نصب له دعاة وأعلن العصمة كما أعلنها غيره من الفاطميين بمصر، وأعلنها أيضاً «أغاممنون» بالهند في زماننا وغيره، ولقد كان من أمر محمد بن تومرت أن بث الأرصاد والعيون والجواسيس ليستطلعوا أسرار القلوب، ومن المصدق للمهدي ومن المكذب. وأخذ يوازن بين الشهادات الواردة إليه عن عظماء أتباعه، فمن ذكائه وفطنته لم يحكم على أحد بالكفر بمهدويته إلا إذا توافرت الشهادات المختلفات بذلك من بطانته الذين جعلهم عيوناً عليهم. أما الذي اختلف فيه الشهود ومعلوم أن أحدهم لا يعلم ما يقوله الآخر فإنه لا يحكم بكفره به. فهنالك اجتمع له من أسماء أتباعه جدول حفظه عنده لوقت الحاجة.

وبينما هو يبث الأرصاد والعيون والجواسيس لمعرفة أسرار أتباعه كان قد أسر لرجل من أتباعه يدعى على ما أذكر «الونشريني»، فهذا الرجل كان عالماً فأظهر الجذب وأخذ يهيم على وجهه ويمر في المجالس فلا يأبه له أحد لأنه مجذوب لا يعي. وكان إذا مر على محمد بن تومرت يقول: إن في هذا الرجل لسراً. وبقي الأمر هكذا إلى أن كان ذات يوم محمد بن تومرت يصلي الفجر نظر فرأى رجلاً وراءه يصلي وعليه ثياب بيض بهيئة جميلة، فأظهر الدهش إذ سأله: من أنت؟ فقال: أنا «الونشريني». إني في هذه الليلة أتاني النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وعلمني كذا وكذا، وعرفني العواقب وأهل الجنة وأهل النار. ولا جرم أن هذه هي الحيلة التي تكررت كما تقدم في هذا التفسير، إذ ذكرت نظيرها في سورة «الشعراء» عند آية السحر، فليتفطن المسلمون وليستيقظوا. فقال ابن تومرت له بدهشة ولهفة: سبحان الله. أخبرنا بأمرنا من أنا؟ فقال: أنت المهدي ومن كذب بك في النار.

ولا جرم أن الجدول الذي فيه الأسماء قد سلم إليه سراً حتى عرف جميع الكفار بأشخاصهم. فهنالك قال له المهدي: أخبرنا بأهل النار وأهل الجنة. فأمر المهدي فاجتمع القوم وصفهم «الونشريني» صفين صفاً أمام صف، فنظر إلى صف اليمين فقال: هؤلاء أهل الجنة، وصف جهة اليسار فقال: هؤلاء

أهل النار. ثم قال: ليقتل أهل الجنة أهل النار، فضرب صف اليمين صف اليسار حالاً بالسيوف واستولوا على ما يملكون، ولكن هؤلاء المقتولون وإن كان أمر قتلهم سماوياً على حسب الاعتقاد بقي له أثر سيئ في النفوس، فشغلهم المهدي بالحروب المتقدم ذكرها ضد المرابطين أيام «علي بن تاشفين» كما عرفت، وصار يعدهم ويمنيهم بملك فارس والروم، وأنهم هم الذين يبقون حتى أيام نزول المسيح إلى آخر ما تقدم. هذا هو الذي وعته الذاكرة مما قرأته من الكتب، والله أعلم.

امتحان هذه السير والأحوال

سبحانك اللهم وبحمدك. أنت ناظم الأمم والجماعات ومعط كل ذي حق حقه. أنت الذي علمت أن هؤلاء قوم جهال مشتتون فهيأت لهم محمد بن تومرت ليمنع الظلم عنهم فقام وادعى المهدوية. اللهم إن المهدوية قد تقدم الكلام عليها في أول سورة «الحج» وقد ذكرنا هناك أمر المهدي وأن الأحاديث كلها مطعون فيها. سبحانك اللهم وبحمدك. إن أحاديث المهدي قد سرت إلى نفوس أكابر الأمة، وإن محيي الدين بن عربي قد وقع فيما وقع فيه غيره وسرت عقيدة المهدي في الأمم الإسلامية، وقلت هناك: إنها لا تزال باقية لم ينقص منها شيء حتى ظهور المهدي السوداني. فما نتيجة ذلك كله؟ نتيجته ضعف العقول والاتكال على الشيوخ ونوم القوى العاقلة.

نام المسلمون آماداً وآماداً. تركوا مواهبهم، تركوا عقولهم، كما تركت الحيوانات المنزلية تدبير أنفسها للإنسان بخلاف الحيوانات البرية الوحشية كالغزلان. إذن المسلمون المتكلمون على المهديين أو على الشيوخ والذين استناموا لمن ملكوا قيادهم من الظالمين مسلمين وغير مسلمين أصبحوا كالعنز والبقرة اللتين ضعفتا عن تدبير أنفسهما وفاقتهما الغزالة والبقرة الوحشية، فصارت الأمة ذليلة والعضو الذي لا عمل له يضمر ويضعف، وليس الأمر قاصراً على محمد بن تومرت، فهو رجل نفع القوم بأسلوبه ومنهجه واستعان بالكتمان والصبر وبعلوم السيمياء، وبإيهامهم أنهم خير أمة أخرجت للناس وأنهم هم الذين يبقون إلى نزول عيسى عليه السلام، وقد فعل ذلك معهم ولكنه في الوقت نفسه علمهم الصدق والإخلاص والشجاعة والعلم على حسب زمانه، الرجل مزج الحق بالباطل وقد أفاد القوم. ولا يزال بعض شيوخ الطرق الآن في أمم الإسلام يرفعون نفوسهم إلى مقام العظمة ويجعلون أنفسهم وسائط بين الله وبين خلقه. وقد أنام كثير منهم المسلمين، إذ أفهموهم أنهم بتعاليمهم مع جهلهم الفاضح ينجون من العذاب يوم القيامة.

تعليم ابن تومرت وغير ابن تومرت نافع وضار. النفع مؤقت على مقدار همته. انظر الفرق بين هؤلاء الصالحين وبين الأنبياء. انظر إلى الأنبياء كيف دامت دياناتهم آماداً وآماداً. كثر المهديون في الإسلام ولكل مدى أيام تنقضي، ولكن الإسلام باق لم ينقص منه شيء، وما يفعله هؤلاء الشيوخ تمحوه كرور الأيام لأنه لا ثبات له وهل لغير العلم ثبات؟ الأمم الإسلامية يجب تعليمها وترقية عقولها ونشر التعليم والثقافة العامة فيها ليكن التعليم إجبارياً في جميع الأقاليم ليتعلم الرجال والنساء.

هذا هو الهدى. فأما إني أؤمن بفلان أنه المهدي ومتى ذهب ذهب ذلك الإيمان ــ كما فعل المأمون فأبطل اسم المهدي ونسخ تعاليمه وقتل الشيوخ ــ فإن الدولة تضمحل وتذهب كما رأيت في دولة الموحدين.

لا لا، أيها المسلمون، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء: ٨١]، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس: ٨١].

تذكر أيها الذكي ما جاء في سورة «طه» وأن بني إسرائيل لما رأوا العصا قلبت حية آمنوا وهم في مصر، ثم لما خرجوا منها ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٨]، ولما رأوا عجل السامري المصنوع من الذهب ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾[طه: ٨٨]، فهذا الإيمان المشووم الذي لا يرجع إلى تمام العلم يكون عرضة للتقلب، فإن من رأى عصا انقلبت حية لحريّ أن يكفر إذا رأى عجلاً له خوار مصنوعاً من ذهب فإنه أجمل وأبهى وأعظم هيئة من الحية.

وهل وردت تلك القصص في القرآن إلا لهذه النتائج. ألم يقل الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[العنكبوت: ٥١]، وهو القائل: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩] والآيات المذكورة هي خوارق العادات. إذن القرآن في ناحية وجمهور المسلمين في ناحية. القرآن يدعو إلى التعقل والعلم وتعليم الناس. وإذا كنت قد خلقت في الرمم الميتة دوداً وسلطت على الأحياء منها الأسود والنمور الخ رحمة مني وعدلاً وحكمة أفلا أخلق في رمم الأحياء بالهند وبلاد الإسلام ما يشبه هذا الدود ويشبه الأسود والفهود والنمور من رجال الدين ومن الأمم المستعمرين؟ أوَلا ترون أني أخلق العنكبوت تنصب الخيام لاصطياد الذباب. أفلا أفعل كذلك في الإنسان الذي أشبه بالذباب؟ فأسلط عليه عنكبوت الشيوخ والبراهمة والدجالين. هذا فعلي وأنا الحكم العدل. أنتم أيها الناس جميعاً اليوم في حال تشبه حال الأطفال من حيث مجموعكم والأطفال لا يستعدون غالباً لما يعقله البالغون. ملأت أرضكم بالأصنام وبالخرافات لأنكم لا تعقلون سواها. ثم أرسلت رسلاً وآخرهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، فسرت دعوته في الأرض ووصلت الهند وفيها نحو خمسين مليوناً من المسلمين وهم أرقى الجميع. وهذا العدد لم يسلم إلا بعد حروب دامت قروناً وقروناً.

ثم مضت فترة ولم يقدر المسلمون على إزالة الأذى عن عباد البقر والأصنام هناك فأرسلت دول أوروبا فأخذوا يمنعون بعض تلك العادات تتميماً لما فعل المسلمون قبلهم. وكل ذلك اليوم تمهيد للزمان المقبل القريب إذ يظهر الجيل الجديد من المسلمين لا سيما قراء هذا التفسير. وهؤلاء هم الذين يرون أن الناس جميعاً إخوانهم وأنهم خلفاء الله في أرضه. فهؤلاء هم الذين يرقون الإنسانية كلها بعلمهم وحكمتهم وامتزاجهم بالأمم، وهنالك يزيلون الخرافات أولاً من بلاد الإسلام وثانياً من بلاد غير المسلمين من أهل الهند وغيرهم. هنالك يفهم المسلمون معنى قولي في القرآن: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقولي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، وقولي: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

هنالك يفهم الناس لماذا ذم الله التقليد في هذه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها، وما فوائد الهدى والعلم والاستبصار. فلما سمع صاحبي ذلك. قال: والله لقد شفيت ما في نفسي. فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب يوم الأربعاء ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩.

جمال العلم وبهجة الحكمة في ذم التقليد

أيها المسلمون، إنني بينما أنا أكتب هذا الموضوع يوم الاثنين ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ وقد اختمرت هذه الفكرة في نفسي طلع «الأهرام» وفي صدره هذه المقالة الآتية من بلاد الهند، فأدهشني صدور هذا القول اليوم وفكرت في أمر الإسلام وأمة الإسلام، وقلت: إن هذه من المصادفات العجيبة. كيف يظهر اليوم هذا المقال وقد ظهرت فيه أحوال الهند المقسمين إلى أربع طبقات، وأن البراهمة أوهموهم أنهم نواب الله في الأرض وعاشوا عالة على الشعب، وأن هذا هو أكبر سبب في خضوع الهند التي تعد بمئات الملايين إلى عشرة آلاف من الإنجليز. اللهم إن هذه المقالة سيتجلى بها هذا المقام حقاً وصدقاً، كيف لا والبراهمة قد نبغوا في احتقار الشعب وإدخال الغفلة عليه، وبعض النصارى والمسلمين قد قلدوهم في ذلك الاحتقار. فيا للعار، ويا للشنار.

أيليق بخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأتباع النبي العربي صلى الله عليه وسلم ذلك الذي قال: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، والذي أمر بلالاً أن يؤذن على الكعبة بمحضر من قريش، والذي نزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ذلك النبي الذي منع الاستئثار ونبذ كل خوارق العادات وحكم عليها بأنها كهانة، وجاء بالإنصاف والعدل، وأتى بمدنية تحتقر بجانبها مدنية بعض الأوروبيين، أولئك الذين يحقرون أن يكونوا مع السودانيين في مكان واحد كمطعم أو ملعب، ذلك هو الذي سمعناه اليوم عن بلاد الإنجليز، أن يكونوا كالبراهمة فيفسدوا عقول الشعوب الإسلامية بمهدويتهم أو بمشيختهم. كلا والله لا يليق.

فهذا هو المقال الذي به نعرف معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير وأنه خاتم الأنبياء، فقد ضرب المدنيات القديمة ضربة زلزلت الأرض، ولكن لا تزال الأمم في حاجة إلى إرشاد المسلمين الذين سيظهرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير، فالإسلام لا تزال أمامه مشاق وأعمال ملقاة على عاتق الأجيال المقبلة قراء أمثال هذا التفسير.

إن أكثر المسلمين يهوّش على عقولهم قوم بظواهر أحوال أو بإخبار بالغيب صدقاً أو كذباً أو بالتقشف والزهد، كل ذلك أمره قد مضى في حال طفولية الأمم الإسلامية، ولقد قلت لك أيها الذكي إن الأمم الإسلامية اليوم في القرن الرابع عشر قد أزف زمان بلوغها بالسن، وقد صارت كمن بلغ بالحلم ولعلها ترى الحقائق في زماننا هذا وتخرج من حضانة أولئك الذين لا يرون لها سياسة إلا بالإيهام وحجبهم عن الحقائق وإبعادهم عن سواء السبيل.

أيها المسلمون، لا عطر بعد عروس. ولا مخبأ بعد بوس. هذا كتاب التفسير «الجواهر»، هاهو ذا بين أيديكم فتفكروا فيه وقلبوا صحائفه، وسيظهر جيل جديد سائر على منواله. فويل لمن تركوا مواهبهم وعقولهم واتكلوا على شيخ من غير تعليم. وويل ثم ويل لمن نسوا نعم الله عليهم بالعقل والحواس والنعم الجليلة، ثم انتظروا مجيء المهدي ليهدي أبناء أبنائهم وهم لا يهتدون، كأن الله عز وجل ليس هادياً للناس الآن مع أن من أسمائه تعالى «الهادي»، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم

ليس من أسمائه الهادي. الله جعل الهدى في الأرض في كل زمان ومكان ولا يحجبه إلا التقليد الذي ذمه الله في هذه الآيات، إذ يقف المستضعفون أمام المستكبرين ويقولون لهم: أنتم سبب جهلنا، فيقول المستكبرون: كلا. بل أنتم قوم مجرمون، أي: لأنكم لو كانت لكم عقول ما أطعتمونها، وكيف تركتم مواهبكم وعقولكم؟.

اللهم إنا نحمدك على ظهور حقائق القرآن في التاريخ الذي جعل نبراساً ونوراً لمن بعدنا. فانظر أيها الذكي إلى أهل الأندلس كيف قصرت أنظارهم أيام علي بن يوسف بن تاشفين، إذ أنهم بعد أن عصوا عمال المرابطين لم يتفطنوا أن الفرنجة من خلفهم بل استقل كل بمملكته. لماذا هذا؟ لأن العقول خمدت بسبب الجهل. ثم انظر إليهم بعد أن طردوا الموحدين من بلادهم كما تقدم، فإنهم تفرقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، وذلك من نقص العلم والغفلة إما بالفسوق والاكتفاء بالشعر كما تقدم في سورة «الشعراء»، وإما بجمود القرائح بتعليم شيوخ يجعلونهم بالأماني قانعين وعلى الرؤساء متكلين، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

إن الله قد أذن في هذا الزمان بظهور الحقائق ونشر المجلات والصحف فسهلت على مؤلف هذا التفسير الأمر، واستبانت حقائق كثيرة كانت مطوية التفصيل عن أنظار الجمهور. فهذا المقال الذي سأذكره هنا عن الهنود يريكم أيها المسلمون مضارّ التقليد بأوضح سبيل، وهذا عار على أمم الإسلام الذين بعدنا الدارسين العارفين، أما أكثر الأمم الإسلامية المتأخرة فإن شيوخهم فعلوا معهم بعض فعل البراهمة مع الهنود، وكان من حقهم أن يكونوا مرشدي جميع الأمم لا أنهم هم يتبعون الشهوات كأولئك البراهمة القدماء والحاليين. فهاك نص المقال المذكور:

حديث الهند

من عرف العلة في جسم غيره دفع شرها عن جسمه

مصر مع العالم تنظر إلى الهند وتصغي بأسماعها لشكواها. ومصر دون العالم تهتم بأمر الهند لأن شأن تلك البلاد شأنها ولأنها تشاركنا بآلامنا كما نشاركها بآلامها. وتتمنى خلاصها كما هي تتمنى خلاصنا، وإذا قلنا الهند فقد أردنا الهند المفكرة العالمة الناهضة. ولكن ما هي الهند؟ أهي كمصر أمة واحدة بلغة واحدة وعنصر واحد بجو واحد وتقاليد واحدة وآداب واحدة؟ وهل تحيا حياة ديموقراطية كمصر لا يفضل فيها المصري المصري إلا بعمله وبما يقدمه لوطنه؟ لا إنها ليست مثلنا ولا نحن مثلها، فما هي الهند إذن؟ وما هي أدواؤها لندفع شر تلك الأدواء عن أنفسنا إذا نحن أحسسنا بها. إن أصدق الجواب على هذا السؤال لهو بالأرقام.

فالهند التي أسماها الإغريق باسم أحد آلهتها ليندرا كعادتهم في التسمية إذا كانت شطراً من القارة الآسيوية، فهي تكاد تكون يبساً منفصلاً عن العالم بالماء من جهات البحار وبالجبال الشامخة جداً حتى لا تجاوز من جهات البر مساحتها ٤٩٢٤٥٥٩ كيلو متراً مربعاً، يسكنها ٣١٩ مليوناً منهم ٢٤٧ مليوناً هم المستعمرة الإنكليزية والآخرون ١٢ إمارة خاضعة للإنكليز. وهذا المجموع من الأهالي مؤلف من ٢٠ عنصراً وهم يتكلمون بـ ٢٢٢ لغة أو لهجة، وليس لهذا المجموع لغة عامة، وللغاتهم ٥٠ نوعاً من الكتابة ولكل كتابة من ٢٠٠ حرف إلى ٢٥٠ حرفاً كذلك تعدد أديانها. وجو بلادهم يختلف

المناطق، فعلى مقربة من السواحل يهبط مستوى الأرض ٢٠٩ متر فوق سطح البحر فيكون الجو محرقاً بدرجة ٤٧ بميزان سنتغراد، وفي أعلى القمم على ارتفاع ٨٨٩٠ متراً يجمد البرد الدم بالعروق، جميع الفاتحين الكبار غزوا البلاد وملكوها، من سيزوستريس الفرعون المصري إلى الإسكندر المقدوني إلى غزاة التبت الآريين الذين ملكوا ناصية تلك البلاد وأسموا أهلها بالبارسيين النجسين، ثم تفرقوا بعد ذلك قبائل وصلت إلى أوروبا وملكتها، وإلى العرب إلى الهولنديين والبرتغاليين الذين فتح قائدهم البحري فاسكودي غاما طريقها سنة ١٤٩٨ إلى الفرنساويين إلى الإنكليز الذين تملكوا ناصيتها من الفرنساويين واتخذوها مزرعة لشركة من شركاتهم إلى أن ابتاعتها حكومتهم من تلك الشركة في سنة ١٨٣٣ وأخذت بتوسيع حدودها. وظلت حتى الآن لتلك الدول التي تقدمت إنكلترا أملاك وجزر في جوانبها.

والإنكليز يستعمرونها للزرق والتجارة، لأن مبادلاتها التجارية من الصادر والوارد لا تقل في السنة عن ٥٠٠ مليون جنيه، وكل استعمار للزرق ولرخاء العيش. وأقدر الدول على الاستعمار من قل رزقها في وطنها ولا يتعب الإنكليز كثيراً، وجيشهم بإحصاء ١٩٢٦ لا يزيد فيها على ستين ألفاً. وكبار الموظفين على ٣٤٣٣ موظفاً، ورجال البوليس منهم على أربعة آلاف، كما أن عدد الأوروبيين وأكثرهم من الإنكليز لا يزيد على ٢٠٠ ألف، فهل من المعقول أن يحكم هذا العدد القليل مثل ذلك العالم الضخم؟ إن الجواب على ذلك يجده الباحث في حياتهم الاجتماعية والأدبية، فالمسلمون وهم أرقى العناصر كانوا عضد الدولة الحاكمة وهم خمسون مليوناً، لأن حكم التفريق كان سائداً بينهم ثم الجهل الذي ترك فيه الأهالي، ولا يزيد الآن عدد الذين يعرفون القراءة على ٨ بالمائة، ولأنهم يقسمون الأمة إلى طبقات بحكم شرائعهم القديمة، فالطبقة العليا هي طبقة البراهمة نواب «الإله الأرضي» في خلقه، وهم فوق الجميع، ثم طبقة الكشاترياس أي المجاهدين والمقاتلة، ثم طبقة الغاشياس أي الفلاحين والزراع. ثم الطبقة الأخيرة الحقيرة النجسة وهي السودرا التي خلقها الله لخدمة الآخرين.

وعند البراهمة نص في شريعة «باهاكافلا» بأن من قتل برهماناً حوله الله إلى حشرة من حشرات الأقذار إلى أن يولد ثانية بعد موته فيأتي من عنصر باريا أي السودرا ويظل أعمى عدد شعر البقرة من السنين، ولا يغفر له ذنبه إلا إذا أطعم ٤٠٠ ألف برهماني، أما إذا قتل أحد البراهمة واحداً من السودرا فيكفي للغفران أن يرتل الغويالي وهي من أناشيدهم المقدسة ليطهر. فانظر إلى قيمة هذا وذاك في شريعتهم المقدسة ثم اسأل: أين المساواة؟ البرهمة من آفة الهنود منذ عهد بعيد لا يقل عن ستة آلاف سنة. كان العلم محصوراً بهم دون سواهم قبل دخول الغزاة بلادهم، لذلك زادوا على الكتب المقدسة ما يعزز نفوذهم، وبوصفهم وكلاء «إله الأرض» وجد البغاء المقدس في الهياكل لأجلهم. وحكم على الناس أن يقدموا لهم جميع حاجاتهم دون أن يقوموا بعمل، فإذا ولد الطفل الهندي أعطوا الجعل، وإذا بلغ اليوم السادس عشر من عمره أعطوا الأتاوة ليطهروه من رجس الولادة، وإذا بلغ الشهر الثالث أعطوا الأجر لقص شعره. وإذا بلغ الطفل الشهر السادس أعطى البرهمانا الأجر عن فطامه. كذلك إذا أتم السنة. ومن السنة الواحدة إلى السنة السادسة عشرة وهي سن الزواج يعقد البرهمانا الزواج مقابل الأجر، وكذلك في حالة الموت واحتراق الجثة ووضع الرماد بالحق، وفي كل

شهر من السنة الأولى بعد الوفاة يقدم للبرهمانة كل ما هو عزيز على الميت على اعتقاد أنه يتمتع بـه في آخرته، وفي كل حفلة من هـذه الحفلات يغسلون أقدام البرهمانة ويشربون مـاء الغسل. تلك طبقة ليست عاطلة فقط بل كالعلق تمتص دم الأمة وتقتل هممها ونفوسها لما ابتدعته من الأحكام والشرائع.

كذلك تقديس البقر حتى إنه لا يموت منهم ميت إلا إذا هو أمسك بذيل بقـرة من تلك الأبقار المقدسة، وهم في الصحة والمرض يلتقطون روثها وبولها ويمزجونـه بلبنـها ويضعونـه في أحقاق ليؤكل ويشرب، فيشفي من كل داء، ويدخل الآكل والشارب إلى الجنـة، وقد بلـغ عـدد البقر في سنة ١٩٢٠ مليوناً و١٤٦ ألف بقرة، وبلغت النفقة عليها ١١٧٦٠٠٠٠ جنيه، أي أربعة أضعاف غلة الأرض، ومن هذه الأبقار ٧٠ ألف بقرة لا يجوز الانتفاع بلحمها وعظمها وجلدها، وفي كل سنة تقـوم المعارك بين المسلمين والهندوسيين من أجل ذبح البقر، والذين يزورون الهند قد يشاهدون تلك الأبقار المحترمة المقدسة والناس يتراكضون لالتقاط بولها بأوعيتهم. يلي ذلك في زعزعة رقي تلك الأمة ما يؤخذ أيضاً من إحصاء ١٩٢٠ أن عدد الشحاذين والدجالين خمسة ملايين و٨٠٠ ألف وعدد الدراويش والأولياء ٤٥٢١٧٤ شخصاً، فأي جسم يتحمل مثل هذا العلق ويظل قوياً؟ الـهنود يقدسـون الـزواج والأطفال يصلحون له عندهم من سن الواحدة فصاعداً، فإذا أتم الطفلان فعل الزواج قبل البلوغ قدمـت الـهدايا لوكلاء « الإله الأرضي » أي البرهمانا. وإلههم « سيفا » يصورونه في كل مكـان بصـورة أحد أعضـاء التناسل، وإلههم « فيشو » بصورة فعل الزواج. فلما قرر مؤتمر جنيـف في سنة ١٩٢٣ أن تحرم الـدول نشر الصور المغايرة للآداب وأن تنص قوانينها بالعقاب الشديد قابل مسلمو الهند هذا القـرار بالارتياح بل بالفرح والسرور، وقابله الهنود بالسخط والغضب، فنص في القانون الذي يحرم نشر الصور القذرة على اشتراط مخالفة الدين وسن قانون الزواج بعد ذلك على أن يكون سن الشابين بين العاشرة والثانية عشرة، ونادى « غاندي » بهذا الإصلاح ولم يكتف بـه، وأعلن « تـاغور » شـاعرهم حرباً عـلى هـذا القانون الذي عده فوزاً للمادة على الروح، وأصـرّ عـلى تزويـج الأنثى قبـل أن تصـير بالغـة بحجـة أن الأنثى في هذه الحالة لا تعرف أنها أنثى إلا وهـي متزوجـة. أمـا حجـة غـاندي فكـثرة الوفيـات وضعـف النسـل وشيخوخة الرجـال وهـم في الخامسة والعشـرين ووهـن النسـاء في سـن الشبـاب، وكـانت حربـاً شعواء وانتهت بأن اقترح مجلسهم في سنة ٢٥ رفع سـن الـزواج إلـى ١٤ سـنة ودل الإحصـاء عـلى أن البنات اللاتي يمتن في سن الطفولة بسبب الـزواج يبلـغ متوسط عددهـن في السـنة ثلاثـة ملايين و٢٠٠ ألف، وقد عرف الناس أنهم رفعوا السن في تشريع هذا العـام إلـى ١٦ سـنة، أمـا الأرامـل وعددهـن في الهند ثلاثون مليوناً فلا يمكن أن يتصور الإنسان على ما وصف داس وغاندي، والمس مـايو الأمريكية حالاً أسوأ من حالهن مرضاً وسقماً وضعفاً. فالمرأة إذا مات زوجها كانت تحرق نفسها على قبره أو هم يحرقونها، إلى أن أبطل الإنجليز ذلك بعد جهد جهيد. أما اليوم فإنها تحلـق شعـر رأسـها ولا تطعـم إلا العيش اليابس مرة في اليوم، ولا تخاطب إلا بعبـارات التحقير والازدراء ولا تقـابل أحـداً، وقـد نـادى غاندي بالهنديات الراقيات لينشرن الدعـوة لـزواج الأرامـل ولإكرامهـن، وكـانت فكـرة هـذه الجمعية موجودة منذ سنة ١٨٩١ ولكنهم لم يفلحوا حتى الآن، كما أنهم لـم يفلحـوا بإبطـال البغـاء المقـدس، وهو أن يقدم الرجل ابنته وهي طفلة للإله، فيقوم وكيل الإله الأرضي مقامه، وهكذا تصير الفتاة بغياً

مقدسة لمن يدخلون الهيكل. وفي معبد كالي آلهة الدم المسماة «كالكونا» باسمها ألوف منهن. ومن أسباب انحطاط الهند طبقة السودرا أي الطبقة النجسة وعددها ٦٠ مليوناً، فهم في نظر الطبقات الأخرى الثلاث دون الناس، فلا يجوز لهم دخول المدارس ولا دخول الهياكل ولا المحاكم ولا المخازن ولا المستشفيات، حتى إنه لا يجوز لهم امتيار المياه من الآبار العمومية. وفي بعض الجهات لا يجوز لهم السير بالطرقات العمومية، وإذا وقع ظل واحد منهم على شيء أو على إنسان نجسه، وإذا وقع على مأكل أو مشرب حرم أكله وشربه. وإذا رأى أحدهم برهمانا مقبلاً وجب عليه الابتعاد عن طريقه نحو مائتي متر على الأقل. كما أنه يجب عليه الابتعاد عن الطبقات الأخرى نحو ٣٠ متراً، ولم يتعرض الإنكليز لهذه الحالة احتراماً لأمر ملكتهم في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨ بألا يتعرض ـ أي الإنكليز ـ لأحكام الدين والعقائد، وهؤلاء التعساء يعتقدون أن ذلك حكم الله عليهم. ولكن غاندي هب للدفاع عنهم بحجة أن الدين لم يحرم رفع هذه الطبقة إلى مصافّ الطبقات الأخرى، فمن الواجب أن ترفع إليها، فعقدوا في بومباي مؤتمراً ضخماً لمحاربة هذا المبدأ. ولما صدر القرار في مارس بأن يكون تعليم الهنود جميعاً إجبارياً خصصوا ٦٩ مكتباً لأولاد هؤلاء النجسين، وعينوا ٨١٥٧ مكتباً للآخرين.

وفي سنة ١٩٢٦ أصدر مجلس الشورى ببومباي قراراً بقبول أطفالهم بالمدارس وبالسماح لهم بتناول الماء من الآباء العمومية، ولما أوفدت إنكلترا المستر مونتاغو إلى الهند في سنة ٩١٧ ليسأل الهنود عما يريدون لبلادهم جاءه أناس من هذه الطبقة وقد تنورت أذهانهم من الاحتكاك بالأجانب، وقالوا: إنهم يرفضون الحكم الذاتي لأنه لا يكون إلا أداة لتسليم الضفدع للثعبان، ولما نزل ولي عهد إنجلترا في بومباي سنة ١٩٢١ وأذاع غاندي رسالة قال فيها إن هذه الزيارة إهانة للهنود واحتقار؛ أضرب الناس عن مقابلة الأمير وسادت الاضطرابات في شوارع تلك المدينة مدة أربعة أيام، فقتل ٥٠ وجرح ٤٠٠، ولكن لما أراد الأمير السفر من بومباي إلى دلهي ركب من القصر إلى المحطة وهي تبعد ثلاثة كيلومترات فاجتمع ألوف الألوف على طريقة يحيونه وسبقه ألوف إلى دلهي للغرض ذاته، وكان هؤلاء جميعاً من طبقة السودرا لأنهم يحبون رجلاً قوياً وكل قوي إله، وهكذا حملهم جماعة منهم على تحية ذلك الأمير. فهل رأى القارئ ما هي الأمراض الاجتماعية التي تجعل ٣١٩ مليون إنسان خاضعين خائفين لستين ألفاً، وهم هم الذين كان من أبنائهم ٩٨٥ ألفاً في ميادين القتال للدفاع عن الإمبراطورية، فظهروا في ذلك الدفاع أبطالاً أشداء، تلك أمراضهم ومن عرف مرض سواه وقى نفسه. وإذا أردنا وصفاً للهند جامعاً وجدنا هذا الوصف الجامع بين شقي قلم غوستاف لبون القائل: إن الهند حلقات أولها مع أول عهد الإنسانية وآخرها مع آخر مرحلة وصلت إليها المدنية. فهي سجلّ صادق لتاريخ الإنسانية وأديانها. وتقاليدها وأطوارها وضعفها وقوتها وتدينها ورقيها. اهـ.

هذه صورة أهل الهند قد وضحت الآن في هذه المقالة وظهرت حقائق يتوق لمعرفتها العقلاء في الإسلام. ولقد تقدم في هذا التفسير ما فعله «ابن الصباح» في قلعة الموت وكيف تعلم تلاميذه شرب الحشيش فصاروا حشاشين، وخيل لهم أن الجنة تحت أقدام رؤسائهم. وهكذا ما فعله كثير من رؤساء الصوفية. وكيف كان التدليس في أمم الإسلام. ألا إنّما مثل هذه الأمم كمثل نوع من الطير يعيش في بعض الفصول في بحيرات مصر بالوجه البحري، وسياسته هكذا: ينام الطير ليلاً ويحرسه أربعة طيور

من الجهات الأربع والمقدم هو الرئيس، وهذه الطيور النائمة لا تطير إلا بأمر ذلك الرئيس إذا صرخ عليهم. وقد اعتاد الصيادون أن يقتلوا ذلك الرئيس بطريقة، وهي أن يلبس الرجل على رأسه ما يشبه وجه هذا الطائر ومنقاره وهو مختف وراء تلك الصورة، وتعوم هذه الصورة على وجه الماء فيظن الطير أن هذا من جنسه حتى إذا وصل إلى ذلك الرئيس جره من رجليه تحت الماء فقتله، فإذا أحس بذلك أحد القواد في اليمين واليسار والخلف من الحراس الأربعة أسرع وصار رئيساً بدله، وعليه يأتي الصيادون أربعة رجال فيقتلون هؤلاء الأربعة مرة واحدة وتبقى تلك الطيور بلا قائد، ثم يأتون إلى أرجل تلك الطيور النائمة فيكسرونها تحت الماء حتى لا تطير.

هذا فعل الصيادين في بحيراتنا كبحيرة المنزلة مع ذلك الطائر، وهذا العمل عينه هو الذي حصل في تلك الأمم الإسلامية المحكومة برجال أناموا عيونهم وأقفلوا قلوبهم.

ألم تر إلى ما فعله المرابطون؟ إذ أحرقوا كتب الغزالي واقتص له محمد بن تومرت. ألم تر إلى الموحدين في آخر دولتهم لما حرموا الفلسفة وأهانوا ابن رشد كما تقدم في غضون هذا التفسير، وبعد ذلك لم تقم للعلم قائمة حتى أوائل هذا الزمان.

ولقد أذن الله عز وجل بالإقبال والعز والنصر المبين. لقد نصر الله أمم الإسلام، والدليل على ذلك نشر هذا التفسير، فإنا والحمد لله نكتب فيه آراء الأمم قديماً وحديثاً ولم ندع حكمة قلت أو جلت مما تفتخر به الأمم قديماً وحديثاً إلا أدرجناه فيه، ومع ذلك قبله المسلمون جميعاً في أقطار الأرض إلا طوائف ضئيلة لا يعتد بهم.

وإني أقول بأعلى صوتي: إن المسلمين في هذا القرن الرابع عشر قد صاروا أشبه بغلام بلغ بالحلم، ذلك لأن الحروب والحوادث المريعة في الشرق والغرب أيقظتهم وإن لم يبلغوا القرن الخامس عشر الذي اعتبرناه السنة الخامسة عشرة، فجدير بأن تسمى هذه الأمة قد بلغت الحلم والله أذن لها بالارتقاء والسعادة، والحمد لله رب العالمين. كتب مساء يوم الثلاثاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩.

نور على نور
الكلام على البراهمة
تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾
التي تحض على التفكير ونبذ التقليد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضر صاحبي اليوم الأربعاء بعد الظهر ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ واطلع على ما كتبته وأخذ يقرأ طوائف البراهمة والظلم والحيف والخرافات، فقال: إن هذا التفسير قد عودنا أن يبحث في الشبه التي تعرض لنا في أثناء المباحث العلمية، وهاهي ذه الشبه تترى عند قراءة مقال البراهمة، ذلك المقال الممتع فأقول:

إن قراءتي لأكثر هذا التفسير قد جعلتني لا أرى طائراً ولا حشرة ولا غزالة ولا كوكباً ولا شمساً ولا قمراً إلا تمثل أمامي كأنه حكمة مجسمة وقبسة نورية وبهجة للأبصار، ينظر الإنسان فيرى الحشرات الطائرات مملوءة حكمة مزدانة بالإتقان.

أليس من أعجب العجب أن يمر في هذا التفسير نقلاً عن علماء الأمم في الأرض بلا نكير أن للذبابة أربعة آلاف عين كل عين منها مستقلة . ألم يتقدم في سورة « النمل » أن للنملة خمسة أعين منها عينان مركبتان كل عين منهما مركبة من نحو مائتي عين؟ فيا ليت شعري ما هي النملة ، وما هي عينها؟ وما هي الذبابة؟ وما هي عينها؟ وما هذه الحكم البديعة الجميلة الكثيرة التي لا حصر لها في مخلوقات منبوذات قذرات محقورات؟ وما هذه العناية بها حتى سمعنا الله في القرآن يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] ، ثم أعقب ذلك بما يفيد أن الناس قسمان : قسم يعلم أن هذا حق ، وقسم جاهل مستهزئ . وأيضاً سمعناه سبحانه وتعالى يسمي سوراً بأسماء الحشرات من نمل ونحل وعنكبوت .

هذه عناية الحكمة الإلهية بأقذر المخلوقات وأحقر الحشرات ، فكيف عمت رحمته هذه المخلوقات كلها ثم هو نفسه سبحانه يدع أمماً من نوع الإنسان في الضلال والوبال والخسار والجهالة العمياء ، وإذا منح الذبابة أربعة آلاف عين باصرة قد ثبتت فعلاً ورؤيت بالمنظار المعظم بشهادة جميع العلماء في الأرض ، أفليس من رحمته أن يمنح أمثال هؤلاء الهنود قوى عقلية ترفعهم عن هذه الجهالة والذل والحرمان وضلال العقول الذي أورثهم ذل الأبد وضياع البلد والخزي المبين؟ .

فقلت : حياك الله . لقد أجدت في إيراد هذا السؤال ، وحسن منك أنك أوردته لأنك فتحت لي باباً واسعاً من الحكمة لولا سؤالك لم يخطر بنفسي معناه . إن الله فهل مع هؤلاء الهنود من الرحمة أكثر ما منح تلك الحشرات وأعطى كل ذي فضل فضله . فقال : أريد الإيضاح . فقلت : إن الله بهذه الأحوال الهندية كأنه يخاطب الناس قاطبة ، يقول : أي عبادي ، أنا حكم عدل في الدنيا والآخرة ، فهل أخرت الشمس ثانية واحدة عن موعدها؟ أم سيّرت القمر في غير طريقه؟ أم أخللت بأي جسم من الأجسام السماوية؟ هل نسبت حقيراً لحقارته ، أم حابيت عظيماً في نظركم لعظمته؟ أما ما تظنون مما يشبه الجور مني في هذه الأمم الإنسانية فذلك ليس جوراً مني ، وإنّما هي الحجب أسدلت على عقول أكثركم فلم تفهموها ، وظلمات الذنوب غشت على أفئدة أكثركم فلم تعقلوا ما نحن بأهل الهند وبغيرهم صانعون .

أيها الناس ، أنا لا أعطي ولا أمنع إلا بحق ، فلست أعطي الأطفال علم العلماء ولا أمنع مستحق الحكمة علم الحكماء ، والناس في الأرض ليسوا على شاكلة واحدة بل هم طوائف وفرق وأصناف لكل طائفة شأن يغنيها وحال تواتيها . إن هذه المادة قد قبلت الصلابة والسيولة والحال الغازية كالحديد والماء والهواء فلم أبخل عليها بجميع هذه الأحوال ، هكذا الحيوان اختلفت أجناسه وأنواعه وأصنافه : فمنه بقة ومنه فيل ومنه حيوان ذري لا ترونه بأعينكم ومنه جمل كبير . أنا واسع . أنا حكيم ، وكل طائفة من هذه الحيوانات سعيدة بحالها فرحة بحياتها شاكرة لخالقها ، فتكون المخلوقات كلها خوادم لي ، فهل من العدل أن أوسع نطاق الحيوان والمعادن والنبات والجوامد ثم أعمد إلى أرقى حيوان وهو الإنسان فأجعله في دوائر ضيقة؟ كلا . أنا واسع . أنا حكيم . تتعجبون أيها الناس من قوم عبدوا البقر ، وهذا البقر يطوف عليهم آناء الليل وأطراف النهار . تتعجبون أنهم تركوها في سبلهم وحقولهم ترتع وتأكل ما تريد . تتعجبون من ذلك كله ، وتقولون أيضاً : إن البراهمة استحوذوا على عقول القوم وغشوا

على أبصارهم واستعبدوا ٦٠ مليوناً وحقروهم وعدوهم في الأذلين وهم الفريق الرابع. كلا. لا ظلم اليوم ولا ظلم في المخلوقات كلها من حيث النظام العام، هؤلاء أناس استعدادهم ببيئتهم وأخلاقهم وتركيب عقولهم لا يسع أكثر من هذا. نظرت إلى تركيب عقولهم وإلى نظام أمورهم فوجدتهم لم يتجاوزوا المحسوسات، وهذا لا عيب فيه ولا ظلم، ألم أخلق في البراري والقفار ما لا يحصى من الحيوان؟ ألم أخلق في الغابات في خط الاستواء طوائف من الحيوانات والطيور ولكل منها مكان خاص إما في أسفل الشجرات وإما في أواسطها وإما في أعلاها، وكل سعيد في مكانه، مقيم في بيته، راض عن ربه، فهكذا من نوع الإنسان طوائف ارتقوا عن الحيوان ولكنهم لم يصلوا منتهى الكمال وأحبوا القرب مني، ولكني أنا لست كمخلوقاتي.

وإذا كنتم أنتم لا ترون الهواء ولا الكهرباء فكيف تروني! فمن رحمتي إذن أن أقيض لهم أناساً يضربون لهم الأمثال المجسمة إما بالأصنام وإما بالحيوان ومنه هذا البقر. فإذا رأيتم البقر يطوف عليهم ليلاً ونهاراً وهم يعظمونه فما هذه إلا أصنام متحركة بمنظرها يخضعون لما يتوهمون فيها من القوة القدسية، فيعيشون معاً بسلام وأمان لأنهم يتذكرون الحلال والحرام في نظركم بالأصنام في المدن وبالبقر في الحقول والسبل. أصنام متحركة اخترعوها وعجول سائبة عظموها. فهؤلاء ليس في طاقتهم ولا في إمكانهم أن يفكروا في جمال شمسي وقمري وكواكبي، ولا في تركيب نفوسهم تفكيراً جدياً، ويعرفوا بذلك مقدار عظمتي فأعطاهم رؤساؤهم تلك الصور والأشكال لتكون تذكرة لهم كما قلت لكم في القرآن حاكياً عن الكفار: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر: ٣].

وإذا كنت أنا قد سلطت الذباب على قذري العيون ومتسخي الأجسام وأرسلت طوائف المكروبات «الحيوانات الذرية» على ضعيفي الأجسام ليفارقوا الحياة في هذه الأرض رحمة بهم، وخلقت الدود وسلطته على أجسام الناس في قبورهم، فذلك أني حكيم أضع الأشياء مواضعها ولا أعطل موجوداً، وكيف أعطل الأجسام الميتة وهي جديرة أن تكون قوتاً لأمة من أمم الحيوان، وتعطيل المنافع إخلال بحكمة الوجود، فهكذا إذا ضلت أمة من أمم الإنسان على مقتضى سنن الكون وأخذت تقترب من أخلاق الحيوان فأنا أعطيها ما يشبه العلم رحمة بها، ويكون ذلك أشبه بالهواء الفاسد يعيش فيه الناس والحيوان إذا لم يكن سواه، وهواء فاسد خير من الاختناق والموت السريع بعدم الهواء، وبعض الشر أهون من بعض. وليس في طاقة أرضكم وعوالمها بحسب النظام أن تكون على غير هذا النظام.

ألم تروا يا معشر المسلمين أنكم في حال جهالتكم ـ كان ذلك منذ خمسين سنة وأنا مجاور بالجامع الأزهر وحصل في قريتنا كفر عوض الله حجازي شرقية وشاهدته بنفسي ـ إذا قل العلم وكثر الجهل تفعلون فعل الهنود مع أنكم مسلمون، وأنتم بذلك فرحون، ألم تعينوا عجولاً من البقر ومن الجاموس وتطلقوها في الحقول والغيطان باسم ولي من أوليائي عندكم؟ ذلك كان فعلاً في بلادنا فيقولون: هذا العجل للسيد البدوي وهذا للعزب وهكذا، فما كان الناس ليقدروا على طرد تلك الدواب من حقولهم خوفاً من السيد ومن العزب، بل اللصوص كذلك لا يجسرون على سرقة تلك العجول لا خوفاً مني بل خوفاً من عبادي الميتين. وقد تنورت بلادنا اليوم بالعلم وألغيت تلك الأحوال.

تقولون أيها المسلمون: إن البراهمة غشوا على عقول الهند، أوَلستم ترون شيوخ الطرق والمتشبهين بهم يغدون ويروحون في طول بلاد الإسلام وعرضها لشدة جهالة المسلمين وقلة العلم عندهم، وهؤلاء الشيوخ أنتم تغدقون النعم عليهم وتطلبون منهم الدعاء كأني أنا أطلب منكم وسطاء بيني وبينكم، مع أن النمل والنحل والذباب أنعمت عليها بلا واسطة بيني وبينهم. ألم تروا بأعينكم في جميع أقطار الإسلام في جهالتها ـ ذلك رأيته بنفسي في قريتنا أيضاً منذ خمسين سنة ـ شيوخاً معممين يطوفون على منازلكم وينصبون حلقات الذكر ويغني مغنيهم، وأنتم تعطونها «العادة» من أموالكم، وهذا اليوم قد ألغي، إذ تنور أهل بلادي الآن، وإنّما طاف عليكم هؤلاء لأنكم لما حرمتم من العلم سخرت لكم قوماً يعطونكم ما يشبه العلم من القصص الخرافية، وجعلت هيئاتهم تدل على الصلاح لتعيشوا في بلادكم بسلام على قدر الإمكان، فإذا كان جهلة الشيوخ عندكم أيها المسلمون يأكلون من أموالكم ولا عمل لهم إلا هذا، وإذا كان البراهمة يحقرون الشعب وينيمون عقوله وليس لهم عمل إلا هذا ويعيشون من أموال مريديهم، فذلك أن هؤلاء الشيوخ وهؤلاء البراهمة أشبه بالحكام الظالمين الذين أسلطهم على الأمم المجرمة، فيكون نفعهم أكثر من ضرهم في الحياة الدنيا لئلا يقتل بعضهم بعضاً إذا لم يكن لهم حاكمون، قوم جهلاء لم يستعدوا للعلم فلتكن لهم صورة الصلاح يرونها بأعينهم وليأخذ أولئك الشيوخ من أموالهم ليرزؤوهم عسى أن يفكر مفكر فيخرجهم من الجهالة إلى مرتبة العلماء، هذا هو نظامكم في الدنيا أيها الناس.

أما نظام الأرواح ومراتبها بعد الموت فأمره عنكم مستور، ولكني أقول: أيها الناس إن الأعمى هنا أعمى هناك، إني خلقت حشرة الأرضة ذات المملكة الواسعة وهي عمياء. أفلا أخلق إنساناً أرقى منها بما لا حد له وأضعه في مرتبته بعد الموت لا يستحق سواها، فإن كان أعمى البصيرة هنا أعميتها له هناك، وإن كان مفكراً هنا جعلته مفكراً هناك. إذن لا ظلم اليوم. أنا خلقت النمل وخلقت الأرضة وما قالت إحداهما: لماذا لم تخلقني كالأخرى، بل كل يعمل على شاكلته. هكذا أهل الهند الذين ضلوا ببقرهم وأصنامهم، وجهال المسلمين الذين اتكلوا على شيوخهم، وأتباع «أغاممنون» في الهند من الإسماعيلية الذين قدسوا رئيسهم. وكذلك رجال البهائية اليوم الذين انتشروا في الفرس وفي غيرها وأمريكا وأوروبا. وكذلك أتباع «غلام أحمد» بالهند وغيرها. فهؤلاء وأمثالهم يقولون: إن رئيس مذهبهم هو المسيح. وعزتي وجلالي لئن لم ينته المسلمون عن التواني والكسل لأسلطنّ عليهم أقل الرؤساء الحاكمين عدلاً وأجهل الوعاظ علماً، وهذا في الحقيقة عذاب الدنيا ولعذاب الأخرى أخزى وهم لا ينصرون. أهل الهند معذبون بشيوخهم. معذبون ببقرهم وهم لا يعلمون أنهم معذبون. والمسلمون معذبون بجهالة شيوخهم وبأساطيرهم وهم لا يعلمون أنهم معذبون.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد وفيت المقام حقه وأزاح الله عز وجل بقولك خرافات أسدلت على العقول عجباً. ولكن أرجو أن تبين هذا المقام:

أولاً: أن تفيض القول في أمر الهنود الذين خضعوا للبراهمة فتضرب مثلاً لما أضرهم من التقليد.

ثانياً: أن تبين لي نموذجاً من كتب أكابر المسلمين تدعو إلى ما يشبه بعض الشبه ما فعله البراهمة حتى يظهر لنا بامتحانها أنها لا تصلح لهذا الزمان، ومتى فعلت ذلك انصرف المسلمون عن هذه الأحوال.

وثالثاً: أرجو أن تضرب مثلاً لما تفعله بعض الأمم التي لم يقتلها التقليد في زماننا، حتى يوازن المسلمون بين من قتلهم التقليد الجاهل وبين من أحياهم العلم.

فقلت: إذن ذلك ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في بيان الضرر الفعلي في بلاد الهند من سوء التقليد.

الفصل الثاني: في نموذج من كتب منسوبة لبعض عظماء الإسلام تدل على الطريقة التي كانت متوارثة فيما بين الملوك ورجال الدين.

الفصل الثالث: في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا. وهاك بيانها.

الفصل الأول: في بيان المضار الحاصلة في بلاد الهند في هذه الأيام بسبب سوء التقليد تفسيراً لهذه الآيات

جاء في جريدة «الأهرام» بعنوان «رسالة الهند بالبريد الجوي» من مدراس بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٩م ما نصه: كانت الجمعية الهندية التشريعية في خلال الأسبوع منهمكة بمشروع إصلاحي اجتماعي نال الشيء الكثير من اهتمام أعضاء الحكومة والزعماء الوطنيين، وهذا المشروع هو من اقتراح رأي «هربيلاس سردا» أحد الأعضاء الخصوصيين، وهو عبارة عن مشروع قانون عقوبات على زواج الذكور قبل سن الثامنة عشرة والإناث قبل الرابعة عشرة، وقد اجتاز هذا المشروع المصاعب الأولية بفوز ونجاح. وذهبت جميع مساعي المدافعين عن تقاليد المذهب الهندي وبعض المسلمين أدراج الرياح، وتقرر النظر في المشروع مادة مادة. ولا ريب أن ما لقيه هذا الموضوع من التأكيد العظيم سيقنع العالم الخارجي أن الرأي العام في الهند قد بدأ يثور على العادات القديمة، وهذه علامة تبعث على الرجاء. إن الزواج في الهنديكيون عاماً للنساء والرجال. فالهنديكيون يبكرون في الزواج أما عنصر البارسي فلا يتزوجون إلا كباراً، وهناك شيعة من الهندوكيين تجيز تعدد الزوجات، وطائفة الكولين من مذهب البراهمة يتزوجون أكثر من زوجة واحدة، والمسلمون وإن كانت ديانتهم تبيح زواج أربع نساء فإنهم لا يتزوجون عادة أكثر من زوجة واحدة. ولا تزال عادة الزواج بالأسير شائعة في طائفة الخول في أواسط الهند. والهندوكيون يعتبرون الزواج سراً مقدساً والزوجة الهندوكية تعتبر شريكة مساوية لزوجها. ولا تزال سيتا زوجة راما بطل لامايانا لدى الهندوكيين المثل الأعلى للزوجة، وحسبنا أن نقتبس هنا ما وصف به جنكا والد سيتا ذلك الملك الحكيم ابنته عندما زفها إلى عروسها البطل «السير راما» فجاء وصفه مطابقاً لما يعده الهندوكيون المثل الأعلى للزوجة في كل عصر، وقد قال مخاطباً «السير راما» شعراً مؤداه: هذه هي سيتا ابنة جنكا التي هي أعز عليه من الحياة. وستكون من الآن فصاعداً شريكة فضيلتك أيها الأمير وزوجك الأمين. وستشاركك في السراء والضراء في كل بلاد. فأكرم مثواها وتلطف بها في البهجة وفي الأحزان وضع يدك في يدها. إن الزوجة الأمينة يجب أن تكون كالظل لزوجها لا تفارقه. وبنتي سيتا خير النساء ستتبعك في الموت والحياة.

إن مراسيم الزواج في الهند بديعة يعقبها الشيء من الأفراح والمسرات، والطلاق نادر عند الهندوكيين ولكنه شرعي جائز عند المسلمين. أما البارسيون سواء من المسيحيين أو البوذيين فنسبة المتزوجين منهم إلى غير المتزوجين هي ٤٣٨ في الألف من الذكور و٤٦٧ في الألف من الإناث. وتكاد

تكون هذه النسبة ذاتها في الطوائف الأخرى. والزواج المبكر شائع لدى بعض طوائف الهندوكيين والاقتران قبل سن العاشرة أكثر شيوعاً في باهار وأوريسا وبومباي وأواسط الهند وحيدر آبار، وهو نادر جداً في عسام وبورما وولايات الحدود الشمالية الغربية والسند، ولكنه على كل حال قاصر على الطبقات الدنيا غير المثقفة. فكثيراً ما يتفق أن يقترن شيخ فان بفتاة في ربيع العمر وهذا بنوع خاص عند الهندوكيين. فالوالد الذي يهب ابنته لقاء قبضة من الذهب لشيخ بقية أيام حياته معدودة يكون بعبارة أخرى قد ابتاع لها الترمل الأبدي وهو نوع من قتل الأطفال، ولسوء الحظ لا ينهي عنه القانون إلا في ولاية ميسور الراقية، حيث لا يجوز قانوناً أن يقترن رجل في الخمسين من العمر بفتاة دون الرابعة عشرة من عمرها، وفي بارودا قانون يمنع زواج البنت دون الثانية عشرة من العمر والغلام دون السادسة عشرة. وهذه الأعمار ليست طبعاً آخر ما يقال، ولكن بقية الولايات الهندية حتى الهند البريطانية لم تقتد بهاتين الولايتين الراقيتين اللتين يحكمهما أمراء متنورون أحرار المبادئ من الهندوكيين ولم ينسج على منوالها لعدة أسباب، والذي زاد هذا النظام ضرراً هو ما يتبعه الهندوكيون في مسالة الأرامل، لأن مذهبهم لا يجيز زواج الأرملة وإن كانت في زهرة صباها حتى ولو كان الزواج لم يعد عقد الخطبة. ويبلغ عدد النساء الأرامل في الهند ثلاثين مليوناً، ومعنى ذلك أن بين كل مائة امرأة ١٩ أرملة، مع أن نسبة الأرامل في أوروبا لا تزيد على ٩ في المائة، ولكن بينما لا يوجد بين أرامل أوروبا سوى ٧ في المائة دون سن الأربعين من العمر يوجد بين أرامل الهند ٢٨ في المائة دون هذه السن، ومما يدهش قراءكم أن هناك ١٦٠٠٠ أرملة في الهند لا تتجاوز سنهن خمس سنوات، وهناك نحو ألف أرملة لا يزيد سنهن على سنة واحدة. فالقضاء على هذه المخلوقات البريئة أن تقضي العمر في الترمل مع ما فيه من الحرمان عند الهندوكيين سخافة جنائية.

وقد اهتمت الطبقة المتعلمة أخيراً وبذلت كل ما في وسعها لإلغاء هذا النظام المتعلق بالأرامل. وتبذل الآن مساع عظيمة من عدة مصادر لتشجيع مشروع زواج الأرامل الذي أبيح قبل الآن بفضل جهود المصلحين. ومن مجموع أرامل الهند عشرون مليون أرملة من الهندوكيين، فهذه المسألة وغيرها من المسائل الاجتماعية كزواج الأطفال والأمومة المبكرة قد انتقدت أشد انتقاد ولا سيما من الكتّاب الغربيين، وأخص بالذكر منهم «المس مايو» الكاتبة الأمريكية الشهيرة التي صوّرت هذه المسائل تصويراً مجسماً وأفاضت في وصف هولها وشناعتها، وقد ذكرت في رسائلي الماضية الجهود التي يبذلها زعماء الهند لتحسين حالة المرأة الهندية. والحقيقة ترغمني على القول أنه حتى نهار أمس كانت حكومة الهند أكبر حليف للرجعيين الذين يأبون إصلاح النظام الاجتماعي من جميع الطوائف.

وبالرغم من هذا كله فإن الحوادث سائرة سيراً سريعاً شطر الإصلاح، وشعرت الحكومة بأنها مرغمة لأن تعين لجنة تمثل الهندوكيين والمسلمين للنظر في مشروع تحديد سن الزواج. وقد كان العضوان المسلمان في هذه اللجنة كلاهما من معارضي المشروع ولكن أحدهما وهو «منان شاو وأخان» رأى نفسه أخيراً مرغماً بالأدلة الساطعة التي قدمت إلى اللجنة على أن يغير اعتقاده، فاعترف في الساعة الأخيرة أن زواج الأطفال المتبع حتى الآن يجب أن يحرم وتفرض على مرتكبيه العقوبات، وأن معارضة المتمسكين بحرفية أصول المذاهب يجب ألا يأبه بها بتاتاً. وكانت سيدة هندية ضمن أعضاء هذه

اللجنة . وقد أصدرت هذه اللجنة قرارها قبل انعقاد جلسة الجمعية التشريعية الحالية . ومما استوقف الأنظار في أثناء التحقيق الذي كانت تقوم به اللجنة هو ازدياد الرأي العام الذي يؤيد فكرة وجوب تغيير مشروع قانون عقوبات زواج الأطفال واعتبار البغاء الخارج عن دائرة الزواج جريمة خطيرة قبل سن الثامنة عشرة ، وهي السن التي يمكن اعتبار المرأة فيها راشدة ، وأن ما ترتكبه يكون برضائها . وفوق ذلك فإن البعض طلبوا بإلحاف أن يعتبر البغاء جناية بصرف النظر عن سن المرأة . وقد أوصت اللجنة بوضع قانون يحدد النهاية الصغرى لسن زواج البنات ١٤ سنة ، وأوصت بأن يكون سن الرضا بدخول الزوج على عروسه ١٥ سنة . وأن يكون سن الرضا لصيانة البنت من إغواء شخص غير زوجها الشرعي ١٨ ، وأن يعتبر دخول الزوج على عروسه قبلما تبلغ سن الخامسة عشرة جريمة تدعي سوء استعمال حقوق الزواج .

وأنه لما كان كل شيء يتوقف على سن البنت أوصت اللجنة بوجوب اتخاذ تدابير فعالة لتسجيل المواليد وتسجيل عقود الاقتران وإصدار شهادات بالولادة والزواج . في جو مثل هذا عقدت الجمعية التشريعية جلستها أمس للنظر في مشروع قانون زواج الأطفال المعروف بمشروع سردا . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني:في ذكر نموذج من نماذج الكتب الإسلامية التي تدعو إلى ما يشبه بعض الشبه ما فعله البراهمة في الهند

هاهو ذا أمامي كتاب « سر العالمين » لأستاذي وأستاذ المسلمين جميعاً الإمام الغزالي ، وهذا الكتاب يخالجني في نسبته إليه شكوك بل جحود لأن فيه ما يخالف طريقته ، ولكن الكتاب فيه آراء هي هي التي ظهرت في كل زمان ومكان بأمثال المهدويين كابن تومرت المتقدم ذكره وشيوخ الطرق ، الكتاب صفحة واضحة بها يتجلى للشبان بعدنا كيف كان رجال الصوفية ، وكيف كان الملوك يوهمون الشعب ويخضعونه ، ويفعلون بعض ما يفعله البراهمة أيام أن كان آباؤنا في أزمان طفولية الأمم الإسلامية فحجبوا عن العلم ، الكتاب كله يرجع إلى جملة واحدة ذكرها العلامة « ابن المقفع » في كتاب « كليلة ودمنة » الذي ترجمه من الفارسية إلى العربية ، وهي : يجب أن تكون أحد رجلين ملكاً عظيماً أو ناسكاً عابداً .

وهذه الآراء بانتشارها في الإسلام أضلت الأمة ، فكل متعلم يتعالى على الشعب إما بالعظمة العلمية وإما بالعظمة الروحية والزهد . وهذه العظمة يأباها الإسلام . فالأمة كلها متعاونة . وعلى كل أن يكون له عمل يواتي قدرته فتكون الأمة كجسم واحد ، هذا ولأسمعك شذرات من الكتاب تبين مقاصده . وهاك نصها :

قال السيد الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه : لما رأيت أهل الزمان هممهم قاصرة على نيل المقاصد الباطنة والظاهرة وسألني جماعة من ملوك الأرض أن أضع لهم كتاباً معدوم المثل لنيل مقاصدهم واقتناص المماليك وما يعنيهم على ذلك ، استخرت الله فوضعت لهم كتاباً ، وسميته بكتاب « سر العالمين ، وكشف ما في الدارين » وبوبته أبواباً ، ومقالات وأحزاباً . وذكرت فيه مراتب صواباً . وجعلته دالًا على طلب المملكة

وحاثا عليها، وواضعاً لتحصيلها أساساً جامعاً لمعانيها. وذكرت كيفية ترتيبها وتدبيرها. فهو يصلح للعالم الزاهد، وللعالم المالك بتطييب قلوب الجند وجذبهم إليه بالمواعظ. فأول من استحسنه وقرأه علي بالمدرسة النظامية سراً من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعي من السفر رجل من أرض المغرب، يقال له محمد بن تومرت من أهل سلمية، وتوسمت منه الملك، وهو كتاب عزيز لا يجوز بذله لأن تحته أسراراً تفتقر إلى كشف، إذ طباع العالم نافرة عنها وتحته علوم عزيزة وإشارات كثيرة دالة على غوامض أسرار لا يعرفها إلا فحول الحكماء، فالله يوفقك للعمل به فإنه دالّ على كل ما تريد إن شاء الله تعالى.

وقال أيضاً: فاركب بسرّ علو الهمة وحصل الانتهاء ليتم لك كيماؤها، وصير عندك نديماً كاتماً مطلعاً على كتبها، أعني بها كتب سر العالمين، ثم حصل أرباب صناعة التقليب الذين هم علماء تقلب الكيمياء قادرين على صبغ الأحمر والأبيض، فإن كنت قليل الرجال ضعيف العضد وقليل المال، فكن كثير الفضل والعلم، واتخذ لنفسك زاوية على طريق التزهد، واجذب إليك تلاميذ وكثر عددهم واتخذ طريق الكرامات لينصبوا إليك، واستهو الكبار واسلك طريق الصلاح وزنها لنفسك واختل. فإذا هب نسيم سعادتك فاكشف لتلاميذك ما الناس عليه من الفسق والفجور وارتكاب ما لا يجوز من كل أمر منكر، وأمر أصحابك تستهوي وتجذب كل طائفة منهم قوماً آخرين.

وقال أيضاً: وقد شاهدت محمد بن الصباح إذ تزهد تحت حصن الموت. وكان أهل الحصون يشتهون أن يطلع إليهم فلم يفعل، وهو يحصل المريدين ويعلم طريق الإرادة والتلمذة وشيئاً من الجدل. ثم جعل يهذر بكلام على قدر عقولهم. ثم جذب الناس وجعل يقول للمريدين: أما ترون الناس قد تركوا الشريعة، فلما كبر الأمر خرج إليهم بطريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصبا إليه خلق كثير. وخرج صاحب القلعة إلى الصيد والتلامذة أكثرهم أهل القلعة ففتحوا الحصن ودخله وقتل الملك في الصيد وفشا أمره ومذهبه، حتى صنفت في الرد عليهم كتاباً وسميته «قواسم الباطنية» ومنتظرهم، فلا بد في آخر الزمان أن يهجروا الشرائع ويبيحوا المحرمات.

وقال أيضاً: ولما مات هارون استخلف الأمين وفرّ المأمون إلى مدينة أصفهان ومعه الحسن بن سهل، وكان المأمون ذا فنون وعلوم وآداب، فقعد المأمون في المسجد الجامع وقد فرشه باللبد زهداً والناس يهرعون إليه لتعلم العلوم، وابن سهل يومئ إلى الطوائف ويقول لهم: أليس هذا هو الخليفة حقاً فبايعوه. ويقول لهم: سنة هذا سنة الأولين الطاهرين. فلم يزل يستدرك الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفاً، وكانت الأعاجم تسمع بطريق الأمين الفاسد ففروا وطلبوا المأمون، حتى عقد الجيوش لطاهر بن الحسين فدخل على الأمين فقتله واستولى المأمون. فكم من هذه السير المنقولة وإنّما نسمعك بعضها تقوية وإعانة لهمتك.

هاهو ذا بعض ما في الكتاب. وقد ذكر إظهار الكرامات وذكر حسن بن الصباح. وأنت إذا قرأت الجزء الأول من الكتاب أيقنت أن ما فيه هو ما فعله محمد بن تومرت. وأذكرك بما مر في سورة «الشعراء» من أن كثيراً من الأمراء كانوا مشعوذين والأمم تتبعهم بالتقليد. وانظر نبذة مما جاء في الجزء الثاني من كتاب «سر العالمين» المذكور، وهاك نصها:

واعلم أن الزمان حبيب أهله وطائفة تخترع لها مذهباً في الناموس بطريق الزهد كالسبح والمرقعات وجلود الغنم والبرانس وأذان الليل والانقطاع في الكهفان وكبر الأمور، بحيث أن يقول لصاحبه: اذهب ففي الموضع الفلاني كذا وكذا. وطائفة تظهر النور وأخرى تقعد بين القبور، وإظهار الخزعبلات والنيرنجيات بمعرض الكرامات، ودهن الأقدام والخوض في النار وإظهار الخرق من سمندل الصين التي يذهب وسخها النار، ومد الشعبذة وضرب طلسم على النعل فيعبر الماء، ووقوف السجادة في الهواء، وشعلة القناديل وإشعال السراج بالماء دون الدهن، وكثير من ذلك لا عدد لها. والفرق بين المعجزة والسحر والكرامة هو دوام الشيء وإظهاره للناس كالقرآن المجيد فهو المعجز الأكبر والناموس الأعظم. اهـ.

إن هذا الكتاب أكثره أو كله مدخول على الإمام الغزالي. وقد قلت لك: إنه صفحة من تاريخ المهدويين وكثير من الأمراء والرؤساء الروحانيين وغيرهم.

فقال صاحبي: يا سبحان الله. إنك إذن تنكر كرامات الأولياء، وبعبارة أخرى: إن كتابك هذا إنكار لأعز شيء عند المسلمين وهي الولاية. فقلت: حاشا لله أن أنكر الولاية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. فقال: نعم ولكنك وازنتهم بالبراهمة وقلت: إن هؤلاء الأكابر يسيطرون على الشعوب بأحوالهم وبأعمالهم. فقلت: أنا أقول لك إن هذه الحياة غير ثابتة ونحن على الأرض أياماً معدودات ولا بد لنا من السفر منها وتوديع أهلها، والحياة بدون حب حياة محلولة، والمحبة للجمال وللمال وللولد وللملك وللصيت وللذكر الحسن لا تدوم، لأن الجمال وما بعده في الأرض كلها زائلات سريعات العطب، والعلماء لما فكروا لم يجدوا محبوباً أجلّ من كل محبوب إلا من هو منبع للجمال وللمال وللملك وللصيت، وليس يعطي الجمال ولا الملك إلا من يملكه، فلولا أن صانع العالم أجمل من كل جميل، وأحكم من كل حكيم، وأعظم من كل عظيم، ما خلق الجمال ولا الحكمة الخ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. هنالك جعلوا حياتهم كلها وقفاً على أمرين: العلم بذلك الجميل المحبوب بدرس مصنوعاته، والعمل لإسعاد أشرف من على الأرض وهو نوع الإنسان. فالوليّ هو الذي اتصف بهاتين الصفتين وهما: العلم بهذه العوالم حتى يحب الصانع، والسعي في إسعاد الأمم، إن ذلك الولي يرى أن محبوبه الذي عرفه بمصنوعاته له عناية تامة بكل مخلوق على الأرض، فهو إذن يحب ما أحبه ويسعى في إسعاد عباده، وأقربهم إليه بنو آدم، فالله عليم وحكيم في صنعه، فهذا أيضاً يعلم وتكون له أعمال صالحة متقنة إتقاناً تاماً بنظام بديع. وكل صانع مقتن صنعته سواء أكانت الصنعة تأليفاً أو آلة نافعة للناس كان قربه على مقدار إتقان صنعته بمقتضى درجته.

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكن ما تقول في الكرامات؟ فقلت: هذا هو بيت القصيد. لقد تقدم في هذا التفسير ما نقلته عن الشيخ الخواص والشعراني والدباغ من كبار الأولياء في الإسلام، إذ أجمعوا أن الكرامات ليست مقصودة لذاتها، وأن الصالح إذا ظهرت على يده خوارق العادات إن فرح بها واطمأنّ كانت سبباً في حرمانه وإذلاله وطرده، لأنه لا فرق بين المال وبين تلك الكرامات، حتى قال

الشيخ الدباغ: إن من كشف له عن العوالم العلوية يكون في خطر شديد، وهذا الفتوح أكثره عذاب واستدراج وبعد عن الله، فالحجاب خير من هذا، لأن هذا الفتوح يغر النفس فتقف عن الرقي فيكون استدراجاً، قال الله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٢]، فهذا القول إجماع من القوم.

فقال صاحبي: ولكن النفوس الإنسانية يدهشها أن ترى إخباراً بالغيب أو أموراً خارقة للعادة، فمن حقها أن تتبع أولئك الذين ظهرت على أيديهم تلك الخوارق. فقلت: هذا هو الذي جاء الرسل لمنعه وإنكاره.

إن خوارق العادات المنقولة عن الشيوخ أكثرها كاذب، والذي صدق منها ليس يدل على الفضيلة لأن الفضيلة كما قدمت في العلم وعمل، وأما هذه الخوارق فليست من خواص دين الإسلام بل هي أمر عام عن المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان. فكم في البراهمة من مخبرين بالغيب. وكم في الأمم الوثنية من لهم أعمال خارقة للعادة. وهؤلاء وهؤلاء يموتون ولا فضل لهم إلا أن الناس يهدونهم الهدايا ويقدمون لهم القرابين. فجزاؤهم قد أخذوه في الدنيا. وقد قدمت لك قول الشيخ الخواص للشعراني: إن الولي يجب عليه أن لا يأخذ من الناس شيئاً. وأنه إذا أقبل الناس عليه كان هذا الإقبال جزاء معجلاً في الدنيا فيموت مفلساً لا له ولا عليه، وربما مات مديناً ولا ثواب له بعد الموت.

وإنّما ذكرت لك كلامهم، وأيضاً أحيلك على كتبهم، لأني أعلم أن الأمم الإسلامية توقن اليوم إيقاناً تاماً بما يقوله نفس هؤلاء الأولياء رحمهم الله، ولن يقدر أحد أن يقول: كلا. وأعظم الكرامات العلم وإحساس النفس بحب صانع العالم ثم الشوق إلى لقائه. ومن لم ينل هذه المرتبة وهي الشوق إلى لقاء ربه وحبه والغرام به وانتظار الموت للقائه فهذا ليس ولياً. ومن قعدت به همته عند إعظام الناس له بسبب كراماته فهذا رجل جاهل مسكين أحب الدنيا وانقطع لها بقلبه، والناس من غفلتهم يقبلون يده. فقال: وما دليلك؟ فقلت: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الجمعة: ٦-٨].

فقال صاحبي: إن هذا القول منك حسن، وأنا نظرت ما نقلته أنت في هذا التفسير عن هؤلاء الأولياء. ولكن لماذا لم يقل القرآن ولا النبي صلى الله عليه وسلم هذا؟ القرآن مملوء بخوارق العادات فحسبنا ذلك فيها وفيمن ظهرت على أيديهم. فقلت: القرآن هو الذي نزل لإقفال هذا الباب، ألم تر إلى عجل السامري إذ عبده بنو إسرائيل إذ رأوه أفضل من عصا قلبت حية، وإلى سحرة فرعون كيف آمنوا لأنهم علماء، إذن المدار على العلم لا على هذه الخوارق، والله يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[العنكبوت: ٥١] الخ، وأذكرك بحديث الدجال ذلك الذي تظهر على يديه خوارق العادات، فانظر حديثه الذي رواه البخاري بسنده عن المغيرة بن شعبة، «أن المغيرة قال له: يا رسول الله، إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء. قال: هو أهون على الله من ذلك». ويقول الشيخ محيي الدين النووي عن القاضي عياض: إنه شخص ابتلى الله به عباده فأقدره على أشياء من

المقدورات، من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره واتباع كنوز الأرض له. إلى آخر ما قاله، انظره فيما نقله الخازن في تفسير آية: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧]، في تفسير سورة «المؤمن» وهي سورة «غافر».

وأنا أقول: إنّما جاءت مسألة عجل السامري في القرآن، وجاء أمر الدجال في الحديث وحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين منه، وأفادهم أن الأنبياء حذروا قومهم منه. أقول: إنّما جاء ذلك كله ليعرف قراء هذا التفسير وأمثاله أننا نحن الآن قد خدعنا الدجالون في داخل الإسلام وفي خارجه، وقد يكون الرجل دجالاً ولا علم له بحاله. وكل من صد الناس عن الحكمة والعلم وأرجعهم إلى طريقته وحده فهو دجال علم أو لم يعلم. فماذا يصنع الله للمسلمين بعد هذا. ذكر لهم في القرآن أن المدار على التعقل والفهم. إن عجل السامري عبده الجهال وأما العلماء فلا. وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الدجال تكون عليه يديه خوارق العادات، وأن جنته يجب الاحتراس منها، وأن ناره تصير برداً وسلاماً على داخلها.

وأنا أقول كما قلت في مواضع كثيرة من هذا التفسير: العلم والعمل صعبان على الناس والجهل والخلوة والذكر مع إهمال أعمال الحياة سهلة على الناس. فليزجّ المسلم بنفسه في العلم والعمل وإن كانا شاقين عليه فهما سعادة له في الدنيا والآخرة. أما الكسل فإنه معطل للمواهب وهو جنة ظاهراً وجهنم حقيقة. وإذا وجدنا أن عيسى قتل الدجال فلنقتل نحن الدجالين في أمم الإسلام قتلاً أدبياً بأن نعمم التعليم في ديار الإسلام، فالعلم وحده يقضي على الخرافات ويحيي النفوس. فالمسيح رمز للعلم، والدجال رمز لأولئك الذين أضلوا الأمم وهم جاهلون. لا دجل أكثر من الجهل.

انظر إلى الأمير عبد القادر الجزائري، ذلك الرجل الحكيم كيف حارب الفرنسيين سنين وسنين، ولكن لما عم الجهل بلاده جاء عالم فرنسي وصار مطلعاً على أسراره. ومن هنا غلب المسلمون على أمرهم لأنهم لم يقرؤوا تواريخ الأمم فقلّ احتراسهم. ثم انظر إلى محمد أحمد المهدي السوداني ظهر للناس بالكرامات ولكن لنقص العلم بأحوال هذه الدنيا لما أسلم رجل نمساوي كان في الجيش الإنجليزي ائتمنه، وبه وحده فتح السودان، ولقد كان ينام على باب المهدي ويبيت به يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد أحمد المهدي وليّ الله. وهكذا.

فقال صاحبي: أنا الآن اكتفيت أن تلك الخوارق لا تقيم أمة، وأن المدار على العقل. فهل لك أن تحدثني عما رأيته أنت منها؟ فقلت: انظر كتاب الأرواح تأليفي. فلقد مر في هذا التفسير منه كثير وهو مملوء بعجائب الخوارق العجيبة على يد الأرواح المحضرة من إحضار الفاكهة في غير أوانها ومن الإخبار بالغيب الخ.

وإني أحدثك حديثاً حصل في مصر: وذلك أني يوماً كنت جالساً مع المرحوم صديقي حسن باشا جلال في منزله بالإسكندرية، فحضر صدفة مستشار كبير في محكمة الاستئناف، وقال: أنا أريد أن أحدثكما حديثاً عجيباً: أنا كنت قاضياً في قنا بصعيد مصر، فحضرت عند عمدة البلدة، وكان هناك رجل يسمى الشيخ سليم، فقالوا له: أظهر شيء لـ«لبك»، أي: القاضي، فرفض وأبى فألحوا عليه ثم

قالوا للبك: اطلب شيئاً. فقال: أطلب منك أن تحضر لي زجاجة فيها روائح عطرية. قال: وهذه لا تكون إلا بالإسكندرية، فقال له: حالاً أعطني ٢٥ قرشاً. فأعطيتها له فرماها في الجو وصار يضرب على عجب ذنبه في مؤخر ظهره ثلاث دقائق. ثم قال: ضع يدك في جيبك. قال: فوضعت يدي في جيبي فوجدت الزجاجة فدهشت، وقرأتها وهي باللغة الفرنسية وعجبت أشد العجب، فقال المرحوم حسن باشا جلال: ديني يمنع ذلك، وكنت لم أطلع على علم الأرواح الحديث إطلاعاً تاماً ولم أؤلف كتاب الأرواح. فقلت: إن كتاب «الإشارات» لابن سينا فيه أن بعض النفوس الإنسانية تقدر على أعمال عظيمة وعلى إخبار بالغيب، وضرب مثلاً بأن الترك يأتون برجل يعرفونه ويربطون حبلاً في رقبته ويذهبون به ويجيئون فيغشى عليه فيخبر بالغيب. وهكذا يقول: إن قوماً يضعون قطرة حبر في زجاجة فيها ماء ويأمرون شخصاً مخصوصاً فينظر في تلك النقطة نظراً طويلاً فيخبر بالغيب. وانتهى المجلس على ذلك. ثم إن الشيخ سليماً المذكور سمعت بعد ذلك عنه من كثير من القضاة والمستشارين والمحامين والعلماء والمدرسين غرائب تفوق التصور، ومع ذلك كان رجلاً جاهلاً. ثم إنني لي أصحاب من شيوخ الطرق أخبرني غير واحد منهم أنهم يتظاهرون بالإخبار بالغيب إيهاماً للعامة واستحواذاً على عقولهم.

فقال صاحبي: أنت الآن علمتني علماً إقناعياً أن هذه الخوارق ليست مقصودة ولا نافعة بل قد تكون ضارة، فهل يوافقك علماء الإسلام على ذلك؟ فقلت: إنهم يقولون: إن خوارق العادات كما تكون على أيدي الأنبياء تكون على أيدي العامة وعلى أيدي الكاذبين والفاسقين، وتسمى على يد ولي كرامة، وعلى يد النبي معجزة، وعلى يد الجاهل معونة، وعلى يد الفاسق استدراجاً. فقال: والله هذا عجب فأرجو الآن أن تختم هذا القول بحادثة تكون مدونة في الكتب موثوقاً بها عند الأمم التي تعيش معنا، حتى تكون مقوية لما ذكرته أنت، لأن ما ذكرته أنت يسمى خبراً لإنسان واحد، ولكن ما تذكره عن أهل العصر يكون قد اطلعت عليه الأمم وأقرته. فقلت: أحدثك عما جاء في «مجلة الجديد» تحت العنوان التالي، وهذا نصه:

أشعوذة أم علم؟

اعلم أن «هوديني» رجل ساحر أمريكي كان يعيش في عصرنا هذا، واشتهر بأفعاله الغريبة التي برّ بها كل ساحر سبقه، حتى إذا مات منذ سنوات دفن معه سر كثير من أعماله التي لم يجد لها الناس تعليلاً، فمن ذلك أنه يأتي بكرة ضخمة يدخل فيها رجلاً ثم يربط شرائط الكرة إلى بعضها ويطلب من الرجل أن يخرج من الكرة دون أن يمزقها ودون أن يفك الشرائط، وهذا العمل مستحيل كما هو ظاهر، ولكن «هوديني» استطاع أن يفعله بكل بساطة وسهولة. ويحبس «هوديني» نفسه في تابوت من الرصاص أحكم إغلاقه ثم يدفن على عمق ستة أقدام من سطح الأرض، فإذا بك تراه أمامك بعد لحظة، وقد يدخل أيضاً إلى الخزائن الحديدية الهائلة التي تستعملها البنوك الكبيرة وتوصد الأبواب الضخمة عليه ولكنه لا يلبث أن يبدو لك كأنما هبط من السماء، وهزأ «هوديني» بجميع سجون أمريكا وأوروبا، كما أن الأغلال لا تستمر في يديه إلا ريثما يمضي ثوان معدودة، فإذا يداه طليقتان وإذا هو حر يمرح، والآن بعد أن مات يتساءل الناس: كيف تسنى له أن يمارس كل هذه

العجائب؟ ويقول «السر ارثر كونان دويل»: إنه يعلل هذه الظواهر الغريبة بأن لـ «هوديني» القدرة على التحلل من الحالة المادية، ولكن «هوديني» نفسه سخر من هذا الرأي الذي يريد أن يقرره «السر ارثر كونان دويل»، فقد كتب «هوديني» يقول:

لست أتحلل أو أتجسد، وكل ما في الأمر أنني أحكم في إرادتي وأسيطر على الأشياء المادية على طريقة أفهمها وحدي ولا يستطيع أن يفهمها سواي ممن قد أبوح لهم بأسراري، على أنني أرجو أن أدفن بأسراري معي لأنها لا تفيد الإنسانية، وإذا عرفها بعض عديمي الذمة تسنى لهم بواسطتها أن يسيئوا إخوانهم.

ولقد بلغ من ركون «هوديني» إلى كفايته وقدرته الشاذة أنه سجن نفسه في سجن «سيبيريا» الشهير الذي يفخر به البوليس الروسي باستحالة الهرب منه على أي سجين، ولكن «هوديني» استطاع أن يرى الضوء بلا مشقة، ولقد قيّد «هوديني» بالسلاسل الضخمة وربط إلى فوهة مدفع تنطلق منه قنبلة بعد ربع ساعة، ولكن «هوديني» تخلص من قيوده في ست دقائق.

وجملة القول: إن «هوديني» أتى بعجائب يحار فيها العقل وما زلنا حتى الساعة نجهل شأنها. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة، والله أعلم.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد وضح الأمر وعرفنا لماذا ذم الله التقليد؟ والله لقد كنت في حيرة وشك في أمر أمة الإسلام. فبينما أنا أقرأ تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأجدهم قد تفانوا في خدمة النوع الإنساني وهدايته فمات عمر مقتولاً وعثمان كذلك وعلي، كل هؤلاء كانوا صادقين صالحين لم يحبوا الدنيا، ومع ذلك لم تنقل عنهم هذه الحوادث المدهشة. أقول: فبينما هؤلاء كذلك إذ أنا أجد جميع مشايخ الطرق إلا قليلاً وكذلك المهديين كابن تومرت وغيره، كل هؤلاء تنقل عنهم أحوال لم ترد عن الصحابة والتابعين، فيحار الإنسان، أيرجع إلى الصدر الأول وإلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون بلا كرامة ولا يقبل عليه الناس إقبالاً روحياً، أم يترك الدنيا ويزهدها عسى أن يتبعه الناس ويقبلوا عليه ويكونوا له أعواناً وأصحاباً؟ فإن لم يصل لهذا فقد أراح نفسه من الناس واستراح في منزله وتعبد لربه وصار ولياً وانتهى الأمر. قال: فأقول الآن: إن هذا كله أصبح في نظري جهالة، وأنا أقول: أنا الآن مطمئن وسأرفع صوتي بين المسلمين قائلاً لهم بالبرهان لا بالتقليد: أيها المسلمون جميعاً، نحن اليوم مغرورون فكونوا جميعاً عاملين علماء مفكرين، وإياكم أن يخدعكم قوم عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وصلوا بالليل لتقربوا من ربكم، ولا تشغلوا أنفسكم بما لا يفيد دنيا ولا أخرى. فقلت له: لقد فتح الله عليك وأرشدك يقيناً بأن هذه الطرق القديمة ضارة بالمسلمين قاتلة لهم، وإنها طرق دجل وخداع وإن كان بعض أصحابها مخلصين على مقتضى تعليم شيوخهم كحسن بن الصباح وأمثاله. أذكرك بإمبراطور اليابان وهو جد الإمبراطور الحالي، فإنه كان من أسرار دياناتهم أن جدته التي مضى عليها أربعة آلاف سنة كانت امرأة نازلة من السماء فكان يعتبره اليابانيون نصف إله باعتبار أمه وهي آلهة، وعلى ذلك كان لا يراه أحد لأن من رآه احترق بالنار، فماذا فعل؟ نظر الرجل فوجد أن أوروبا أكلت الشرق أكلاً لماً. فماذا يصنع؟ نزل إلى الشعب وسار في الشوارع، وقال للناس: أنا الإمبراطور انظروني لا تخافوا، فأزال هذه الخرافة.

ثم إنه أمر بالتعليم العام، وقرأ الشعب علوم أوروبا كلها وحاربوا الروس فانتصروا فعظموا هم وعظم الشرق في أعين أهل أوروبا. فهل يليق لعظماء الإسلام وشيوخ الطرق أن يبقوا على هذه التقاليد العتيقة التي أهلكت المسلمين والتي هي فعل المسيح الدجال؟ فليعلموا أن من الجهالة أن ينتظر المسلمون ذلك الدجال والمسيح الذي يقتله، وإن كان هذا لا مانع منه ولكن المهم الآن أن نقتل الدجل والكذب بالعلم كما فعل الصحابة والتابعون، أولئك الذين رأوا الفرس والروم حولهم وهم أولو حول وطول فناموا فأضاعوا الدولتين ليرجعوا العالم إلى الصلاح.

فليعلم المسلمون قاطبة الآن أن الدجل والكذب الحالين في بلاد الإسلام يجب محوهما وذلك بالروح العلمية العامة، وبغير ذلك لا سبيل لإسعادهم. لهذا جاء ذكر الدجال، ولهذا جاء ذكر عيسى قاتله، بل لهذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا ألف هذا التفسير في الزمان الملائم و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[الروم: ٤].

تذكرة

المهديون وبعض شيوخ الطرق. وماذا يفعل المسلمون بعدنا إذا لقوهم

لقد ذكرت فيما تقدم في هذا التفسير في سورة «مريم» ما سطره صديقنا «اللورد هيدلي» الإنجليزي الذي يقول في كتابه «إيقاظ الغرب للإسلام» ما يأتي:

إن جماعة من الألمانيين عثروا على كتابة في بلاد آشور تاريخها قبل المسيح بنحو ٩ قرون مسطورة في الألواح، ملخصها: أن ابن الله البكر قد صلب، وهذا الصلب يشبه صلب المسيح من كل وجه. فقال لأهل الغرب: بأي أبناء الله أقتدي؟ أبابن الله الذي كتب تاريخ صلبه قبل المسيح بتسعة قرون منقولاً عما كتب عنه بأكثر من ألفي سنة؟ أم بابن الله الذي حدث بعد ذلك وهو المسيح ابن مريم؟ فأنا لا أتبع هذا ولا ذاك، بل أقول: إن عيسى نبي الله وروحه وأتبع دين الإسلام لا غير. هذا هو أول الأمر وآخره. اهـ.

هذا فحوى ما تقدم في سورة «مريم» وأقول الآن: يظهر لي أن العالم الإنساني عالم كله مقلد جاهل إلا قليلاً، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦]، ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[يونس: ٦٨]، تبين لي من أحوال هذا الإنسان أن يشبه:

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

فإنه قبل الإسلام أدخلت عليه الغفلة في جميع أنحاء الكرة الأرضية، فقال له الأحبار والرهبان وأمثالهم: إن لله ابناً فاتبعه. وكلما تقادم العهد جددوا له ابناً آخر. وفي الإسلام حوروها وقالوا: هذا هو المهدي، فمن السفاح وهو أول خليفة عباسي أزال الدولة الأموية وأخذ بثأر الحسين رضي الله عنه واستمر ملكهم عدة قرون إلى المهدي الفاطمي الذي ظهر في بلاد الغرب وجاء مصر. والمهدي بن تومرت والمهدي السوداني والمهدي الفارسي وهو بهاء الله والمهدي الهندي وهو غلام أحمد، وغير هؤلاء كثير.

ويقول الأستاذ « هنري دي كاستري » الفرنسي قريباً في هذا الكتاب : إنه لمثل هذه الأفهام وجد في الإسلام مذهب الواصلين ، والذين بيدهم توزيع كثير من الميراث في اعتقاد العامة ، وإليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل الخ . انظره في سورة « الأحزاب » عند الكلام على أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه سراج منير .

أقول : فإذا رأينا هؤلاء الأوروبيين يفر علماؤهم ويهرب حكماؤهم من دين اخترعته عقول للأمم إذ كانوا أطفالاً . فهكذا سيقول المسلمون بعد قراءة هذا التفسير : بأي المهديين نقتدي ؟ أبالمهدي السوداني أم بالمهدي الفاطمي ؟ أم بالمهدي محمد بن تومرت ؟ أم المهدي العيسوي البهائي ؟ أم المهدي الذي انتهى أمره من ولد العباس ؟ أم المهدي الهندي ؟ لا هؤلاء ولا هؤلاء بل أقرأ القرآن وأتخلق بأخلاقه وأهتدي بهديه .

هذه هي الأمة الإسلامية المستقبلة ، أما تلك الفرق المتشاكسة والأقوال المتضاربة فإنما هي من اتباع أمة الإسلام الأمم كما في الحديث : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر طيب لدخلتموه » . ومما يحزنني وآسف له أنك إذا قرأت القصيدة المتقدمة التي قرئت على قبر محمد بن تومرت وأنه المهدي المنتظر وأن أتباعه يبقون إلى زمان عيسى ابن مريم وأن الحديث الوارد في المهدي أنه يبقى سبعاً أو تسعاً وأنه هو بقي تسعاً محمول عليه ؛ أقول : إذا قرأت ذلك فإنك تجد هذا بعينه هو الذي يكرره الإمام « محيي الدين بن عربي » في الفتوحات بعد موت محمد بن تومرت بعشرات السنين . ولا يعتبر رحمه الله بما تم له ، وأن ملكه زال وأتباعه انفضوا من حوله ، وبشر هو بمهدي آخر وعين زمانه وظهر اليوم عدم صحته ، ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٨] .

واعلم أيها الذكي أني أكتب هذا وأنا أعلم أن كثيراً تحدثهم أنفسهم بأنهم المهدي المنتظر ومنهم واحد كان صديقي في مدرسة « دار العلوم » ، ولكنه عاقل فإنه بعد أن أراد إظهار أنه المهدي ترك ذلك .

إن هذه الأمة الإسلامية بعد اليوم ستقرأ التاريخ والعلوم الرياضية والطبيعية وسياسة الأمم وأحوالها . وهناك سيظهر فيهم مصلحون مجددون حقاً . وهؤلاء هم الذين سيزيلون الخرافات والدعاوى من بلاد الإسلام ، وسيكون ظهورهم عقب تمام نشر هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يظهر الإسلام ظهوراً أتم على أيديهم ، فيهش لهم من لا يعرف دين الإسلام ، ويبش لهم من يتبعه ، ولكنه متحير في أمره فيجد البلاد قد ملأها الشيوخ .

** وكل له غرض يسعى ليدركه **

هذا آخر ما خطر لي في تفسير آية : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبأ : ٣١] الخ ، حوالي فجر يوم الأربعاء ٢٣ إبريل سنة ١٩٣١ م . والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد اتضحت آية : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ [سبأ : ٣١] هذا هو أهم سرها ومقصودها في زماننا ، وكل من قرأ هذا من المسلمين يصبح وقد صار موقناً بهذه الفكرة عاشقاً للعلم مكباً على العمل ، والله هو الولي الحميد . فقلت : الحمد لله رب العالمين .

فقال: هذا قد أفهمني أمر خوارق العادات وأن التقليد ليس مفيداً، فهل تذكر لي شيئاً من التقليد في أمور أخرى كالطب ولو حادثة واحدة. فقلت له: أذكرك بما مضى في سورة «الشعراء» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، انظره هناك فإنك تجدني نقلت من كتاب فيه تراجم الأطباء لابن أبي أصيبعة: أن الهرة كانت تقاتل أفعى وكلما لدغتها رجعت إلى نبات فتمرغت فيه فيزول ألمها فترجع كرة أخرى وتقاتل. قال في الكتاب المذكور، وهو الذي نقلته هناك: إن ذلك الذي رأى هذا قلع هذه الشجرة، فلما رجعت الهرة لم تجد تلك الشجرة فماتت. أقول لك: لما ظهر ذلك في الجزء الثالث عشر من هذا التفسير كتب كاتب في جريدة «الأهرام» يقص هذا القصص بنفسه، ويدعي أنه رأى ذلك رأي العين وهو كاذب، لأنه قرأه في هذا الكتاب وطلب من الأطباء بحث هذا الموضوع، فبحثوا وردوا عليه وقالوا: إن هذا النبات هو المسمى في مصر «رعراع أيوب»، وليس فيه هذه الخاصية مع أنه هو يقص نفس ما كتبته في هذا الكتاب بطريق النقل، فهذا القول عن الأقدمين غير صحيح، وليس هناك بحسب ما عرف الناس نباتاً على هذه الشاكلة، فهنا كذبان بحسب ما ظهر: كذب القدماء في ذكر هذه الحكاية، وكذب هذا الشاب الذي ادعى أن رأى وهو ما رأى إلا ما كتبناه هنا. وبعد أن كتبت هذا عثرت على نفس المقالة المكتوبة في الأهرام فهاك نصها:

حول ترياق ســم الأفعى ولعاب القط

سيدي الفاضل رئيس تحرير جريدة الأهرام الغراء:

تتبعت بإمعان وشغف ما كتبتموه تحت هذا العنوان، سواء ما كان منه بقلم تحريركم أو بما وصل إليكم من حضرات قرائكم الأفاضل، وأنا لا يسعني إزاء سعة صدركم في متابعة هذه الحركة العلمية ومناهضتها على صفحة جريدة كبيرة كجريدة الأهرام الواسعة الانتشار. أقول: لا يسعني إلا إبداء شكري لكم بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن كثيرين غيري ممن يهمهم أمر هذا البحث المفيد. ويهمني بصفة خاصة ككيماوي خبير في هذا النوع من الأبحاث أن ألفت النظر بأني قمت بالتجربة التي نوهتم بها في هذا الصدد للتثبت من لعاب القط، وهل في الخلايا اللسانية أو اللعاب الذي يفرزه عند المقاومة ما يصح أن يكون ترياقاً لسم الأفعى يتقي به غائلته. الواقع ينكر ذلك بتاتاً والتجربة تنفيه. إذ المفروض في اللدغة أن يتسرب السم إلى الدم ويسير معه في دورته المعتادة، فلا مقاومة والحالة هذه إلا من دفاع الكريات البيضاء، وعلى قدر هذه الكريات البيضاء ونشاطها يكون التأخر أو التقدم في التسمم، فإذا كان للعاب القط والحالة هذه من فائدة، وهو ما لم يؤيده البحث بعد، فمهمته في هذه الحالة أن يكون وسيطاً ليس إلا ليثير في الكريات البيضاء حركة النشاط المطلوبة للمقاومة. هذا تعليل. وثم تعليل آخر أن لعق القط لمكان اللدغ ما هي إلا حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الذي عساه أن يكون قد تلوث بالسم قبل سريانه، وهذه هي نفس الإسعافات الأولى التي يتبعها العامة عادة من عمل تشريط لاستنزاف الدم الملوث أو المص في مكان اللدغ على شرط خلو الفم من أي جرح يتسرب إليه السم، وهذا التعليل الأخير هو الذي أراه أقرب إلى الصواب في مسألة لعاب القط. ثم مسألة التمرغ في نبات الغبيرة أو الرعراع «رعراع أيوب» كما يسميه العامة، للتمسح به كواق من تسرب السم، فهذا مدفوع من جملة وجوده، فليس لنبات الغبيرة أي ذكر في المادة الطبية ولا

في النباتات الافريازينية، ولم نسمع باستعماله في عقاقير ما كعلاج لأي داء، وما هو إلا نبات طفيلي كالحشائش التي تنبت في وسط البقول عادة دون التماس، ولو أنه تدور حوله أساطير خرافية غريبة والمادة الفعالة فيه لزجة حريفة قلوية ذات رائحة خصوصية، وقد أجرينا على هذا الرعراع المذكور الصفة التحليلة فوجدناه خالياً من الجواهر السامة والمخدرة، وبالبحث في تأثير كعلاج لما ذكر له كأن يفيد في حالات التسمم وذلك بإحداث اللدغ في خنازير غينا « كوياي » ومعالجتها بالمادة المستخلصة منه، فكانت النتيجة سلبية بحتة. فالقول بأن نبات الغبيرة أو الرعراع له أي فائدة كترياق في سم الأفعى والعقرب قول مردود لا أساس له من الصحة.

وإذا كان حقاً ما رواه شاهد عيان على صفحات « الأهرام » من أنه رأى القط يلعق مكان اللدغ ويتمرغ في نبات الغبيرة فهو كما ذكرت آنفاً حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الفاسد، وما تمرغه في نبات الغبيرة على فرض صحة وجوده مصادفة وقت اللدغ إلا من قبيل تخفيف الألم، كما لو كنا نفرك محل الألم عندما يشكنا دبوس أو نرتطم بشيء صلب. هذا ما عنّ لي أن أسطره بخصوص ترياق الأفعى والعقرب، ولعلي قمت ببعض الواجب المفروض عليّ نحو قراء « الأهرام » الغراء ممن يهمهم أمر هذا البحث. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

هذا ما جاء في « الأهرام »، أفلا نحمد الله إذ جعل في أمة الإسلام في مصر من نراه يبحث هذا البحث ولا يشكل على آراء القدماء، وإذا رأينا علماءنا يقولون لكل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد، فهكذا نقول فيمن قلد في الطب أو في السياسة أو غيره، بل يجب البحث حتى تستبين الحقيقة، فبحث الفتى الكيماوي المصري « أمير براده » في هذه المسألة قد أظهر لنا الحقيقة فيما قرأناه في كتاب « ابن أبي أصيبعة »، فهكذا نفعل في كل علم. اهـ والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: وهل تذكر لي مسألة واحدة أيضاً في نظام الأمم قلد الناس فيها وهم مخطئون كالمسألة الطبية؟ فقلت: قلد أمان الله خان مصطفى كمال باشا منذ سنة واحدة في أنه قتل علماء الدين الذين عارضوا في الإصلاح، فقام الشعب عليه فنزل عن الملك إذ اغتصبه رجل كان ابن سقا بحجة المحافظة على الدين، ثم قام عليه الشعب فأنزلوه عنه وقتلوه، وتولى الإمارة « نادرخان » الذي كان قائد الجيش أيام أمان الله خان، فأمان الله قلد مصطفى كمال في إدخال الإصلاح بدون تدريج، ولكن التقليد خطأ لأنه هناك فرقاً بين الأمتين، ونفس مصطفى كمال انتقده المنتقدون في تسرعه وتغييره نظام تركيا سريعاً، فإنه بينما هو يترك الحروف العربية ويكتب الشعب كله باللاتينية ترى أوروبا تتبرم من الحروف اللاتينية، وهذا عجب أن يقلد الناس بلا برهان. وهاك ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي « مجلة الجديد »، فقد جاء فيها ما نصه:

الحياة الاجتماعية

تبرم أوروبا من حروفها الكتابية

ظهرت في الشرق من هذا العهد نزعة إلى مجاراة الغربيين في حروفهم الكتابية، ويعرف القراء أن تركيا بأجمعها قد دخلت المدرسة من جديد لتتعلم الحروف الأوروبية كما أمر الغازي مصطفى كمال، ولا فرق بين العجوز والفتاة والهرم والغلام. فإن العقوبة الزاجرة تترقب من يتوانى في تنفيذ هذا

الأمر المشدد، ويذكرون أيضاً ما تعتزمه فارس من تركها للحروف العربية واعتناق الحروف الأوروبية، وما كان ينويه جلالة الملك المخلوع أمان الله خان في بلاد الأفغان. ولو نظر مقتبسو الإصلاحات الأوروبية إلى الجوهر دون المظهر لرأوا أن نقل المظاهر الشكلية لا يفيد شيئاً في تقدم الأمم، وفي وسعهم أن يحتذوا مثال اليابان التي أبقت تراثها القديم وأدخلت في بلادها الإصلاحات الجوهرية كالتعليم والصناعات والفنون والزراعة والتجارة وإعداد الجيوش البرية والبحرية. ولقد كان من رأينا من زمن أن الحروف العربية تفضل الحروف الأوروبية من عدة وجوه لأنها في الحقيقة نوع من الخط المختزل الذي يدل على الكلمات بأقل رسم وأوجز حروف. وقد كان الأوروبيون ينشدون مثل هذا الخط لكتابة كلماتهم، فأوجدوا الخط المختزل، ولكن طريقة ابتكاره لم تكن ناضجة ولم يتيسر استعماله للدلالة على الكلمات بالضبط، ولذلك قل من يكتب به على كثرة ما يعانيه متعلمه من آلام دراستها ومشاقها. ولذلك لا يزال الأوروبيون ينشدون نوعاً مختصراً من الخط، لأنهم يرون أن استمرارهم على الكتابة بحروفهم القديمة ضياع للوقت الثمين وعبء ثقيل ينأى دونه كاهل المتعلمين.

ونسوق للقراء فقرة مما كتبه رئيس تحرير مجلة «النيشن» الإنكليزية في هذا الصدد:

وإني أتساءل لماذا يستمر أبناء هذا العصر في حمل هذا العبء الثقيل وهو الكتابة بالحروف المطولة؟ يقال: إن الكتابة من أعظم الاختراعات التي توفق إليها الإنسان، ولكن هل يلزم من هذا أن نلبث إلى الأبد عاكفين على ما اخترعه الإنسان الأول في عصور التأخر ثم نزعم أننا شعوب الثقافة في المدنية، ألا يعد ذلك من أكبر وأشنع سقطات مدنيتنا الحاضرة التي لا يقوم مظهر حضارتها وجوهرها إلا بالكلمات المكتوبة؟ فهناك جيوش لا يمكن أن تحصى من الرجال أو النساء لا تكتسب أقواتها إلا بالأعمال الكتابية، ولا يمكن أن تجد أحداً في دوائر الأعمال تخلو يده من قلم الحبر أو الرصاص ليدون ما هو منوط به من الأشغال، وربما كانت مدة الكتابة تستغرق على الأقل نصف الوقت، ويرى المستر «اسبندر» أن ما يكتبه الصحفي في اليوم لا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة.

هذا ما يقوله الناس اليوم في التقليد في أمور النظام العام. ولو شئنا لشرحنا التقليد في العلوم كدوران الشمس حول الأرض الذي كان يقوله الناس قديماً، وكيف دحضه العلماء بعد ذلك، وكمسألة الكواكب السيارة وأنها سبعة، فظهر بعد ذلك أورانوس ونبتون ولم يكن يعرف الناس إلا شمساً واحدة حتى عبدوها، فعرف الناس اليوم آلاف آلاف الشموس وشمسنا بالنسبة لها كأنها برتقالة أو أصغر، فإن كوكب الجوزاء أكبر من الشمس ٢٥ ألف ألف مرة. إذن التقليد جريمة ولهذا نزلت هذه الآيات: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[سبأ: ٣١] الخ. انتهى الكلام على الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا

أذكر في هذا الفصل حادثتين:

الحادثة الأولى: الحرية السياسية

فانظر ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين ١٨ فبراير سنة ١٩٢٩، وهذا نصه: رجل إنكليزي يفعل في السياسية ما فعله مؤمن من آل فرعون في سورة «غافر»

مظاهرة ضد الكولونيل لورنس في إنكلترا

نظم المستر «سكلانفالا» العضو الشيوعي في مجلس العموم البريطاني مظاهرة كبيرة في لندن ضد «الكولونيل لورنس» المعروف على أثر الإشاعات التي راجت بأنه أضرم نار الثورة في قبائل الأفغان ضد الملك «أمان الله»، فسارت المظاهرة مسافة طويلة تحمل صورة «لورنس»، وأخيراً أضرموا النار فيها على صوت الخطباء الذين وصفوه بأقبح الأوصاف. انتهت الحادثة الأولى.

الحادثة الثانية: نبذ التقليد في الزراعة

البحث عن السعادة الزراعية بطريق خارج عن التقليد الذي ذمه الله في القرآن

اعلم أيها الذكي أن هذا قد أشرنا إليه سابقاً في هذا التفسير ونزيد عليه الآن ما جاء في جريدة الأهرام يوم الخميس ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩، وهذا نصه:

• الزراعات في الماء

طريقة جديدة لإنمائها

ظهر في الولايات المتحدة اقتراح عظيم الشأن ينتظر أن يخلص الفلاحين وزارعي الفاكهة والأزهار من متاعب الزراعة وخدمة الأرض ومن قيود المواسم والأحوال الجوية وأجور الأطيان. ويحدث انقلاباً عظيماً في فن الزراعة، فقد أعلن قسم فسيولوجية النبات في جامعة كاليفورنيا أنهم توصلوا إلى إنتاج غلال وخضراوات من مزروعات زرعوها في حياض رقراقة الماء. وتعهدوها بأقراص كيميائية أسموها أقراص النبات في جو جاف خال من الرطوبة أشبه بجو الصحراء، وتسنى لهم إنتاج الفاكهة والخضراوات الشبيهة بالفاكهة قبل أوانها المعتاد، كذلك زرع أنواع مختلفة من الأزهار التي لا تينع إلا في أواسط الصيف فازدهرت وقطفت أزهارها في غرة فصل الشتاء. وتبين أن القمح والشعير والأرز إذا زرعت على هذا النمط يزيد محصولها من ٢٥ في المائة إلى ٥٠ بالمائة. أما البنجر والجزر والكرنب وغيرها من الخضراوات التي من فصائلها فقد نمت نمواً أسرع من نموها المعتاد بمدة تتراوح بين عشرين وثلاثين يوماً، وقد زاد متوسط حجمها العادي ٦٠ في المائة بغير أن تفقد شيئاً من رسمها ونضارتها. وزرعت الطماطم بهذه الطريقة الجديدة فزاد محصولها ٤٠ في المائة، وتسنى زرع الورد في جو المنازل في فصل الشتاء القارس فنما وازدهر في مدة لا تزيد على الستين يوماً. وزرعت البازلاء في فصل الشتاء داخل المنزل ودرجة الحرارة في الخارج دون الصفر فنمت وبلغ طول أصولها خمسة أقدام وازدهرت وأتت ثمارها في مدة تتراوح بين الستين والسبعين يوماً. وقد بلغ عدد التجارب التي أجريت نحو خمسة آلاف تجربة في خلال خمسة أعوام، أسفرت عن هذا الاكتشاف العجيب الذي وصفه الدكتور «جاريك» رئيس قسم تشريح النبات في جامعة كاليفورنيا بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن. وتؤيده في هذا الرأي كلية الزراعة في تلك الجامعة وعدد كبير من الخبراء في الزراعة وخريجي كلية الزراعة وتجار الأزهار الذين ساعدوه في تجاربه، وخلاصة السر في هذا الاكتشاف المؤدي إلى سرعة الإنماء وزيادة المحصول هي إعطاء النبات مقادير مركبة تحوي العناصر السبعة التي يتألف منها غذاء النبات، وإعطاء كل نوع ما يلزمه من الغذاء بالدقة والضبط.

وهذه العناصر مركبة في أقراص أسطوانية الشكل تذاب في الماء أو في التربة التي ينمو فيها النبات. وهي تجمع معاً في أنبوبة قصيرة أو أسطوانة بمادة كلسية تشبه الحوضين وتحتوي هذه الأقراص على أجزاء معلومة من النتروجين والفوسفور والمغنزيا والحديد والبوتاس والكبريت والكلس «الجير». وقد وجد في أثناء إجراء هذه التجارب والاختبارات أن كل نوع من الشجر والحبوب والخضراوات والأزهار يتطلب تركيباً مخالفاً من حيث الكمية من العناصر السبعة كلها أو بعضها.

فالتركيب الذي يغذي البازلاء ويعجل نموها ويزيد إنتاجها مثلاً لا يفيد الورد وفصيلة البنفسج. وقد دلت التجارب على أن عدد التراكيب اللازمة يمكن حصره في عشرين نوعاً. ومع أن أقراص النبات استعملت بنجاح للمزروعات في التربة، فقد أسفرت التجارب أن خير وسيلة للإنماء هي الماء بمقدار لتر لكل نباتة. فقد جيء بشتلة ورد زرعت حديثاً في الأرض ولم تكد جذورها تمتد. ووضعت في الكمية اللازمة من الماء بعد أن أذيب فيه المقدار اللازم من أقراص النبات المختصة بفصيلة الورد، فنمت وترعرعت وتفتحت أكمامها عن ورد نضير كبير الحجم في خلال ثمانين يوماً. وأجريت مئات من التجارب من هذا القبيل في الحبوب والخضراوات وشجيرات الفاكهة وأشجارها، فكان النجاح في زراعة الحبوب والخضراوات عظيماً جداً، فتبين أن حجم الهليون «أسبارجوس» قد تضاعف تقريباً من غير أن يطرأ أي تغيير في غضاضته أو عدد فروخه، وكذلك البطاطس زاد حجم محصولها خمسين في المائة بغير أن يزيد نمو شجيراتها، وتبين أيضاً إنه إذا زرعت النباتات الغذائية في الماء بدلاً من زرعها في التراب يزداد معدل نموها نحو مائة في المائة ويزداد حجمها ويتسنى زرع عدد كبير منها في مساحة واحدة. وأسفرت التجارب في زرع القمح وافية. وختم الدكتور «جاريك» حديثه قائلاً: إن أهم ما في اكتشافه هذا أنه يمكن ملايين من الناس أن يعيشوا على محاصيل تنتجها المياه في أراض كانت لا تنتج سوى الشوك، والقطن والتبغ لهما نتائج باهرة. فقد نما القطن من البذور حتى طرح اللوز في مدة تسعين يوماً، وظهر أن القمح إذا زرع في الماء المذابة فيه أقراص النبات يزيد نموه خمسين في المائة أكثر منه إذا زرع في التراب المغذى بأقراص النبات. وحملت نتائج هذه التجارب الدكتور «جاريك» ومساعديه على الشروع في إجراء تجارب زراعة النباتات الغذائية في الماء لمعرفة نفقاتها إذا زرعت على قياس تجاري، فوجد أن الحياض التي عمقها من ست إلى ثمان بوصات هي أصلح ما يكون لزراعة الحبوب والخضراوات، وقد استعملت حياض طول كل منها عشرون قدماً وعرضها خمسة أقدام مصنوعة من الخشب ومبيضة بورق مدهون بالغار، وترك الورق زائداً من كل جهة ليصلح غطاء للحوض، وجعل في هذا الغطاء ثقوب صغيرة قريبة بعضها من بعض وأدخل في كل ثقب منها شتلة من النباتات بحيث تصل جذورها إلى الماء الذي وضع فيه عدد من أقراص النبات، وقد تبين أنه يتسنى بهذه الطريقة زرع ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما يزرع في المساحة ذاتها من الأرض مع سرعة النمو وزيادة المحصول كما ذكرنا آنفاً. وقد أدت مواصلة هذه التجارب الاقتصادية إلى أن هذه الحياض الخشبية المسقوفة بالورق المدهون بالقار أو بالأسلاك الوثيقة هي خير الوسائل وأقلها نفقة لزراعة الحبوب والخضراوات في الماء. وقد رأى الدكتور «جاريك» ومساعدوه أن نفقة حياض من هذا النوع تغطي مساحة فدان مع ترك طرق بينها تبلغ على الأكثر ٢٥٠ ريالاً في أية ناحية من أنحاء الولايات المتحدة

حيث المواد غالية الثمن وأجرة العمل باهظة. أما في الأنحاء الأخرى من العالم فالمعتقد أن النفقة لا تزيد على ١٥٠ ريالاً، وإذا زادت المساحة إلى خمسة أفدنة أو أكثر فإن نفقة الحياض اللازمة لتغطيتها لا يمكن أن تزيد على مائتي ريال في الولايات المتحدة، وهكذا تبلغ نفقة حياض خمسة أفدنة ألف ريال أو ثلاثة أضعاف ما يلزم لتصليح الأرض للزراعة كل عام، ولكن متى أنشئت هذه الحياض فإنها تعمر على الأقل خمسين عاماً ولا تحتاج إلى حراثة أو ري ولا عزق أو تنظيف من العشب، وكل ما هناك أن الحياض تملأ ماء وتوضع الأقراص الكيميائية فيها مع سرعة النمو وزيادة المحصول، والتخلص من آفات الزراعة التي تنشأ من الأرض.

وعلى هذا المنوال يتسنى للزارع أن يربح نفقة صنع الحياض في عامين. ثم إن مسألة المناخ ورطوبة الهواء أو جفافه وخصب الأرض أو عدم خصبها كل هذه العوامل الهامة في زراعة الأرض يظهر أن لا تأثير لها في التجارب التي قام بها الدكتور «جاريك»، ومع أن طريقة الزراعة في الماء لا يمكن بها زرع نباتات في غير إقليمها فإنها تعجل نمو النباتات وتزيد محصولها في منطقتها الخاصة بها. فقد قام الدكتور «جاريك» ومساعدوه بتجارب اكتشافه في جو درجة حرارته ورطوبته مضارعة لدرجة حرارة ورطوبة جو صحراء الأريزونا والمكسيك الجديدة والجنوب الشرقي من كالفورنيا، فزرعوا الفجل واللفت والبنجر والخس والسبانخ والطماطم والباذنجان وغيرها من النباتات الغذائية، فتبين أنه في الإمكان زرع ٢٠٠٠٠ شجرة من شجيرات الطماطم في حياض مساحتها تعادل فداناً بمحصول يزيد على محصول عدد مثلها في الأرض من خمسة وعشرين في المائة إلى ستين في المائة.

ويرى الدكتور «جاريك» أن أهمية اكتشافه الحقيقية هي استخدام طريقة زراعة الحياض في المناطق القاحلة القفرة في جميع أنحاء العالم، إذ يمكن أن يزرع فيها الشيء الكثير من النباتات الغذائية.

ويقول الدكتور «جاريك»: إنه يعلم أن رمال الصحراء يمكن جعلها صالحة للزراعة إذا تسنى ريها بالماء العذب رياً وافياً، ولكن يوجد ملايين وألوف الملايين من الأفدنة التي لا يمكن أن تصل إليها المياه العذبة لريها وزرعها، على أن كمية ضئيلة من الماء تكفي لاستعمال طريقته وزرع النباتات الغذائية في صميم أجدب الصحاري وأقفرها، فأي نبع صغير أو بئر ارتوازية أو صهريج يجمع فيه ماء المطر ويكفي لتغطية قاع حوض طوله عشرون قدماً وعرضه عشرة أقدام يكفي مائة قدم مكعبة من الماء، وهذا الحوض يمكن أن يزرع ١٧٠ شجيرة من الطماطم، وإذ فرضنا أن نصف هذه الكمية تلزم لتعويض ما تمتصه الشجيرات في أثناء النمو وما يتبخر منه ويتسرب من منافذ الحوض كان مجموع كمية الماء اللازم لهذا الحوض طول موسم الزراعة ٣٠٠ جالون أو ثلاثمائة صفيحة من حجم صفايح البترول، مع أن هذه الكمية من الماء لا تكاد تكفي لري نصف هذه المساحة من الأرض موسماً واحداً، مع العلم أن مساحة الأرض معادلة لهذه المساحة إذا عهدت بالري الوافي لا تتسع لزرع أكثر من خمس ما يزرع في الحوض، وكل نباتة تزرع الأرض لا تنتج من المحصول إلا ستين في المائة مما تنتجه النباتة التي تزرع في الحوض. وينظر الدكتور «جاريك» إلى مستقبل اكتشافه لهذا فيرى أن كل نبع ضئيل أو بئر أو صهريج في الصحراء والأراضي القفرة القاحلة سيكون محوطاً بحياض فيها ماء رقراق يغطي قيعانها إلى ارتفاعها ثلاث بوصات أو أربع، وكل منها مزروع نباتاً ذا محصول غذائي، وما تنتجه

زراعة هذه الحياض كاف لمعيشة عدد كبير من السكان. ويرى سطوح المنازل المرتفعة بدلاً من أن تترك بلا نفع ولا فائدة حدائق غناء بالرياحين والأزهار أو بساتين تزرع فيها الفاكهة والخضراوات، ويرى كل صاحب منزل في المدينة يستعمل جزءاً من فناء داره أو حديقته لإنتاج ما يلزمه من الخضراوات والأزهار بربح وافر، وأنه يصبح في وسع أي إنسان مقيم في أقصى بقعة من بقاع الأرض القاحلة أن يزرع كل ما يلزمه ومن معه من الخضراوات والنباتات والأشجار المثمرة التي يلائمها الإقليم. والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ما تتطلبه خدمة الأرض. اهـ.

تذكرتان

الأولى: تذكرة في سورة «الأحزاب» في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ﴾[الآية: ٣٥].

والثانية: تذكرة في سورة «سبأ» في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ٢] الخ، وسر من أسرار الفحم المستخرج من الأرض.

التذكرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ﴾

وهي سر من أسرار الطب في الصيام المذكور في الآية فوق ما تقدم في سورة «البقرة» من المسائل الطبية والصحية في آية: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[الآية: ٦١]، وفي سورة «الأعراف» عند آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الآية: ٣١]، وفي سورة «الحجر» عند التلميح إلى قصة آدم، وفي سورة «طه» عند قصة آدم أيضاً، وفي سورة «الشعراء» عند آية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الآية: ٨٠]. ففهم هذه المواضيع من التفسير أهم ما في علم حفظ الصحة من التجافي عن الأدوية المشهورة والاكتفاء بالمداواة الطبيعية.

وكذلك مر في سورة «القصص» عند قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الآية: ٧٣] الخ؛ بيان كيف يكون الهواء الطلق وضوء الشمس حبوراً وسعادة وصحة، وهكذا في أول سورة «العنكبوت» عند ذكر الجهاد كيف كان الصوم أصبح نافعاً في العلاج بإيضاح تام، أما هنا فإني أقول: جاء في سورة «الأحزاب» في هذا المجلد أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير بنص الآية، وأن ضوء الشمس هو الذي يفتك بالحيوانات الذرية المهلكة الحادثة من العفونات المسلطات على أهل الأرض، فهكذا آي القرآن التي هي أشعة من نور الله أشرقت على أهل الأرض يجب أن يرجع إليها المسلمون اليوم مع أمثال هذا التفسير، لتزول من بلاد الإسلام تلك الغفلة التي استحكمت بالآراء المنحرفة عن إدراك جمال هذا الوجود الذي حرمه المسلمون أجيالاً وأجيالاً.

ولا جرم أن ما ذكرته هناك في القرآن على هذا النحو يمثل له في الحياة المادية الدنيوية بما يفعله أهل أمريكا اليوم من التعرض للشمس والصوم، أي: ترك الطعام مع شرب الماء أمد أربعين يوماً فيزول من أبدانهم فقر الدم، فإذا كان الصيام الطبي ـ الذي له شبه ما بالصيام الشرعي وليس من كل الوجوه ـ قد اتحد مع ضوء الشمس والهواء النقي على إعادة الصحة وإزالة فقر الدم والمرض الناشئ عن المداومة بأكل اللحم في ذلك المرض، هكذا أمم الإسلام بإعراضها عن الخرافات والبدع وتمسكها بنفس كتاب الله الذي يحرضهم على معرفة ما في هذه الدنيا من الجمال والإبداع يرجع لها مجدها وشرفها القديم العظيم.

فهاك ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي «المصور» بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٩٣٠م تحت العنوان التالي، وهذا نصه:

فقر الدم ومعالجته بالصوم

جاء في بعض الصحف الأمريكية أنه طرأ تحول في الطب عند كثيرين من الأطباء، فإنهم بعد ما كانوا يصفون اللحم الدامي للمصابين بفقر الدم أصبحوا يصفون لهم الصوم الآن، وفي الولايات المتحدة مستوصفات ومستشفيات يعالج فيها من يصف لهم الأطباء الصوم. ومن أوصافها وقوعها في مكان طلق الهواء نقيه، تعرض غرفها وسطوحها للشمس وإحاطتها بحدائق تعطر الهواء بأريجها الطيب، ولا يتغذى في المستشفى إلا بالماء، ومع ذلك لا يكون ما يطلب منه في مقابل إقامته في المستشفى مبلغاً يستهان به، وتتفاوت مدة المعالجة بين ٤٠ يوماً و٥٠، يكون المستشفى في خلالها تحت مراقبة الطبيب، أما نتيجة هذا الصوم فتكون جلاء بصر من يشكو ضعف البصر وزوال ما يسببه من فقر الدم وشفاؤه من مرض البول السكري واندمال قروح معدته وعودة القوة إلى الذين هجرتهم من جراء الإفراط في العمل، ويكفي الإنسان مدة ثلاثة أيام ليتعود الصوم ويتخلص الجسم من السموم العابثة به بعد ستة أسابيع أو سبعة، ويقول العارفون: إنه إذا لاحظ الإنسان الحيوانات وجد أنها حين تكون مريضة تمتنع عن تناول الطعام، وعند الإنسان نفسه يكون فقدان الشهية للطعام دليلاً على اضطراب صحته، وعلى كل حال ينبغي للمرء ألا يعمد إلى الصوم بدون أن يستشير الطبيب. انتهى. هذا ما جاء في مجلة «المصور»، وبه تم الكلام على التذكرة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

التذكرة الثانية

خواطر في صلاة العصر في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

كتب يوم ٩ رمضان سنة ١٣٤٨هـ

لقد علمت فيها ذكرناه مشروحاً ومرسوماً موضحاً أن أكثر الألوان التي تصبغ ثياب الناس في الشرق والغرب اليوم إنما تكون من القطران، وذلك القطران من الفحم والفحم مما يخرج من الأرض. ومن عجب أن هذا الفحم مكث مئات الآلاف من السنين وهو يتلظى ويتقلب ويحترق في النار الحامية في جوف الأرض، فهناك حرارة عظيمة جعلت الخشب فحماً، فلما أن أخرجه الناس اليوم كشفوا أمره فوجدوا فيه مئات الألوان فصبغوا بها الثياب فأكب عليها الناس في الشرق والغرب، وكان هذا التهالك سبباً في هلاكهم في الدنيا وعذابهم، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

ولذلك تجد جميع الأمم التي استعمرها الفرنجة منكبين على الزخارف والزينة التي تبهرهم ببريقها ولمعانها فتزول ثروتهم وتضيع بلادهم. مثال ذلك بلادنا المصرية أيام المغفور له إسماعيل باشا، فإنه استدان واستدانت البلاد فكثر دين الأمة وكثر دين الحكومة. فقد ضلت الأمة ودخل الإنجليز البلاد بحجة المحافظة على الدين، وهل هذا كله إلا بتلك الثياب التي صبغت بالقطران المستخرج في تلك الدول العظيمة من الفحم الحجري؟ أوليس هذا هو ما تشير له قصة المسيخ الدجال إذ يأتي بجنة ونار؟ وقد أمرنا أن نترك جنته وندخل ناره فتكون جنته ناراً وناره جنة. فهذه الأمم المتأخرة الإسلامية لما بهرها بهرج الفرنجة استحلته فوقعت في الذل وساءت الحال، ومتى ذلت الأمة ذهبت منها الأمانة والشرف

والشجاعة والعفة فصاروا عبيد الفاتحين وصعيداً جرزاً تذروه الرياح فإذا ماتوا كانت أرواحهم ناقصة وهل للناقص إلا جهنم لأن جهنم للناقصين، والمسلم الناقص يكون في جهنم يتم مدة عذابه، أليس هذا هو سر قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[إبراهيم: ٥٠].

أوَليس هذا هو سر القرآن ظهر الآن؟ وإن كنت في شك مما قررته لك الآن وقلت هذا القول غامض بعيد عن الصدق. أقول: أفلا أذكرك بما نقلته لك في آخر سورة «آل عمران» عن الزعيم الهندي «غاندي» عن مجلة الجامعة الهندية، إذ يقول فيها في الفقرة الثانية ما نصه: إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا، ألا وهو العار على كثير من العائلات. اهـ.

فهاهو ذا الزعيم «غاندي» من المعاصرين لنا يقول: إن المنسوجات الأجنبية تجلب العبودية وما تبعها، وبعبارة أخرى: أنها تكون مثاراً لأنواع الذل والشقاء ويتبع ذلك الخسة، وهذه تجمع أنواع المعاصي، أفليس هذا من أسرار القرآن؟ إذ ذكر أن سرابيل أهل النار من قطران؟ وهاهي ذه السرابيل ملونات بألوان من القطران الفحمي فتهافت الناس عليها كما يتهافتون على جنة المسيخ الدجال، وهذا التهافت أورث ضياع البلاد والإسراف والله لا يحب المسرفين، فتهلك الأمم وتضيع البلاد، فهذه النفوس الناقصة تعذب عذابين: عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، لأن ذلك هو استعدادها، وذلك كله سر آية: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[إبراهيم: ٥٠]، وهو مستخرج من الفحم الحجري، وهذا الفحم مما يخرج من الأرض في قوله هنا: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢] الخ. تم الكلام على التذكرة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أيها المسلمون، انظروا معي نظرة عامة إلى هذه السورة، هي مبتدأة بنعم الله الجزيلة وبأنه مستحق للحمد عليها وبأنها من السماء ومن الأرض والجة خارجة نازلة صاعدة، وهي مع ذلك لا تعزب عن علمه، وأن هذه الحياة لا تقف عند حد الموت فهي ممتدة لتكون أواخرها نتائج أوائلها ونهاياتها مبنية على بداياتها، وأن علم العلماء في جميع القرون وكشف الكاشفين للمعلومات في الأرض يبين لهم أن هذا القرآن حق وهاد إلى صراط العزيز الحميد.

هذا مبدأ السورة، ثم إنه أخذ يبين لنا حال أمتين شرقيتين: أمة اليهود وأمة العرب، فهما أمتان متجاورتان. فأما أمة اليهود فإنها ازدهرت بالعلوم والعرفان والعمران أيام داود وسليمان عليهما السلام، وكان ذلك الازدهار والعز موجبين لشكر الله على من أعطوا هذه النعم، فأما أمة العرب وسبأ فإنهم بطروا النعمة وكفروها فلم يشكروها فحاق بهم العذاب وساعدوا إبليس على تلبيسه عليهم وإضلاله فكفروا فحق عليهم الوعيد. لذلك أرسل الله النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الناس من عرب ويهود وعجم، فانتشر دينه في أقطار المعمورة وازدهر العمران.

ثم أخذ يقص علينا نبأ النوع الإنساني من حيث التقليد واستقلال الرأي وأن المقلدين الخاملين لا ينفعهم عند الله الاحتجاج بأنهم غرهم الرؤساء، فكل عن عمله مسؤول، وأن الرؤساء الضالين

أشبه بالذباب يطوف على الوجوه والعيون فيبيض في القذرة منها فيخرج فيها بيضه دوداً فيحصل الرمد للعين. فالعيب على من أصابه الرمد لأنه مستعد لوقوع الذباب على عينه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[الزخرف: ٣٩]، وقوله هنا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢] رداً على قولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[سبأ: ٣١]، كما تقول العين الرمداء للذبابة: لولا أنت لكنت سليمة من المرض، فتقول الذبابة: إن استعدادك لوقوعي عليك أغراني بذلك فأصبت بالرمد بسبب بيضي الذي وضعته فيك، فأنا وقعت عليك لأضع البيض فيك وهذا طبعي الموافق لطبعك، فنحن معاً نشترك في خلق واحد، بيننا جامعة تجمعنا، فأنت مرتعي الخصيب، وأنا الراتعة فيه، فأي فرق أيتها العين بيننا وبين الأنعام، ترعى في الرياض النضرة والحقول الخضرة ذات الأزهار البهجة، ألست أنت روضتي وجنتي ونعيمي لأن القذارة محبوبة لي وأنا بها قريرة العين سعيدة.

فهذه المحاورات بين الذبابة وعين الأرمد أشبه بالمحاورة بين الرؤساء والمرؤوسين، إذ يقلد الآخر الأولين كما اتفق في أمم الإسلام المتأخرة إذ استسلم المجموع الإسلامي لبعض من قلّ علمهم وضعف يقينهم فاستنزلوهم بعد عز من مراتبهم حتى عموا عن آيات القرآن كالذي جاء في هذه السورة، وغاية أحدهم أنه ربما يقرأ في أمثال هذا التفسير فيفرح بمعجزاته صلى الله عليه وسلم التي ظهرت في هذا الزمان كآثار سد العرم المرسومة فيما تقدم، وأن ذلك يوجب تصديق أهل العلم، فإن من يقرأ هذا ويعلم أن المؤرخين كانوا يشكون فيه فظهر لهم الحق بكشف أولي العلم فإنه لا محالة يصدق بالقرآن وبمن أنزل عليه، ولكن أيها المسلمون ليس التصديق بأن القرآن حق هو كل ما يطلب منا، فهذه مرتبة الرجس المبخوس المنزلة الضئيل المعرفة، فبلاغة القرآن ومعجزات العلم كل منهما يرشد قوماً إلى صدق القرآن، ولكن التصديق بالقرآن بعد هذا الجد يشاركنا فيه العامي والصبي، فهما مؤمنان والإيمان شيء والتشمير لمقتضى الإيمان شيء آخر، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إن من لم يكن له حظ من القرآن إلا لفظه وتفسيره واعتقاده بالقلب فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة، فإن إدراك اللفظ بسلامة حاسة السمع، وفهم المعنى يكون بمعرفة اللغة العربية التي يشارك العارف بها الأديب اللغوي بل النبي البدوي، وأما التصديق بأن كلام الله حق فهذه مرتبة يشاركنا فيها العامي الجاهل بل الصبي. قال: وهذه درجات كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم. اهـ.

إذن فلتعرني أذنك أيها الذكي ولتجلس معي دقائق أحدثك فيها حديثي عن أمم الإسلام التي أعيش معها مدة ما ثم أترك الأرض ومن عليها وأتوجه إلى لقاء ربي. فأقول:

يا رب أنت أرسلت نبيك محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة وقلت لنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وأسكنتنا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لنا في آثارهم كيف فعلت بهم وضربت لنا الأمثال، ومن الأمم المذكورة أهل سبأ وقد ملكنا أرضهم. فماذا فعل المسلمون لما ملكوا؟ هاهم أولاء تركوا مواهبهم العقلية والجسمية، وتركوا نعمك التي أنعمت بها عليهم، ولم يبالوا بنعم المطر النازلة عليهم من السماء. فماؤه يجري بلا سد يصده ولا عرم يحفظه فعطلوا نعمك.

نعم إن جمهورهم اليوم لا يعلمون إلا ما ورثوه عن آبائهم من العلم، وهذا تقليد والتقليد مذموم. وهاهم أولاء يا الله يقرؤون في سورة «سبأ» في التي أنزلتها باسم بلادهم التي أهمها مدينة مأرب التي تقدم رسمها والتي تسمى باسم سبأ أيضاً. وقد قلت فيها لا في صنعاء كما يقول الجمهور من المفسرين: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[سبأ: ١٥]، وقرؤوا أن هؤلاء الوثنيين لما أعرضوا عن حفظ السد وترميمه أنزلت عليهم عقابك في الدنيا ففرقتهم، فهم لم يشكروا النعمة ولم يحفظوها كما حفظها داود وسليمان عليهما السلام. فهم قوم غير شاكرين. والذي لا يشكر النعمة بحفظها تزول عنه. ثم أقول: يا الله، قرأ المسلمون هذا في القرآن ولكنهم وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ، ولم يفطن أكثرهم لما نزل من هذه الحكم، وهي أن يعمروا أرضك ليكونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] كما كان سلفهم الصالح أيام الصحابة والتابعين، لا أن يعكفوا على جمع المال وادخاره وعلى الملك، والاكتفاء بالمجد الكاذب الذي هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الأمم المحيطة بنا تتغلب على أطراف البلدان الإسلامية لجهل أهلها وقلة تبصرهم وعدم تعقلهم أمثال هذه الحكم في القصص القرآنية، حتى إنك ألهمت محمد بن تومرت في بلاد المغرب فظهر لهم بهيئة المهدي الذي يتبعون قوله أمداً ما، ثم دالت دولتهم بعد مائة سنة، وكانت هذه سنة تلك الأمم إذ اقتعدوا غارب التقليد الأعمى بمن سيطروا عليهم من الرؤساء الذين سخرهم الله لهم لما عميت البصائر عن القرآن الهادي إلى طرق الحقائق، وأخذوا يتخبطون في ديجور الظلام الحالك حتى جاء زماننا، فوجدنا بلادك التي سلمتها لنا خاوية على عروشها، فهاهي ذه بلاد شمال أفريقيا في القرون المتأخرة نضب معين الحضارة منها فأرسلت لها أمم أوروبا أمة بعد أمة. وهاهي ذه بلاد العرب التي كانت منبع حضارة الأمم شرقاً وغرباً قد حل بها البوار ولحقها النكال. وهاهي ذه بلاد اليمن وحضرموت وما والاها من البلدان لم نجد فيها ملكاً اليوم يعادل ولا يقارب ملك السبئيين الوثنيين الذين عيرتهم بأنهم أعرضوا عن نعمك، وضربت لهم مثلاً بإهمال سد العرم الذي هو واحد من مئات السداد في تلك البلاد، فلم يفطن عالم من علمائهم إلى هذه العبر وقد أحاطت بهم النذر من كل جانب، وهاهي ذه أوروبا واقفة لهم بالمرصاد، أنت يا الله خاطبت المسلمين بكلامك القديم اليوم منذراً ومحذراً. فكلامك القديم لا يتسنى لنا أن نعرفه إلا بأحد طريقين: إما بألفاظ ترد على لسان نبي كالذي جاء في هذه السورة، وإما بفعلك أنت لأن المعاني تظهر بالقول تارة وبالفعل أخرى، فأما القول ففي القرآن، وأما الفعل فهو ما ظهر اليوم في العالم قاطبة. فكم يا الله من نعم ببلاد العراق ونجد والحجاز واليمن وحضرموت مخبوءة فيها. وكم من سحائب ماطرات مطراً يحيي الأرض بعد موتها، ثم ترك ذلك كله وشأنه فلم يحفظ في زمن الإسلام بالاستخراج وبالأسداد كما حفظ أيام الجاهلية فانتفع الناس به. هذه حال المسلمين اليوم يا الله. وهاهو ذا التفسير قد كتبته وهم يقرؤونه وهو آخر إنذار للمسلمين، فإن فكروا فهموا وانتفعوا، وإن أغمضوا أعينهم عن الحق أهلكتهم الأمم.

أيها المسلمون: هاأنا ذا أنذرتكم وحذرتكم. ويا أبناء العرب إخواني وأصدقائي فكروا في قصص هذه السورة، فكروا في قول ربكم: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾[سبأ: ١٦]، ولما أعرضوا أرسل عليهم سد العرم. أليس هذا إصلاحاً دنيوياً؟ ألم يكن خراب سبأ أو مدينة مأرب من نتائج الجهل الذي وقعنا فيه

الآن. أنتم يا أبناء العرب إخواني قد أزيل الغطاء عن أعينكم فأخذتم تفكرون، وهذا كتابي بين يديكم وأنا أعلم أنكم تقرؤونه، ومستحيل أن يمر هذا القول بلا نتائج، بل أقول فوق ذلك: إنكم سترجعون المجد القديم الذي يجعلكم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] كما كان آباؤكم الأولون، وإنما خصصت الخطاب لكم الآن لأن مدينة مأرب وهي سبأ لا تزال في حوزتكم. فالفرصة سانحة لكم جميعاً في العراق والحجاز ونجد وغيرها من البلدان. أنا أذكركم بقول الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الآية: ٢]، فالقرآن إنذار لقوم وتذكير لآخرين. وجاء في نفس السورة: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الآية: ٩٧-٩٨] إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الآية: ١٠٠].

فما من أمة من أمم الإسلام إلا حلت محل أمم بائدة. وأهل اليمن حلوا محل أهل سبأ وأولئك أهملوا الماء فلم يحفظوا السدود وكفروا. وهؤلاء المسلمون أذنبوا وأعرضوا عن حفظ هذه النعم، أفلا يحق لي وأنا أكتب هذا أن أخاف عليهم. فأنا أنذرهم وأقول لهم: إن الذنوب على قسمين: ذنوب ترجع إلى إهمال النظام في الدولة، وهذه جزاؤها الهلاك في الدنيا أو الذل. وذنوب جزاؤها في الآخرة غالباً، وهي الأمور الاعتقادية. وبيانه أن أكثر الأمم التي هلكت قراهم في القرآن كانوا غير منتظمين في أمور الحياة. ونسمع الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧]، فإذا أصلحوا نظام بلادهم وهم كافرون فلا هلاك يلحقهم، فالكافرون المعمرون لبلاد الله العادلون يكون عذابهم في الآخرة غالباً. انظر إلى أمة الصين وأمة اليابان. فهؤلاء ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما كانوا غير مفكرين في أمر نظام مدنهم العام، فلما أن عرفوا ذلك ونظموا البلاد خرجت أوروبا من بلادهم هاربة.

فيا أبناء العرب، ويا أهل اليمن، هذا كتاب الله وهذا فعله. يعذب الأمم في الدنيا بجهلها وإهمالها كما جهلت وأهملت سبأ، وأنتم ورثتم الأرض من بعدهم، فوعيد الله لكم ظاهر واضح. ولا سبيل لكم من النجاة إلا بصرف آخر درهم من أموالكم في تعليم الشبان تعليماً عالياً، وهم هم الذين يقومون بنظام البلاد. والله لقد أنذرت وحذرت وأنت يا الله تشهد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٧٩]. فهل لكم أن تسمعوا ما جاء في كتاب «التجارة الاقتصادية والجغرافية البشرية»، فقد جاء فيه ما يأتي:

الإنسان ونهضة الاستعمار

هذه نقط الموضوع

(١) معنى الاستعمار. (٢) أقسام العالم الطبيعية طبقاً لنظرية هربرتسن ممثلة بخريطة. (٣) الهجرة. (٤) موقف المستعمرين. الأمم المستعمرة وميزانها. (٥) أنواع المستعمرات. (٦) ما يجب على المستعمر معرفته. (٧) أوروبا بعد الحرب الكبرى.

يدل معنى لفظ الاستعمار على عمران الأقطار وسكنى البوادي بعد إصلاحها واستيطان القفار بعد استنباتها واستثمارها، فيتبدل وحشها أنساً ويستحيل جدبها خصباً، فينعم أهلها ببسطة في

الزرق ووافر من الخيرات والثمرات، ثم يرقى المجموع الإنساني تباعاً باستكماله أسباب الراحة المعيشية وهي كل مراميه في حياته الدنيوية.

قام الإنسان في عصور الكشف الجغرافي بنهضة جلى كان غرضه منها تعرف جهات العالم جميعاً، فزجّ نفسه في المحيطات واخترق ظلمات القارات واستهدف للخطر وركب الغرر فهلك من هلك ولكن نال بغيته، وأصبحت الأرض جميعاً قبضته، فانقسمت إلى أقسام سياسية ترجع إلى مختلف المجهودات، وما احتدم من قتال وما شجر من خلاف، ثم تريث وأمعن فانكشف العالم أمامه أقساماً طبيعية لا تحول ولا تحور.

عمد إلى كل جهة جديدة وأقبل عليها بخيله ورجله يحدث فيها من الحرف والأعمال بما دلته عليه تجاربه في الجهات القديمة المماثلة لها والتي أقام عمرانها من قبل، فأنبت القمح في أمريكا في الجهات الصالحة لزرعه، وفي الأرجنتين وأستراليا وزيلندة، وأوجد القطن بالنيجر والسكر بالبرازيل وناتال وأستراليا والبن والكاكاو والتبغ والفاكهة أشكالاً وألواناً. غرس كلاً في المنبت الملائم له. ثم إستثمر الغابات والأحراج الجديدة على نمط القديمة، وسبر غور الأراضي وانتزع من معادنها، وغاص أعماق البحار وانتفع من لآلئها، فعمت هذه الخيرات العالم وأثرى المستعمر وأترف، فنزعت النفوس إلى العوالم الجديدة الفائضة لبناً وعسلاً، وخفت إليها الرحال واتجهت إليها الآمال، فأنعم بالاستعمار. هاجر الناس من مواطنهم على حبها وشدة تعلقهم بها، فانتجعوا هذه الأقاصي طمعاً في المال أو فراراً من شدة التزاحم ووطيس النضال، وأقبلوا يزفون على مزارع عذراء ومناجم لم تطمث وأرض لم توطأ، فصالوا وجالوا وطبق صيتهم الخافقين وأصبحوا قدوة لبني جلدتهم، فأهتروا جميعاً بحب الهجرة وأشربوها في نفوسهم، وجرت منهم مجرى الدم، حتى ليهذي بها الصغير في غضاضة الإهاب ويصبو إليها العضل القوي في زمن الشباب، ويحن إليها شيخهم إذا هرم وشاب.

إلى أن قال: فإذا لم يكن في الاستعمار غير تثمير أجزاء الأرض قاصيها ودانيها والأخذ بيد الشعوب المتأخرة للنهوض بها إلى مستوى الحضارة لكفى، لأن كثيراً من المستعمرات قد بلغ من الثروة الطبيعية أقصاها، ولكن أهله الوطنيين للأسف غير قادرين عليه وعلى الانتفاع به لتأخر حالهم العلمية والكثير منهم همج وحشيون يعيشون على الفطرة، فموقف المستعمرين في ذلك حرج.

فلا هم بمنصفين إذا تركوا هذه الكنوز الثمينة طلاسم في يد من لا يعرف أن يرعاها، ولا هم بمنصفين إذا تدخلوا، فلا يسلمون من الثلب والقدح ورميهم بالطمع والجشع والتصدي لغير شأنهم والتدخل فيما لا يعنيهم. وإذن فليتدخل المستعمرون لا للامتلاك بل لغرض الإصلاح وإرشاد الوطنيين حتى يبلغوا بهم من المستوى العلمي والأدبي ما يؤهلهم إلى الانتفاع بمالهم وبلادهم، فإذا تم ذلك كان الاستعمار نعمة، والمستعمرون ملائكة الرحمة، ولكن الإنسان وما فطر عليه من حب الذات والسعي لها كثيراً ما يحيد عن المبادئ القومية العالية، ويغفو عن واجبات الإنسانية السامية، فتشوهت صبغة الاستعمار وخرج عن معناه إلى معنى الاستعباد والإذلال.

امتازت الأمم المستعمرة أولاً: بشدة البأس والسطوة والجبروت. فهي تعد الجيوش وتبني الأساطيل لتحمي ذمارها وتحفظ حقوقها، ولتضرب بها العصاة الوطنيين إذا جنحوا إلى العداء

ورفضوا منهج الاستعمار الذي وضعته. وامتازت ثانياً: بكثرة المال تنفقه فيما تشاء وعلى من تشاء، فتفتح به المناجم والمصانع، ويزهو به الزرع، وتشق القنوات. وتذلل الطرق. بل تذلل كل صعب. وامتازت ثالثاً: بأنها الأمم العالمة المخترعة المتفننة في أساليب الرقي والحضارة. فمنها المهندسون والزراع والصناع والكيميائيون والأطباء ولفيف العالم الراقي جميعاً. فأي قطر يحتله هذا النوع من الإنسان وما وهب من المزايا ثم لا يرقى إلى معارج الفلاح والنجاح أو لا يفيض على المستعمر والمستعمرة أرضه بالخيرات والبركات.

والمستعمرات قسمان: نزلية واستغلالية. فأما الأولى فينزل فيها الأجنبي لغرض الاستيطان إذا كان جوها مما يلائم مزاجه وطبيعته، لوجه الشبه بينه وبين بلاده الأصلية، فيتسنى له إذا استوطنها أن يقوم بالعمل الجسماني فيها ويرتزق من هذا الطريق إن شاء. ويقع عادة مثل هذه المستعمرات في الأصقاع المعتدلة، فمنها كندا وأستراليا وزيلاندا وأمثالها. وأما الثانية فهي التي يفد عليها الأوروبيون لا للاستيطان بل لغرض الاستغلال والاستفادة من طيب أرضها وصيب خيرها، حتى إذا جمع ما يكفيه قفل إلى وطنه الأول وعاش فيه بقية حياته منعماً بما كسبت يداه، فهو لا يستطيع القيام بالعمل الجسماني في ذلك الوطن الثاني لعدم صلاح جوه له، ولذا يضطر إلى استخدام أهله الوطنيين في ضروب الاستغلال والاستثمار على أجر معلوم، بينما تكون له الزعامة العليا بفضل ما امتاز به من العدة والمال والعلم. انتهى ما أردته من كتاب «الجغرافيا التجارية الاقتصادية»، والحمد لله رب العالمين.

أيها المسلمون: أليس هذا فعل ربكم سبحانه وتعالى؟ جاء نبينا صلى الله عليه وسلم فقام معه العرب ونشروا العلم والأمن في الأرض، ثم خمد المسلمون إلا قليلاً وناموا فلم يتركهم بلا منذرين. فهاهو ذا القرآن يدرسونه. ولما غفلوا وقلدوا أثار الله أهل أوروبا وحركهم لاستخراج ثمرات أرضه التي جهلها المسلمون، فأحاطوا بكم من كل جانب. إنهم من مخلوقات الله تعالى وهو الذي أوعز إليهم أن يجعلوا المستعمرات قسمين: نزلية واستغلالية، ولا جرم أن بلادكم أيها المسلمون بلاد استغلالية، فهم ينزلونها للاستغلال لا للاستيطان. فدونكم كلام الله ودونكم فعله. فإن لم تفهموا القول أفلا تعقلون الفعل؟ فإياكم أيها المسلمون أن تذروا النعم في بلادكم لئلا يستعمرها قوم غيركم. وإياكم يا أهل اليمن أن تتركوا الغابات والأشجار كأشجار الخروع الكثيرة في بلادكم فلا تنتفعوا بها. وكذلك الكنوز والآثار المطمورة، فقد حذرت وأنذرت وبينت، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

كتب في صباح يوم الاثنين الموافق ٢١ إبريل سنة ١٩٣٠م، وبهذا تم الكلام على سورة «سبأ» والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء السادس عشر من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء السابع عشر

وأوله تفسير سورة «فاطر»

فهرس الجزء السادس عشر
من تفسير كتاب « الجواهر »

سورة الأحزاب وهي ثلاثة أقسام ٣
تلخيص ما تقدم ١٣
كتاب الرحمة، وفيه ثلاثة فصول ١٦
الفصل الأول: في الحث عليها ١٦
الفصل الثاني: في ذكر رحمة الله تعالى ١٧
الفصل الثالث: فيما جاء من رحمة الحيوان ١٧
القسم الثاني: في مقدمة السورة، وفي مناسبتها لما قبلها، وفي غزوة الأحزاب ١٩
أمة الإسلام اليوم ٢٨
القسم الثالث: في أحكام أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٢٩
الفصل الأول: في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه بالزهد في الدنيا ٣٢
حكم الآية ٣٣
الفصل الثاني: في الصفات التي يجب على الرجال والنساء أن يكونوا عليها من المسلمين ٣٣
الفصل الثالث: في فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته ٣٥
الفصل الرابع: في المطلّقة قبل الدخول ٤٠
حكم من تهب نفسها ٤١
الفصل الخامس: في وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ٤٣
اللطيفة الأولى: في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ٤٧
أقسام الوضاعين ٦٠
اعتراف الكذابين ٦٢
الكلام على تعدد الزوجات بين المسلمين ٦٢
الإسلام وتعدد الزوجات ٦٦
اللطيفة الثانية: في قوله: (وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا) ٦٨
معاملة الزنوج في لندن ٧٧
موسى بن ميمون، رسالة الحاخام الأكبر ٧٨
علم التفسير وعلم الفقه ٧٩
علومه الدينية وفلسفته ٨٠

اعترافات جاسوس ٨٠

جوهرة في قوله تعالى : (وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) ٨١

انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية ٨١

أسباب انتشار الإسلام الإلهية ٨١

اللطيفة الثالثة : في قوله : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) وفيها أربعة فصول ٨٨

الفصل الأول : في الذكر الكثير ٨٨

الفصل الثاني : في التسبيح ٩٠

فريق العبّاد ٩١

فريق المسبحون ٩٢

الفصل الثالث : في صلاة الله وملائكته على المؤمنين ٩٤

الفصل الرابع : في التحية والسلام ٩٤

اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ٩٥

الكلام على آثار النبوة وهي المشبهة بالشمس ٩٩

زيادة إيضاح في أسرار قوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ١٠٣

آثار النبوة وانتشارها في أوروبا ١٠٧

المسلم الفرنسي والمصور الشهير ١٠٨

المعجزات ١١٠

التسامح والرفق في الدين ١١١

العلم ١١١

الخمر ١١٢

الوسيلة ١١٢

الإله ١١٣

علو الهمة ١١٤

المساواة ١١٤

مسايرة الطبيعة ١١٤

بساطة الصلاة والنظافة ١١٦

الأذان ١١٦

المؤتمر الديني الأول لخدمة السلام في العالم ١١٦

حالة العميان في مصر ١١٨

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا) ١٢٠

اللطيفة السادسة : في ملخص السورة كلها وفيما قبلها وما بعدها ١٢٠

اللطيفة السابعة : في السورة كلها وفيما قبلها وبعدها ١٢١

سورة سبأ، وهذه السورة قسمان ١٢٢
القسم الأول: في تفسير البسملة ١٢٢
القسم الثاني: في تفسير السورة كلها ١٢٣
مقدمة ١٢٤
تفسير السورة في ثلاثة فصول ١٢٥
الفصل الأول: في تفسير الألفاظ بطريق الإيجاز ١٢٦
الكلام في محاجة الكافرين والمعاندين والمترفين والمرؤوسين ١٣٣
الفصل الثاني: في جعل السورة ستة مقاصد وتفسيرها تفسيراً عاماً ١٣٧
المقصد الأول: إثبات الوحدانية ١٣٧
المقصد الثاني: إثبات علم الله ١٣٧
المقصد الثالث: إثبات يوم البعث بما يشاهد من العجائب ١٣٧
المقصد الرابع: آراء العلماء في القرآن وآراء الجهلاء ١٣٨
المقصد الخامس: ذكر أمتين عظيمتين غنيتين ١٣٨
موازنة ملك سليمان بملك سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان ١٣٩
المقصد السادس: تعليم الناس الاستقلال في الرأي ونبذ الأوهام ١٤٠
الاغترار بالرؤساء ١٤٠
الضلال بالغنى ١٤١
جوهرة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ١٤١
جوهرة في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ ١٥٢
تفصيل الكلام على الأرض في مقامين ١٥٢
المقام الأول: وصف الأرض ١٥٢
في زوايا التاريخ: ليست الأرض كروية ١٥٣
المقام الثاني: فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم ١٥٦
التربة ١٥٦
الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة ١٥٧
التغيرات المترتبة على الزلازل العنيفة ١٥٧
نشأة البركان ١٥٧
الحمم البركانية ١٥٨
الثوران البركاني ١٥٨
الفحم ١٥٩
زيت البترول ١٦١
الينابيع المحجرة ١٦٤

الصخور الرسوبية الكيميائية ١٦٤
أنواع الصخور الرسوبية ١٦٤
الصخور الرسوبية المتحولة ١٦٥
الصخور غير الرسوبية والصخور النارية ١٦٥
الصخور ١٦٥
حركات القشرة الأرضية ١٦٦
السواحل الطالعة والسواحل النازلة ١٦٦
الجبال الحديثة والجبال القديمة ١٦٧
عامل الوجود وعامل الفناء وعملية التوازن ١٦٧
أسباب حركات القشرة الأرضية ١٦٧
نتائج حركات القشرة الأرضية ١٦٨
بنيان الجبال ١٦٨
كسر الصخور الصلبة ١٦٨
الأخاديد الغائرة ١٦٨
الهضبات المرفوعة ١٦٨
الجبال المختلفة ١٦٩
الزلازل ١٦٩
القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية ١٧٠
الكهرباء، الكهرمان ١٧١
الفصل الثالث: في معجزات القرآن التي أظهرها العلم الحديث، في مبحثين ١٧١
الأول: مبحث الجن وهل يعلمون الغيب، في مقامين ١٧٢
المقام الأول: في قوله تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ١٧٢
الكلام على الأرضة ١٧٢
الأرضة أو النمل الأعمى ١٧٢
تخريب الأرض ١٧٨
خطاب للمسلمين ١٨١
المقام الثاني: في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ ﴾ ١٨٢
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾ ١٨٣
يد خفية تكتب من وراء المجهول ١٨٤
قوة الإرادة تنتج أعمالاً خارقة ١٨٨
عملية جراحية بدون مخدر ١٨٩
طهرابك في لندن ١٨٩

الموت والحياة بالإرادة ١٩٠
المبحث الثاني : في سيل العرم وسبأ . وفيه ثلاثة مقاصد ١٩٠
المقصد الأول : في الكاشفين لآثار سبأ ١٩١
المقصد الثاني : في الكلام على مدينة مأرب ١٩٣
المقصد الثالث : في الكلام على سد العرم ١٩٥
الهمداني وسد مأرب ١٩٥
أصل وضع سد مأرب ١٩٦
رسمه وكيف ينصرف الماء منه ١٩٧
عجائب القرآن في العصر العشرين ٢٠٠
عبرة لمصر والمصريين ٢٠٠
الأسداد ٢٠٥
بيان خطر التقليد والاغترار به ٢٠٨
امتحان هذه السير والأحوال ٢١٥
جمال العلم وبهجة الحكمة في ذم التقليد ٢١٧
حديث الهند ٢١٨
الكلام على البراهمة ٢٢٢
بيان المضار الحاصلة في بلاد الهند في هذه الأيام ٢٢٦
ذكر نموذج من الكتب الإسلامية التي تدعو إلى ما يشبه ما فعله البراهمة في الهند ٢٢٨
أشعوذة أم علم؟ ٢٣٣
المهديون وبعض شيوخ الطرق ٢٣٥
حول ترياق سم الأفعى ولعاب القط ٢٣٧
الحياة الاجتماعية ، تبرم أوروبا من حروفها الكتابية ٢٣٨
ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا ٢٣٩
الحرية السياسية ٢٣٩
مظاهرة ضد الكولونيل لورنس في إنكلترا ٢٤٠
نبذ التقليد في الزراعة ٢٤٠
الزراعات في الماء : طريقة جديدة لإنمائها ٢٤٠
تذكرة في سورة «الأحزاب» في قوله تعالى : (وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ) ٢٤٣
فقر الدم ومعالجته بالصوم ٢٤٤
تذكرة في سورة « سبأ » في قوله تعالى : (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ) ٢٤٤
خاتمة السورة ٢٤٥
الإنسان ونهضة الاستعمار ٢٤٨